ص: 5

الجزء السادس عشر

(۲۸) (سورة القصص مكية، و هی ثمان و ثمانون آية) (۸۸)

[سورة القصص (۲۸): الآيات ۱ الی ۱۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

طسم (۱) تِلْکَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (۲) نَتْلُوا عَلَيْکَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۳) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (۴)

وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (۵) وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ (۶) وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْکِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (۷) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (۸) وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَکَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۹)

وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰) وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۱) وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ (۱۲) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۱۳) وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِکَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۴)

ص: 6

(بيان)

غرض السورة الوعد الجميل للمؤمنين و هم بمكة قبل الهجرة شرذمة قليلون يستضعفهم فراعنة قريش و طغاتها و اليوم يوم شدة و عسرة و فتنة بأن الله سيمن عليهم و يجعلهم أئمة و يجعلهم الوارثين و يمكن لهم و يرى طغاة قومهم منهم ما كانوا يحذرون يقص تعالى للمؤمنين من قصة موسى و فرعون أنه خلق موسى فی حين كان فرعون فی أوج قدرته يستضعف بنی إسرائيل يذبح أبناءهم و يستحيي نساءهم فرباه فی حجر عدو، حتى إذا استوى و بلغ أشده نجاه و أخرجه من بينهم إلى مدين ثم رده إليهم رسولا منه بسلطان مبين حتى إذا أغرق فرع ون و جنوده أجمعين و جعل بنی إسرائيل هم الوارثين و أنزل التوراة على موسى هدى و بصائر للمؤمنين.

و على هذا المجرى يجرى حال المؤمنين و فيه وعد لهم بالملک و العزة و السلطان و وعد للنبى ص برده إلى معاد.

و انتقل من القصة إلى بيان أن من الواجب فى حكمة الله أن ينزل كتابا من عنده للدعوة الحقة ثم ذكر طعنهم فى دعوة القرآن بقولهم: لو لا أوتى مثل ما أوتى موسى

ص: 7

و الجواب عنه، و تعللهم عن الإيمان بقولهم: إن نتبع الهدى معک نتخطف من أرضنا و الجواب عنه و فيه التمثل بقصة قارون و خسفه.

و السورة مكية كما يشهد بذلک سيا ق آياتها، و ما أوردناه من الآيات فصل من قصة موسى و فرعون من يوم ولد موسى إلى بلوغه أشده.

قوله تعالى: «طسم تِلْکَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ» تقدم الكلام فيه فى نظائره.

قوله تعالى: «نَتْلُوا عَلَيْکَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» «مِنْ» للتبعيض و «بِالْحَق» متعلق بقوله: «نَتْلُوا» أى نتلو تلاوة متلبسة بالحق فهو من عندنا و بوحى منا من غير أن يداخل فى إلقائه الشياطين، و يمكن أن يكون متعلقا بنبإ أى حال كون النبإ الذى نتلوه عليک متلبسا بالحق لا مرية فيه.

و قوله: «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» اللام فيه للتعليل و هو متعلق بقوله: «نَتْلُوا» أى نتلو عليک من نبإهما لأجل قوم يؤمنون بآياتنا.

و محصل المعنى : نتلو عليک بعض نبإ موسى و فرعون تلاوة بالحق لأجل أن يتدبر فيه هؤلاء الذين يؤمنون بآياتنا ممن اتبعوک و هم طائفة أذلاء مستضعفون فى أيدى فراعنة قريش و طغاة قومهم فيتحققوا أن الله الذى آمنوا به و برسوله و تحملوا كل أذى فى سبيله هو الله الذى أنشأ موسى (ع) لإحياء الحق و إنجاء بنى إسرائيل و إعزازهم بعد ذلتهم هاتيک الذلة يذبح أبناءهم و يستحيى نساءهم و قد علا فرعون و أنشب فيهم مخالب قهره و أحاط بهم بجوره.

أنشأه و الجو ذلک الجو المظلم الذى لا مطمع فيه فرباه فى حجر عدوه ثم أخرجه من مصر ثم أعاده إليهم بسلطان فأنجى به بنى إسرائيل و أفنى بيده فرعون و جنوده و جعلهم أحاديث و أحلاما.

فهو الله جل شأنه يقص على نبيه قصتهم و يرمز له و لهم بقوله : «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أنه سيفعل بهؤلاء مثل ما فعل بأولئک و يمن على هؤلاء المستضعفين و يجعلهم أئمة و يجعلهم الوارثين حذو ما صنع ببنى إسرائيل.

قوله تعالى: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِی الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ » إلخ، العلو فى الأرض كناية عن التجبر و الاستكبار، و الشيع جمع شيعة و هى

ص: 8

الفرقة، قال فی المجمع :، الشیع: الفرق و کل فرقة شیعة و سموا بذلک لأن بعضهم یتابع بعضا . انتهی. و کان المراد بجعل أهل الأرض- و کأنهم أهل مصر و اللام للعهد- فرقا إلقاء الاختلاف بینهم لئلا یتفق کلمتهم فیثوروا علیه و یقلبوا علیه الأمور علی ما هو من دأب الملوک فی بسط القدرة و تقویة السلطة، و استحیاء النساء إبقاء حیاتهن.

و محصل المعنی: أن فرعون علا فی الأرض و تفوق فیها ببسط السلطة علی الناس و إنفاذ القدرة فیهم و جعل أهلها شیعا و فرقا مختلفة لا تجتمع کلمتهم علی شیء و بذلک ضعف عامة قوتهم علی المقاومة دون قوته و الامتناع من نفوذ إرادته.

و هو یستضعف طائفة منهم و هم بنو إسرائیل و هم أولاد یعقوب (ع) و قد قطنوا بمصر منذ أحضر یوسف (ع) أباه و إخوته و أشخصهم هناک فسکنوها و تناسلوا بها حتی بلغوا الألوف.

و کان فرعون هذا و هو ملک مصر المعاصر لموسی (ع) یعاملهم معاملة الأسراء الأرقاء و یزید فی تضعیفهم حتی بلغ من استضعافه لهم أن أمر بتذبیح أبنائهم و استبقاء نسائهم و کان فیه إفناء رجالهم بقتل الأبناء الذکور و فیه فناء القوم.

و السبب فی ذلک أنه کان من المفسدین ف ی الأرض فإن الخلقة العامة التی أوجدت الإنسان لم یفرق فی بسط الوجود بین شعب و شعب من الشعوب الإنسانیة ثم جهز الکل بما یهدیهم إلی حیاة اجتماعیة بالتمتع من أمتعة الحیاة الأرضیة و لکل ما یعادل قیمته فی المجتمع و ما یساوی زنته فی التعاون.

هذا هو الإصلاح الذی یهتف به الصنع و الإیجاد، و التعدی عن ذلک بتحریر قوم و تعبید آخرین و تمتیع شعب بما لا یستحقونه و تحریم غیرهم ما یصلحون له هو الإفساد الذی یسوق الإنسانیة إلی البید و الهلاک.

و فی الآیة تصویر الظرف الذی ولد فیه موسی (ع) و قد أحدقت الأسباب المبیدة لبنی إسرائیل علی إفنائه.

قوله تعالی: «وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی اَلَّذِینَ اُسْتُضْعِفُوا فِی اَلْأَرْضِ إلی قوله- ما کانُوا یَحْذَرُونَ» الأصل فی معنی المن- علی ما یستفاد من کلام الراغب- الثقل و منه تسمیة ما یوزن به منا، و المنة النعمة الثقیلة و من علیه منا أی أثقله بالنعمة. قال: و یقال

ص: 9

ذلک علی وجهین أحدهما بالفعل کقوله: «وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی اَلَّذِینَ اُسْتُضْعِفُوا» أی نعطیهم من النعمة ما یثقلهم و الثانی بالقول کقوله: «یَمُنُّونَ عَلَیْکَ أَنْ أَسْلَمُوا» و هو مستقبح إلا عند کفران النعمة. انتهی ملخصا.

و تمکینهم فی الأرض إعطاؤهم فیها مکانا یملکونه و یستقرون فیه، و عن الخلیل أن المکان مفعل من الکون و لکثرته فی الکلام أجری مجری فعال. فقیل: تمکن و تمسکن نحو تمنزل انتهی.

و قوله: «وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَ » إلخ الأنسب أن يكون حالا من «طائِفَةً» و التقدير يستضعف طائفة منهم و نحن نريد أن نمن على الذين استضعفوا إلخ و قيل : معطوف على قوله : «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ » و الأول أظهر، و «نُرِيدُ» على أى حال لحكاية الحال الماضية.

و قوله: «وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً» عطف تفسير على قوله: «نَمُنَ» و كذا ما بعده من الجمل المتعاقبة.

و المعنى: أن الظرف كان ظرف علو فرعون، و تفريقه بين الناس و استضعافه لبنى إسرائيل استضعافا يبيدهم و يفنيهم و الحال أنا نريد أن ننعم على هؤلاء الذين استضعفوا من كل وجه نعمة تثقلهم و ذلک بأن نجعلهم أئمة يقتدى بهم فيكونوا متبوعين بعد ما كانوا تابعين، و نجعلهم الوارثين لها بعد ما كانت بيد غيرهم و نمكن لهم فى الأرض بأن نجعل لهم مكانا يستقرون فيه و يملكونه بعد ما لم يكن لهم من المكان إلا ما أراد غيرهم أن يبوئهم فيه و يقرهم عليه، و نرى فرعون و هو ملك مصر و هامان و هو وزيره و جنودهما م‍نهم أى من هؤلاء الذين استضعفوا ما كانوا يحذرون و هو أن يظهروا عليهم فيذهبوا بملكهم و مالهم و سنتهم كما قالوا فى موسى و أخيه لما أرسلا إليهم : «يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى » طه: ۶۳.

و الآية تصور ما فى باطن هذا الظرف الهائل الذى قضى على بنى إسرائيل أن لا يعيش منهم متنفس و لا يبقى منهم نافخ نار و قد أحاطت بهم قدرة فرعون الطاغية و ملأ أقطار وجودهم رعبه و هو يستضعفهم حتى يقضى عليهم بالبيد هذا ظاهر الأمر و فى باطنه الإرادة الإلهية تعلقت بأن تنجيهم منهم و تحول ثقل النعمة من آل فرعون

ص: 10

الأقوياء العالين إلى بنى إسرائيل الأذلاء المستضعفين و تبدل من الأسباب ما كان على بنى إسرائيل لهم و ما كان لآل فرعون عليهم و الله يحكم لا معقب لحكمه.

قوله تعالى: «وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِ » إلى آخر الآية، الإيحاء هو التكليم الخفى و يستعمل فى القرآن فى تكليمه تعالى بعض خلقه بنحو الإلهام و الإلقاء فى القلب كما فى قوله: «بِأَنَّ رَبَّکَ أَوْحى لَها»:

الزلزال: ۵ و قوله: «وَ أَوْحى رَبُّکَ إِلَى النَّحْلِ»: النحل: ۶۸ و قوله فى أم موسى:

«وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى» الآية أو بنحو آخر كما فى الأنبياء و الرسل، و فى غيره تعالى كما فى قوله : «إِنَّ الشَّياطِينَ لَيُوحُونَ إِلى أَوْلِيائِهِمْ»: الأنعام: ۱۲۱، و الإلقاء الطرح، و اليم البحر و النهر الكبير.

و قوله: «وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى» فى الكلام إيجاز بالحذف و التقدير و حبلت أم موسى به- و الحال هذه الحال من الشدة و الحدة- و وضعته و أوحينا إليها إلخ.

و المعنى: و قلنا بنوع من الإلهام لأم موسى لما وضعته : أرضعيه ما دمت لا تخافين عليه من قبل فرعون فإذا خفت عليه- أن يطلع عليه آل فرعون فيأخذوه و يقتلوه- فألقيه فى البحر و هو النيل على ما وردت به الرواية و لا تخافى عليه القتل و لا تحزنى لفقده و مفارقته إياک إنا رادوه إليک بعد ذلک و جاعلوه من المرسلين فيكون رسولا إلى آل فوعون و بنى إسرائيل.

فقوله: «إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْکِ» تعليل للنهى فى قوله: «وَ لا تَحْزَنِی» كما يشهد به أيضا قوله بعد: «فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ کَیْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ» و الفرق بين الخوف و الحزن بحسب المورد أن الخوف إنما يكون فى مكروه محتمل الوقوع و الحزن فى مكروه قطعى الوقوف.

قوله تعالى: «فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ » الالتقاط أصابه الشىء و أخذه من غير طلب، و منه اللقطة و اللام فى قوله : «لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً » للعاقبة- على ما قيل- و الحزن بفتحتين و الحزن بالضم فالسكون بمعنى واحد كالسقم و السقم، و المراد بالحزن سبب الحزن فإطلاق الحزن عليه مبالغة فى سببيته لحزنهم.

ص: 11

و الخاطئين اسم فاعل من خطئ يخطأ خطأ كعلم يعلم علما كما أن المخطئ اسم فاعل من أخطأ يخطئ إخطاء، و الفرق بين الخاطئ و المخطئ على ما ذكره الراغب أن الخاطئ يطلق على من أراد فعلا لا يحسنه ففعله قال تعالى : «إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْأً كَبِيراً»، و قال: «وَ إِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ»، و المخطئ يستعمل فيمن أراد فعلا يحسنه فوقع منه غيره و اسم مصدره الخطأ بفتحتين، قال تعالى: «وَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَأً»: النساء: ٩٢ و المعنى الجامع هو العدول عن الجهة. انتهى ملخصا.

فقوله: «إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ » أى فيما كانوا يفعلونه فى أبناء بنى إسرائيل و موسى تحذرا من انهدام ملكهم و ذهاب سلطانهم بيدهم إرادة لتغيير المقادير عن مجاريها فقتلوا الجم الغفير من الأبناء و لا شأن لهم فى ذلک و تركوا موسى حيث التقطوه و ربوه فى حجورهم و كان هو الذى بيده انقراض دولتهم و زوال ملكهم.

و المعنى: فأصابه آل فرعون و أخذوه من اليم و كان غاية ذلک أن يكون لهم عدوا و سبب حزن إن فرعون و هامان و جنودهما كانوا خاطئين فى قتل الأبناء و ترک موسى : أرادوا أن يقضوا على من سيقضى عليهم فعادوا يجتهدون فى حفظه و يجدون فى تربيته.

و بذلک يظهر أن تفسير بعضهم كونهم خاطئين بأنهم كانوا مذنبين فعاقبهم الله أن ربى عدوهم على أيديهم ليس بسديد.

قوله تعالى: «وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِی وَ لَکَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ » شفاعة من امرأة فرعون و قد كانت عنده حينما جاءوا إليه بموسى- و هو طفل ملتقط من اليم- تخاطب فرعون بقوله: «قُرَّتُ عَيْنٍ لِی وَ لَکَ» أى هو قرة عين لنا «لا تَقْتُلُوهُ» و إنما خاطب بالجمع لأن شركاء القتل كانوا كثيرين من سبب و مباشر و آمر و مأمور.

و إنما قالت ما قالت لأن الله سبحانه ألقى محبة منه فى قلبها فعادت لا تملک نفسها دون أن تدفع عنه القتل و تضمه إليها، قال تعالى فيما يمن به على موسى (ع):

«وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْکَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي»: طه: ٣٩.

ص: 12

و قوله: «عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» قالته لما رأت فى وجهه من آثار الجلال و سيماء الجذبة الإلهية، و فى قولها : «أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً» دلالة على أنهما كانا فاقدين للابن.

و قوله: «وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» جملة حالية أى قالت ما قالت و شفعت له و صرفت عنه القتل و القوم لا يشعرون ما ذا يفعلون و ما هى حقيقة الحال و ما عاقبته؟

قوله تعالى: «وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » الإبداء بالشىء إظهاره، و الربط على الشىء شدة و هو كناية عن التثبيت.

و المراد بفراغ فؤاد أم موسى فراغه و خلوة من الخوف و الحزن و كان لازم ذلک أن لا يتوارد عليه خواطر مشوشة و أوهام متضاربة يضطرب بها القلب فيأخذها الجزع فتبدى ما كان عليها أن تخفيه من أمر ولدها.

و ذلک أن ظاهر السياق أن سبب عدم إبدائها له فراغ قلبها و سبب فر اغ قلبها الربط على قلبها و سبب الربط هو قوله تعالى لها فيما أوحى إليها: «لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْکِ» إلخ.

و قوله: «إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْ لا » إلخ، «إِنْ» مخففة من الثقيلة أى إنها قربت من أن تظهر الأمر و تفشى السر لو لا أن ثبتنا قلبها بالربط عليه، و قوله:

«لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» أى الواثقين بالله فى حفظه فتصبر و لا تجزع عليه فلا يبدو أمره.

و المجموع أعنى قوله: «إِنْ كادَتْ لَتُبْدِي بِهِ» إلى آخر الآية فى مقام البيان لقوله:

«وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً» و محصل معنى الآية و صار قلب أم موسى بسبب وحينا خاليا من الخوف و الحزن المؤديين إلى إظهار الأمر، لو لا أن ثبتنا قلبها بسبب الوحى لتكون واثقة بحفظ الله له لقربت من أن تظهر أمره لهم بالجزع عليه.

و بما تقدم يظهر ضعف بعض ما قيل فى تفسير جمل الآية كقول بعضهم فى «وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً» أى صفرا من العقل لما دهمها من الخوف و الحيرة حين سمعت بوقوع الطفل فى يد فرعون، و قول آخرين: أى فارغا من الوحى الذى أوحى إليها

ص: 13

بالنسيان، و ما قيل: أى فارغا من كل شىء إلا ذكر موسى أى صار فارغا له. فإنها جميعا وجوه لا يحتمل شيئا منها السياق.

و نظير ذلک فى الضعف قولهم : إن جواب لو لا محذوف و التقدير لو لا أن ربطنا على قلبها لأبدته و أظهرته، و الوجه فى تقديرهم ذلک ما قيل: إن لو لا شبيهه بأدوات الشرط فلها الصدر و لا يتقدم جوابها عليها . و قد تقدمت المناقشة فيه فى الكلام على قوله تعالى: «وَ لَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَ هَمَّ بِها لَوْ لا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّهِ»: يوسف: ٢۴.

قوله تعالى: «وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» قال فى المجمع:، القص اتباع الأثر و منه القصص فى الحديث لأنه يتبع فيه الثانى الأول.

و قال: و معنى بصرت به عن جنب أبصرته عن جنابة أى عن بعد. انتهى.

و المعنى: و قالت أم موسى لأخته اتبعى أثر موسى حتى ترين إلام يئول أمره فرأته عن بعد و قد أخذه خدم فرعون و هم لا يشعرون بأنها تقصه و تراقبه.

قوله تعالى: «وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ» التحريم فى الآية تكوينى لا تشريعى و معناه جعله بحيث لا يقبل ثدى مرضع و يمتنع من ارتضاعها.

و قوله: «مِنْ قَبْلُ» أى من قبل حضورها هناک و مجيئها إليهم و المراضع جمع مرضعة كما قيل.

و قوله: «فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ» تفريع على ما تقدمه غير أن السياق يدل على أن هناک حذفا كأنه قيل: و حرمنا عليه المراضع غير أمه من قبل أن تجى ء أخته فكلما أتوا له بمرضع لترضعه لم يقبل ثديها فلما جاءت أخته و رأت الحال قالت عند ذلک لآل فرعون: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لنفعكم و هم له ناصحون؟.

قوله تعالى: «فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» تفريع على ما تقدمه مع تقدير ما يدل عليه السياق، و المحصل أنها قالت : هل أدلكم على أهل بيت كذا فأنعموا لها بالقبول فدلتهم على أمه فسلموه إليها فرددناه إلى أمه بنظم هذه الأسباب.

ص: 14

و قوله: «كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ» إلخ، تعليل للرد و المراد بالعلم هو اليقين بالمشاهدة فإنها كانت تعلم من قبل أن وعد الله حق و كانت مؤمنة و إنما أريد بالرد أن توقن بالمشاهدة أن وعد الله حق.

و المراد بوعد الله مطلق الوعد الإلهى بدليل قوله: «وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» أى لا يوقنون بذلک و يرتابون فى مواعده تعالى و لا تطمئن إليها نفوسهم، و محصله أن توقع بمشاهدة حقية هذا الذى وعدها الله به أن مطلق وعده تعالى حق.

و ربما يقال: إن المراد بوعد الله خصوص الوعد المذكور فی الآیة السابقة: «إِنّا رادُّوهُ إِلَیْکِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِینَ» و لا یلائمه قوله بعد: «وَ لکِنَ» إلخ علی ما تقدم.

قوله تعالی: «وَ لَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوی آتَیْناهُ حُکْماً وَ عِلْماً وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ» بلوغ الأشد أن یعمر الإنسان ما تشتد عند ذلک قواه و یکون فی الغالب فی الثمان عشرة، و الاستواء الاعتدال و الاستقرار فالاستواء فی الحیاة استقرار الإنسان فی أمر حیاته و یختلف فی الأفراد و هو علی الأغلب بعد بلوغ الأشد، و قد تقدم الکلام فی معنی الحکم و العلم و إیتائهما و معنی الإحسان فی مواضع من الکتاب.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور، أخرج ابن أبی شیبة و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن علی بن أبی طالب رض: فی قوله تعالی: «وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی الَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ» قال: یوسف و ولده.

أقول: لعل المراد بنو إسرائیل، و إلا فظهور الآیة فی خلافه غیر خفی.

و فی معانی الأخبار، بإسناده عن محمد بن سنان عن المفضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله (ع) یقول: إن رسول الله ص- نظر إلی علی و الحسن و الحسین (ع) فبکی- و قال: أنتم المستضعفون بعدی. قال المفضل: فقلت له: ما معنی ذلک؟ قال:

معناه أنکم الأئمة بعدی- إن الله عز و جل یقول: «وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی الَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ- وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِینَ» فهذه الآیة جاریة فینا إلی یوم القیامة.

ص: 15

أقول: و الروایات من طرق الشیعة فی کون الآیة فی أئمة أهل البیت (ع) کثیرة و بهذه الروایة یظهر أنها جمیعا من قبیل الجری و الانطباق.

و فی نهج البلاغة،: لتعطفن الدنیا علینا بعد شماسها عطف الضروس علی ولدها و تلا عقیب ذلک «وَ نُرِیدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَی الَّذِینَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْأَرْضِ- وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِینَ».

و فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالی: «وَ أَوْحَیْنا إِلی أُمِّ مُوسی» إلی آخر الآیة:

حدثنی أبی عن الحسن بن محبوب عن العلاء بن رزین عن محمد بن مسلم عن أبی جعفر (ع) قال: إنه لما حملت به أمه لم یظهر حملها إلا عند وضعها له- و کان فرعون قد وکل بنساء بنی إسرائیل نساء من القبط یحفظنهن- و ذلک أنه کان لما بلغه عن بنی إسرائیل أنهم یقولون: إنه یولد فینا رجل یقال له: موسی بن عمران- یکون هلاک فرعون و أصحابه علی یده- فقال فرعون عند ذلک: لأقتلن ذکور أولادهم حتی لا یکون ما یریدون- و فرق بین الرجال و النساء و حبس الرجال فی المحابس.

فلما وضعت أم موسى بموسى- نظرت إليه و حزنت عليه و اغتمت و بكت- و قالت:

يذبح الساعة- فعطف الله عز و جل قلب الموكلة بها عليه- فقالت لأم موسى: ما لک قد اصفر لونک؟ فقالت أخاف أن يذبح ولدى- فقالت: لا تخافى و كان موسى لا يراه أحد إلا أحبه و- هو قول الله: «وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْکَ مَحَبَّةً مِنِّی».

فأحبته القبطية الموكلة بها- و أنزل الله على أم موسى التابوت، و نوديت ضعيه فى التابوت فألقيه فى اليم و هو البحر «وَ لا تَخافِی وَ لا تَحْزَنِی- إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْکِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» فوضعته فى التابوت و أطبقته عليه و ألقته فى النيل.

و كان لفرعون قصر على شط النيل متنزه- فنظر من قصره- و معه آسية امرأته- إلى سواد فى النيل ترفعه الأمواج- و الرياح تضربه حتى جاءت به إلى باب قصر فرعون- فأمر فرعون بأخذه فأخذ التابوت و رفع إليه- فلما فتحه وجد فيه صبيا فقال:

هذا إسرائيلى- فألقى الله فى قلب فرعون محبة شديدة و كذلک فى قلب آسية.

و أراد فرعون أن يقتله فقالت آسية: لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً- وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ أنه موسى.

ص: 16

و فى المجمع،: فى قوله تعالى: «قُرَّتُ عَيْنٍ لِی وَ لَکَ لا تَقْتُلُوهُ» إلخ،

عن النبى ص: و الذى يحلف به لو أقر فرعون بأن يكون له قرة عين- كما أقرت امرأته لهداه الله به كما هداها- و لكنه أبى للشقاء الذى كتبه الله عليه.

و فى المعانى، بإسناده عن محمد بن نعمان الأحول عن أبى عبد الله (ع): فى قول الله عز و جل: «وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى» قال: أشده ثمان عشرة سنة «وَ اسْتَوى» التحى.

[سورة القصص (٢٨): الآيات ١٥ الى ٢١]

وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِی مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِی مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قالَ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِی الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِی اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّکَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِی هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِی كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِی الْأَرْضِ وَ ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩)

وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِکَ لِيَقْتُلُوکَ فَاخْرُجْ إِنِّی لَکَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِی مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١)

ص: 17

(بیان)

فصل ثان من قصة موسى (ع) فيه ذكر بعض ما وقع بعد بلوغه أشده فأدى إلى خروجه من مصر و قصده مدين.

قوله تعالى: «وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها» إلخ، لا ريب أن المدينة التى دخلها على حين غفلة من أهلها هى مصر، و أنه كان يعيش عند فرعون، و يستفاد من ذلک أن القصر الملکى الذى کان يسکنه فرعون کان خارج المدينة و أنه خرج منه و دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، و يؤيد ما ذكرنا ما سيأتى من قوله : «وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى» على ما سيجىء من الاستظهار.

و حين الغفلة من أهل المدينة هو حين يدخل الناس بيوتهم ف تتعطل الأسواق و تخلو الشوارع و الأزقة من المارة کالظهيرة و أواسط الليل.

و قوله: «فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ» أى يتنازعان و يتضاربان، و قوله: «هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ» حکاية حال تمثل به الواقعة، و معناه: أن أحدهما كان إسرائيليا من متبعيه فى دينه- فإن بنى إسرائيل کانوا ينتسبون يومئذ إلى آبائهم إبراهيم و إسحاق و يعقوب (ع) فى دينهم و إن كان لم يبق لهم منه إلا الاسم و کانوا يتظاهرون بعبادة فرعون- و الآخر قبطيا عدوا له لأن القبط كانوا أعداء بنى إسرائيل، و من الشاهد أيضا على كون هذا الرجل قبطيا قوله فى موضع آخر يخاطب ربه : «وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ»: الشعراء: ۱۴.

و قوله: «فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ» الاستغاثة: الاستنصار من الغوث بمعنى النصرة أى طلب الإسرائيلى من موسى أن ينصره على عدوه القبطى.

و قوله: «فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ» ضميرا «فَوَكَزَهُ» و «عَلَيْهِ» للذى من عدوه و الوكز- على ما ذكره الراغب و غيره- الطعن و الدفع و الضرب بجمع الكف،

ص: 18

و القضاء هو الحكم و القضاء عليه كناية عن الفراغ من أمره بموته، و المعنى : فدفعه أو ضربه موسى بالوكز فمات، و کان قتل خطإ و لو لا ذلک لکان من حق الکلام أن يعبر بالقتل.

و قوله: «قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ» الإشارة بهذا إلى ما وقع بينهما من الاقتتال حتى أدى إلى موت القبطى و قد نسبه نوع نسبة إلى عمل الشيطان إذ قال : «هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» و «مِنْ» ابتدائية تفيد معنى الجنس أو نشوئية، و المعنى: هذا الذى وقع من المعاداة و الاقتتال من جنس العمل المنسوب إلى الشيطان أو ناش من عمل الشيطان فإنه هو الذى أوقع العداوة و البغضاء بينهما و أغرى على الاقتتال حتى أدى ذلک إلى مداخلة موسى و قتل القبطى بيده فأوقعه ذلک فى

خطر عظیم و قد کان یعلم أن الواقعة لا تبقی خفیة مکتومة و أن القبط سیثورون علیه و أشرافهم و ملؤهم و علی رأسهم فرعون سینتقمون منه و من کل من تسبب إلی ذلک أشد الانتقام.

فعند ذلک تنبه (ع) أنه أخطأ فیما فعله من الوکز الذی أورده مورد الهلکة و لا ینسب الوقوع فی الخطإ إلی الله سبحانه لأنه لا یهدی إلا إلی الحق و الصواب فقضی أن ذلک منسوب إلی الشیطان.

و فعله ذاک و إن لم یکن معصیة منه لوقوعه خطأ و کون دفاعه عن الإسرائیلی دفعا لکافر ظالم، لکن الشیطان کما یوقع بوسوسته الإنسان فی الإثم و المعصیة کذلک یوقعه فی أی مخالفة للصواب یقع بها فی الکلفة و المشقة کما أوقع آدم و زوجه فیما أوقع من أکل الشجرة المنهیة فأدی ذلک إلی خروجهما من الجنة.

فقوله: «هذا مِنْ عَمَلِ الشَّیْطانِ» انزجار منه عما وقع من الاقتتال المؤدی إلی قتل القبطی و وقوعه فی عظیم الخطر و ندم منه علی ذلک، و قوله : «إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِینٌ » إشارة منه إلی أن فعله کان من الضلال المنسوب إلی الشیطان و إن لم یکن من المعصیة التی فیها إثم و مؤاخذة بل خطأ محضا لا ینسب إلی الله بل إلی الشیطان الذی هو عدو مضل مبین، فکان ذلک منه نوعا من سوء التدبیر و ضلال السعی یسوقه إلی عاقبة وخیمة و لذا لما اعترض علیه فرعون بقوله : «وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَکَ الَّتِی فَعَلْتَ وَ أَنْتَ

مِنَ الْکافِرِینَ» أجابه بقوله: «فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّینَ»: الشعراء: ۲۰.

قوله تعالی: «قالَ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ » اعتراف منه عند ربه بظلمه نفسه حیث أوردها مورد الخطر و ألقاها فی التهلکة، و منه یظهر أن المراد بالمغفرة المسئولة فی قوله : «فَاغْفِرْ لِی» هو إلغاء تبعة فعله و إنجاؤه من الغم و تخلیصه من شر فرعون و ملئه، کما یظهر من قوله تعالی: «وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّیْناکَ مِنَ الْغَمِّ»: طه: ۴۰.

و هذا الاعتراف بالظلم و سؤال المغفرة نظیر ما وقع من آدم و زوجه المحکی فی قوله تعالی : «قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وَ إِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَ تَرْحَمْنا لَنَکُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِینَ» الأعراف: ۲۳.

قوله تعالی: «قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَیَّ فَلَنْ أَکُونَ ظَهِیراً لِلْمُجْرِمِینَ» قیل:

الباء فی قوله: «بِما أَنْعَمْتَ» للسببیة و المعنی رب بسبب ما أنعمت علی، لک علی أن لا أکون معینا للمجرمین فیکون عهدا منه لله تعالی و قیل: الباء للقسم و الجواب محذوف و المعنی: أقسم بما أنعمت علی لأتوبن أو لأمتنعن فلن أکون ظهیرا للمجرمین، و قیل:

القسم استعطافی و هو القسم الواقع فی الإنشاء کقولک بالله زرنی، و المعنی أقسمک أن تعطف علی و تعصمنی فلن أکون ظهیرا للمجرمین.

و الوجه الأول هو الأوجه لأن المراد بقوله : «بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَ»- على ما ذكروه- أما إنعامه تعالى عليه إذ حفظه و خلصه من قتل فرعون و رده إلى أمه، و أما إنعامه عليه إذ قبل توبته من قتل القبطى و غفر له بناء على أنه علم مغفرته تعالى بإلهام أو رؤيا أو نحوهما و كيف كان فهو إقسام بغيره تعالى، و المعنى أقسم بحفظك إياى أو أقسم بمغفرتك لى، و لم يعهد فى كلامه تعالى حكايهٔ قسم من غيره بغيره بهذا النحو.

و قوله: «فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ » قيل: المراد بالمجرم من أوقع غيره فى الجرم أو من أدت إعانته إلى جرم كالإسرائيلى الذى خاصمه القبطى فأوقعت إعانته موسى فى جرم القتل فيكون فى لفظ المجرمين مجاز فى النسبهٔ من حيث تسميهٔ السبب الموقع فى الجرم مجرما .

و قيل: المراد بالمجرمين فرعون و قومه و المعنى: أقسم بإنعامك على لأتوبن فلن

ص: 20

أكون معينا لفرعون و قومه بصحبتهم و ملازمتهم و تكثير سوادهم كما كنت أفعله إلى هذا اليوم.

و رد هذا الوجه الثانى بأنه لا يناسب المقام.

و الحق أن قوله: «رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ» عهد من موسى (ع) أن لا يعين مجرما على إجرامه شكرا لله تعالى على ما أنعم عليه، و المراد بالنعمهٔ و قد أطلقت إطلاقا الولايهٔ الإلهيهٔ على ما يشهد به قوله تعالى : «فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصِّدِّيقِينَ وَ الشُّهَداءِ وَ الصَّالِحِينَ»: النساء: ۶۹.

و هؤلاء أهل الصراط المستقيم مأمونون من الضلال و الغضب لقوله تعالى : «اهْدِنَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ»،: الفاتحهٔ:

۷ و ترتب الامتناع عن إعانهٔ المجرمين على الإنعام بهذا المعنى ظاهر لا سترهٔ عليه.

و من هنا يظهر أن المراد بالمجرمين أمثال فرعون و قومه دون أمثال الإسرائيلى الذى أعانه فلم يكن فى إعانته جرم و لا كان وكز القبطى جرما حتى يتوب (ع) منه كيف؟ و هو (ع) من أهل الصراط المستقيم الذين لا يضلون بمعصيته، و قد نص تعالى على كونه من المخلصين الذين لا سبيل للشيطان إليهم بالإغواء حيث قال: «إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا»: مريم: ۵۱.

و قد نص تعالى أيضا آنفا بأنه آتاه حكما و علما و أنه من المحسنين و من المتقين من أمره أن لا تستخفه عصبيهٔ قوميهٔ أو غضب فى غير ما ينبغى أو إعانهٔ و نصرهٔ لمجرم فى إجرامه.

و قد كرر «قالَ» ثلاثا حيث قيل: «قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» «قالَ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی» «قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَیَ» و ذلک لاختلاف السیاق فی الجمل الثلاث فالجملة الأولی قضاء منه و حکم، و الجملة الثانیة استغفار و دعاء، و الجملة الثالثة عهد و التزام.

قوله تعالی: «فَأَصْبَحَ فِی الْمَدِینَةِ خائِفاً یَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِی اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ یَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسی إِنَّکَ لَغَوِیٌّ مُبِینٌ» تقیید «فَأَصْبَحَ» بقوله: «فِی الْمَدِینَةِ» دلیل علی أنه بقی فی المدینة و لم یرجع إلی قصر فرعون، و الاستصراخ الاستغاثة برفع الصوت من الصراخ بمعنی الصیاح، و الغوایة إخطاء الصواب خلاف الرشد.

ص: 21

و المعنی: فأصبح موسی فی المدینة- و لم یرجع إلی بلاط فرعون- و الحال أنه خائف من فرعون ینتظر الشر ففاجأه أن الإسرائیلی الذی استنصره علی القبطی بالأمس یستغیث به رافعا صوته علی قبطی آخر قال موسی للإسرائیلی توبیخا و تأنیبا:

إنک لغوی مبین لا تسلک سبیل الرشد و الصواب لأنه کان یخاصم و یقتتل قوما لیس فی مخاصمتهم و المقاومة علیهم إلا الشر کل الشر.

قوله تعالی: «فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ یَبْطِشَ بِالَّذِی هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ یا مُوسی أَ تُرِیدُ أَنْ تَقْتُلَنِی کَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ» إلی آخر الآیة، ذکر جل المفسرین أن ضمیر «قالَ» للإسرائیلی الذی کان یستصرخه و ذلک أنه ظن أن موسی إنما یرید أن یبطش به لما سمعه یعاتبه قبل بقوله: «إِنَّکَ لَغَوِیٌّ مُبِینٌ» فهاله ما رأی من إرادته البطش فقال:

«یا مُوسی أَ تُرِیدُ أَنْ تَقْتُلَنِی کَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ» إلخ، فعلم القبطی عند ذلک أن موسی هو الذی قتل القبطی بالأمس فرجع إلی فرعون فأخبره الخبر فائتمروا بموسی و عزموا علی قتله.

و ما ذکروه فی محله لشهادة السیاق بذلک فلا یعبأ بما قیل: إن القائل هو القبطی دون الإسرائیلی، هذا و معنی باقی الآیة ظاهر.
و فی قوله: «أَنْ یَبْطِشَ بِالَّذِی هُوَ عَدُوٌّ لَهُما» تعریض للتوراة الحاضرة حیث تذکر أن المتقاتلین هذین کانا جمیعا إسرائیلیین، و فیه أیضا تأیید أن القائل: «یا مُوسی أَ تُرِیدُ» إلخ، الإسرائیلی دون القبطی لأن سیاقه سیاق اللوم و الشکوی.

قوله تعالی: «وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَی الْمَدِینَةِ یَسْعی قالَ یا مُوسی إِنَّ الْمَلَأَ یَأْتَمِرُونَ بِکَ لِیَقْتُلُوکَ» إلخ، الائتمار المشاورة، و النصیحة خلاف الخیانة.

و الظاهر کون قوله: «مِنْ أَقْصَی الْمَدِینَةِ» قیدا لقوله: «جاءَ» فسیاق القصة یعطی أن الائتمار کان عند فرعون و بأمر منه، و أن هذا الرجل جاء من هناک و قد کان قصر فرعون فی أقصی المدینة و خارجها فأخبر موسی بما قصدوه من قتله و أشار علیه بالخروج من المدینة.

و هذا الاستئناس من الکلام یؤید ما تقدم أن قصر فرعون الذی کان یسکنه کان خارج المدینة، و معنی الآیة ظاهر.

ص: 22

قوله تعالى: «فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ » فيه تأييد أنه ما كان يرى قتله القبطى خطأ جرما لنفسه.

(بحث روائى)

فى تفسير القمى، قال ": فلم يزل موسى عند فرعون فى أكرم كرامة- حتى بلغ مبلغ الرجال- و كان ينكر عليه ما يتكلم به موسى (ع) من التوحيد- حتى هم به فخرج موسى من عنده و دخل المدينة- فإذا رجلان يقتتلان- أحدهما يقول بقول موسى و الآخر يقول بقول فرعون- فاستغاثه الذى من شيعته فجاء موسى- فوكز صاحب فرعون فقضى عليه و توارى فى المدينة.

فلما كان الغد جاء آخر- فتشبث بذلك الرجل الذى يقول بقول موسى- فاستغاث بموسى فلما نظر صاحبه إلى موسى قال له. أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ؟

فخلى عن صاحبه و هرب.

و فى العيون، بإسناده إلى على بن مح مد بن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون و عنده الرضا (ع)- فقال له المأمون: يا ابن رسول الله- أ ليس من قولك: إن الأنبياء معصومون؟

قال: بلى. قال: فأخبرنى عن قول الله : «فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ » قال الرضا (ع): إن موسى (ع) دخل مدينة من مدائن فرعون- على حين غفلة من أهلها و ذلك بين المغرب و العشاء- فوجد فيها رجلين يقتتلان- هذا من شيعته و هذا من عدوه- فقضى على العدو بحكم الله تعالى ذكره فوكزه فمات، قال : هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ- يعنى الاقتتال الذى وقع بين الرجلين- لا ما فعله موسى (ع) من قتله «إِنَّهُ» يعنى الشيطان «عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ».

قال المأمون: فما معنى قول موسى: «رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي»؟

قال: يقول: وضعت نفسى غير موضعها بدخول هذه المدينة- فاغفر لى أى استرنى من أعدائك لئلا يظفروا بى فيقتلو نى- فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال موسى: رب بما أنعمت على من القوة- حتى قتلت رجلا بوكزة فلن أكون ظهيرا للمجرمين- بل أجاهدهم بهذه القوة حتى ترضى.

ص: 23

فأصبح موسى (ع) فى المدينة خائفا يترقب- فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه على آخر- قال له موسى إنك لغوى مبين- قاتلت رجلا بالأمس و تقاتل هذا اليوم- لأؤدبنك و أراد أن يبطش به- فلما أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما و هو

من شیعته- قالَ: یا مُوسی أَ تُرِیدُ أَنْ تَقْتُلَنِی کَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ؟ إِنْ تُرِیدُ إِلَّا أَنْ تَکُونَ جَبَّاراً فِی الْأَرْضِ- وَ ما تُرِیدُ أَنْ تَکُونَ مِنَ الْمُصْلِحِینَ. قال المأمون: جزاک الله عن أنبیائه خیرا یا أبا الحسن.

[سورة القصص (۲۸): الآیات ۲۲ الی ۲۸]

وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْیَنَ قالَ عَسی رَبِّی أَنْ یَهْدِیَنِی سَواءَ السَّبِیلِ (۲۲) وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْیَنَ وَجَدَ عَلَیْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ یَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَیْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُکُما قالَتا لا نَسْقِی حَتَّی یُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَیْخٌ کَبِیرٌ (۲۳) فَسَقی لَهُما ثُمَّ تَوَلَّی إِلَی الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّی لِما أَنْزَلْتَ إِلَیَّ مِنْ خَیْرٍ فَقِیرٌ (۲۴) فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِی عَلَی اسْتِحْیاءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِی یَدْعُوکَ لِیَجْزِیَکَ أَجْرَ ما سَقَیْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَیْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ (۲۵) قالَتْ إِحْداهُما یا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَیْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِیُّ الْأَمِینُ (۲۶)

قالَ إِنِّی أُرِیدُ أَنْ أُنْکِحَکَ إِحْدَی ابْنَتَیَّ هاتَیْنِ عَلی أَنْ تَأْجُرَنِی ثَمانِیَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِکَ وَ ما أُرِیدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَیْکَ سَتَجِدُنِی إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِینَ (۲۷) قالَ ذلِکَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ أَیَّمَا الْأَجَلَیْنِ قَضَیْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَیَّ وَ اللَّهُ عَلی ما نَقُولُ وَکِیلٌ (۲۸)

ص: 24

(بیان)

فصل ثالث من قصته (ع) یذکر فیه خروجه من مصر إلی مدین عقیب قتله القبطی خوفا من فرعون و تزوجه هناک بابنة شیخ کبیر لم یسم فی القرآن لکن تذکر روایات أئمة أهل البیت (ع) و بعض روایات أهل السنة أنه هو شعیب النبی المبعوث إلی مدین.

قوله تعالی: «وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْیَنَ قالَ عَسی رَبِّی أَنْ یَهْدِیَنِی سَواءَ السَّبِیلِ » قال فی المجمع:: تلقاء الشیء حذاؤه، و یقال: فعل ذلک من تلقاء نفسه أی من حذاء داعی نفسه. و قال: سواء السبیل وسط الطریق انتهی.

و مدین- علی ما فی مراصد الاطلاع-، مدینة قوم شعیب و هی تجاه تبوک علی بحر القلزم بینهما ست مراحل و هی أکبر من تبوک و بها البئر التی استقی منها موسی لغنم شعیب (ع) انتهی، و یقال: إنه کان بینهما و بین مصر مسیرة ثمان و کانت خار جة من سلطان فرعون و لذا توجه إلیها.

و المعنی: و لما صرف وجهه بعد الخروج من مصر حذاء مدین قال: أرجو من ربی أن یهدینی وسط الطریق فلا أضل بالعدول عنه و الخروج منه إلی غیره.

و السیاق- کما تری- یعطی أنه (ع) کان قاصدا لمدین و هو لا یعرف الطریق الموصلة إلیها فترجی أن یهدیه ربه.

قوله تعالى: «وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ » إلخ الذود الحبس و المنع، و المراد بقوله : «تَذُودانِ» أنهما يحبسان أغنامهما من أن ترد الماء أو تختلط بأغنام القوم كما أن المراد بقوله : «يَسْقُونَ» سقيهم أغنامهم و مواشيهم، و الرعاء جمع الراعى و هو الذى يرعى الغنم.

ص: PAGE=25ص:

و المعنى: و لما ورد موسى ماء مدين وجد على الماء جماعة من الناس يسقون أغنامهم و وجد بالقرب منهم مما يليه امرأتين تحبسان أغنامهما و تمنعانها أن ترد المورد قال موسى مست فسرا عنهما- حيث وجدهما تذودان الغنم و ليس على غنمهما رجل-:

ما شأنكما؟ قالتا لا نسقى غنمنا أى عادتنا ذلك حتى يصدر الراعون و يخرجوا أغنامهم و أبونا شيخ كبير- لا يقدر أن يتصدى بنفسه أمر السقى و لذا تصدينا الأمر.

قوله تعالى: «فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فهم» (ع) من كلامهما أن تأخرهما فى السقى نوع تعفف و تحجب منهما و تعد من الناس عليهما فبادر إلى ذلك و سقى لهما.

و قوله: «ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ» أى انصرف إلى الظل ليستريح فيه و الحر شديد و قال ما قال، و قد حمل الأكثرون قوله:

«رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ» إلخ على سؤال طعام يسد به الجوع، و عليه فالأولى أن يكون المراد بقوله «لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَ» القوة البدنية التى كان يعمل بها الأعمال الصالحة التى فيها رضى الله كالدفاع عن الإسرائيلى و الهرب من فرعون بقصد مدين و سقى غنم شعيب و اللام فى «لِما أَنْزَلْتَ» بمعنى إلى و إظهار الفقر إلى هذه القوة التى أنزلها الله إليه من عنده بالإفاضة كناية عن إظهار الفقر إلى شيء من الطعام تستبقى به هذه القوة النازلة الموهوبة.

و يظهر منه أنه (ع) كان ذا مراقبة شديدة فى أعماله فلا يأتى بعمل و لا يريده و إن كان مما يقتضيه طبعه البشرى إلا ابتغاء مرضاة ربه و جهادا فيه، و هذا ظاهر بالتدبر فى القصة فهو القائل لما وكز القبطى : رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ثم القائل لما خرج من مصر خائفا يترقب : «رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » ثم القائل لما أخذ فى السلوك : «عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ » ثم القائل لما سقى و تولى إلى الظل : «رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » ثم القائل لما آجر نفسه شعيبا و عقد على بنته: «وَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ».

و ما نقل عن بعضهم أن اللام فى «لِما أَنْزَلْتَ» للتعليل و كذا قول بعضهم إن المراد بالخير خير الدين و هو النجاة من الظالمين بعيد مما يعطيه السياق.

ص: 26

قوله تعالى: «فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِی عَلَی اسْتِحْیاءٍ » إلى آخر الآية . ضمير إحداهما للمرأتين، و تنكير الاستحياء للتفخيم و المراد بكون مشيها على استحياء ظهور التعفف من مشيتها، و قوله : «لِیَجْزِیَکَ أَجْرَ ما سَقَیْتَ لَنا » ما مصدرية أى ليعطيك جزاء سقيك لنا، و قوله : «فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَیْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ » إلخ يلوح إلى أن شعيبا استفسره حاله فقص عليه قصته فطيب نفسه بأنه نجا منهم إذ لا سلطان لهم على مدين.

و عند ذلك تمت استجابته تعالى لموسى (ع) أدعيته الثلاثة فقد كان سأل الله تعالى عند خروجه من مصر أن ينجيه من القوم الظالمين فأخبره شعيب (ع) بالنجاة و ترجى أن يهديه سواء السبيل و هو فى معنى الدعاء فورد مدين، و سأله الرزق فدعاه شعيب ليجزيه أجر ما سقى و زاد تعالى فكفاه رزق عشر سنين و وهب له زوجا يسكن إليها.

قوله تعالى: «قالَتْ إِحْداهُما یا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَیْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِیُّ الْأَمِینُ » إطلاق الاستيجار يفيد أن المراد استخدامه لمطلق حوائجه التى تستدعى من يقوم مقامه و إن كانت العهدة باقتضاء المقام رعى الغنم.

و قوله: «إِنَّ خَیْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ » إلخ، فى مقام التعليل لقوله : «اسْتَأْجِرْهُ» و هو من وضع السبب موضع المسبب و التقدير استأجره لأنه قوى أمين و خير من استأجرت هو القوى الأمين.

و فى حكمها بأنه قوى أمين دلالة على أنها شاهدت من نحو عمله فى سقى الأغنام ما استدلت به على قوته و كذا من ظهور عفته فى تكليمهما و سقى أغنامهما ثم فى صحبته لها عند ما انطلق إلى شعيب حتى أتاه ما استدلت به على أمانته.

و من هنا يظهر أن هذه القائلة: «یا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ» إلخ، هى التى جاءته و أخبرته بدعوة أبيها له كما وردت به روايات أئمة أهل البيت (ع) و ذهب إليه جمع من المفسرين.

قوله تعالى: «قالَ إِنِّی أُرِیدُ أَنْ أُنْکِحَکَ إِحْدَی ابْنَتَیَّ هاتَیْنِ عَلی أَنْ تَأْجُرَنِی ثَمانِیَ حِجَجٍ » إلخ، عرض من شعيب لموسى (ع) أن يأجره نفسه ثمانى سنين أو عشرا

ص: 27

قبال تزويجه إحدى ابنتيه و ليس بعقد قاطع و من الدليل عدم تعين المعقودة فى كلامه (ع).

فقوله: «إِحْدَی ابْنَتَیَّ هاتَیْنِ » دليل على حضورهما إذ ذاك، و قوله : «عَلی أَنْ تَأْجُرَنِی ثَمانِیَ حِجَجٍ » أى على أن تأجرنى نفسك أى تكون أجيرا لى ثمانى حجج، و الحجج جمع حجة و المراد بها السنة بعناية أن كل سنة فيها حجة للبيت الحرام، و به يظهر أن حج البيت- و هو من شريعة إبراهيم (ع)- كان معمولا به عندهم.

و قوله: «فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِکَ» أى فإن أتممته عشر سنين فهو من عندك و باختيار منك من غير أن تكون ملزما من عندى.

و قوله: «وَ ما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْکَ » إخبار عن نحو ما يريده منه من الخدمة و أنه عمل غير موصوف بالمشقة و أنه مخدوم صالح.

و قوله: «سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » أي إني من الصالحين و ستجدني منهم إن شاء الله فالاستثناء متعلق بوجدان موسى إياه منهم لا بكونه في نفسه منهم.

قوله تعالى: «قالَ ذلِکَ بَيْنِي وَ بَيْنَکَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ» الضمير لموسى (ع).

و قوله: «ذلِکَ بَيْنِي وَ بَيْنَکَ » أي ذلک الذي ذكرته و قررته من المشارطة و المعاهدة و عرضته على ثابت بيننا ليس لي و لا لک أن نخالف ما شارطناه، و قوله: «أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ» بيان للأجل المردد المضروب في كلام شعيب (ع) و هو قوله: «ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِکَ» أي لي أن أختار أي الأجلين شئت فإن اخترت الثماني سنين فليس لک أن تعدو علي و تلزمني بالزيادة و إن اخترت الزيادة و خدمتک عشرا فليس لک أن تعدو علي بالمنع من الزيادة.

و قوله: «وَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ» توكيل له تعالى فيما يشارطان يتضمن إشهاده تعالى على ما يقولان و إرجاع الحكم و القضاء بينهما إليه لو اختلفا، و لذا اختار التوكيل على الإشهاد لأن الشهادة و القضاء كليهما إليه تعالى، و هذا كقول يعقوب (ع) حين أخذ الموثق من بنيه أن يردوا إليه ابنه فيما يحكيه الله: «فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ»: يوسف: ۶۶.

ص: 28

(بحث روائي)

في كتاب كمال الدين، بإسناده إلى سدير الصيرفي عن أبي عبد الله (ع) في حديث طويل : وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى- قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِکَ لِيَقْتُلُوکَ- فَاخْرُجْ إِنِّي لَکَ مِنَ النَّاصِحِينَ فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ - من مصر بغير ظهر و لا دابة و لا خادم تخفضه أرض- و ترفعه أخرى حتى انتهى إلى أرض مدين.

فانتهى إلى أصل شجرة فنزل فإذا تحتها بئر- و إذا عندها أمة من الناس يسقون- و إذا جاريتان ضعيفتان و إذا معهما غنيمة لهما- قال ما خطبكما قالتا أبونا شيخ كبير- و نحن جاريتان ضعيفتان لا نقدر أن نزاحم الرجال- فإذا سقى الناس سقينا فرحمهما فأخذ دلوهما فقال لهما: قدما غنمكما فسقى لهما ثم رجعتا بكرة قبل الناس.

ثم تولى موسى إلى الشجرة فجلس تحتها- و قال: «رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ » فروي أنه قال ذلک و هو محتاج إلى شق تمرة- فلما رجعتا إلى أبيهما- قال: ما أعجلكما في هذه الساعة- قالتا: وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا . فقال لإحداهما اذهبي- فادعيه لي فجاءته إحداهما تمشي على استحياء- قالت: إِنَّ أَبِي يَدْعُوکَ لِيَجْزِيَکَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا.

فروي أن موسى (ع) قال لها: وجهني إلى الطريق و امشي خلفي- فإنا بني يعقوب لا ننظر في أعجاز النساء، فلما جاءه و قص عليه القصص- قال: لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.

قال: إِنِّی أُرِیدُ أَنْ أُنْکِحَکَ إِحْدَی ابْنَتَیَّ هاتَیْنِ- عَلی أَنْ تَأْجُرَنِی ثَمانِیَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِکَ - فروی أنه قضی أتمهما- لأن الأنبیاء (ع) لا تأخذ إلا بالفضل و التمام.

أقول: و روی ما فی معناه القمی فی تفسیره.

و فی الکافی، عن علی بن إبراهیم عن أبیه عن ابن أبی عمیر عمن ذکره عن أبی عبد الله (ع): فی قول الله عز و جل حکایة عن موسی (ع): «رَبِّ إِنِّی لِما أَنْزَلْتَ إِلَیَّ مِنْ خَیْرٍ فَقِیرٌ» قال: سأل الطعام.

أقول:

و روی العیاشی عن حفص عنه (ع): مثله، و لفظه إنما عنی الطعام:

ص: 29

و أیضا عن لیث عن أبی جعفر (ع) مثله

، و فی نهج البلاغة،: مثله و لفظه و الله ما سأله إلا خبزا یأکله.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن مردویه عن أنس بن مالک قال : قال رسول الله ص : لما سقی موسی للجاریتین ثم تولی إلی الظل- فقال: رَبِّ إِنِّی لِما أَنْزَلْتَ إِلَیَّ مِنْ خَیْرٍ فَقِیرٌ- قال: إنه یومئذ فقیر إلی کف من تمر.

و فی تفسیر القمی، قال ": قالت إحدی بنات شعیب: یا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَیْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِیُّ الْأَمِینُ، فقال لها شعیب (ع): أما قوته فقد عرفتنیه أنه یستقی الدلو وحده- فبم عرفت أمانته؟ فقالت: إنه لما قال لی: تأخری عنی و دلینی علی الطریق- فإنا من قوم لا ینظرون فی أدبار النساء- عرفت أنه لیس من الذین ینظرون أعجاز النساء فهذه أمانته:

أقول: و روی مثله فی المجمع، عن علی (ع).

و فی المجمع، و روی الحسن بن سعید عن صفوان عن أبی عبد الله (ع) قال: رسائل أیتهما التی قالت: إن أبی یدعوک؟ قال: التی تزوج بها. قیل: فأی الأجلین قضی؟

قال: أوفاهما و أبعدهما عشر سنین. قیل: فدخل بها قبل أن یمضی الشرط أو بعد انقضائه؟ قال: قبل أن ینقضی. قیل له: فالرجل یتزوج المرأة و یشترط لأبیها إجارة شهرین أ یجوز ذلک؟ قال: إن موسی علم أنه سیتم له شرطه. قیل: کیف؟

قال: علم أنه سیبقی حتی یفی.

أقول: و روی قضاء عشر سنین فی الدر المنثور، عن النبی ص بعدة طرق.

و فی تفسیر العیاشی، و قال الحلبی: سئل أبو عبد الله (ع) عن البیت- أ کان یحج قبل أن یبعث النبی ص؟ قال: نعم- و تصدیقه فی القرآن قول شعیب- حین قال لموسی (ع) حیث تزوج: «عَلی أَنْ تَأْجُرَنِی ثَمانِیَ حِجَجٍ» و لم یقل ثمانی سنین.

ص: 30

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٢٩ الى ٤٢]

فَلَمَّا قَضی مُوسَی الْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّی آنَسْتُ ناراً لَعَلِّی آتِیكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتاها نُودِیَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَیْمَنِ فِی الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ یا مُوسی إِنِّی أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ (٣٠) وَ أَنْ أَلْقِ عَصاکَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّی مُدْبِراً وَ لَمْ یُعَقِّبْ یا مُوسی أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّکَ مِنَ الْآمِنِینَ (٣١) اسْلُکْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَیْکَ جَناحَکَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِکَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّکَ إِلی فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِینَ (٣٢) قالَ رَبِّ إِنِّی قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ یَقْتُلُونِ (٣٣)

وَ أَخِی هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّی لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِی رِدْءاً یُصَدِّقُنِی إِنِّی أَخافُ أَنْ یُكَذِّبُونِ (٣٤) قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَکَ بِأَخِیکَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا یَصِلُونَ إِلَیْكُما بِآیاتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ (٣٥) فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسی بِآیاتِنا بَیِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُفْتَریً وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِی آبائِنَا الْأَوَّلِینَ (٣٦) وَ قالَ مُوسی رَبِّی أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدی مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا یُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧) وَ قالَ فِرْعَوْنُ یا أَیُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرِی فَأَوْقِدْ لِی یا هامانُ عَلَی الطِّینِ فَاجْعَلْ لِی صَرْحاً لَعَلِّی أَطَّلِعُ إِلی إِلهِ مُوسی وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِینَ (٣٨)

وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِی الْأَرْضِ بِغَیْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَیْنا لا یُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِی الْیَمِّ فَانْظُرْ كَیْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِینَ (٤٠) وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً یَدْعُونَ إِلَی النَّارِ وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ لا یُنْصَرُونَ (٤١) وَ أَتْبَعْناهُمْ فِی هذِهِ الدُّنْیا لَعْنَةً وَ یَوْمَ الْقِیامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِینَ (٤٢)

ص: 31

(بیان)

فصل آخر من قصة موسی (ع) و قد أودع فیه إجمال قصته من حین سار بأهله من مدین قاصدا لمصر و بعثته بالرسالة إلی فرعون و ملئه لإنجاء بنی إسرائیل و تكذیبهم له إلی أن أغرقهم الله فی الیم و تنتهی القصة إلی إیتائه الكتاب و كأنه هو العمدة فی سرد القصة.

قوله تعالی: «فَلَمَّا قَضی مُوسَی الْأَجَلَ وَ سارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً » إلخ، المراد بقضائه الأجل إتمامه مدة خدمته لشعیب (ع) و المروی أنه قضی أطول الأجلین، و الإیناس الإبصار و الرؤیة، و الجذوة من النار القطعة منها، و الاصطلاء الاستدفاء.

و السياق يشهد أن الأمر كان بالليل و كانت ليلة شديدة البرد و قد ضلوا الطريق فرأى من جانب الطور و قد أشرفوا عليه نارا فأمر أهله أن يمكثوا ليذهب إلى ما آنسه لعله يجد هناک من يخبره بالطريق أو يأخذ قطعة من النار فيصطلوا بها، و قد وقع فی القصة من سورة طه موضع قوله: «لَعَلِّی آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ» إلخ قوله: «لَعَلِّی آتِيكُمْ مِنْها بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً» طه: ١٠، و هو أدل على كونهم ضلوا الطريق.

و كذا فی قوله خطابا لأهله: «امْكُثُوا» إلخ، شهادة على أنه كان معها من يصح

ص: 32

معه خطاب «١» الجمع.

قوله تعالى: «فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِی الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ » إلخ قال فی المفردات :، شاطئ الوادی جانبه، و قال: أصل الوادی الموضع الذی يسيل منه الماء و منه سمی المنفرج بين الجبلين واديا و جمعه أودية انتهى و البقعة القطعة من الأرض على غير هيئة التی إلى جنبها.

و المراد بالأيمن الجانب الأيمن مقابل الأيسر و هو صفة الشاطئ و لا يعبأ بما قاله بعضهم : إن الأيمن من اليمين مقابل الأشأم من الشؤم.

و البقعة المباركة قطعة خاصة من الشاطئ الأيمن فی الوادی كانت فيه الشجرة التی نودی منها، و مباركتها لتشرفها بالتقريب و التكليم الإلهی و قد أمر بخلع نعليه فيها لتقدسها كما قال تعالى فی القصة من سورة طه : «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً»: طه: ١٢.

و لا ريب فی دلالة الآية على أن الشجرة كانت مبدءا للنداء و التكليم بوجه غير أن الكلام و هو كلام الله سبحانه لم يكن قائما بها كقيام الكلام بالمتكلم منا فلم تكن إلا حجابا احتجب سبحانه به فكلمه من ورائه بما يليق بساحة قدسه من معنى الاحتجاب و هو على كل شی ء محيط، قال تعالى: «وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ»: الشورى: ٥١.

و من هنا يظهر ضعف ما قيل: إن الشجرة كانت محل الكلام لأن الكلام عرض يحتاج إلى محل يقوم به.

و كذا ما قيل: إن هذا التكليم أعلى منازل الأنبياء (ع) أن يسمعوا كلام الله سبحانه من غير واسطة و مبلغ . و ذلک أنه كان كلاما من وراء حجاب و الحجاب واسطة و ظاهر آية الشورى المذكورة آنفا أن أعلى التكليم هو الوحی من غير واسطة حجاب أو رسول مبلغ.

---

(١) و فی التوراة الحاضرة أنه حمل معه إلى مصر امرأته و بنيه (سفر الخروج الإصحاح الرابع آية ٢٠).

ص: 33

و قوله: «أَنْ يا مُوسى إِنِّی أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِینَ» أن فیه تفسیریة، و فیه إنباء عن الذات المتعالیة المسماة باسم الجلالة الموصوفة بوحدانیة الربوبیة النافیة لمطلق الشرک إذ کونه ربا للعالمین جمیعا- و الرب هو المالک المدبر لملکه الذی یستحق العبادة من مملوکیه- لا یدع شیئا من العالمین یکون مربوبا لغیره حتی یکون هناک رب غیره و إله معبود سواه.

ففی الآیة إجمال ما فصله فی سورة طه فی هذا الفصل من النداء من الإشارة إلی الأصول الثلاثة أعنی التوحید و النبوة و المعاد إذ قال: «إِنَّنِی أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِی وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِکْرِی إِنَّ السَّاعَةَ آتِیَةٌ» الآیات: طه: ۱۴- ۱۶.

قوله تعالی: «وَ أَنْ أَلْقِ عَصاکَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّکَأَنَّها جَانٌّ وَلَّی: مُدْبِراً وَ لَمْ یُعَقِّبْ» تقدم تفسیره فی سورة النمل.

قوله تعالی: «یا مُوسی أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّکَ مِنَ الْآمِنِینَ» بتقدیر القول أی قیل له: أقبل و لا تخف إنک من الآمنین، و فی هذا الخطاب تأمین له، و به یظهر معنی قو له فی هذا الموضع من القصة فی سورة النمل : «یا مُوسی لا تَخَفْ إِنِّی لا یَخافُ لَدَیَّ الْمُرْسَلُونَ»: النمل: ۱۰ و أنه تأمین معناه أنک مرسل و المرسلون آمنون لدی و لیس من العتاب و التوبیخ فی شیء.

قوله تعالی: «اسْلُکْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ» المراد بسلوک یده فی جیبه إدخاله فیه، و المراد بالسوء- علی ما قیل- البرص.

و الظاهر أن فی هذا التقیید تعریضا لما فی التوراة الحاضرة فی هذا «۱» الموضع من القصة: ثم قال له الرب أیضا: أدخل یدک فی عبک فأدخل یده فی عبه ثم أخرجها و إذا یده برصاء مثل الثلج.

قوله تعالی: «وَ اضْمُمْ إِلَیْکَ جَناحَکَ مِنَ الرَّهْبِ» إلی آخر الآیة، الرهب بالفتح فالسکون و بفتحتین و بالضم فالسکون الخوف، و الجناح قیل: المراد به الید و قیل: العضد.

---

(۱) سفر الخروج الإصحاح الرابع آیة ۶.

ص: 34

قیل: المراد بضم الجناح إلیه من الرهب أن یجمع یدیه علی صدره إذا عرضه الخوف عند مشاهدة انقلاب العصا حیة لیذهب ما فی قلبه من الخوف.

و قیل: إنه لما ألقی العصا و صارت حیة بسط یدیه کالمتقی و هما جناحاه فقیل له : اضمم إلیک جناحک أی لا تبسط یدیک خوف الحیة فإنک آمن من ضررها.

و الوجهان- كما ترى- مبنيان على كون الجملة أعنى قوله: «وَ اضْمُمْ» إلخ، من تتمة قوله: «أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّکَ مِنَ الْآمِنِينَ» و هذا لا يلائم تخلل قوله: «اسْلُکْ يَدَکَ فِي جَيْبِکَ» إلخ، بين الجملتين بالفصل من غير عطف.

و قيل: الجملة كناية عن الأمر بالعزم على ما أراده الله سبحانه منه و الحث على الجد فى أمر الرسالة لئلا يمنعه ما يغشاه من الخوف فى بعض الأحوال.

و لا يبعد أن يكون المراد بالجملة الأمر بأن يأخذ لنفسه سيماء الخاشع المتواضع فإن من دأب المتكبر المعجب بنفسه أن يفرج بين عضديه و جنبيه كالمتمطى فى مشيته فيكون فى معنى ما أمر الله به النبى ص من التواضع للمؤمنين بقوله : «وَ اخْفِضْ جَناحَکَ لِلْمُؤْمِنِينَ»: الحجر: ٨٨ على بعض المعانى.

قوله تعالى: «قالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» إشارة إلى قتله القبطى بالوكز و كان يخاف أن يقتلوه قصاصا.

قوله تعالى: «وَ أَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ» قال فى المجمع :، يقال: فلان ردء لفلان إذا كان ينصره و يشد ظهره. انتهى.

و قوله: «إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ» تعليل لسؤاله إرسال هارون معه، و السياق يدل على أنه كان يخاف أن يكذبوه فيغضب و لا يستطيع بيان حجته للكنة كانت فى لسانه لا أنه سأل إرساله لئلا يكذبوه فإن من يكذبه لا يبالى أن يكذب هارون معه و من الدليل على ذلك ما وقع فى سورة الشعراء فى هذا الموضع من القصة من قوله : «قالَ رَبِّ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ وَ يَضِيقُ صَدْرِي وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِي فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ»: الشعراء: ١٣.

فمحصل المعنى: أن أخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معينا لى يبين

ص: 35

صدقى فى دعواى إذا خاصمونى إنى أخاف أن يكذبون فلا أستطيع بيان صدق دعواى.

قوله تعالى: «قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَکَ بِأَخِيکَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ» شد عضده بأخيه كناية عن تقويته به، و عدم الوصول إليهما كناية عن عدم التسلط عليهما بالقتل و نحوه كأن الطائفتين يتسابقان و إحداهما متقدمة دائما و الأخرى لا تدركهم بالوصول إليهم فضلا أن يسبقوهم.

و المعنى: قال سنقويک و نعينک بأخيک هارون و نجعل لكما سلطة و غلبة عليهم فلا يتسلطون عليكما بسبب آياتنا التى نظهركما بها. ثم قال: «أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ » و هو بيان لقوله : «وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً » إلخ، يوضح أن هذا السلطان يشملهما و من اتبعهما من الناس.

و قد ظهر بذلک أن السلطان بمعنى القهر و الغلبة و قيل: هو بمعنى الحجة و الأولى حينئذ أن يكون قوله: «بِآياتِنا» متعلقا بقوله: «الْغالِبُونَ» لا بقوله: «فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما» و قد ذكروا في الآية وجوها أخر لا جدوى في التعرض لها.

قوله تعالى: «فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً» إلخ، أي سحر موصوف بأنه مفترى و المفترى اسم مفعول بمعنى المختلق أو مصدر ميمي وصف به السحر مبالغة.

و الإشارة في قوله: «ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً» إلى ما جاء به من الآيات أي ليس ما جاء به من الخوارق إلا سحرا مختلقا افتعله فنسبه إلى الله كذبا.

و الإشارة في قوله: «وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ» إلى ما جاء به من الدعوة و أقام عليها حجة الآيات، و أما احتمال أن يراد بها الإشارة إلى الآيات فلا يلائمه تكرار اسم الإشارة على أنهم كانوا يدعون أنهم سيأتون بمثلها كما حكى الله عن فرعون في قوله: «فَلَنَأْتِيَنَّکَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ»: طه: ۵۸ على أن عدم معهودية السحر و عدم مسبوقيته بالمثل لا ينفعهم شيئا حتى يدعوه.

فالمعنى: أن ما جاء به موسى دين مبتدع لم ينقل عن آبائنا الأولين أنهم اتخذوه في وقت من الأوقات، و يناسبه ما حكى في الآية التالية من قول موسى: «رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى» إلخ.

ص: 36

قوله تعالى: «وَ قالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ» إلخ، مقتضى السياق كونه جوابا من موسى عن قولهم: «وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ» في رد دعوى موسى، و هو جواب مبني على التحدي كأنه يقول: إن ربي- و هو رب العالمين له الخلق و الأمر- هو أعلم منكم بمن جاء بالهدى و من تكون له عاقبة الدار و هو الذي أرسلني رسولا جائيا بالهدى- و هو دين التوحيد- و وعدني أن من أخذ بديني فله عاقبة الدار، و الحجة على ذلک الآيات البينات التي آتانيها من عنده.

فقوله: «رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ» يريد به نفسه و المراد بالهدى الدعوة الدينية التي جاء بها.

و قوله: «وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ» المراد بعاقبة الدار إما الجنة التي هي الدار الآخرة التي يسكنها السعداء كما قال تعالى حكاية عنهم: «وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشاءُ»: الزمر: ۷۴ و إما عاقبة الدار الدنيا كما في قوله: «قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»: الأعراف: ۱۲۸ و إما الأعم الشامل للدنيا و الآخرة، و الثالث أحسن الوجوه ثم الثاني كما يؤيده تعليله بقوله: «إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

و في قوله: «إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» تعريض لفرعون و قومه و فيه نفي أن تكون لهم عاقبة الدار فإنهم بنوا سنة الحياة على الظلم و فيه انحراف عن العدالة الاجتماعية التي تهدي إليها فطرة الإنسان الموافقة للنظام الكوني.

قال بعض المفسرين: و الوجه فى عطف قوله: «وَ قالَ مُوسى رَبِّی أَعْلَمُ» إلخ، على قولهم: «ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً» إلخ حكاية القولين ليوازن السامع بينهما ليميز صحيحهما من الفاسد . انتهى. و ما قدمناه من كون قول موسى (ع) مسوقا لرد قولهم أوفق للسياق.

قوله تعالى: «وَ قالَ فِرْعَوْنُ یا أَیُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرِی» إلى آخر الآیة، فیه تعریض لموسى بما جاء به من الدعوة الحقة المؤیدة بالآیات المعجزة یرید أنه لم یتبین له حقیة ما یدعو إلیه موسى و لا کون ما أتى به من الخوارق آیات معجزة من

ص: 37

عند الله و أنه ما علم لهم من إله غیره.

فقوله: «ما عَلِمْتُ لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرِی » سوق للکلام فی صورة الإنصاف لیقع فی قلوب الملأ موقع القبول کما هو ظاهر قوله المحکی فی موضع آخر: «ما أُرِیکُمْ إِلَّا ما أَرى وَ ما أَهْدِیکُمْ إِلَّا سَبِیلَ الرَّشادِ»: المؤمن: ٢٩.

فمحصل المعنى: أنه ظهر للملإ أنه لم یتضح له من دعوة موسى و آیاته أن هناک إلها هو رب العالمین و لا حصل له علم بأن هناک إلها غیره ثم أمر هامان أن یبنی له صرحا لعله یطلع إلى إله موسى.

و بذلک یظهر أن قوله : «ما عَلِمْتُ لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرِی » من قبیل قصر القلب فقد کان موسى (ع) یثبت الألوهیة لله سبحانه و ینفیها عن غیره و هو ینفیها عنه تعالى و یثبتها لنفسه، و أما سائر الآلهة التی کان یعبدها هو و قومه فلا تعرض لها.

و قوله: «فَأَوْقِدْ لِی یا هامانُ عَلَى الطِّینِ فَاجْعَلْ لِی صَرْحاً » المراد بالإیقاد على الطین تأجیج النار علیه لصنعة الأجر المستعمل فی الأبنیة، و الصرح البناء العالی المکشوف من صرح الشیء إذا ظهر ففی الجملة أمر باتخاذ الأجر و بناء قصر عال منه.

و قوله: «لَعَلِّی أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى» نسب الإله إلى موسى بعنایة أنه هو الذی یدعو إلیه، و الکلام من وضع النتیجة موضع المقدمة و التقدیر: اجعل لی صرحا أصعد إلى أعلى درجاته فأنظر إلى السماء لعلی أطلع إلى إله موسى کأنه کان یرى أنه تعالى جسم ساکن فی بعض طبقات الجو أو ا لأفلاک فکان یرجو إذا نظر من أعلى الصرح أن یطلع إلیه أو کان هذا القول من قبیل التعمیة على الناس و إضلالهم.

و یمکن أن یکون المراد أن یبنی له رصدا یترصد الکواکب فیرى هل فیها ما یدل على بعثة رسول أو حقیة ما یصفه موسى (ع)، و یؤید هذا قوله على ما حکى فی موضع آخر : «یا هامانُ ابْنِ لِی صَرْحاً لَعَلِّی أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ کاذِباً»: المؤمن: ٣٧.

و قوله: «وَ إِنِّی لَأَظُنُّهُ مِنَ الْکاذِبِینَ» ترق منه من الجهل الذی یدل علیه قوله:

«ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِی» إلی الظن بعدم الوجود و قد کان کاذبا فی قوله هذا و لا یقوله إلا تمویها و تعمیة علی الناس و قد خاطبه موسی بقوله: «لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ

ص: 38

هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ»: إسراء: ۱۰۲.

و ذکر بعضهم أن قوله: «ما عَلِمْتُ لَکُمْ مِنْ إِلهٍ غَیْرِی» من قبیل نفی المعلوم بنفی العلم فیما لو کان لبان فیکون نظیر قوله: «قُلْ أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَ لا فِي الْأَرْضِ»: یونس: ۱۸ و أنت خبیر بأنه لا یلائم ذیل الآیة.

قوله تعالی: «وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ» أی کانت حالهم حال من یترجح عنده عدم الرجوع و ذلک أنهم کانوا موقنین فی أنفسهم کما قال تعالی: «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا».

قوله تعالی: «فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ» إلخ النبذ الطرح، و الیم البحر و الباقی ظاهر.

و فی الآیة من الاستهانة بأمرهم و تهویل العذاب الواقع بهم ما لا یخفی.

قوله تعالی: «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ» الدعوة إلی النار هی الدعوة إلی ما یستوجب النار من الکفر و المعاصی لکونها هی التی تتصور لهم یوم القیامة نارا یعذبون فیها أو المراد بالنار ما یستوجبها مجازا من باب إطلاق المسبب و إرادة سببه.

و معنی جعلهم أئمة یدعون إلی النار، تصی یرهم سابقین فی الضلال یقتدی بهم اللاحقون و لا ضیر فیه لکونه بعنوان المجازاة علی سبقهم فی الکفر و الجحود و لیس من الإضلال الابتدائی فی شیء.

و قیل: المراد بجعلهم أئمة یدعون إلی النار تسمیتهم بذلک علی حد قوله:

«وَ جَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً»: الزخرف: ۱۹.

و فیه أن الآیة التالیة علی ما سیجی ء من معناها لا تلائمه . علی أن کون الجعل فی الآیة المستشهد بها بمعنی التسمیة غیر مسلم.

و قوله: «وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ» أی لا تنالهم شفاعة من ناصر.

قوله تعالی: «وَ أَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ » بیان للازم ما وصفهم به فی الآیة السابقة فهم لکونهم أئمة یقتدی بهم من خلفهم فی الکفر و المعاصی لا یزال یتبعهم ضلال الکفر و المعاصی من مقتدیهم و متبعیهم و علیهم من الأوزار مثل ما للمتبعین فیتبعهم لعن مستمر باستمرار الکفر و المعاصی بعدهم.

ص: 39

فالآیهٔ فی معنی قوله: «وَ لَیَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ»: العنکبوت: ۱۳ و قوله: «وَ نَکْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ»: یس: ۱۲ و تنکیر اللعنهٔ للدلالهٔ علی تفخیمها و استمرارها.

و کذا لما لم ینلهم یوم القیامهٔ نصر ناصر کانوا بحیث یتنفر و یشمئز عنهم النفوس و یفر منهم الناس و لا یدنو منهم أحد و هو معنی القبح و قد وصف الله تعالی من قبح منظرهم شیئا کثیرا فی کلامه.

(بحث روائی)

فی المجمع، روی الواحدی بالإسناد عن ابن عباس قال: سئل رسول الله ص أی الأجلین قضی موسی؟ قال: أوفاهما و أبطأهما.

أقول: و روی ما فی معناه بالإسناد عن أبی ذر عنه (ص).

و فی الدر المنثور، أخرج ابن مردویه عن مقسم قال: لقیت الحسن بن علی بن أبی طالب رض- فقلت له: أی الأجلین قضی موسی؟ الأول أو الآخر؟

قال: الآخر.

و فی المجمع، روی أبو بصیر عن أبی جعفر (ع) قال: لما قضی موسی الأجل و سار بأهله نحو البیت أخطأ الطریق فرأی نارا «قالَ لِأَهْلِهِ امْکُثُوا إِنِّی آنَسْتُ ناراً».

و عن کتاب طب الأئمهٔ، بإسناده عن جابر الجعفی عن الباقر (ع) فی حدیث قال: و قال الله عز و جل فی قصهٔ موسی (ع): «وَ أَدْخِلْ یَدَکَ فِی جَیْبِکَ تَخْرُجْ بَیْضاءَ مِنْ غَیْرِ سُوءٍ» یعنی من غیر برص.

و فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالی: «وَ أَخِی هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّی لِساناً- فَأَرْسِلْهُ مَعِی رِدْءاً یُصَدِّقُنِی» قال الراوی: فقلت لأبی جعفر (ع): فکم مکث موسی (ع) غائبا عن أمه- حتی رده الله عز و جل علیها؟ قال: ثلاثهٔ أیام.

قال: فقلت: فکان هارون أخا موسی (ع) لأبیه و أمه؟ قال: نعم أ ما تسمع الله عز و جل یقول: «یَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْیَتِی وَ لا بِرَأْسِی»؟ فقلت:

ص: 40

فأیهما کان أکثر سنا؟ قال: هارون. قلت: فکان الوحی ینزل علیهما جمیعا؟ قال:

کان الوحی ینزل علی موسی و موسی یوحیه إلی هارون-

فقلت له: أخبرنى عن الأحكام و القضاء و الأمر و النهى- كان ذلک إليهما؟ قال:

کان موسى الذى يناجى ربه و يكتب العلم- و يقضى بين بنى إسرائيل- و هارون يخلفه إذا غاب من قومه للمناجاة . قلت: فأيهما مات قبل صاحبه؟ قال : مات هارون قبل موسى و ماتا جميعا فى التيه . قلت: فكان لموسى ولد؟ قال : لا كان الولد لهارون و الذرية له.

أقول: و آخر الرواية لا يوافق روايات أخر تدل على أنه كان له ولد، و فى التوراة الحاضرة أيضا دلالة على ذلک.

فى جوامع الجامع،: فى قوله تعالى: «وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ » قال (ع) فيما حكاه عن ربه عز و جل : الكبرياء ردائى و العظمة إزارى- فمن نازعنى واحدا منهما ألقيته فى النار.

و فى الكافى، بإسناده عن طلحة بن زيد عن أبى عبد الله (ع) قال: قال : إن الأئمة فى كتاب الله عز و جل إمامان- قال الله تبارک و تعالى: «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» لا بأمر الناس يقدمون أمر الله قبل أمرهم و حكم الله قبل حكمهم. قال:

«وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ » يقدمون أمرهم قبل أمر الله- و حكمهم قبل حكم الله و- يأخذون بأهوائهم خلاف ما فى كتاب الله عز و جل.

(كلام حول قصص موسى و هارون (ع)) فى فصول

۱- منزلة موسى عند الله و موقفه العبودى:

كان (ع) أحد الخمسة أولى العزم الذين هم سادة الأنبياء و لهم كتاب و شريعة كما خصهم الله تعالى بالذكر فى قوله:

«وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْکَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً»: الأحزاب: ۷، و قال: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِی أَوْحَيْنا إِلَيْکَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى»: الشورى: ۱۳

ص: 41

و لقد امتن الله سبحانه عليه و على أخيه فى قوله : «وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَ هارُونَ»: الصافات: ۱۱۴ و سلم عليهما فى قوله : «سَلامٌ عَلى مُوسى وَ هارُونَ»: الصافات: ۱۲۰.

و أثنى على موسى (ع) بأجمل الثناء فى قوله: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا»: مريم:

۵۲ و قال: «وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً»: الأحزاب: ۶۹ و قال: «وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً»: النساء: ۱۶۴.

و ذكره فى جملة من ذكرهم من الأنبياء فى سورة الأنعام الآية ۸۴- ۸۸ فأخبر أنهم كانوا محسنين صالحين و أنه فضلهم على العالمين و اجتباهم و هداهم إلى صراط مستقيم. و ذكره فى جملة الأنبياء فى سورة مريم ثم ذكر فى الآية ۵۸ منها أنهم الذين أنعم الله عليهم.

فاجتمع بذلک له (ع) معنى الإخلاص و التقريب و الوجاهة و الإحسان و الصلاح و التفضيل و الاجتباء و الهداية و الإنعام و قد مر البحث عن معانى هذه الصفات فى مواضع تناسبها من هذا الكتاب و كذا البحث عن معنى النبوة و الرسالة و التكليم.

و ذكر الكتاب النازل عليه و هو التوراة فوصفها بأنها إمام و رحمة (سورة الأحقاف: ۱۲) و بأنها فرقان و ضياء و ذكر: (الأنبياء: ۴۸) و بأن فيها هدى و نور: (المائدة: ۴۴) و قال: «وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْ ءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْ ءٍ»: الأعراف: ۱۴۵.

غير أنه تعالى ذكر فى مواضع من كلامه أنهم حرفوها و اختلفوا فيها . و قصة بخت نصر و فتحه فلسطين ثانيا و هدمه الهيكل و إحراقه التوراة و حشره اليهود إلى بابل سنة خمسمائة و ثمان و ثمانين قبل المسيح ثم فتح كورش الملک بابل سنة خمسمائة و ثمان و ثلاثين قبل المسيح و إذنه لليهود أن يرجعوا إلى فلسطين ثانيا و كتابة عزراء الكاهن التوراة لهم معروف فى التواريخ و قد تقدمت الإشارة إليه فى الجزء الثالث من الكتاب فى قصص المسيح (ع).

۲- قصص موسى (ع) فى القرآن:

هو (ع) أكثر الأنبياء ذكرا فى

ص: 42

القرآن الكريم فقد ذكر اسمه- على ما عدوه- فى مائة و ستة و ستين موضعا من كلامه تعالى، و أشير إلى قصته إجمالا أو تفصيلا فى أربع و ثلاثين سورة من سور القرآن، و قد اختص من بين الأنبياء بكثرة الم عجزات، و قد ذكر فى القرآن شى ء كثير من معجزاته الباهرة كصيرورة عصاه ثعبانا، و اليد البيضاء، و الطوفان، و الجراد، و القمل، و الضفادع، و الدم، و فلق البحر، و إنزال المن و السلوى، و انبجاس العيون من الحجر بضرب العصا، و إحياء الموتى، و رفع الطور فوق القوم و غي ذلک.

و قد ورد فى كلامه تعالى طرف من قصصه (ع) من دون استيفائها فى كل ما دق و جل بل بالاقتصار على فصول منها يهم ذكرها لغرض الهداية و الإرشاد على ما هو دأب القرآن الكريم فى الإشارة إلى قصص الأنبياء و أممهم.

و هذه الفصول التى فيها كليات قصصه هى أنه تولد بمصر فى بيت إسرائيلى حينما كانوا يذبحون المواليد الذكور من بنى إسرائيل بأمر فرعون و جعلت أمه إياه فى تابوت و ألقته فى البحر و أخذ فرعون إياه ثم رده إلى أمه للإرضاع و التربية و نشأ فى بيت فرعون.

ثم بلغ أشده و قتل القبطى و هرب من مصر إلى مدين خوفا من فرعون و ملئه أن يقتلوه قصاصا.

ثم مکث فی مدین عند شعیب النبی (ع) و تزوج إحدی بنتیه.

ثم لما قضی موسی الأجل و سار بأهله آنس من جانب الطور نارا و قد ضلوا الطریق فی لیلهٔ شاتیهٔ فأوقفهم مکانهم و ذهب إلی النار لیأتیهم بقبس أو یجد علی النار هدی فلما أتاها ناداه الله من شاطئ الوادی الأیمن فی البقعهٔ المبارکهٔ من الشجرهٔ و کلمه و اجتباه و آتاه معجزهٔ العصا و الید البیضاء فی تسع آیات و اختاره للرسالهٔ إلی فرعون و ملئه و إنجاء بنی إسرائیل و أمره بالذهاب إلیه.

فأتی فرعون و دعاه إلی کلمهٔ الحق و أن یرسل معه بنی إسرائیل و لا یعذبهم و أراه آیهٔ العصا و الید البیضاء فأبی و عارضهٔ بسحر السحرهٔ و قد جاءوا بسحر عظیم من ثعابین و حیات فألقی عصاه فإذا هی تلقف ما یأفکون فألقی السحرهٔ ساجدین قالوا آمنا برب العالمین رب موسی و هارون و أصر فرعون علی جحوده و هدد السحرهٔ و لم یؤمن.

ص: 43

فلم یزل موسی (ع) یدعوه و ملأه و یریهم الآیهٔ بعد الآیهٔ کالطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آیات مفصلات و هم یصرون علی استکبارهم، و کلما وقع علیهم الرجز قالوا : یا موسی ادع لنا ربک بما عهد عندک لئن کشفت عنا الرجز لنؤمنن لک و لنرسلن معک بنی إسرائیل فلما کشف الله عنهم الرجز إلی أجل هم بالغوه إذا هم ینکثون.

فأمره الله أن یسری بنی إسرائیل لیلا فساروا حتی بلغوا ساحل البحر فعقبهم فرعون بجنوده فلما تراءی الفریقان قال أصحاب موسی إنا لمدرکون قال کلا إن معی ربی سیهدین فأمر بأن یضرب بعصاه البحر فانفلق الماء فجاوزوا البحر و اتب عهم فرعون و جنوده حتی إذا ادارکوا فیها جمیعا أطبق الله علیهم الماء فأغرقهم عن آخرهم.

و لما أنجاهم الله من فرعون و جنوده و أخرجهم إلی البر و لا ماء فیه و لا کلاء أکرمهم الله فأنزل علیهم المن و السلوی و أمر موسی فضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرهٔ عینا قد علم کل أناس مشربهم فشربوا منها و أکلوا منهما و ظللهم الغمام.

ثم واعد الله موسی أربعین لیلهٔ لنزول التوراهٔ بجبل الطور فاختار قومه سبعین رجلا لیسمعوا تکلیمه تعالی إیاه فسمعوا ثم قالوا : لن نؤمن لک حتی نری الله جهرهٔ فأخذتهم الصاعقهٔ و هم ینظرون ثم أحیاهم الله بدعوهٔ موسی، و لما تم المیقات أنزل الله علیه التوراهٔ و أخبره أن السامری قد أضل قومه بعده فعبدوا العجل.

فرجع موسی إلی قومه غضبان أسفا فأحرق العجل و نسفه فی الیم و طرد السامری و قال له: اذهب فإن لک فی الحیاهٔ أن تقول لا مساس و أما القوم فأمروا أن یتوبوا و یقتلوا أنفسهم فتیب علیهم بعد ذلک ثم استکبروا عن قبول شریعهٔ التوراهٔ حتی رفع الله الطور فوقهم.

ثم إنهم ملوا المن و السلوی و قالوا لن نصبر علی طعام واحد و سألوه أن یدعو ربه أن یخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها و قثائها و فومها و عدسها و بصلها فأمروا أن یدخلوا الأر ض المقدسهٔ التی کتب الله لهم فأبوا فحرمها الله علیهم و ابتلاهم بالتیه یتیهون فی الأرض أربعین سنهٔ.

و من قصص موسی (ع) ما ذکره الله فی سورة الکهف من مضیه مع فتاه إلی

ص: 44

مجمع البحرین للقاء العبد الصالح و صحبته حتی فارقه.

۳- منزلة هارون (ع) عند الله و موقفه العبودی:

أشرکه الله تعالی مع موسی (ع) فی سورة الصافات فی المن و إیتاء الکتاب و الهدایة إلی الصراط المستقیم و فی التسلیم و أنه من المحسنین و من عباده المؤمنین (الصافات: ۱۱۴- ۱۲۲) و عده مرسلا (طه: ۴۷) و نبیا (مریم: ۵۳) و أنه ممن أنعم علیهم (مریم: ۵۸) و أشرکه مع من عدهم من الأنبیاء فی سورة الأنعام فی صفاتهم الجمیلة من الإحسان و الصلاح و الفضل و الاجتباء و الهدایة (الإنعام: ۸۴- ۸۸).

و فی دعاء موسی لیلة الطور: «وَ اجْعَلْ لِی وَزِیراً مِنْ أَهْلِی هارُونَ أَخِی اشْدُدْ بِهِ أَزْرِی وَ أَشْرِکْهُ فِی أَمْرِ ی کَیْ نُسَبِّحَکَ کَثِیراً وَ نَذْکُرَکَ کَثِیراً إِنَّکَ کُنْتَ بِنا بَصِیراً»: طه: ۳۵.

و کان (ع) ملازما لأخیه فی جمیع مواقفه یشارکه فی عامة أمره و یعینه علی جمیع مقاصده.

و لم یرد فی القرآن الکریم مما یختص به من القصص إلا خلافته لأخیه حین غاب عن القوم ل لمیقات و قال لأخیه هارون اخلفنی فی قومی و أصلح و لا تتبع سبیل المفسدین و لما رجع موسی إلی قومه غضبان أسفا و قد عبدوا العجل ألقی الألواح و أخذ برأس أخیه یجره إلیه قال ابن أم إن القول استضعفونی و کادوا یقتلوننی فلا تشمت بی الأعداء و لا تجعلنی مع القوم الظالمین قال رب اغفر لی و لأخی و أدخلنا فی رحمتک و أنت أرحم الراحمین.

۴- قصة موسی (ع)

فی التوراة الحاضرة: قصصه (ع) موضوعة فیما عدا السفر الأول من أسفار التوراة الخمسة و هی: سفر الخروج و سفر اللاویین و سفر العدد و سفر التثنیة تذکر فیها تفاصیل قصصه (ع) من حین ولادته إلی حین وفاته و ما أوحی إلیه من الشرائع و الأحکام.

غیر أن فیها اختلافات فی سرد القصة مع القرآن فی أمور غیر یسیرة.

و من أهمها أنها تذکر أن نداء موسی و تکلیمه من الشجرة کان فی أرض مدین

ص: 45

قبل أن یسیر بأهله و ذلک حین کان یرعی غنم یثرون «۱» حمیة کاهن مدیان فساق الغنم إلی وراء البریة و جاء إلی جبل الله حوریب و ظهر له ملاک الرب بلهیب نار من وسط علیقة فناداه الله و کلمه بما کلمه و أرسله إلی فرعون لإنجاء بنی إسرائیل .

«۲» و منها ما ذكرت أن فرعون الذى أرسل إليه موسى غير فرعون الذى أخذ موسى و رباه ثم هرب منه موسى لما قتل القبطى خوفا من القصاص. «۳» و منها أنها لم تذكر إيمان السحرة لما ألقوا عصيهم فصارت حيات فتلقفتها عصا موسى بل تذكر أنهم كانوا عند فرعون و عارضوا موسى فى آيتى الدم و الضفادع فأتوا بسحرهم مثل ما أتى به موسى (ع) معجزة. «۴» و منها أنها تذكر أن الذى صنع لهم العجل فعبدوه هو هارون النبى أخو موسى (ع) و ذلک أنه لما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون و قالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير إمامنا لأن هذا (موسى) الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ما ذا أصابه؟ فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الشعب التى فى آذان نسائكم و بنيكم و بناتكم و أتونى بها.

فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم و أتوا بها إلى هارون فأخذ ذلک من أيديهم و صوره بالإزميل فصبغه عجلا مسبوكا فقالوا أ هذه آلهتک يا إسرائيل التى أصعدتک من أرض مصر . «۵» و فى الآيات القرآنية تعريضات للتوراة فى هذه المواضع من قصصه (ع) غير خفية على المتدبر فيها.

و هناک اختلافات جزئية كثيرة كما وقع فى التوراة فى قصة قتل القبطى أن

---

(۱) تسمى التوراة أبا زوجة موسى يثرون كاهن مديان.

(۲) الإصحاح الثالث من سفر الخروج .

(۳) سفر الخروج، الإصحاح الثانى. الآية ۲۳.

(۴) الإصحاح السابع و الثامن من سفر الخروج.

(۵) الإصحاح الثانى و الثلاثون من سفر الخروج.

المتضاربين ثانيا كانا جميعا إسرائيليين. «۱» و أيضا وقع فيها أن الذى ألقى العصا فتلقفت حيات السحرة هو هارون ألقاها بأمر موسى. «۲» و أيضا لم تذكر فيها قصة انتخاب السبعين رجلا للميقات و نزول الصاعقة عليهم و إحياءهم بعده.

و أيضا فيها أن الألواح التى كانت مع موسى لما نزل من الجبل و ألقاها كانت لوحين من حجر و هما لوحا الشهادة «۳». إلى غير ذلک من الاختلافات.

[سورة القصص (۲۸): الآيات ۴۳ الى ۵۶]

وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى‏ بَصائِرَ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۴۳) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى‏ مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۴۴) وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ

مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ لكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (۴۵) وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِکَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۴۶) وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آياتِکَ وَ نَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۴۷)

فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (۴۸) قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۹) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَکَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۵۰) وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (۵۱) الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (۵۲)

وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (۵۳) أُولئِکَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (۵۴) وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ (۵۵) إِنَّکَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۵۶)

---

(۱) الإصحاح الثانی من سفر الخروج.

(۲) الإصحاح السابع من سفر الخروج.

(۳) الإصحاح الثانی من سفر الخروج.

ص: 47

(بيان)

سياق الآيات يشهد أن المشركين من قوم النبی ص راجعوا بعض أهل الكتاب و استفتوهم فی أمره (ص) و عرضوا عليهم بعض القرآن النازل عليه و هو

ص: 48

مصدق للتوراة فأجابوا بتصديقه و الإيمان بما يتضمنه القرآن من المعارف الحقة و أنهم كانوا يعرفونه بأوصافه قبل أن يبعث كما قال تعالى: «وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ».

فساء المشركين ذلک و شاجروهم و أغلظوا عليهم فی القول و قالوا : إن القرآن سحر و التوراة سحر مثله «سِحْرانِ تَظاهَرا» و «إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ» فأعرض الكتابيون عنهم و قالوا: سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ.

هذا ما يلوح إليه الآيات الكريمة بسياقها، و هو سبحانه لما ساق قصة موسى (ع) و أنبأ أنه كيف أظهر قوما مستضعفين معبدين معذبين يذبح أبناؤهم و تستحيى نساؤهم على قوم عالين مستكبرين طغاة مفسدين بوليد منهم رباه فى حجر عدوه الذى يذبح بأمره الألوف من أبنائهم ثم أخرجه لما نشأ من بينهم ثم بعثه و رده إليهم و أظهره عليهم حتى أغرقهم أجمعين و أنجى شعب إسرائيل فكانوا هم الوارثين.

عطف القول على الكتاب السماوى الذى هو المتضمن للدعوة و به تتم الحجة و هو الحامل للتذكرة فذكر أنه أنزل التوراة على موسى (ع) فيه بصائر للناس و هدى و رحمة لعلهم يتذكرون فينتهون عن معصية الله بعد ما أهلك القرون الأولى بمعاصيهم.

و كذا أنزل على النبى ص القرآن و قص عليه قصص موسى (ع) و لم يكن هو شاهدا لنزول التوراة عليه و لا حاضرا فى الطور لما ناداه و كلمه، و قص عليه ما جرى بين موسى و شعيب (ع) و لم يكن هو ثاويا فى مدين يتلو عليهم آياته و لكن أنزله و قص عليه ما قصه رحمة منه لينذر به قوما ما أتاهم من نذير من قبله لأنهم بسبب كفرهم و فسوقهم فى معرض نزول العذاب و أصابه المصيبة فلو لم ينزل الكتاب و لم يبلغ الدعوة لقالوا : ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتک و كانت الحجة لهم على الله سبحانه.

فلما جاءهم الحق من عنده ببعثة النبى ص و نزول القرآن قالوا : لَوْ لا أُوتِیَ مِثْلَ ما أُوتِیَ مُوسی أ وَ لَمْ یَکْفُرُوا بِما أُوتِیَ مُوسی مِنْ قَبْلُ حين راجعوا أهل الكتاب فى أمره فصدقوه فقال المشركون : سِحْرانِ تَظاهَرا يعنون التوراة و القرآن، و قالوا إِنَّا بِکُلٍّ کافِرُونَ.

ص: 49

ثم لقن سبحانه نبيه ص الحجة عليهم بقوله : «قُلْ فَأْتُوا بِکِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدی مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ» أى إن من الواجب فى حكمة الله أن يكون هناک كتاب نازل من عند الله يهدى إلى الحق و تتم به الحجة على الناس و هم يعرفون فإن لم تكن التوراة و القرآن كتابى هدى و كافيين لهداية الناس فهناک كتاب هو أهدى منهما و ليس كذلک إذ ما فى الكتابين من المعارف الحقة مؤيدة بالإعجاز و بدلالة البراهين العقلية . على أنه ليس هناک كتاب سماوى هو أهدى منهما فالكتابان كتابا هدى و القوم فى الإعراض عنهما متبعون للهوى ضالون عن الصراط المستقيم و هو قوله:

«فَإِنْ لَمْ یَسْتَجِیبُوا لَکَ فَاعْلَمْ أَنَّما یَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ» إلخ.

ثم مدح سبحانه قوما من أهل الكتاب راجعهم المشركون فى أمر النبى ص و القرآن فأظهروا لهم الإيمان و التصديق و أعرضوا عن لغو القول الذى جبهوهم به.

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَکْنَا الْقُرُونَ الْأُولی بَصائِرَ لِلنَّاسِ» إلخ اللام للقسم أى أقسم لقد أعطينا موسى الكتاب و هو التوراة بوحيه إليه.

و قوله: «مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولى» أى الأجيال السابقة على نزول التوراة كقوم نوح و من بعدهم من الأمم الهالكة و لعل منهم قوم فرعون، و فى هذا التقييد إشارة إلى مسيس الحاجة حينئذ إلى نزول الكتاب لاندراس معالم الدين الإل هى بمضى الماضين و ليشار فى الكتاب الإلهى إلى قصصهم و حلول العذاب الإلهى بهم بسبب تكذيبهم لآيات الله ليعتبر به المعتبرون و يتذكر به المتذكرون.

و قوله: «بَصائِرَ لِلنَّاسِ» جمع بصيرة بمعنى ما يبصره به و كان المراد بها الحجج البينة التى يبصر بها الحق و يميز بها بينه و بين الباطل، و هى حال من الكتاب و قيل:

مفعول له.

و قوله: «وَ هُدىً» بمعنى الهادى أو ما يهتدى به و كذا قوله : «وَ رَحْمَةً» بمعنى ما يرحم به و هما حالان من الكتاب كبصائر، و قيل: كل منهما مفعول له.

و المعنى: و أقسم لقد أعطينا موسى الكتاب و هو التوراة من بعد ما أهلكنا

ص: 50

الأجيال الأولى فاقتضت الحكمة تجديد الدعوة و الإنذار حال كون الكتاب حججا بينة يبصر بها الناس المعارف الحقة و هدى يهتدون به إليها و رحمة يرحمون بسبب العمل بشرائعه و أحكامه لعلهم يتذكرون فيفقهون ما يجب عليهم من الاعتقاد و العمل.

قوله تعالى: «وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ » الخطاب للنبى ص، و الغربى صفة محذوفة الموصوف و المراد جانب الوادى الغربى أو جانب الجبل الغربى.

و قوله: «إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ» كان القضاء مضمن معنى العهد، و المراد بعهد الأمر إليه- على ما قيل- أحكام أمر نبوته بإنزال التوراة إليه و أما العهد إليه بأصل الرسالة فيدل عليه قوله بعد: «وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا» و قوله:

«وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ» تأكيد لسابقه.

و المعنى: و ما كنت حاضرا و شاهدا حين أنزلنا التوراة على موسى فى الجانب الغربى من الوادى أو الجبل.

قوله تعالى: «وَ لكِنَّا أَنْشَأْنا قُرُوناً فَتَطاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ » تطاول العمر تمادى الأمد و الجملة استدراک عن النفى فى قوله : «وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِى»، و المعنى:

ما كنت حاضرا هناک شاهدا لما جرى فيه و لكنا أوجدنا أجيالا بعده فتمادى بهم الأمد ثم أنزلنا عليک قصته و خبر نزول الكتاب عليه ففى الكلام إيجاز بالحذف لدلالة المقام عليه.

قوله تعالى: «وَ ما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ لكِنّٰا كُنّٰا مُرْسِلِينَ» الثاوى المقيم يقال: ثوى فى المكان إذا أقام فيه، و الضمير فى «عَلَيْهِمْ» لمشركى مكة الذين كان النبى ص يتلو عليهم آيات الله التى تقص ما جرى على موسى (ع) فى مدين زمن كونه فيه.

و قوله: «وَ لكِنّٰا كُنّٰا مُرْسِلِينَ» استدراك من النفى فى صدر الآية.

و المعنى: و ما كنت مقيما فى أهل مدين- و هم شعيب و قومه- مشاهدا لما جرى على موسى هناك تتلو على المشركين آياتنا القاصة لخبره هناك و لكنا كنا مرسلين لك إلى قومك موحين بهذه الآيات إليك لتتلوها عليهم.

ص: 51

قوله تعالى: «وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» إلى آخر الآية، الظاهر من مقابلة الآية لقوله السابق: «وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا» إلخ، إن المراد بهذا النداء ما كان من الشجرة فى الليلة التى آنس فيها من جانب الطور نارا.

و قوله: «وَ لكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ» إلخ، استدراك عن النفى السابق، و الظاهر أن «رَحْمَةً» مفعول له، و الالتفات عن التكلم بالغير إلى الغيبة فى قوله: «مِنْ رَبِّكَ» للدلالة على كمال عنايته تعالى به (ص).

و قوله: «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ» الظاهر أن المراد بهذا القوم أهل عصر الدعوة النبوية أو هم و من يقارنهم من آبائهم فإن العرب خلت فيهم رسل منهم كهود و صالح و شعيب و إسماعيل (ع).

و المعنى: و ما كنت حاضرا فى جانب الطور إذ نادينا موسى و كلمناه و اخترناه للرسالة حتى تخبر عن هذه القصة إخبار الحاضر المشاهد و لكن لرحمة منا أخبرناك بها لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون.

قوله تعالى: «وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنا» إلخ، المراد بما قدمت أيديهم ما اكتسبوه من السيئات من طريق الاعتقاد و العمل بدليل ذيل الآية، و المراد بالمصيبة التى تصيبهم أعم من مصيبة الدنيا و الآخرة فإن الإعراض عن الحق بالكفر و الفسوق يستتبع المؤاخذة الإلهية فى الدنيا كما يستتبعها فى الآخرة، و قد تقدم بعض الكلام فيه فى ذيل قوله: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ»: الأعراف: ٩٦ و غيره.

و قوله: «فَيَقُولُوا رَبَّنا لَوْ لا أَرْسَلْتَ» متفرع على ما تقدمه على تقديم عدم إرسال الرسول و جواب لو لا محذوف لظهوره و التقدير: لما أرسلنا رسولا.

و محصل المعنى: أنه لو لا أنه تكون لهم الحجة علينا على تقدير عدم إرسال الرسول و أخذهم بالعذاب بما قدمت أيديهم من الكفر و الفسوق لما أرسلنا إليهم رسولا لكنهم يقولون ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك التى يتلوه ا علينا و نكون من المؤمنين.

قوله تعالى: «فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى»

ص: 52

إلخ، أى فأرسلنا إليهم الرسول بالحق و أنزلنا الكتاب فلما جاءهم الحق من عندنا و الظاهر أنه الكتاب النازل على الرسو ل و هو القرآن النازل على النبى ص.

و المراد بقولهم: «لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى» أى لو لا أوتى النبى ص مثل التوراة التى أوتيها موسى (ع)، و كأنهم يريدون به أن ينزل القرآن جملة واحدة كما حكى الله تعالى عنهم بقوله : «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً »: الفرقان: ٣٢.

و قد أجاب الله عن قولهم بقوله : «أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا» يعنون القرآن و التوراة «وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ». و الفرق بين القولين أن الأول كفر بالكتابين و الثانى كفر بأصل النبوة و لعله الوجه لتكرار «قالُوا» فى الكلام.

قوله تعالى: «قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ » تفريع على كون القرآن و التوراة سحرين تظاهرا، و لا يصح هذا التفريع إلا إذا كان من الواجب أن يكون بين الناس كتاب من عند الله سبحانه يهديهم و يجب عليهم اتباعه فإذا كانا سحرين باطلين كان الحق غيرهما، و هو كذلك على ما تبين بقوله:

«وَ لَوْ لا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ » إلخ، إن للناس على الله أن ينزل عليهم الكتاب و يرسل إليهم الرسول، و لذلك أمر تعالى نبيه ص أن يطالبهم بكتاب غيرهما هو أهدى منهما ليتبعه.

ثم الكتابان لو كانا سحرين تظاهرا كانا باطلين مضلين لا هدى فيهما حتى يكون غيرهما من الكتاب الذى يأتون به أهدى منهما- لاستلزام صيغة التفضيل اشتراك المفضل و المفضل عليه فى أصل الوصف- لكن المقام لما كان مقام المحاجة ادعى أن الكتابين هاديان لا مزيد عليهما فى الهداية فإن لم يقبل الخصم ذلك فليأت بكتاب يزيد عليهما فى معنى ما يشتملان عليه من بيان الواقع فيكون أهدى منهما.

و القرآن الكريم و إ ن كان يصرح بتسرب التحريف و الخلل فى التوراة الحاضرة و ذلك لا يلائم عدها كتاب هدى بقول مطلق لكن الكلام فى التوراة الواقعية النازلة على موسى (ع) و هى التى يصدقها القرآن.

ص: 53

على أن موضوع الكلام هما معا و القرآن يقوم التوراة الحاضرة ببيان ما فيها من الخلل فهما معا هدى لا كتاب أهدى منهما.

و قوله: «إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ» أى فى دعوى أنهما سحران تظاهرا.

قوله تعالى: «فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَکَ فَاعْلَمْ أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ » إلى آخر الآية، الاستجابة و الإجابة بمعنى واحد، قال فى الكشاف: هذا الفعل يتعدى إلى الدعاء بنفسه و إلى الداعى باللام، و يحذف الدعاء إذا عدى إلى الداعى فى الغالب فيقال:

استجاب الله دعاءه أو استجاب له، و لا يكاد يقال: استجاب له دعاءه. انتهى.

فقوله: «فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَکَ» تفريع على قوله: «قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ» أى فإن قلت لهم كذا و كلفتهم بذلک فلم يأتوا بكتاب هو أهدى من القرآن و التوراة و تعين أن لا هدى أتم و أكمل من هداهما و هم مع ذلک يرمونها بالسحر و يعرضون عنهما فاعلم أنهم ليسوا فى طلب الحق و لا بصدد اتباع ما هو صريح حجة العقل و إنما يتبعون أهواءهم و يدافعون عن مشتهيات طباعهم بمثل هذه الأباطيل:

«سِحْرانِ تَظاهَرا» «إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ».

و يمكن أن يكون المراد بقوله : «أَنَّما يَتَّبِعُونَ أَهْواءَهُمْ» إنهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما و هم غير مؤمنين بهما فاعلم أنهم إنما يبنون سنة الحياة على اتباع الأهواء و لا يعتقدون بأصل النبوة و أن لله دينا سماويا نازلا عليهم من طريق الوحى و عليهم أن يتبعوه و يسلكوا مسلک الحياة بهدى ربهم، و ربما أيد هذا المعنى قوله بعد: «وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ» إلخ.

و قوله: «وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ » استفهام إنكارى و المراد به استنتاج أنهم ضالون، و قوله : «إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» تعليل لكونهم ضالين باتباع الهوى فإن اتباع الهوى إعراض عن الحق و انحراف عن صراط الرشد و ذلک ظلم و الله لا يهدى القوم الظالمين و غير المهتدى هو الضال.

و محصل الحجة أنهم إن لم يأتوا بكتاب هو أهدى منهما و ليسوا مؤمنين بهما فهم متبعون للهوى، و متبع الهوى ظالم و الظالم غير مهتد و غير المهتدى ضال فهم ضالون.

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ وَصَّلْنا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» التوصيل تفعيل من

ص: 54

الوصل يفيد التكثير كالقطع و التقطيع و القتل و التقتيل، و الضمير لمشركى مكة و المعنى أنزلنا عليهم القرآن موصولا بعضه ببعض: الآية بعد الآية، و السورة إثر السورة من وعد و وعيد و معارف و أحكام و قصص و عبر و حكم و مواعظ لعلهم يتذكرون.

قوله تعالى: «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ » الضميران للقرآن و قيل : للنبى ص. و الأول أوفق للسياق، و فى الآية و ما بعدها مدح طائفة من مؤمنى أهل الكتاب بعد ما تقدم فى الآيات السابقة من ذم المشركين من أهل مكة.

و سياق ذيل الآيات يشهد على أن هؤلاء الممدوحين طائفة خاصة من أهل الكتاب آمنوا به فلا يعبأ بما قيل إن المراد بهم مطلق المؤمنين منهم.

قوله تعالى: «وَ إِذا يُتْلى عَلَيْهِمْ قالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنا » إلخ، ضمائر الإفراد للقرآن، و اللام فى «الْحَقُ» للعهد و المعنى و إذا يقرأ القرآن عليهم قالوا: آمنا به إنه الحق الذى نعهده من ربنا فإنه عرفناه من قبل.

و قوله: «إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ» تعليل لكونه حقا معهودا عندهم أى إنا كنا من قبل نزوله مسلمين له أو مؤمنين للدين الذى يدعو إليه و يسميه إسلاما.

و قيل: الضميران للنبى ص و ما تقدم أوفق للسياق، و كيف كان فهم يعنون بذلك ما قرءوه فى كتبهم من أوصاف النبى ص و الكتاب النازل عليه كما يشير إليه قوله تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ»،: الأعراف: ١٥٧ و قوله: «أَ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَماءُ بَنِي إِسْرائِيلَ»: الشعراء: ١٩٧.

قوله تعالى: «أُولئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِما صَبَرُوا وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ » إلخ فى الآية وعد جميل لهم على ما فعلوا و مدح لهم على حسن سلوكهم و مداراتهم مع جهلة المشركين و لذا كان الأقرب إلى الفهم أن يكون المراد بإيتائهم أج رهم مرتين إيتاؤهم أجر الإيمان بكتابهم و أجر الإيمان بالقرآن و صبرهم على الإيمان بعد الإيمان بما فيهما من كلفة مخالفة الهوى.

و قيل: المراد إيتاؤهم الأجر بما صبروا على دينهم و على أذى الكفار و تحمل المشاق و قد عرفت ما يؤيده السياق.

ص: 55

و قوله: «وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ » إلخ الدرء الدفع، و المراد بالحسنة و السيئة قيل : الكلام الحسن و الكلام القبيح، و قيل : العمل الحسن و السيئ و هما المعروف و المنكر، و قيل : الخلق الحسن و السيئ و هما الحلم و الجهل، و سياق الآيات أوفق للمعنى الأخير فيرجع المعنى إلى أنهم يدفعون أذى الناس عن أنفسهم بالمداراة، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: «وَ إِذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَ قالُوا لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ» إلخ، المراد باللغو لغو الكلام بدليل تعلقه بالسمع، و المراد سقط القول الذى لا ينبغى الاشتغال به من هذر أو سب و كل ما فيه خشونة، و لذا لما سمعوه أعرضوا عنه و لم يقابلوه بمثله و قالوا: لَنا أَعْمالُنا وَ لَكُمْ أَعْمالُكُمْ و هو متاركة، و قوله : «سَلامٌ عَلَيْكُمْ» أى أمان منا لكم، و هو أيضا متاركة و توديع تكرما كما قال تعالى: «وَ إِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا سَلاماً».

و قوله: «لا نَبْتَغِي الْجاهِلِينَ » أى لا نطلبهم بمعاشرة و مجالسة، و فيه تأكيد لما تقدمه، و هو حكاية عن لسان حالهم إذ لو تلفظوا به لكان من مقابلة السيئ بالسيئ.

قوله تعالی: «إِنَّکَ لا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لکِنَّ اللَّهَ یَهْدِی مَنْ یَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِینَ » المراد بالهدایة الإیصال إلی المطلوب و مرجعه إلی إفاضة الإیمان علی القلب و معلوم أنه من شأنه تعالی لا یشارکه فیه أحد، و لیس المراد بها إراءة الطریق فإنه من وظیفة الرسول لا معنی لنفیه عنه، و المراد بالاهتداء قبول الهدایة.

لما بین فی الآیات السابقة حرمان المشرکین و هم قوم النبی ص من نعمة الهدایة و ضلالهم باتباع الهوی و استکبارهم عن الحق النازل علیهم و إیمان أهل الکتاب به و اعترافهم بالحق ختم القول فی هذا الفصل من الکلام بأن أمر الهدایة إلی الله لا إلیک یهدی هؤلاء و هم من غیر قومک الذین تدعوهم و لا یهدی هؤلاء و هم قومک الذین تحب اهتداءهم و هو أعلم بالمهتدین.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور، أخرج البزار و ابن المنذر و الحاکم و صححه و ابن مردویه عن أبی

ص: 56

سعید الخدری قال ﷺ: قال رسول الله ص: ما أهلک الله قوما و لا قرنا و لا أمة و لا أهل قریة- بعذاب من السماء منذ أنزل التوراة علی وجه الأرض- غیر القریة التی مسخت قردة. أ لم تر إلی قوله تعالی: «وَ لَقَدْ آتَیْنا مُوسَی الْکِتابَ- مِنْ بَعْدِ ما أَهْلَکْنَا الْقُرُونَ الْأُولی»؟

أقول: و فی دلالة الآیة علی الإهلاک بخصوص العذاب السماوی ثم انقطاعه بنزول التوراة خفاء.

و فیه،: فی قوله تعالی: «وَ ما کُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَیْنا» الآیة،: أخرج ابن مردویه عن ابن عباس عن النبی ص قال: لما قرب الله موسی إلی طور سیناء نجیا- قال: أی رب هل أحد أکرم علیک منی؟ قربتنی نجیا و کلمتنی تکلیما. قال:

نعم، محمد أکرم علی منک. قال: فإن کان محمد أکرم علیک منی- فهل أمة محمد أکرم من بنی إسرائیل؟ فلقت لهم البحر- و أنجیتهم من فرعون و عمله و أطعمتهم المن و السلوی.

قال: نعم، أمة محمد أکرم علی من بنی إسرائیل. قال: إلهی أرنیهم. قال: إنک لن تراهم و إن شئت أسمعتک صوتهم. قال: نعم إلهی.

فنادی ربنا أمة محمد: أجیبوا ربکم، فأجابوا و هم فی أصلاب آبائهم- و أرحام أمهاتهم إلی یوم القیامة- فقالوا: لبیک أنت ربنا حقا و نحن ع بیدک حقا. قال: صدقتم و أنا ربکم و أنتم عبیدی حقا- قد غفرت لکم قبل أن تدعونی- و أعطیتکم قبل أن تسألونی- فمن لقینی منکم بشهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة.

قال ابن عباس: فلما بعث الله محمدا ص- أراد أن يمن عليه بما أعطاه و بما أعطى أمته- فقال: يا محمد «وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا».

أقول: و رواه فيه أيضا بطرق أخرى عن غيره، و روى هذا المعنى أيضا الصدوق فى العيون، عن الرضا (ع)

لكن حمل الآية على هذا المعنى يوجب اختلال السياق و فساد ارتباط الجمل المتقدمة و المتأخرة بعضها ببعض.

و فى البصائر، بإسناده عن محمد بن الفضيل عن أبى الحسن (ع): فى قول الله عز و جل: «وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ» يعنى من اتخذ دينه هواه بغير هدى من أئمة الهدى).

ص: 57

أقول: و روى مثله بإسناده عن المعلى عن أبى عبد الله (ع)

و هو من الجرى أو من البطن.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى: «الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ» الآيات، نزل قوله:

«الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ» و ما بعده- فى عبد الله بن سلام و تميم الدارى- و الجارود و العبدى و سلمان الفارسى- فإنهم لما أسلموا نزلت فيهم الآيات. عن قتادة.

و قيل: نزلت فى أربعين رجلا من أهل الإنجيل- كانوا مسلمين بالنبى ص قبل مبعثه- اثنان و ثلاثون من الحبشة- أقبلوا مع جعفر بن أبى طالب وقت قدومه- و ثمانية قدموا من الشام منهم بحيراء و أبرهة و الأشرف و أيمن و إدريس و نافع و تميم.

أقول: و روى غير ذلک.

و فيه،: فى معنى قوله تعالى: «وَ يَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ » و قيل: يدفعون بالحلم جهل الجاهل. عن يحيى بن سلام، و معناه يدفعون بالمدارأة مع الناس أذاهم عن أنفسهم: و روى مثل ذلک عن أبى عبد الله (ع).

و فى الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد و مسلم و الترمذى و ابن أبى حاتم و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل عن أبى هريرة قال: لما حضرت وفاة أبى طالب أتاه النبى ص- فقال: يا عماه قل: لا إله إلا الله- أشهد لک بها عند الله يوم القيامة، فقال: لو لا أن يعيرنى قريش- يقولون ما حمله عليها إلا جزعه من الموت لأقررت بها عليک- فأنزل الله عليه: «إِنَّکَ لا تَهْدِی مَنْ أَحْبَبْتَ- وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِی مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»

أقول: و روى ما فى معناه عن ابن عمر و ابن المسيب و غيرهما، و روايات أئمة أهل البيت (ع) مستفيضة على إيمانه و المنقول من أشعار مشحون بالإقرار على صدق النبى ص و حقية دينه، و هو الذى آوى النبى ص صغيرا و حماه بعد البعثة و قبل الهجرة

فقد كان أثر مجاهدته وحده فى حفظ نفسه الشريفة فى العشر سنين قبل الهجرة يعدل أثر مجاهدة المهاجرين و الأنصار بأجمعهم فى العشر سنين بعد الهجرة.

ص: 58

[سورة القصص (٢٨): الآيات ٥٧ الى ٧٥]

وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى‌ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبى‌ إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْ‌ءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها فَتِلْكَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَ كُنَّا نَحْنُ الْوارِثِينَ (٥٨) وَ ما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرى‌ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا وَ ما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرى‌ إِلاَّ وَ أَهْلُها ظالِمُونَ (٥٩) وَ ما أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْ‌ءٍ فَمَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ زِينَتُها وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقى‌ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١)

وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ (٦٣) وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا الْعَذابَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ (٦٦)

فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسى‌ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى‌ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَ رَبُّكَ يَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما يُعْلِنُونَ (٦٩) وَ هُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى‌ وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى‌ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ أَ فَلا تَسْمَعُونَ (٧١)

قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى‌ يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَ فَلا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)

ص: 59

(بيان)

تذكر الآيات عذرا آخر مما اعتذر به مشركو مكة عن الإيمان بكتاب الله بعد ما ذكرت عذرهم السابق: «لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى‌» و ردته و هو قولهم: إن آمنا بما جاء به كتابك من الهدى و هو دين التوحيد تخطفنا مشركو العرب من أرضنا بالقتل و السبى و النهب و سلب الأمن و السلام.

فرده تعالى بأنا جعلنا لهم حرما آمنا يحترمه العرب و يجبى إليه ثمرات كل شىء فلا موجب لخوفهم من تخطفهم.

على أن تنعمهم بالأموال و الأولاد و بطر معيشتهم لا يضمن لهم الأمن من الهلاک حتى يرجحوه على اتباع الهدى فكم من قرية بطرت معيشتها أهلكها الله و استأصلها و ورثها فتلک مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا.

على أن الذى يؤثرونه على اتباع الهدى إنما هو متاع الحياة الدنيا العاجلة و لا يختاره عاقل على الحياة الآخرة الخالدة التى عند الله سبحانه.

على أن الخلق و الأمر لله فإذا اختار شيئا و أمر به فليس لأحد أ ن يخالفه إلى ما يشتهيه لنفسه فيختار ما يميل إليه طبعه ثم استشهد تعالى بقصة قارون و خسفه به و بداره الأرض.

قوله تعالى: «وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا » إلى آخر الآية. التخطف الاختلاس بسرعة، و قيل الخطف و التخطف الاستلاب من كل وجه، و كان تخطفهم من أرضهم استعارة أريد به القتل و السبى و نهب الأموال كأنهم و ما يتعلق بهم من أهل و مال يؤخذون فتخلو منهم أرضهم، و المراد بالأرض أرض مكة و الحرم بدليل قوله بعد : «أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُ مْ حَرَماً آمِناً» و القائل بعض مشركى مكة.

و الجملة مسوقة للاعتذار عن الإيمان بأنهم إن آمنوا تخطفتهم العرب من أرضهم أرض مكة لأنهم مشركون لا يرضون بإيمانهم و رفض أوثانهم فهو من قبيل إبداء المانع ففيه اعتراف بحقية أصل الدعوة و أن الكتاب بما يشتمل عليه حق لكن خطر التخطف مانع من قبوله و الإيمان به، و لهذا عبر بقوله: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَکَ» و لم يقل:

إن نتبع كتابک أو دينک أو ما يقرب من ذلک.

و قوله: «أَ وَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً » قيل: التمكين مضمن معنى الجعل و المعنى أ و لم نجعل لهم حرما آمنا ممكنين إياهم، و قيل: حرما منصوبا على الظرفية و المعنى : أ و لم نمكن لهم فى حرم، و «آمِناً» صفة «حَرَماً» أى حرما ذا أمن، و عد الحرم ذا أمن- و المتلبس بالأمن أهله- من المجاز فى النسبة، و الجملة معطوفة على محذوف و التقدير أ و لم نعصمهم و نجعل لهم حرما آمنا ممكنين إياهم.

و هذا جواب أول منه تعالى لقولهم: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا» و محصله: أنا مكناهم فى أرض جعلناها حرما ذا أمن تحترمه العرب فلا موجب لخوفهم أن يتخطفوا منها أن آمنوا.

و قوله: «يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْ ءٍ» الجباية الجمع، و الكل للتكثير لا للعموم لعدم إرادة العموم قطعا، و المعنى : يجمع إلى الحرم ثمرات كثير من الأشياء، و الجملة

صفة لحرما جيء بها لما عسى أن يتوهم أنهم يتضررون إن آمنوا بانقطاع الميرة.

و قوله: «رِزْقاً مِنْ لَدُنّا» مفعول مطلق أو حال من ثمرات، و قوله : «وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ» استدراک عن جميع ما تقدم أي إنا نحن حفظناهم في أمن و رزقناهم من كل الثمرات لكن أكثرهم جاهلون بذلک فيحسبون أن الذي يحفظهم من تخطف العرب هو شركهم و عبادتهم الأصنام.

قوله تعالى : «وَ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَها » إلى آخر الآية البطر الطغيان عند النعمة، و «مَعِيشَتَها» منصوب بنزع الخافض أي و كم أهلكنا من قرية طغت في معيشتها.

و قوله: «فَتِلْکَ مَساكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلّا قَلِيلًا» أي إن مساكنهم الخربة الخاوية على عروشها مشهودة لكم نصب أعينكم باقية على خرابها لم تعمر و لم تسكن بعد هلاكهم إلا قليلا منها.

و بذلک يظهر أن الأنسب كون «إِلّا قَلِيلًا» استثناء من «مَساكِنُهُمْ» لا من قوله : «مِنْ بَعْدِهِمْ» بأن يكون المعنى لم تسكن من بعدهم إلا زمانا قليلا إذ لا يسكنها إلا المارة يوما أو بعض يوم في الأسفار.

و قوله: «وَ كُنّا نَحْنُ الْوارِثِينَ» حيث ملكوها ثم تركوها فلم يخلفهم غيرنا فنحن ورثناهم مساكنهم، و في الجملة أعني قوله : «كُنّا نَحْنُ الْوارِثِينَ» عناية لطيفة فإنه تعالى هو المالک لكل شي ء ملكا حقيقيا مطلقا فهو المالک لمساكنهم و قد ملكها إياهم بتسليطهم عليها ثم نزعها من أيديهم بإهلاكهم و بقيت بعدهم لا مالک لها إلا هو فسمى نفسه وارثا لهم بعناية أنه الباقي بعدهم و هو المالک لما كان بأيديهم كان ملكهم الاعتباري انتقل إليه و لا انتقال هناک بالحقيقة و إنما ظهر ملكه الحقيقي بزوال ملكهم الاعتباري.

و الآية جواب ثان منه تعالى لقولهم: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا» و محصله أن مجرد عدم تخطف العرب لكم من أرضكم لا يضمن لكم البقاء و لا يحفظ لكم أرضكم و التنعم فيها كما تشاءون فكم من قرية بالغة في التنعم ذات أشر و بطر أهلكنا أهلها و بقيت مساكنهم خالية غير مسكونة لا وارث لها إلا الله.

ص: 62

قوله تعالى: «وَ ما كانَ رَبُّکَ مُهْلِکَ الْقُرى حَتّى يَبْعَثَ فِي أُمِّها رَسُولًا» أم القرى هي أصلها و كبيرتها التي ترجع إليها و في الآية بيان السنة الإلهية في عذاب القرى بالاستئصال و هو أن عذاب الاستئصال لا يقع منه تعالى إلا بعد إتمام الحجة عليهم بإرسال رسول يتلو عليهم آيات الله، و إلا بعد كون المعذبين ظالمين بالكفر بآيات الله و تكذيب رسوله.

و في تعقيب الآية السابقة بهذه الآية الشارحة لسنته تعالى في إهلاک القرى تخويف لأهل مكة المشركين بالإيماء إلى أنهم لو أصروا على كفرهم كانوا في معرض نزول العذاب لأن الله قد بعث في أم قراهم و هي مكة رسولا يتلو عليهم آياته و هم مع ذلک ظالمون بتكذيب رسولهم.

و بذلک یظهر النکتة فی الالتفات من التکلم بالغیر إلی الغیبة ف ی قوله: «وَ ما کانَ رَبُّکَ مُهْلِکَ الْقُری » فإن فی الإیماء إلی حصول شرائط العذاب فیهم لو کذبوا النبی ص تقویة لنفسه و تأکیدا لحجته، و أما العدول بعده إلی سیاق التکلم بالغیر فی قوله:

«وَ ما کُنَّا مُهْلِکِی الْقُری» فهو رجوع إلی السیاق السابق بعد قضاء الوطر.

قوله تعالی: «وَ ما أُوتِیتُمْ مِنْ شَیْ ءٍ فَمَتاعُ الْحَیاةِ الدُّنْیا » إلخ الإیتاء: الإعطاء و «مِنْ شَیْءٍ» بیان لما لإفادة العموم أی کل شی ء أوتیتموه، و المتاع ما یتمتع به و الزینة ما ینضم إلی الشیء لیفیده جمالا و حسنا، و الحیاة الدنیا الحیاة المؤجلة المقطوعة التی هی أقرب الحیاتین منا و تقابلها الحیاة الآخرة التی هی خالدة مؤبدة، و المراد بما عند الله الحیاة الآخرة السعیدة التی عند الله و جواره و لذا عد خیرا و أبقی.

و المعنی: أن جمیع النعم الدنیویة التی أعطاکم الله إیاها متاع و زینة زینت بها هذه الحیاة الدنیا التی هی أقرب الحیاتین منکم و هی بائدة فانیة و ما عند الله من ثوابه فی الدار الآخرة المترتب علی اتباع الهدی و الإیمان بآیات الله خیر و أبقی فینبغی أن تؤثروه علی متاع الدنیا و زینتها أ فلا تعقلون.

و الآیة جواب ثالث عن قولهم: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدی مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا» محصله لنسلم أنکم إن اتبعتم الهدی تخطفکم العرب من أرضکم لکن الذی تفقدونه هو متاع الحیاة الدنیا و زینتها الفانیة فما بالکم تؤثرونه علی ما عند الله من ثواب اتباع

ص: 63

الهدی و سعادة الحیاة الآخرة و هی خیر و أبقی.

قوله تعالی: «أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِیهِ کَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَیاةِ الدُّنْیا ثُمَّ هُوَ یَوْمَ الْقِیامَ ةِ مِنَ الْمُحْضَرِینَ » الآیة إلی تمام سبع آیات إیضاح لمضمون الآیة السابقة- و هو أن إیثار اتباع الهدی أولی من ترکه و التمتع بمتاع الحیاة الدنیا- ببیان آخر فیه مقایسة حال من اتبع الهدی و ما یلقاه من الوعد الحسن الذی وعده الله، من حال من لم یتبعه و اقتصر علی التمتع من متاع الحیاة الدنیا و سیستقبله یوم القیامة الإحضار و تبری آلهته منه و عدم استجابتهم لدعوته و مشاهدة العذاب و السؤال عن إجابتهم الرسل.

فقوله: «أَ فَمَنْ وَعَدْناهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لاقِیهِ » الاستفهام إنکاری، و الوعد الحسن هو وعده تعالی بالمغفرة و الجنة کما قال تعالی: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ عَظِیمٌ »: المائدة: ۹، و لا یکذب وعده تعالی قال : «أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ:» یونس: ۵۵.

و قوله: «کَمَنْ مَتَّعْناهُ مَتاعَ الْحَیاةِ الدُّنْیا » أی و هو محروم من ذلک الوعد الحسن لاقتصار ه علی التمتع بمتاعها، و الدلیل علی هذا التقیید المقابلة بین الوعد و التمتیع.

و قوله: «ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ » أى للعذاب، أو للسؤال و المؤاخذة و «ثُمَ» للترتيب الكلامى و إتيان الجملة اسمية كما فيما يقابلها من قوله: «فَهُوَ لاقِيهِ» للدلالة على التحقق.

قوله تعالى: «وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » الشركاء هم الذين كانوا يعبدونهم فى الدنيا و كونهم شركاء عندهم لكونهم يعطونهم أو ينسبون إليهم بعض ما هو من شئونه تعالى كالعبادة و التدبير، و فى قوله : «يُنادِيهِمْ» إشارة إلى بعدهم و خذلانهم يومئذ.

قوله تعالى: «قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا » آلهتهم الذين يرونهم شركاء الله سبحانه صنفان صنف منهم عباد الله مكرمون كالملائكة المقربين و عيسى بن مريم (ع)، و صنف منهم كعتاة الجن و مدعى الألوهية من الإنس كفرعون و نمرود و غيرهما و قد ألحق الله سبحانه بهم كل مطاع فى باطل

ص: 64

كإبليس و قرناء الشياطين و أئمة الضلال كما قال: أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ - إلى أن قال- وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيراً»: يس: ۶۲، و قال:

«أَ فَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ:» الجاثية: ۲۳، و قال: «اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَ رُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ»: التوبة: ۳۱.

و الذين يشير إليهم قوله : «قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » هم من الصنف الثانى بدليل ذكرهم إغواءهم و تبريهم من عبادتهم و هؤلاء المشركون و إن كانوا أنفسهم أيضا ممن حق عليهم القول كما يشير إليه قوله : «حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ»: الم السجدة: ۱۳، و لكن المراد بهم فى الآية المبحوث عنها المتبوعون منهم الذين ينتهى إليهم الشرك و الضلال.

و إيراد قول هؤلاء الشركاء مع عدم ذكر أن المسئولين أشاروا إليهم لعله للإشارة إلى أنهم ضلوا عنهم فى هذا الموقف كما فى قوله تعالى: «وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ» حم السجدة: ۴۸.

و قوله: «رَبَّنا هؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنا» أى هؤلاء- يشيرون إلى المشركين- هم الذين أغويناهم و الجملة توطئة للجملة التالية.

و قوله: «أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا» أى كانت غوايتهم بإغوائنا لغوايتنا أنفسنا فكما كنا غوينا باختيارنا من غير إلجاء كذلك هم غووا باختيار منهم من غير إلجاء، و الدليل على هذا المعنى ما حكاه الله عن إبليس يومئذ إذ قال : «وَ ما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَ لُومُوا أَنْفُسَكُمْ »: إبراهيم: ۲۲ و قال حاكيا لتساؤل الظالمين و قرنائهم : «وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَ ما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ »: الصافات: ۳۲ أى ما كان ليصل إليكم منا و نحن غاوون غير الغواية.

و من هنا يظهر أن لقولهم : «أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا » معنى آخر، و هو أنهم اكتسبوا نظير الوصف الذى كان فينا غير أنا نتبرأ منهم حيث لم نلجئهم إلى الغواية ما كانوا يعبدوننا بإلجاء.

ص: 65

و قوله: «تَبَرَّأْنا إِلَيْکَ» تبر منهم مطلقا حيث لم يكن لهم أن يلجئوهم و يسلبوا منهم الاختيار، و قوله «ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ» أى بإلجاء منا، أو لتبرينا من أعمالهم فإن من تبرأ من عمل لم ينتسب إليه و إلى هذا المعنى يئول قوله تعالى فى مواضع من كلامه فى وصف هذا الموقف: «وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ»: الأنعام: ۲۴ «وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ»: حم السجدة: ۴۸ «وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَ شُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَ قالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ»،: يونس: ۲۸ إلى غير ذلک من الآيات فافهم.

و قيل: المعنى تبرأنا إليک من أعمالهم ما كانوا إيانا يعبدون بل كانوا يعبدون أهواءهم أو كانوا يعبدون الشياطين. و لا يخلو من سخافة.

و لكون كل من قوليه: «تَبَرَّأْنا إِلَيْکَ» «ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ» فى معنى قوله:

«أَغْوَيْناهُمْ كَما غَوَيْنا» جىء بالفصل من غير عطف.

قوله تعالى: «وَ قِيلَ ادْعُوا شُرَكاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ رَأَوُا الْعَذا بَ لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ» المراد بشركائهم الآلهة التى كانوا شركاء الله بزعمهم و لذا أضافهم إليهم. و المراد بدعوتهم دعوتهم إياهم لينصروهم و يدفعوا عنهم العذاب و لذا قال:

«وَ رَأَوُا الْعَذابَ» بعد قوله: «فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ».

و قوله: «لَوْ أَنَّهُمْ كانُوا يَهْتَدُونَ » قيل: جواب لو محذوف لدلالة الكلام عليه و التقدير لو أنهم كانوا يهتدون لرأوا العذاب أى اعتقدوا أن العذاب حق، و يمكن أن يكون لو للتمنى أى ليتهم كانوا يهتدون.

قوله تعالى: «وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ ما ذا أَجَبْتُمُ الْ مُرْسَلِينَ» معطوف على قوله السابق : «وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ » إلخ، سئلوا أولا : عن شركائهم و أمروا أن يستنصروهم، و ثانيا: عن جوابهم للمرسلين إليهم من عند الله.

و المعنى: ما ذا قلتم فى جواب من أرسل إليكم من رسل الله فدعوكم إلى الإيمان و العمل الصالح؟.

قوله تعالى: «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ» العمى استعارة عن

ص: 66

جعل الإنسان بحيث لا يهتدى إلى خبر، و كان مقتضى الظاهر أن ينسب العمى إليهم لا إلى الأنباء لكن عكس الأمر فقيل : «فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْباءُ » للدلالة على أخذهم من كل جانب و سد جميع الطرق و تقطع الأسباب بهم كما قال : «وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ»،: البقرة: ۱۶۶ فلسقوط الأسباب عن التأثير يومئذ لا تهتدى إليهم الأخبار و لا يجدون شيئا يعتذرون به للتخلص من العذاب.

و قوله: «فَهُمْ لا يَتَساءَلُونَ » تفريع على عمى الأنباء من قبيل تفرع بعض أفراد العام عليه أى لا يسأل بعضهم بعضا ليعدوا به عذرا يعتذرون به عن تكذيبهم الرسل و ردهم الدعوة.

و قد فسر صدر الآية و ذيلها بتفاسير كثيرة مختلفة لا جدوى فى التعرض لها فرأينا الصفح عنها أولى.

قوله تعالى: «فَأَمَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَعَسى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ » أى هذه حال من كفر و لم يرجع إلى الله سبحانه فأما من رجع و آمن و عمل صالحا فمن المرجو أن يكون من المفلحين، و عسى- كما قيل- للتحقيق على عادة الكرام أو للترجى من قبل التائب، و المعنى: فليتوقع الفلاح.

قوله تعالى: «وَ رَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ» الخيرة بمعنى التخير كالطيرة بمعنى التطير.

و الآية جواب رابع عن قولهم: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا» و الذى يتضمنه حجة قاطعة.

بيان ذلك: أن الخلق و هو الصنع و الإيجاد ينتهى إليه تعالى كما قال : «اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ»: الزمر: ۶۲ فلا مؤثر فى الوجود بحقيقة معنى التأثير غيره تعالى فلا شى ء هناك يلجئه تعالى على فعل من الأفعال فإن هذا الشىء المفروض إما مخلوق له منته فى وجوده إليه فوجوده و آثار وجوده ينتهى إليه تعالى و لا معنى لتأثير الشى ء و لا لتأثير أثره فى نفسه و إما غير مخلوق له و لا منته فى وجوده إليه يؤثر فيه بالإلجاء و القهر و لا مؤثر فى الوجود غيره و لا أن هناك شيئا لا ينتهى فى وجوده إليه تعالى فلا يعطيه شيء أثرا و لا يمنعه شيء من أثر كما قال: «وَ اللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ»،: الرعد: ۴۱ و قال:

وَ اللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ»: يوسف: ۲۱.

ص: 67

و إذ لا قاهر يقهره على فعل و لا مانع يمنعه عن فعل فهو مختار بحقيقة معنى الاختيار هذا بحسب التكوين و التشريع يتبعه فإن حقيقة التشريع هى أنه فطر الناس على فطرة لا تستقيم إلا بإتيان أمور هى الواجبات و ما فى حكمها و ترك أمور هى المحرمات و ما فى حكمها فما ينتفع به الإنسان فى كماله و سعادته هو الذى أمر به و ندب إلى ه و ما يتضرر به هو الذى نهى عنه و حذر منه.

فله تعالى أن يختار فى مرحلة التشريع من الأحكام و القوانين ما يشاء كما أن له أن يختار فى مرحلة التكوين من الخلق و التدبير ما يشاء، و هذا معنى قوله: «وَ رَبُّکَ يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ يَخْتارُ» و قد أطلق إطلاقا.

و الظاهر أن قوله: «يَخْلُقُ ما يَشاءُ» إشارة إلى اختياره التكوينى فإن معنى إطلاقه أنه لا تقصر قدرته عن خلق شىء و لا يمنعه شىء عما يشاؤه و بعبارة أخرى لا يمتنع عن مشيته شىء لا بنفسه و لا بمانع يمنع و هذا هو الاختيار بحقيقة معناه، و قوله:

«وَ يَخْتارُ» إشارة إلى اختياره التشريعى الاعتبارى و يكون عطفه على قوله : «يَخْلُقُ ما يَشاءُ» من عطف المسبب على سببه لكون التشريع و الاعتبار متفرعا على التكوين و الحقيقة.

و يمكن حمل قوله: «يَخْلُقُ ما يَشاءُ» على الاختيار التكوينى و قوله: «وَ يَخْتارُ» على الأعم من الحقيقة و الاعتبار لكن الوجه السابق أوجه، و من الدليل عليه كون المنفى فى قوله الآتى : «ما كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ» هو الاختيار التشريعى الاعتبارى، و الاختيار المثبت فى قوله «وَ يَخْتارُ» يقابله فالمراد إثبات الاختيار التشريعى الاعتبارى.

ثم لا ريب فى أن الإنسان له اختيار تكوينى بالنسبة إلى الأفعال الصادرة عنه بالعلم و الإرادة و إن لم يكن اختيارا مطلقا فإن للأسباب و العلل الخارجية دخلا فى أفعاله إذ أكله لقمة من الطعام مثلا متوقف على تحقق مادة الطعام خارجا و قابليته و ملائمته و قربه منه و مساعدة أدوات الأخذ و القبض و الالتقام و المضغ و البلع و غير ذلک مما لا يحصى . فصدور الفعل الاختيارى عنه مشروط بموافقة الأسباب الخارجية الداخلية فى تحقق فعله، و الله سبحانه فى رأس تلک الأسباب جميعا و إليه ينتهى الكل و هو الذى خلق الإنسان منعوتا بنعت الاختيار و أعطاه خيرته كما أعطاه خلقه.

ص: 68

ثم إن الإنسان يرى بالطبع لنفسه اختيارا تشريعيا اعتباريا فيما يشاؤه من فعل أو ترک بحذاء اختياره التكوينى فله أن يفعل ما يشاء و يترک ما يشاء من غير أن يكون لأحد من بنى نوعه أن يحمله على شىء أو يمنعه عن شىء لكونهم أمثالا له لا يزيدون عليه بشىء فى معنى الإنسانية و لا يملكون منه شيئا، و هذا هو المراد بكون الإنسان حرا بالطبع.

فالإنسان مختار فى نفسه حر بالطبع إلا أن يملک غيره من نفسه شيئا فيسلب بنفسه عن نفسه الحرية كما أن الإنسان الاجتماعى يسلب عن نفسه الحرية بالنسبة إلى موارد السنن و القوانين الجارية فى مجتمعة بدخوله فى المجتمع و إمضائه ما يجرى فيه من سنن و قوانين سواء كانت دينية أو اجتماعية، و كما أن المتقاتلين يملک كل منهما الآخر من نفسه ما يغلب عليه فللغالب منهما أن يفعل بأسيره ما يشاء، و كما أن الأجير إذا ابتاع عمله و آجر نفسه فليس بحر فى عمله إذ المملوكية لا تجامع الحرية.

فالإنسان بالنسبة إلى سائر بنى نوعه حر فى عمله مختار فى فعله إلا أن يسلب باختيار منه شيئا من اختياره فيملک غيره، و الله سبحانه يملک الإنسان فى نفسه و فى فعله الصادر منه ملكا مطلقا بالملک التكوينى و بالملک الوضعى الاعتبارى فلا خيرة

له و لا حریة بالنسبة إلی ما یریده منه تشریعا بأمر أو نهی تشریعیین کما لا خیرة و لا حریة له بالنسبة إلی ما یشاؤه بمشیته التکوینیة.

و هذا هو المراد بقوله : «ما کانَ لَهُمُ الْخِیَرَةُ » أی لا اختیار لهم إذا اختار الله سبحانه لهم شیئا من فعل أو ترک حتی یختاروا لأنفسهم ما یشاءون و إن خالف ما اختاره الله و الآیة قریبة المعنی من قوله تعالی: «وَ ما کانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَی اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ یَکُونَ لَهُمُ الْخِیَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ »: الأحزاب: ۳۶ و للقوم فی تفسیر الآیة أقاویل مختلفة غیر مجدیة أغمضنا عنها من أراد الوقوف علیها فعلیه بالرجوع إلی المطولات.

و قوله: «سُبْحانَ اللَّهِ وَ تَعالی عَمَّا یُشْرِکُونَ» أی عن شرکهم باختیارهم أصناما آلهة یعبدونها من دون الله.

و هاهنا معنی آخر أدق أی تنزه و تعالی عن شرکهم بادعاء أن لهم خیرة بالنسبة إلی ما یختاره تعالی بقبوله أو رده فإن الخیرة بهذا المعنی لا تتم إلا بدعوی الاستقلال فی

ص: 69

الوجود و الاستغناء عنه تعالی و لا تتم إلا مع الاشتراک معه تعالی فی صفة الألوهیة.

و فی قوله : «وَ رَبُّکَ یَخْلُقُ » التفات من التکلم بالغیر إلی الغیبة و النکتة فیه تأیید النبی ص و تقویته و تطییب نفسه بإضافة صفة الرب إلیه فإن معناه أن ما أرسله به من الحکم ماض غیر مردود فلا خیرة لهم فی قبوله و رده، و لأنهم لا یقبلون ربوبیته.

و فی قوله : «سُبْحانَ اللَّهِ» وضع الظاهر موضع المضمر و النکتة فیه إرجا ع الأمر إلی الذات المتعالیة التی هی المبدأ للتنزه و التعالی عن کل ما لا یلیق بساحة قدسه فإنه تعالی یتصف بکل کمال و یتنزه عن کل نقص لأنه هو الله عز اسمه.

قوله تعالی: «وَ رَبُّکَ یَعْلَمُ ما تُکِنُّ صُدُورُهُمْ وَ ما یُعْلِنُونَ» الإکنان الإخفاء و الإعلان الإظهار، و لکون الصدر یعد مخزنا للأسرار نسب الإکنان إلی الصدور و الإعلان إلیهم أنفسهم.

و لعل تعقیب الآیة السابقة بهذه الآیة للإشارة إلی أنه تعالی إنما اختار لهم ما اختار لعلمه بما فی ظاهرهم و باطنهم من أوساخ الشرک و المعصیة فطهرهم بذلک بحکمته.

قوله تعالی: «وَ هُوَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِی الْأُولی وَ الْآخِرَةِ وَ لَهُ الْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ » ظاهر السیاق أن الضمیر فی صدر الآیة راجع إلی «رَبُّکَ» فی الآیة السابقة، و الظاهر علی هذا أن اللام فی اسم الجلالة للتلمیح إلی معنی الوصف، و قوله: «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ» تأکید للحصر المستفاد من قوله: «هُوَ اللَّهُ» کأنه قیل: و هو الإله- المتصف وحده بالألوهیة- لا إله إلا هو.

و علی ذلک فالآیة کالمتمم لبیان الآیة السابقة کأنه قیل : هو سبحانه مختار له أن یختار علیهم أن یعبدوه وحده، و هو ی علم ظاهرهم و باطنهم فله أن یقضی علیهم أن یعبدوه وحده و هو الإله المستحق للعبادة وحده فیجب علیهم أن یعبدوه وحده.

و يكون ما فى ذيل الآية من قوله: «لَهُ الْحَمْدُ» إلخ، وجوها ثلاثة توجه كونه تعالى معبودا مستحقا للعبادة وحده.

أما قوله: «لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولى وَ الْآخِرَةِ» فلأن كل كمال موجود فى الدنيا و الآخرة نعمة نازلة منه تعالى يستحق بها جميل الثناء، و كل جميل من هذه النعم

ص: 70

الموهوبة مترشحة من كمال ذاتى من صفاته الذاتية يستحق بها الثناء فله كل الثناء و لا يستقل شى ء غيره بشيء من الثناء يثنى عليه به إلا و ينتهى إليه و العبادة ثناء بقول أو فعل فهو المعبود المستحق للعبادة وحده.

و أما قوله: «وَ لَهُ الْحُكْمُ» فلأنه سبحانه هو المالک على الإطلاق لا يملک غيره إلا ما ملكه إياه و هو المالک لما ملكه و هو سبحانه مالک فى مرحلة التشريع و الاعتبار كما أنه مالک فى مرحلة التكوين و الحقيقة، و من آثار ملكه أن يقضى على عبيده و مملوكيه أن لا يعبدوا إلا إياه.

و أما قوله : «وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » فلأن الرجوع للحساب و الجزاء و إذ كان هو المرجع فهو المحاسب المجازى و إذ كان هو المحاسب المجازى وحده فهو الذى يجب أن يعبد وحده و له دين يجب أن يتعبد به وحده.

قوله تعالى: «قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ» إلى آخر الآية، السرمد على فعلل بمعنى الدائم، و قيل: هو من السرد و الميم زائدة و معناه المتتابع المطرد، و تقييده بيوم القيامة إذ لا ليل بعد يوم القيامة.

و قوله: «مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِياءٍ » أى من الإله الذى ينقض حكمه تعالى و يأتيكم بضياء تستضيئون به و تسعون فى طلب المعاش، هذا ما يشهد به السياق، و يجرى نظيره فى قوله الآتى: «مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ» إلخ.

و بذلک يندفع ما استشكل على الآيتين من أنه لو فرض تحقق جعل الليل سرمدا إلى يوم القيامة لم يتصور معه الإتيان بضياء أصلا لأن الذى يأتى به إما هو الله تعالى و إما هو غيره أما غيره فعجزه عن ذلک ظاهر، و أما الله تعالى فإتيانه به يستلزم اجتماع الليل و النهار و هو محال و المحال لا يتعلق به القدرة و لا الإرادة، و كذا الكلام فى جانب النهار.

و ربما أجيب عنه بأن المراد بقوله: «إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ» إن أراد الله أن يجعل عليكم. و هو كما ترى.

و كان مقتضى الظاهر أن يقال : من إله غير الله يأتيكم بنهار، على ما يقتضيه سياق المقابلة بين الليل و النهار فى الكلام لكن العدول إلى ذكر الضياء بدل النهار من قبيل

ص: 71

الإلزام فی الحجة بأهون ما يفرض و أيسره ليظهر بطلان مدعى الخصم أتم الظهور كأنه قيل : لو كان غيره تعالى إله يدبر أمر العالم فإن جعل الله الليل سرمدا فليقدر أن يأتی بالنهار، تنزلنا عن ذلک فليقدر أن يأتی بضياء ما تستضيئون به لكن لا قدرة لشیء على ذلک إن القدرة كلها لله سبحانه.

و لا يجری نظیر هذا الوجه فی الآية التالية فی الليل حتى يصح أن يقال مثلا : من إله غير الله يأتيكم بظلمة لأن المأتی به إن كان ظلمة ما لم تكف للسكن و إن كان ظلمة ممتدة كانت هی الليل.

و تنكير «بِضِياءٍ» يؤيد ما ذكر من الوجه، و قد أوردوا وجوها أخرى فی ذلک لا تخلو من تعسف.

و قوله: «أَ فَلا تَسْمَعُونَ» أی سمع تفهم و تفكر حتى تتفكروا فتفهموا أن لا إله غيره تعالى.

قوله تعالى: «قُلْ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ» أی تستريحون فيه مما أصابكم من تعب السعی للمعاش.

و قوله: «أَ فَلا تُبْصِرُونَ» أی إبصار تفهم و تذكر و إذ لم يبصروا و لم يسمعوا فهم عمی صم، و من اللطيف تذييل الآيتين بقوله : «أَ فَلا تَسْمَعُونَ» «أَ فَلا تُبْصِرُونَ» و لعل آية النهار خص بالإبصار لمناسبة ضوء النهار الإبصار و بقی السمع لآية الليل و هو لا يخلو من مناسبة معه.

قوله تعالى: «وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» الآية بمنزلة نتيجة الحجة المذكورة فی الآيتين السابقتين سيقت بعد إبطال دعوى الخصم فی صورة الإخبار الابتدائی لثبوته من غير معارض.

و قوله: «لِتَسْكُنُوا فِيهِ» اللام للتعليل و الضمير لليل، أی جعل لكم الليل لتستريحوا فيه، و قوله : «لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» أی و جعل لكم النهار لتطلبوا من رزقه الذی هو عطيته فرجوع «لِتَسْكُنُوا» و «لِتَبْتَغُوا» إلى الليل و النهار بطريق اللف و النشر المرتب، و قوله: «وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» راجع إليهما جميعا.

ص: 72

و قوله: «وَ مِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ» فی معنى قولنا: جعل لكم و ذلک رحمة منه و فيه إشارة إلى أن التكوين كالسكون و الابتغاء و التشريع و هو هدايتهم إلى الشكر من آثار صفة رحمته تعالى فافهم ذلک.

قوله تعالى: «وَ يَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ» تقدم تفسيره و قد كررت الآية لحاجة مضمون الآية التالية إليها.

قوله تعالى: «وَ نَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ» إلى آخر الآية، إشارة إلى ظهور بطلان مزعمتهم لهم يوم القيامة، و المراد بالشهيد شهيد الأعمال- كما تقدمت الإشارة إليه مرارا- و لا ظهور للآية فی كونه هو النبی المبعوث إلى الأمة نظرا إلى

إفراد الشهيد و ذكر الأمة إذ الأمة هى الجماعة من الناس و لا ظهور و لا نصوصية له فى الجماعة الذين أرسل إليهم نبى و إن كانت من مصاديقها.

و قوله: «فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ» أى طالبناهم بالحجة القاطعة على ما زعموا أن لله شركاء.

و قوله: «فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلّٰهِ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ» أى غاب عنهم زعمهم الباطل أن لله سبحانه شركاء فعلموا عند ذلك أن الحق فى الألوهية لله وحده فالمراد بالضلال الغيبة على طريق الاستعارة . كذا فسروه، ففى الكلام تقديم و تأخير و الأص ل فضل عنهم ما كانوا يفترون فعلموا أن الحق لله.

و على هذا فقوله: «أَنَّ الْحَقَّ لِلّٰهِ» نظير ما يقال فى القضاء بين المتخاصمين إذا تداعيا فى حق يدعيه كل لنفسه : أن الحق لفلان لا لفلان كأنه تعالى يخاصم المشركين حيث يدعون أن الألوهية بمعنى المعبودية حق لشركا ئهم فيدعى تعالى أنه حقه فيطالبهم البرهان على دعواهم فيضل عنهم البرهان فيعلمون عندئذ أن هذا الحق لله فالألوهية حق ثابت لا ريب فيه فإذا لم يكن حقا لغيره تعالى فهو حق له.

و هذا وجه بظاهره وجيه لا بأس به لكن الحقيقة التى يعطيها كلامه تعالى أن من خاصة يوم القيا مة أن الحق يتمحض فيه للظهور ظهورا مشهودا لا ستر عليه فليرتفع به كل باطل يلتبس به الأمر و يتشبه بالحق، و لازمه أن يظهر أمر الألوهية ظهورا لا ستر عليه فيرتفع به افتراء الشركاء ارتفاعا مترتبا عليه لا أن يفتقد الدليل على الشركاء

ص: 73

فيستنتج منه توحده تعالى بالألوهية على سبيل الاحتجاجات الفكرية فافهم ذلك.

و بذلك يندفع أولا ما يرد على الوجه السابق أن المستفاد من كلامه تعالى أنهم لا حجة عقلية لهم على مدعاهم و لا موجب على هذا لتأخر علمهم أن الحق لله إلى يوم القيامة، و يرتفع ثانيا حديث التقديم و التأخير الم ذكور الذى لا نكتة له ظاهرا إلا رعاية السجع.

و من الممكن أن يكون «الْحَقَ» فى قوله: «فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلّٰهِ» مصدرا فيرجع معنى الجملة إلى معنى قوله : «وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ»: النور: ٢٥ فكون الحق لله هو كونه تعالى حقا إن أريد به الحق فى ذاته أو كونه منتهيا إليه قائما به إن أريد به غيره، كما قال تعالى: «الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ»: آل عمران: ٦٠ و لم يقل:

الحق مع ربک.

(بحث روائى)

فی تفسیر القمی، ": فی قوله تعالی: «وَ قالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدی مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا» الآیة، قال: نزلت فی قریش- حین دعاهم رسول الله ص إلی الإسلام و الهجرة- و قالوا إن نتبع الهدی معک نتخطف من أرضنا- فقال الله عز و جل: «أَ وَ لَمْ نُمَکِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً- یُجْبی إِلَیْهِ ثَمَراتُ کُلِّ شَیْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا- وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ».

أقول: و روی هذا المعنی فی کشف المحجة، و روضة الواعظین، للمفید و رواه فی الدر المنثور، عن ابن جریر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه عن ابن عباس.

و فی الدر المنثور، أخرج النسائی و ابن المنذر عن ابن عباس ": أن الحارث بن عامر بن نوفل الذی قال: «إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدی مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا».

و فی تفسیر القمی، ": فی قوله تعالی: «وَ رَبُّکَ یَخْلُقُ ما یَشاءُ وَ یَخْتارُ ما کانَ لَهُمُ الْخِیَرَةُ» الآیة، قال: یختار الله عز و جل الإمام و لیس لهم أن یختاروا.

أقول: و هو من الجری مبنیا علی وجوب نصب الإمام المعصوم من قبل الله تعالی کالنبی، و قد مر تفصیل الکلام فیه.

ص: 74

و فیه، فی روایة أبی الجارود عن أبی جعفر (ع): فی قوله تعالی: «وَ نَزَعْنا مِنْ کُلِّ أُمَّةٍ شَهِیداً» یقول: من هذه الأمة إمامها.

أقول: و هو من الجری.

[سورة القصص (۲۸): الآیات ۷۶ الی ۸۴]

إِنَّ قارُونَ کانَ مِنْ قَوْمِ مُوسی فَبَغی عَلَیْهِمْ وَ آتَیْناهُ مِنَ الْکُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِی الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ الْفَرِحِینَ (۷۶) وَ ابْتَغِ فِیما آتاکَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِیبَکَ مِنَ الدُّنْیا وَ أَحْسِنْ کَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَیْکَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِی الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا یُحِبُّ الْمُفْسِدِینَ (۷۷) قالَ إِنَّما أُوتِیتُهُ عَلی عِلْمٍ عِنْدِی أَ وَ لَمْ یَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَکَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَکْثَرُ جَمْعاً وَ لا یُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (۷۸) فَخَرَجَ عَلی قَوْمِهِ فِی زِینَتِهِ قالَ الَّذِینَ یُرِیدُونَ الْحَیاةَ الدُّنْیا یا لَیْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِیَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِیمٍ (۷۹) وَ قالَ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَیْلَکُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَیْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ لا یُلَقَّاها إِلاَّ الصَّابِرُونَ (۸۰)

فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما کانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ یَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما کانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِینَ (۸۱) وَ أَصْبَحَ الَّذِینَ تَمَنَّوْا مَکانَهُ بِالْأَمْسِ یَقُولُونَ وَیْکَأَنَّ اللَّهَ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ یَقْدِرُ لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَیْنا لَخَسَفَ بِنا وَیْکَأَنَّهُ لا یُفْلِحُ الْکافِرُونَ (۸۲) تِلْکَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِینَ لا یُرِیدُونَ عُلُوًّا فِی الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِینَ (۸۳) مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَیْرٌ مِنْها وَ مَنْ جاءَ بِالسَّیِّئَةِ فَلا یُجْزَی الَّذِینَ عَمِلُوا السَّیِّئاتِ إِلاَّ ما کانُوا یَعْمَلُونَ (۸۴)

ص: 75

(بیان)

قصة قارون من بنی إسرائيل ذكرها الله سبحانه بعد ما حكى قول المشركين:

«إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدى مَعَکَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنا» و أجاب عنه بما مر من الأجوبة ليعتبروا بها فقد كانت حاله تمثل حالهم ثم أداه الكفر بالله إلى ما أدى من سوء العاقبة فليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصابه، فقد آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولی القوة فظن أنه هو الذی جمعه بعلمه و جودة فكره و حسن تدبيره فآمن العذاب الإلهی و آثر الحياة الدنيا على الآخرة و بغى الفساد فی الأرض فخسف الله به و بداره الأرض فلما كان له من فئة ينصرونه من دون الله و ما كان من المنتصرين.

قوله تعالى: «إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِی الْقُوَّةِ » قال فی المجمع:، البغی طلب العتو بغير حق.

قال: و المفاتح جمع مفتح و المفاتيح جمع مفتاح و معناهما واحد و هو عبارة عما يفتح به الأغلاق . قال: و ناء بحمله ينوء نوءا إذا نهض به مع ثقله عليه. انتهى. و قال غيره:

ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله و هو الأوفق للآية.

و قال فی المجمع، أيضا: العصبة الجماعة الملتف بعضها ببعض. و قال: و اختلف فی معنى العصبة فقيل: ما بين عشرة إلى خمسة عشر عن مجاهد، و قيل: ما بين عشرة

ص: 76

إلى أربعين عن قتادة، و قيل أربعون رجلا عن أبی صالح «۱»، و قيل: ما بين الثلاثة إلى العشرة عن ابن عباس، و قيل : إنهم الجماعة يتعصب بعضهم لبعض . انتهى. و يزيف غير القولين الأخيرين قول إخوة يوسف : «وَ نَحْنُ عُصْبَةٌ »،: يوسف: ۸ و هم تسعة نفر.

و المعنى: أن قارون كان من بنی إسرائيل فطلب العتو عليهم بغير حق و أعطيناه من الكنوز ما إن مفاتيحه لتثقل الجماعة ذوی القوة، و ذكر جمع من المفسرين أن المراد بالمفاتح الخزائن، و ليس بذاك.

قوله تعالى: «إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ» فسر الفرح بالبطر و هو لازم الفرح و السرور المفرط بمتاع الدنيا فإنه لا يخلو من تعلق شديد بالدنيا ينسى الآخرة و يورث البطر و الأشر، و لذا قال تعالى : «وَ لا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ وَ اللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ»: الحديد: ۲۳.

و لذا أيضا علل النهی بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ».

قوله تعالى: «وَ ابْتَغِ فِيما آتاکَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ» إلى آخر الآية أى و اطلب فيما أعطاک الله من مال الدنيا تعمير الدار الآخرة بإنفاقه فى سبيل الله و وضعه فيما فيه مرضاته تعالى.

و قوله: «وَ لا تَنْسَ نَصِيبَکَ مِنَ الدُّنْيا» أى لا تترک ما قسم الله لک و رزقک من الدنيا ترک المنسى و اعمل فيه لآخرتک لأن حقيقة نصيب الإنسان من الدنيا هو ما يعمل به لآخرته فهو الذى يبقى له.

و قيل: معناه لا تنس أن نصيبک من الدنيا- و قد أقبلت عليک- شىء قليل مما أوتيت و هو ما تأكله و تشربه و تلبسه مثلا و الباقى فضل ستتركه لغيرک فخذ منها ما يكفيک و أحسن بالفضل و هذا وجه جيد. و هناک وجوه أخر غير ملائمة للسياق.

و قوله: «وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْکَ» أى أنفقه لغيرک إحسانا كما آتاكه الله إحسانا من غير أن تستحقه و تستوجبه، و هذه الجملة من قبيل عطف التفسير لقوله:

«وَ لا تَنْسَ نَصِيبَکَ مِنَ الدُّنْيا» على أول الوجهين السابقين و متممة له على الوجه الثانى.

---

(١) و روى فى الدر المنثور عن أبى صالح سبعين.

ص: 77

و قوله: «وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» أى لا تطلب الفساد فى الأرض بالاستعانة بما آتاک الله من مال و ما اكتسبت به من جاه و حشمة إن الله لا يحب المفسدين لبناء الخلقة على الصلاح و الإصلاح.

قوله تعالى: «قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي» إلى آخر الآية. لا شک أن قوله «إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي» جواب عن جميع ما قاله المؤمنون من قومه و نصحوه به و كان كلامهم مبنيا على أن ما له من الثروة إنما آتاه الله إحسانا إليه و فضلا منه من غير استيجاب و استحقاق فيجب عليه أن يبتغى فيه الدار الآخرة و يحسن به إلى الناس و لا يفسد فى الأرض بالاستعلاء و الاستكبار و البطر.

فأجاب بنفى كونه إنما أوتيه إحسانا من غير استحقاق و دعوى أنه إنما أوتيه على استحقاق بما عنده من العلم بطرق اقتناء المال و تدبيره و ليس عند غيره ذلک، و إذا كان ذلک باستحقاق فقد استقل بملكه و له أن يفعل فيما اقتناه من المال بما شاء و يستدره فى أنواع التنعم و بسط السلطة و العلو و البلوغ إلى الآمال و الأمانى.

و هذه المزعمة التى ابتلى بها قارون فأهلكته- أعنى زعمه أن الذى حصل له الكنوز و ساق إليه القوة و الجمع هو نبوغه العلمى فى اكتساب العزة و قدرته النفسانية لا غير- مزعمة عامة بين أبناء الدنيا لا يرى الواحد منهم فيما ساقه إليه التقدير و وافقته الأسباب الظاهرة من عزة عاجلة و قوة مستعارة إلا أن نفسه هى الفاعلة له و علمه هو السائق له إليه و خبرته هى الماسكة له لأجله.

و إلى عموم هذه المزعمة و ركون الإنسان إليها بالطبع يشير قوله تعالى : «فَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعانا ثُمَّ إِذا خَوَّلْناهُ نِعْمَةً مِنَّا قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ قَدْ قالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ فَأَصابَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هؤُلاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا وَ ما هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَ وَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ »: الزمر: ۵۲، و قال : «أَ فَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثاراً فِي الْأَرْضِ فَما أَغْنى عَنْهُمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرِحُوا بِما عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حاقَ بِهِمْ ما كانُوا

بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ»: المؤمن: ۸۳ و عرض الآيات على قصة قارون لا يبقى شكا فى أن المراد بالعلم فى كلام ما قدمناه.

و فى قوله: «إِنَّما أُوتِيتُهُ» من غير إسناد الإيتاء إلى الله سبحانه كما فى قول الناصحين له : «فِيما آتاكَ اللَّهُ» نوع إعراض عن ذكره تعالى و إزراء بساحة كبريائه.

و قوله: «أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً» استفهام توبيخى و جواب عن قوله: «إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي» بأيسر ما يمكن أن يتنبه به لفساد قوله فإنه كان يرى أن الذى اقتنى به المال و هو يبقيه له و يمتعه منه هو علمه الذى عنده و هو يعلم أنه كان فيمن قبله من القرون من هو أشد منه قوة و أكثر جمعا، و كان ما له من القوة و الجمع عن علم عنده على زعمه، و قد أهلكه الله بجرمه، فلو كان العلم الذى يغتر و يتبجح به هو السبب الجامع للمال الحافظ له الممتع منه و لم يكن بإيتاء الله فضلا و إحسانا لنجاهم من الهلاك و متعهم من أموالهم و دافعوا بقوتهم و انتصروا بجمعهم.

و قوله: «وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ» ظاهر السياق أن المراد به بيان السنة الإلهية فى تعذيب المجرمين و إهلاكهم بذنوبهم فيكون كناية عن عدم إمهالهم و الإصغاء إلى ما لفقوه من المعاذير أو هيئوه من التذلل و الإنابة ليرجو بذلك النجاة كما أن أولى الطول و القوة من البشر إذا أرادوا تعذيب من يتحكمون عليه سألوه عن ذنبه ليقضوا عليه بالجرم ثم العذاب، و ربما صرف المجرم بما لفقه من المعاذير عذابهم عن نفسه لكن الله سبحانه لعلمه بحقيقة الحال لا يسأل المجرمين عن ذنوبهم و إنما يقضى عليهم قضاء فيأتيهم عذاب غير مردود.

و الظاهر على هذا أن تكون الجملة من تتمة التوبيخ السابق و يكون جوابا عن إسناده ثروته إلى علمه، و محصله أن المؤاخذة الإلهية ليست كمؤاخذة الناس حتى إذا لاموه أو نصحوه صرف عن نفسه ذلك بما لفقه من الجواب حتى ينتفع فى ذلك بعلمه، بل هو سبحانه عليم شهيد لا يسأل المجرم عن ذنبه و إنما يؤاخذه بذنبه، و أيضا يؤاخذه بغتة و هو لا يشعر.

هذا ما يعطيه السياق فى معنى الآية و لهم فيها أقاويل أخرى:

فقیل: المراد بالعلم فی قوله: «إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِی» علم التوراة فإنه کان أعلم بنی إسرائیل بها.

و قیل: المراد علم الکیمیاء و کان قد تعلمه من موسی و یوشع بن نون و کالب بن یوقنا و المراد بکون العلم عنده اختصاصه به دون سائر الناس و قد صنع به مقدارا کثیرا من الذهب.

و قیل: المراد بالعلم علم استخراج الکنوز و الدفائن و قد استخرج به کنوزا و دفائن کثیرة.

و قیل: المراد بالعلم علم الله تعالی و المعنی : أوتیته علی علم من الله و تخصیص منه قصدنی به، و معنی قوله : «عِنْدِی» هو کذلک فی ظنی و رأیی.

و قیل: العلم علم الله لکنه بمعنی المعلوم، و المعنی أوتیته علی خیر علمه الله تعالی عندی، و «عَلى» علی جمیع هذه الأقوال للاستعلاء و جوز أن تکون للتعلیل.

و قیل: المراد بالسؤال فی قوله : «وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ » سؤال یوم القیامة و المنفی سؤال الاستعلام لأن الله أعلم بذنوبهم لا حاجة له إلی السؤال و الملائکة یعلمونها من صحائف أعمالهم و یعرفونهم بسیماهم و أما قوله تعالی: «وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ»: الصافات: ۲۴ فهو سؤال تقریع و توبیخ لا سؤال استعلام، و یمکن أن یکون السؤال فی الآیتین بمعنی واحد و النفی و الإثبات باعتبار اختلاف المواقف یوم القیامة فیسألون فی موقف و لا یسألون فی آخر فلا تناقض بین الآیتین.

و قیل: الضمیر فی قوله: «عَنْ ذُنُوبِهِمُ» لمن هو أشد و المراد بالمجرمین غیرهم و المعنی : لا یسأل عن ذنوب من أهلکه الله من أهل القرون السابقة غیرهم من المجرمین.

و هذه کلها وجوه من التفسیر لا یلائمها السیاق.

قوله تعالی: «فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ» الحظ هو النصیب من السعادة و البخت.

و قوله: «يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا» أی یجعلونها الغایة المطلوبة فی مساعیهم لیس لهم وراءها غایة فهم علی جهل من الآخرة و ما أعد الله لعباده فیها من الثواب قال تعالی: «فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَياةَ الدُّنْيا ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ»

: النجم: ۳۰ و لذلک عدوا ما أوتیه قارون من المال سعادة عظیمة له من دون قید و شرط.

قوله تعالی: «وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً » إلخ، الویل الهلاک و یستعمل للدعاء بالهلاک و زجرا عما لا یرتضی، و هو فی المقام زجرا عن التمنی.

و القائلون بهذا القول هم المؤمنون أهل العلم بالله يخاطبون به أولئك الجهلة الذين تمنوا أن يؤتوا مثل ما أوتى قارون و عدوه سعادة عظيمة على الإطلاق، و مرادهم أن ثواب الله خير لمن آمن و عمل صالحا مما أوتى قارون فإن كانوا مؤمنين صالحين فليتمنوه.

و قوله: «وَ لا يُلَقّاها إِلَّا الصّابِرُونَ » التلقية التفهيم و التلقى التفهم و الأخذ، و الضمير- على ما قالوا- للكلمة المفهومة من السياق، و المعنى: و ما يفهم هذه الكلمة- و هى قولهم: ثَوابُ اللّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً- إلا الصابرون.

و قيل: الضمير للسيرة أو الطريقة و معنى تلقيها فهمها أو التوفيق للعمل بها.

و الصابرون هم المتلبسون بالصبر عند الشدائد و على الطاعات و عن المعاصى، و وجه كونهم هم المتلقين لهذه الكلمة أو السيرة أو الطريقة أن التصديق بكون ثواب الآخرة خيرا من الحظ الدنيوى- و هو لا ينفك عن الإيمان و ال عمل الصالح الملازمين لترك كثير من الأهواء و الحرمان عن كثير من المشتهيات- لا يتحقق إلا ممن له صفة الصبر على مرارة مخالفة الطبع و عصيان النفس الأمارة.

قوله تعالى: «فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ» إلى آخر الآية، الضميران لقارون و الجملة متفرعة على بغيه.

و قوله: «فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ» الفئة الجماعة يميل بعضهم إلى بعض، و فى النصر و الانتصار معنى المنع و الامتناع، و محصل المعنى: فما كان له جماعة يمنعونه العذاب و ما كان من الممتنعين على خلاف ما كان يظن أن الذى يجلب إليه الخير و يدفع عنه الشر هو قوته و جمعه اللذان اكتسبهما بعلمه فلم يقه جمعه و ل م تفده قوته من دون الله و بان أن الله سبحانه هو الذى آتاه ما آتاه.

فالفاء فى قوله: «فَما كانَ» لتفريع الجملة على قوله: «فَخَسَفْنا بِهِ» إلخ، أى فظهر بخسفنا به و بداره الأرض بطلان ما كان يدعيه لنفسه من الاستحقاق و الاستغناء

ص: 81

عن الله سبحانه و أن الذى يجلب إليه الخير و يدفع عنه الشر هو قوته و جمعه و قد اكتسبهما بنبوغه العلمى.

قوله تعالى: «وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِ بادِهِ وَ يَقْدِرُ » إلخ، ذكروا أن «وى» كلمة تندم و ربما تستعمل للتعجب و كلا المعنيين يقبلان الانطباق على المورد و إن كان التندم أسبق إلى الذهن.

و قوله: «وَيْكَأَنَّ اللّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ » اعتراف منهم ببطلان ما كان يزعمه قارون و هم يصدقونه أن القوة و الجمع فى الدنيا بنبوغ الإنسان فى علمه و جودة تدبيره لا بفضل من الله سبحانه بل سعة الرزق و ضيقه بمشية من الله.

و المقام مقام التحقيق دون التشبيه المناسب للشک و التردد لکنهم إنما استعملوا فی کلامهم «وَيْكَأَنَ» للدلالة على ابتداء ترددهم فی قول قارون و قد قبلوه و صدقوه من قبل و هذه صنعة شائعة فی الاستعمال.

و الدليل على ذلک قولهم بعده: «لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا» على طريق الجزم و التحقيق.

و قوله: «وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ» تندم منهم ثانيا و انتزاع مما کان لازم تمنيتهم مکان قارون.

قوله تعالى: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» الآية و ما بعدها بمنزلة النتيجة المستخرجة من القصة.

و قوله: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ» الإشارة إليها بلفظ البعيد للدلالة على شرفها و بهائها و علو مکانتها و هو الشاهد على أن المراد بها الدار الآخرة السعيدة و لذا فسروها بالجنة.

و قوله: «نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً » أی نختصها بهم و إرادة العلو هو الاستعلاء و الاستکبار على عباد الله و إرادة الفساد فيها ابتغاء معاصی الله تعالى فإن الله بنى شرائعه التی هی تکاليف للإنسان على مقتضيات فطرته و خلقته و لا تقتضی فطرته إلا ما يوافق النظام الأحسن الجاری فی الحياة الإنسانية الأرضية فکل معصية تقضی إلى فساد فی الأرض بلا واسطة أو بواسطة، قال تعالى: «ظَهَرَ

ص: 82

الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ»: الروم: ٤١.

و من هنا ظهر أن إرادة العلو من مصاديق إرادة الفساد و إنما أفردت و خصت بالذکر اعتناء بأمرها، و محصل المعنى : تلک الدار الآخرة السعيدة تخصها بالذين لا يريدون فسادا فی الأرض بالعلو على عباد الله و لا بأی معصية أخرى.

و الآية عامة يخصصها قوله تعالى: «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيماً»: النساء: ٣١.

و قوله: «وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ» أی العاقبة المحمودة الجميلة و هی الدار الآخرة السعيدة أو العاقبة السعيدة فی الدنيا و الآخرة لکن سياق الآيتين يؤيد الأول.

قوله تعالى: «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها » أی لأنها تتضاعف له بفضل من الله، قال تع الى: «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها»: الأنعام: ١٦٠.

قوله تعالى: «وَ مَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ » أی لا يزيدون على ما عملوا شيئا و فيه کمال العدل، کما أن فی جزاء الحسنة بخير منها کمال الفضل.

و كان مقتضى الظاهر فى قوله : «فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا» إلخ، الإضمار و لعل فى وضع الموصول موضع الضمير إشارة إلى أن هذا الجزاء إنما هو لمن أكثر من اقتراف المعصية و أحاطت به الخطيئة كما يفيده جمع السيئات، و قوله : «كانُوا يَعْمَلُونَ» الدال على الإصرار و الاستمرار، و أما من جاء بالسيئة و الحسنة فمن المرجو أن يغفر الله له كما قال : «وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَ آخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»: التوبة: ١٠٢.

و ليعلم أن الملاک فى الحسنة و السيئة على الأثر الحاصل منها عند الإنسان و بها تسمى الأعمال حسنة أو سيئة و عليها- لا على متن العمل الخارجى الذى هو نوع من الحركة- يثاب الإنسان أو يعاقب، قال تعالى: «وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ»: البقرة: ٢٨۴.

و به يظهر الجواب عما استشكل على إطلاق الآية بأن التوحيد حسنة و لا يعقل خير منه و أفضل، فالآية إما خاصة بغير الاعتقادات الحقة أو مخصصة بالتوحيد.

ص: 83

و ذلک أن الأثر الحاصل من التوحيد يمكن أن يفرض ما هو خير منه و إن لم يقبله التوحيد بحسب الاعتبار.

على أن التوحيد أيا ما فرض يقبل الشدة و الضعف و الزيادة و النقيصة و إذا ضوعف عند الجزاء كما تقدم كان مضاعفه خيرا من غيره.

(بحث روائى)

فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن ابن عباس": أن قارون كان من قوم موسى، قال: كان ابن عمه و كان يبتغى العلم حتى جمع علما- فلم يزل فى أمره ذلک حتى بغى على موسى و حسده.

فقال له موسى (ع): إن الله أمرنى أن آخذ الزكاة فأبى- فقال: إن موسى يريد أن يأكل أموالكم- جاءكم بالصلاة و جاءكم بأشياء- فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا : لا نحتمل فما ترى؟ فقال لهم : أرى أن أرسل إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل- فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها- فقالوا لها: نعطيک حكمک- على أن تشهدى على موسى أنه فجر بک. قالت نعم-.

فجاء قارون إلى موسى (ع) قال: اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرک ربک قال: نعم، فجمعهم فقالوا له: بم أمرک ربک؟ قال: أمرنى أن تعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا- و أن تصلوا الرحم و كذا و كذا- و قد أمرنى فى الزانى إذا زنى و قد أحصن أن يرجم. قالوا: و إن كنت أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنک قد زنيت، قال: أنا؟.

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا : ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى (ع): أنشدتک بالله إلا ما صدقت . قالت: أما إذا نشدتنی فإنهم دعونی- و جعلوا لی جعلا علی أن أقذفک بنفسی- و أنا أشهد أنک بریء و أنک رسول الله-.

فخر موسى (ع) ساجدا یبکی- فأوحی الله إلیه: ما یبکیک؟ قد سلطناک على الأرض فمرها فتطیعک، فرفع رأسه فقال: خذیهم فأخذتهم إلى أعقابهم- فجعلوا یقولون: یا موسى یا موسى- فقال: خذیهم فأخذتهم إلى أعناقهم- فجعلوا یقولون: یا

ص: 84

موسى یا موسى- فقال: خذیهم فغیبتهم فأوحی الله : یا موسى- سألک عبادی و تضرعوا إلیک فلم تجبهم- فوعزتی لو أنهم دعونی لأجبتهم.

قال ابن عباس: و ذلک قوله تعالى: «فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ» خسف به إلى الأرض السفلى.

أقول:

و روی فیه، أیضا عن عبد الرزاق و ابن أبی حاتم عن ابن نوفل الهاشمی القصة": لکن فیها أن المرأة أحضرت إلى مجلس قارون- لتشهد عند الملإ من بنی إسرائیل على موسى (ع) بالفجور- و تشکوه إلى قارون فجاءت إلیه و اعترفت عند الملإ بالحق فبلغ ذلک موسى (ع) فشکاه إلى ربه فسلطه الله علیه.

و روی القمی فی تفسیره، ": فی القصة أن موسى (ع) جاء إلى قارون- و بلغه حکم الزکاة- فاستهزأ به و أخرجه من داره فشکاه إلى ربه- فسلطه الله علیه فخسف به و بداره الأرض

، و الروایة موقوفة مشتملة على أمور منکرة و لذلک ترکنا نقلها کما أن روایتی ابن عباس و ابن نوفل أیضا موقوفتان.

على أن روایة ابن عباس تقصص بغیه على موسى (ع) و الذی تقصه الآیات بغیه على بنی إسرائیل، و تشیر إلى أن العلم الذی عنده هو ما حصله بالتعلم و ظاهر الآیة کما مر أنه العلم بطرق تحصیل الثروة و نحوها.

و قد سیقت القصة فی التوراة الحاضرة على نحو آخر

ففی الإصحاح السادس عشر من سفر العدد": و أخذ قورح بن بصهار بن نهات بن لاوی- و داثان و أبیرام ابنا ألیاب و أون بن فالت بنو رأوبین- یقاومون موسى مع أناس من بنی إسرائیل- مائتین و خمسین رؤساء الجماعة مدعوین للاجتماع ذوی اسم . فاجتمعوا على موسى و هارون و قالوا لهما کفاکما. إن کل الجماعة بأسرها مقدسة و فی وسطها الرب- فما بالکما ترتفعان على جماعة الرب؟.

فلما سمع موسى سقط على وجهه- ثم کلم قورح و جمیع قومه قائلا : غدا یعلن الرب من هو له؟ و من المقدس؟ حتى یقربه إلیه فالذی یختاره یقربه إلیه. افعلوا هذا:

خذوا لكم محابر قورح و كل جماعته- و اجعلوا فيها نارا و ضعوا عليها بخورا أمام الرب غدا- فالرجل الذى يختاره الرب هو المقدس. كفاكم يا بنى لاوى.

ص: 85

ثم سيقت القصة و ذكر فيها حضورهم غدا- و مجيؤهم بالمجامر و فيها النار و البخور و اجتماعهم على باب خيمة الاجتماع- ثم قيل: انشقت الأرض التى تحتهم- و فتحت الأرض فاها و ابتلعتهم و بيوتهم- و كل من كان لقورح مع كل الأموال- فنزلوا هم و كل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية- فانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة، و كل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم، لأنهم قالوا: لعل الأرض تبتلعنا، و خرجت نار من عند الرب- و أكلت المائتين و الخمسين رجلا الذين قربوا البخور.

انتهى موضع الحاجة.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى: «إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى»: و هو ابن خالته:

عن عطاء عن ابن عباس و هو المروى عن أبى عبد الله (ع).

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ» الآية، قال: كان يحمل مفاتيح خزائنه العصبة أولوا القوة.

و فى المعانى، بإسناده عن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر (ع) عن أبيه عن جده عن آبائه عن على (ع): فى قول الله عز و جل: «وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا» قال: لا تنس صحتك و قوتك و فراغك- و شبابك و نشاطك أن تطلب بها الآخرة.

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ» قال: فى الثياب المصبغات يجرها بالأرض.

و فى المجمع، و روى زاذان عن أمير المؤمنين (ع): أنه كان يمشى فى الأسواق و هو وال يرشد الضال- و يعين الضعيف و يمر بالبياع و البقال- فيفتح عليه القرآن و يقرأ:

«تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ- نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَ لا فَساداً» و يقول:

نزلت هذه الآية فى أهل العدل و التواضع- من الولاة و أهل القدرة من سائر الناس.

و فيه، روى سلام الأعرج عن أمير المؤمنين (ع) قال: الرجل ليعجبه شراك نعله فيدخل فى هذه الآية «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ» الآية.

أقول:

و عن السيد ابن طاووس فی سعد السعود، أنه رواه عن الطبرسی هکذا : إن الرجل لیعجبه أن یکون شراک نعله أجود- من شراک نعل صاحبه فیدخل تحتها.

و فی الدر المنثور، أخرج المحاملی و الدیلمی عن أبی هریرة عن النبی ص : فی الآیة قال: التجبر فی الأرض و الأخذ بغیر الحق.

ص: 86

[سورة القصص (٢٨): الآیات ٨٥ الی ٨٨]

إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ قُلْ رَبِّی أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدی وَ مَنْ هُوَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (٨٥) وَ ما کُنْتَ تَرْجُوا أَنْ یُلْقی إِلَیْکَ الْکِتابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ فَلا تَکُونَنَّ ظَهِیراً لِلْکافِرِینَ (٨٦) وَ لا یَصُدُّنَّکَ عَنْ آیاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَیْکَ وَ ادْعُ إِلی رَبِّکَ وَ لا تَکُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِکِینَ (٨٧) وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ کُلُّ شَیْ ءٍ هالِکٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

(بیان)

الآیات خاتمة السورة و فیها وعد جمیل للنبی ص أن ا لله سبحانه سیمن علیه برفع قدره و نفوذ کلمته و تقدم دینه و انبساط الأمن و السلام علیه و علی المؤمنین به کما فعل ذلک بموسی و بنی إسرائیل، و قد کانت قصة موسی و بنی إسرائیل مسوقة فی السورة لبیان ذلک.

قوله تعالی: «إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لَرادُّ کَ إِلی مَعادٍ» إلی آخر الآیة الفرض- علی ما ذکره- بمعنی الإیجاب فمعنی «فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ» أی أوجب علیک العمل به أی بما فیه من الأحکام ففیه مجاز فی النسبة.

و أحسن منه قول بعضهم: إن المعنی أوجب علیک تلاوته و تبلیغه و العمل به و ذلک لکونه أوفق لقوله: «لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ» بما سیجیء من معناه.

و قوله: «لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ» المعاد اسم مکان أو زمان من العود و قد اختلفت کلماتهم فی تفسیر هذا المعاد فقیل: هو مکة فالآیة وعد له أن الله سیرده بعد هجرته

ص: 87

إلی مکة ثانیا، و قیل: هو الموت، و قیل: هو القیامة، و قیل: هو المحشر، و قیل هو المقام المحمود و هو موقف الشفاعة الکبری، و قیل: هو الجنة، و قیل: هو بیت المقدس، و هو فی الحقیقة وعد بمعراج ثان یعود فیه إلی بیت المقدس بعد ما کان دخله فی المعراج الأول: و قیل: هو الأمر المحبوب فیقبل الانطباق علی جل الأقوال السابقة أو کلها.

و الذی یعطیه التدبر فی سیاق آیات السورة هو أن تکون الآیة تصریحا بما کانت القصة المسرودة فی أول السورة تلوح إلیه ثم الآیات التالیة لها تؤیده.

فإنه تعالی أورد قصة بنی إسرائیل و موسی (ع) فی أول السورة ففصل القول فی أنه کیف من علیهم بالأمن و السلام و العزة و التمکن بعد ما کانوا أذلاء مستضعفین بأیدی آل فرعون یذبحون أبناءهم یستحیون نساءهم، و قد کانت القصة تدل بالالتزام- و مطلع السورة یؤیده- علی وعد جمیل للمؤمنین أن الله سبحانه سینجیهم مما هم علیه من الفتنة و الشدة و العسرة و یظهر دینهم علی الدین کله و یمکنهم فی الأرض بعد ما کانوا لا سماء تظلهم و لا أرض تقلهم.

ثم ذکر بعد الفراغ من القصة أن من الواجب فی الحکمة أن ینزل کتابا یهدی الناس إلی الحق تذکرة و إتماما للحجة لیتقوا بذلک من عذاب الله کما نزله علی موسی بعد ما أهلک القرون الأولی و کما نزل علی النبی ص و إن کذبوا به عنادا للحق و إیثارا للدنیا علی الآخرة.

و هذا السیاق یرجی السامع أنه تعالی سیتعرض صریحا لما أشار إلیه فی سرد القصة تلویحا فإذا سمع قوله : «إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ» لم یلبث دون أن یفهم أنه هو الوعد الجمیل الذی کان یترقبه و خاصة مع الابتداء بقوله : «إِنَّ الَّذِی فَرَضَ عَلَیْکَ الْقُرْآنَ» و قد قدم تنظیر التوراة بالقرآن و قد کان ما قصه فی إنجاء بنی إسرائیل مقدمة لنزول التوراة حتی یکونوا بالأخذ بها و العمل بها أئمة و یکونوا هم الوارثین.

فمعنی الآیة: إن الذی فرض علیک القرآن لتقرأه علی الناس و تبلغه و تعملوا به سیردک و یصیرک إلی محل تکون هذه الصیرورة منک إلیه عودا و یکون هو معادا لک

ص: 88

کما فرض التوراة علی موسی و رفع به قدره و قدر قومه، و من المعلوم أنه (ص) کان بمکة علی ما فیها من الشدة و الفتنة ثم هاجر منها ثم عاد إلیها فاتحا مظفرا و ثبتت قواعد دینه و استحکمت أرکان ملته و کسرت الأصنام و انهدم بنیان الشرک و المؤمنون هم الوارثون للأرض بعد ما کانوا أذلاء معذبین.

و فی تنکیر قوله: «مَعادٍ» إشارة إلی عظمة قدر هذا العود و أنه لا یقاس إلی ما قبله من القطون بها و التاریخ یصدقه.

و قوله: «قُلْ رَبِّی أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدی وَ مَنْ هُوَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ» یؤید ما قدمنا من المعنی فإنه یحاذی قول موسی (ع)- لما کذبوه و رموا آیاته البینات بأنها سحر مفتری- : «رَبِّی أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدی مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَکُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ» فأمر النبی ص أن یقول للفراعنة من مشرکی قومه لما کذبوه و رموه بالسحر ما قال موسی لآل فرعون لما کذبوه و رموه بالسحر للتشابه التام بین مبعثیهما و سیر دعوتهما کما یظهر من القصة و یظهر ذلک تمام الظهور بالتأمل فی قوله تعالی: «إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَیْکُمْ رَسُولًا شاهِداً عَلَیْکُمْ کَما أَرْسَلْنا إِلی فِرْعَوْنَ رَسُولًا»: المزمل: ١٥.

و لعل الاكتفاء بالشطر الأول من قول موسى (ع) و السكوت عن الشطر الثانى أعنى قوله : «وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدّارِ » لبناء الكلام بحسب سياقه على أن لا يتعدى حد الإشارة و الإيماء كما يستشم من سياق قوله : «لَرادُّکَ إِلى مَعادٍ» أيضا حيث خص الخطاب بالنبى ص و نكر معادا.

و كيف كان فالمراد بقوله: «مَنْ جاءَ بِالْهُدى» النبى ص نفسه و بقوله:

«وَ مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ » المشركون من قومه، و اختلاف سياق الجملتين- حيث قيل فى جانبه (ص): «مَنْ جاءَ بِالْهُدى» و فى جانبهم: «مَنْ هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ» فقوبل بين ضلالهم و بين مجيئه بالهدى لا بين ضلالهم و اهتدائه- لكون تكذيبهم متوجها بالطبع إلى ما جاء به لا إلى نفسه.

و قد ذكروا فى قوله: «أَعْلَمُ مَنْ جاءَ بِالْهُدى » أن «مَنْ» منصوب بفعل مقدر يدل عليه «أَعْلَمُ» و التقدير يعلم من جاء به بناء على ما هو المشهور أن أفعل التفضيل لا ينصب المفعول به، و ذكر بعضهم أنه منصوب بأعلم و هو بمعنى عالم و لا دليل عليه،

ص: 89

و ما أذكر قائلا بأنه منصوب بنزع الخافض و إن لم يظهر فيه النصب لبنائه و التقدير ربى أعلم بمن جاء بالهدى، و لا دليل على منعه.

قوله تعالى: «وَ ما كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقى إِلَيْکَ الْكِتابُ إِلّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ » صدر الآية تقرير للوعد الذى فى قوله : «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْکَ الْقُرْآنَ لَرادُّکَ إِلى مَعادٍ» أى أنه سيردک إلى معاد- و ما كنت ترجوه كما ألقى إليک الكتاب و ما كنت ترجوه-.

و قيل: تذكرة استينافية لنعمته تعالى عليه (ص) و هذا وجه وجيه و تقريره أنه تعالى لما وعده بالرد إلى معاد و فيه ارتفاع ذكره و تقدم دعوته و انبساط دينه خط له السبيل التى يجب عليه سلوكها بجهد و مراقبة فبين له أن إلقاء الكتاب إليه لم يكن على نهج الحوادث العادية التى من شأنها أن ترتجى و تترقب بل كانت رحمة خاصة من ربه و قد وعده فى فرضه عليه ما وعده فمن الواجب عليه قبال هذه النعمة و فى تقدم دعوته و بلوغها الغاية التى وعدها أن لا ينصر الكافرين و لا يطيعهم و يدعو إلى ربه و لا يكون من المشركين و لا يدعو معه إلها آخر.

و قوله: «إِلّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ» استثناء منقطع أى لكنه ألقى إليک رحمة من ربک و ليس بإلقاء عادى يرجى مثله.

و قوله: «فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ» تفريع على قوله: «إِلّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّکَ» أى فإذا كان إلقاؤه إليک رحمة من ربک خصک بها و هو فوق رجائک فتبرء من الكافرين و لا تكن معينا و ناصرا لهم.

و من المحتمل قريبا أن يكون فى الجملة نوع محاذاة لقول موسى (ع)- لما قتل القبطى: «رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ» و على هذا يكون فى النهى عن إعانتهم إشارة إلى أن إلقاء الكتاب إليه (ص) نعمة أنعمها الله عليه يهدى به إلى

الحق و يدعو إلى التوحيد فعليه أن لا يعين الكافرين على كفرهم و لا يميل إلى صدهم إياه عن آيات الله بعد نزولها عليه كما عاهد موسى (ع) ربه بما أنعم عليه من الحكم و العلم أن لا يكون ظهيرا للمجرمين أبدا، و سيأتى أن قوله: «وَ لا يَصُدُّنَّکَ» إلخ، بمنزلة الشارح لهذه الجملة.

ص: 90

قوله تعالى: «وَ لا يَصُدُّنَّکَ عَنْ آياتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْکَ» إلى آخر الآية، نهى له (ص) على الانصراف عن آيات الله بلسان نهى الكفار عن الصد و الصرف و وجهه كون انصرافه مسببا لصدهم و هو كقوله لآدم و زوجه : «فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ» أى لا تخرجا منها بإخراجه لكما بالوسوسة.

و الظاهر أن الآية و ما بعدها فى مقام الشرح لقوله : «فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ» و فائدته تأكيد النهى بعد موارده واحدا بعد واحد فنهاه أولا عن الانصراف عن القرآن النازل عليه برميهم كتاب الله بأنه سحر أو شعر أو كهانة أو أساطير الأولين اكتتبها، و أمره ثانيا أن يدعو إلى ربه، و نهاه ثالثا أن يكون من المشركين و فسره بأن يدعو مع الله إلها آخر.

و قد كرر صفة الرب مضافا إليه (ص) للدلالة على اختصاصه بالرحمة و النعمة و أنه (ص) متفرد فى عبادته لا يشاركه المشركون فيها.

قوله تعالى: «وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ» قد تقدم أنه كالتفسير لقوله: «وَ لا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

قوله تعالى: «لا إِلهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هالِکٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » كلمة الإخلاص فى مقام التعليل لقوله قبله : «وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ» أى لأنه لا إله غيره و ما بعدها فى مقام التعليل بالنسبة إليها كما سيتضح.

و قوله: «كُلُّ شَيْءٍ هالِکٌ إِلَّا وَجْهَهُ» الشىء مساو للموجود و يطلق على كل أمر موجود حتى عليه تعالى كما يدل عليه قوله: «قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللَّهُ»: الأنعام: ١٩، و الهلاک البطلان و الانعدام.

و الوجه و الجهة واحد كالوعد و العدة، و وجه الشى ء فى العرف العام ما يستقبل به غيره و يرتبط به إليه كما أن وجه الجسم السطح الظاهر منه و وجه الإنسان النصف المقدم من رأسه و وجهه تعالى ما يستقبل به غيره من خلقه و يتوجه إليه خلقه به و هو صفاته الكريمة من حياة و علم و قدرة و سمع و بصر و ما ينتهى إليها من صفات الفعل كالخلق و الرزق و الإحياء و الإماتة و المغفرة و الرحمة و كذا آياته الدالة عليه بما هى آياته.

فكل شيء هالک فى نفسه باطل فى ذاته لا حقيقة له إلا ما كان عنده مما أفاضه

ص: 91

الله علیه و أما ما لا ینسب إلیه تعالی فلیس إلا ما اختلقه وهم المتوهم أو سرابا صوره الخیال و ذلک کالأصنام لیس لها من الحقیقة إلا أنها حجارة أو خشبة أو شیء من الفلزات و أما أنها أرباب أو آلهة أو نافعة أو ضارة أو غیر ذلک فلیست إلا أسماء سماها عبدتهم و کالإنسان لیس له من الحقیقة إلا ما أودعه فیه الخلقة من الروح و الجسم و ما اکتسبه من صفات الکمال و الجمیع منسوبة إلی الله سبحانه و أما ما یضیفه إلیه العقل الاجتماعی من قوة و سلطة و رئاسة و وجاهة و ثروة و عزة و أولاد و أعضاد فلیس إلا سرابا هالکا و أمنیة کاذبة و علی هذا السبیل سائر الموجودات.

فلیس عندها من الحقیقة إلا ما أفاض الله علیها بفضله و هی آیاته الدالة علی صفاته الکریمة من رحمة و رزق و فضل و إحسان و غیر ذلک.

فالحقیقة الثابتة فی الواقع التی لیست هالکة باطلة من الأشیاء هی صفاته الکریمة و آیاته الدالة علیها و الجمیع ثابتة بثبوت الذات المقدسة.

هذا علی تقدیر کون المراد بالهالک فی الآیة الهالک بالفعل و علی هذا یکون محصل تعلیل کلمة الإخلاص بقوله : «کُلُّ شَیْءٍ هالِکٌ إِلّا وَجْهَهُ» أن الإله و هو المعبود بالحق إنما یکون إلها معبودا إذا کان أمرا ذا حقیقة واقعیة غیر هالک و لا باطل له تدبیر فی العالم بهذا النعت و کل شی ء غیره تعالی هالک باطل فی نفسه إلا ما کان وجها له منتسبا إلیه فلیس فی الوجود إله غیره سبحانه.

و الوثنیون و إن کانوا یرون وجود آلهتهم منسوبا إلیه تعالی و من جهته إلا أنهم یجعلونها مستقلة فی التدبیر مقطوعة النسبة فی ذلک عنه من دون أن یکون حکمها حکمه، و لذلک یعبدونها من دون الله، و لا استقلال لشی ء فی شیء عنه تعالی فلا یستحق العبادة إلا هو.

و هاهنا وجه آخر أدق منه بناء علی أن المراد بالوجه ذات الشی ء فقد ذکر بعضهم ذلک من معانی الوجه کما یقال : وجه النهار و وجه الطریق لنفسهما و إن أمکنت المناقشة فیه، و ذکر بعض آخر : أن المراد به الذات الشریفة کما یقال : وجوه الناس أی أشرافهم و هو من المجاز المرسل أو الاستعارة و علی کلا التقدیرین فالمراد أن غیره تعالی من الموجودات ممکنة و الممکن و إن کان موجودا بإیجاده تعالی فهو معدوم بالنظر

إلی حد ذاته هالک فی نفسه و الذی لا سبیل للبطلان و الهلاک إلیه هو ذاته الواجبة بذاتها.

و محصل التعلیل علی هذا المعنی : أن الإله المعبود بالحق یجب أن یکون ذاتا بیده شی ء من تدبیر العالم، و التدبیر الکونی لا ینفک عن الخلق و الإیجاد فلا معنی لأن یوجد الحوادث شیء و یدبر أمرها شیء آخر- و قد أوضحناه مرارا فی هذا الکتاب- و لا یکون الخالق الموجد إلا واجب الوجود و لا واجب إلا هو تعالی فلا إله إلا هو.

و قولهم: إنه تعالی أجل من أن یحیط به عقل أو وهم فلا یمکن التوجه العبادی إلیه فلا بد أن یتوجه بالعبادة إلی بعض مقربی حضرته من الملائکة الکرام و غیرهم لیکونوا شفعاء عنده.

مدفوع بمنع توقف التوجه بالعبادة علی العلم الإحاطی بل یکفی فیه المعرفة بوجه و هو حاصل بالضرورة.

و أما علی تقدیر کون المراد بالهالک ما یستقبله الهلاک و الفناء بناء علی ما قیل:

إن اسم الفاعل ظاهر فی الاستقبال فظاهر الآیة أن کل شیء سیستقبله الهلاک بعد وجوده إلا وجهه. نعم استقبال الهلاک یختلف باختلاف الأشیاء فاستقباله فی الزمانیات ا نتهاء أمد وجودها و بطلانها بعده و فی غیرها کون وجودها محاطا بالفناء من کل جانب.

و هلاک الأشیاء علی هذا بطلان وجودها الابتدائی و خلو النشأة الأولی عنها بانتقالها إلی النشأة الأخری و رجوعها إلی الله و استقرارها عنده، و أما البطلان المطلق بعد الوجود فصریح کتا ب الله ینفیه فالآیات متتابعة فی أن کل شی ء مرجعه إلی الله و أنه المنتهی و إلیه الرجعی و هو الذی یبدئ الخلق ثم یعیده.

فمحصل معنی الآیة- لو أرید بالوجه صفاته الکریمة- أن کل شی ء سیخلی مکانه و یرجع إلیه إلا صفاته الکریمة التی هی مبادئ فیضه فهی تفیض ثم تفیض إلی ما لا نهایة له و الإله یجب أن یکون کذلک لا بطلان لذاته و لا انقطاع لصفاته الفیاضة و لیس شیء غیره تعالی بهذه الصفة فلا إله إلا هو.

و لو أرید بوجهه الذات المقدسة فالمحصل أن کل شی ء سیستقبله الهلاک و الفناء بالرجوع إلی الله سبحانه إلا ذاته الحقة الثابتة التی لا سبیل للبطلان إلیها- و الصفات علی هذا محسوبة من صقع الذات- و الإله یجب أن یکون بحیث لا یتطرق الفناء إلیه

و لیس شیء غیره بهذه الصفة فلا إله إلا هو.

و بما تقدم من التقریر یندفع الاعتراض علی عموم الآیة بمثل الجنة و النار و العرش فإن الجنة و النار لا تنعدمان بعد الوجود و تبقیان إلی غیر النهایة، و العرش أیضا کذلک بناء علی ما ورد فی بعض الروایات أن سقف الجنة هو العرش.

وجه الاندفاع أن المراد بالهلاک هو تبدل نشأة الوجود و الرجوع إلی الله المعبر عنه بالانتقال من الدنیا إلی الآخرة و التلبس بالعود بعد البدء، و هذا إنما یکون فیما هو موجود بوجود بدئی دنیوی، و أما الدار الآخرة و ما هو موجود بوجود أخروی کالجنة و النار فلا یتصف شیء من هذا القبیل بالهلاک بهذا المعنی.

قال تعالى: «ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَ ما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ »: النحل: ۹۶، و قال : «وَ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرارِ »: آل عمران: ۱۹۸ و قال: «سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذابٌ شَدِيدٌ »: الأنعام: ۱۲۴ و نظيرتهما خزائن الرحمة كما قال: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ»: الحجر: ۲۱ و كذا اللوح المحفوظ كما قال: «وَ عِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ»: ق: ۴.

و أما ما ذكروه من العرش فقد تقدم الكلام فيه فى تفسير قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ»، الآية: الأعراف: ۵۴.

و يمكن أن يراد بالوجه جهته تعالى التى تنسب إليه و هى الناحية التى يقصد منها و يتوجه إ ليه بها، و تؤيده كثرة استعمال الوجه فى كلامه تعالى بهذا المعنى كقوله:

«يُرِيدُونَ وَجْهَهُ»: الأنعام: ۵۲ و قوله: «إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلى»: الليل: ۲۰ إلى غير ذلک من الآيات الكثيرة جدا.

و عليه فتكون عبارة عن كل ما ينسب إليه وحده فإن كان الكلام على ظاهر عمومه انطبق على الوجه الأول الذى أوردناه و يكون من مصاديقه أسماؤه و صفاته و أنبياؤه و خلفاؤه و دينه الذى يؤتى منه.

و إن خص الوجه بالدين فحسب- كما وقع فى بعض الروايات إن لم يكن من باب التطبيق- كان المراد بالهلاک الفساد و عدم الأثر، و كانت الجملة تعليلا لقوله: «وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ » و كان ما قبلها قرينة على أن المراد بالشى ء الدين و الأعمال المتعلقة

ص: 94

به و كان محصل المعنى: و لا تتدين بغير دين التوحيد لأن كل دين باطل لا أثر له إلا دينه.

و الأنسب على هذا أن يكون الحكم فى ذيل الآية بمعنى الحكم التشريعى أو الأعم منه و من التكوينى و المعنى : كل دين هالک إلا دينه لأن تشريع الدين إليه و إليه ترجعون لا إلى مشرعى الأديان الأخر.

هذا ما يعطيه التدبر فى الآية الكريمة و للمفسرين فيها أقوال أخر مختلفة.

فقيل: المراد بالوجه ذاته تعالى المقدسة و بالهلاک الانعدام، و المعنى: كل شيء فى نفسه عرضة للعدم لكون وجوده عن غيره إلا ذاته الواجبة الوجود، و الكلام على هذا مبنى على التشبيه أى كل شيء غيره كالهالک لاستناد وجوده إلى غيره.

و قيل: الوجه بمعنى الذات و المراد به ذات الشيء و الضمير لله باعتبار أن وجه الشيء مملوک له، و المعنى: كل شيء هالک إلا وجه الله الذى هو ذات ذلک الشيء و وجوده.

و قيل: المراد بالوجه الجهة المقصودة و الضمير لله، و المعنى: كل شيء هالک بجميع ما يتعلق به إلا الجهة المنسوبة إليه تعالى و هو الوجود الذى أفاضه الله تعالى عليه.

و قیل: الوجهة هو الجهة المقصودة و المراد به الله سبحانه الذی یتوجه إلیه کل شی ء و الضمیر للشی ء، و المعنی: کل شیء هالک إلا الله الذی هو الجهة المطلوبة له.

و قیل: المراد بالهلاک هلاک الموت و العموم مخصوص بذوی الحیاة و المعنی:

کل ذی حیاة فإنه سیموت إلا وجهه.

و قیل: المراد بالوجه العمل الصالح و المعنی أن العمل کان فی حیز العدم، فلما فعله العبد ممتثلا لأمره تعالی أبقاه الله من غیر إحباط حتی یثیبه أو أنه بالقبول صار غیر قابل للهلاک لأن الجزاء قائم مقامه و هو باق.

و قیل: المراد بالوجه جاهه تعالی الذی أثبته فی الناس.

و قیل: الهلاک عام لجمیع ما سواه تعالی دائما لکون الوجود المفاض علیها متجددا فی کل آن فهی متغیرة هالکة دائما فی الدنیا و الآخرة و المعنی کل شیء متغیر الذات دائما إلا وجهه.

و هذه الوجوه بین ما لا ینطبق علی سیاق الآیة و بین ما لا ینجح به حجتها و بین ما هو بعید عن الفهم، و بالتأمل فیما قدمناه یظهر ما فی کل منها فلا نطیل.

و قوله: «لَهُ الْحُکْمُ وَ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ» الحکم هو قضاؤه النافذ فی الأشیاء و علیه یدور التدبیر فی نظام الکون، و أما کونه بمعنی فصل القضاء یوم القیامة فیبعده تقدیم الحکم فی الذکر علی الرجوع إلیه الذی هو یوم القیامة فإن فصل القضاء متفرع علیه.

و کلتا الجملتین مسوقتان للتعلیل و کل واحدة منهما وحدها حجة تامة علی توحده.

تعالی بالألوهیة صالحة للتعلیل کلمة الإخلاص، و قد تقدم إمکان أخذ الحکم علی بعض الوجوه بمعنی الحکم التشریعی.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور، أخرج ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و البخاری و النسائی و ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردویه و البیهقی فی الدلائل من طرق عن ابن عباس ": فی قوله تعالی: «لَرادُّکَ إِلی مَعادٍ» قال: إلی مکة. زاد ابن مردویه کما أخرجک منها.

أقول:

و روی عنه و عن أبی سعید الخدری": أن المراد به الموت

، و أيضا عن على عن النبى ص: أن المراد به الجنة و انطباقهما على الآية لا يخلو من خفاء.

و روى القمى فى تفسيره، عن حريز عن أبى جعفر (ع) و عن أبى خالد الكابلى عن على بن الحسين (ع): أن المراد به الرجعة

و لعله من البطن دون التفسير.

و فى الإحتجاج، عن أمير المؤمنين (ع) فى حديث طويل: و أما قوله «كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلّا وَجْهَهُ» فالمراد كل شىء هالک إلا دينه، لأن من المحال أن يهلک منه كل شىء و يبقى الوجه. هو أجل و أعظم من ذلک و إنما يهلک من ليس منه- أ لا ترى أنه قال:

«كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّکَ» ففصل بين خلقه و وجهه؟.

و فى الكافى، بإسناده عن سيف عمن ذكره عن الحارث بن المغيرة النصرى قال : سئل أبو عبد الله (ع) عن قول الله تبارک و تعالى: «كُلُّ شَيْءٍ هالِکٌ إِلّا وَجْهَهُ» فقال:

ما يقولون فيه؟ قلت: يقولون: يهلک كل شىء إلا وجه الله- فقال: سبحان الله لقد قالوا عظيما إنما عنى به وجه الله الذى يؤتى منه.

أقول:

و روى مثله فى التوحيد، بإسناده عن الحارث بن المغيرة النصرى عنه

ص: 96

(ع) و لفظه: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز و جل: «كُلُّ شَيْءٍ هالِکٌ إِلّا وَجْهَهُ» قال: كل شىء هالک إلا من أخذ طريق الحق.

و فى محاسن البرقى،: مثله إلا أن آخره «من أخذ الطريق الذى أنتم عليه».

و التشويش الذى يتراءى فى الروايات تطرق إليها من جهة النقل بالمعنى، فإن كان المراد بالوجه الذى يؤتى منه مطلق ما ينسب إليه و كان من صقعه تعالى و من جانبه كان منطبقا على المعنى الأول الذى قدمناه فى معنى الآية.

و إن كان الوجه بمعنى الدين الذى يتوجه إليه تعالى بقصده كان المراد بالهلاک البطلان و عدم التأثير و كان المعنى : لا إله إلا هو كل دين باطل إلا دينه الحق الذى يؤتى منه فإنه سينفع و يثاب عليه، و قد تقدمت الإشارة إلى الوجهين فى تفسير الآية.

و فى تفسير القمى، ": فى قوله تعالى: «فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ » قال: المخاطبة للنبى ص و المعنى للناس، و قوله : «وَ لا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ» المخاطبة للنبى ص و المعنى للناس، و هو

قول الصادق (ع)- إن الله بعث نبيه ص: بإياك أعنى، و اسمعى يا جارة.

ص: 97

(۲۹) (سورة العنكبوت مكية، و هى تسع و ستون آية) (۶۹)

[سورة العنكبوت (۲۹): الآيات ۱ الى ۱۳]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (۱) أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ (۲) وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ (۳) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ (۴)

مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (۵) وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (۶) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كانُوا يَعْمَلُونَ (۷) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۸) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (۹)

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ (۱۰) وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ (۱۱) وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (۱۲) وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ (۱۳)

ص: 98

(بيان)

يلوح من سياق آيات السورة و خاصة ما فى صدرها من الآيات أن بعضا ممن آمن بالنبى ص بمكة قبل الهجرة رجع عنه خوفا من فتنة كانت تهدده من قبل المشركين فإن المشركين كانوا يدعونهم إلى العود إلى ملتهم و يضمنون لهم أن يحملوا خطاياهم إن اتبعوا سبيلهم فإن أبوا فتنوهم و عذبوهم ليعيدوهم إلى ملتهم.

يشير إلى ذلك قوله تعالى: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ» الآية، و قوله: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ» الآية.

و كان فى هؤلاء الراجعين عن إيمانهم من كان رجوعه بمجاهدة من والديه على أن يرجع و إلحاح منهما عليه فى الارتداد كبعض أبناء المشركين على ما يستشم من قوله تعالى:

«وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما » الآية، و قد نزلت السورة فى شأن هؤلاء.

فغرض السورة على ما يستفاد من بدئها و ختامها و السياق الجارى فيها أن الذى يريده الله سبحانه من الإيمان ليس هو مجرد قولهم: آمَنَّا بِاللَّهِ بل هو حقيقة الإيمان التى لا تحركها عواصف الفتن و لا تغيرها غير الزمن و هى إنما تتثبت و تستقر بتوارد الفتن و تراكم المحن، فالناس غير متروكين بمجرد أن يقولوا: آمَنَّا بِاللَّهِ دون أن يفتنوا و يمتحنوا فيظهر ما فى نفوسهم من حقيقة الإيمان أو وصمة الكفر فليعلمن الله الذين صدقوا و يعلم الكاذبين.

ص: 99

فالفتنة و المحنة سنة إلهية لا معدل عنها تجرى فى الناس الحاضرين كما جرت فى الأمم الماضين كقوم نوح و عاد ثمود و قوم إبراهيم و لوط و شعيب و موسى فاستقام منهم من استقام و هلك منهم من هلك و ما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفسهم يظلمون.

فعلى من يقول: آمنت بالله أن يصبر على إيمانه و يعبد الله وحده فإن تعذر عليه القيام بوظائف الدين فليهاجر إلى أرض يستطيع فيها ذلك فأرض الله واسعة و لا يخف عسر المعاش فإن الرزق على الله و كأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها و إياه.

و أما المشركون الذين يفتنون المؤمنين من غير جرم أجرموه إلا أن يقولوا ربنا الله فلا يحسبوا أنهم يعجزون الله و يسبقونه فأما فتنتهم للمؤمنين و إيذاؤهم و تعذيبهم فإنما هى فتنة لهم و للمؤمنين غير خارجة عن علم الله و تقديره، فهى فتنة و هى محفوظة عليهم إن شاء أخذهم بوبالها فى الدنيا و إن شاء أخرهم إلى يوم يرجعون فيه إليه و ما لهم من محيص.

و أما ما لفقوه من الحجة و ركنوا إليه من باطل القول فهو داحض مردود إليهم و الحجة قائمة تامة عليهم.

فهذا محصل غرض السورة و مقتضى ذلك كون السورة كلها مكية، و قول القائل : إنها مدنية كلها أو معظمها أو بعضها- و سيجىء فى البحث الروائى التالى- غير سديد، فمضامين آيات السورة لا تلائم إلا زمن العسرة و الشدة قبل الهجرة.

قوله تعالى: «الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ » الحسبان هو الظن، و جملة «أَنْ يُتْرَكُوا» قائمة مقام مفعوليه، و قوله : «أَنْ يَقُولُوا» بتقدير باء السببية، و الفتنة الامتحان و ربما تطلق على المصيبة و العذاب، و الأوفق للسياق هو المعنى الأول، و الاستفهام للإنكار.

و المعنى: أ ظن الناس أن يتركوا فلا يتعرض لحالهم و لا يمتحنوا بما يظهر به صدقهم أو كذبهم فى دعوى الإيمان بمجرد قولهم : آمنا؟

و قيل: المعنى: أ ظن الناس أن يتركوا فلا يبتلوا ببلية و لا تصيبهم مصيبة لقول هم: آمنا بأن تكون لهم على الله كرامة بسبب الإيمان يسلموا بها من كل مكروه يصيب الإنسان مدى حياته؟ و لا يخلو من بعد بالنظر إلى سياق الآيات.

ص: 100

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ» اللامان للقسم، و قوله: «وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» حال من الناس فى قوله : «أَ حَسِبَ النَّاسُ » أو من ضمير الجمع فى قوله «لا يُفْتَنُونَ» و على الأول فالإنكار و التوبيخ متوجه إلى ظنهم أنهم لا يفتنون مع جريان السنة الإلهية على الفتنة و الامتحان و على الثانى إلى ظنهم الاختلاف فى فعله تعالى حيث يفتن قوما و لا يفتن آخرين، و لعل الوجه الأول أوفق للسياق.

فالظاهر أن المراد بقوله: «وَ لَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» أن الفتنة و الامتحان سنة جارية لنا و قد جرت فى الذين من قبلهم و هى جارية فيهم و لن تجد لسنة الله تبديلا.

و قوله: «فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا » إلخ تعليل لما قبله، و المراد بعلمه تعالى بالذين صدقوا بالكاذبين ظهور آثار صدقهم و كذبهم فى مقام العمل بسبب الفتنة و الامتحان الملازم لثبوت الإيمان فى قلوبهم حقيقة و عدم ثبوته فيها حقيقة فإن السعادة التى تترتب على الإيمان المدعو إليه و كذا الثواب إنما تترتب على حقيقة الإيمان الذى له آثار ظاهرة من الصبر عند المكاره و الصبر على طاعة الله و الصبر عن معصية الله لا على دعوى الإيمان المجردة.

و يمكن أن يكون المراد بالعلم علمه تعالى الفعلى الذى هو نفس الأمر الخارجى فإن الأمور الخارجية بنفسها من مراتب علمه تعالى، و أما علمه تعالى الذاتى فلا يتوقف على الامتحان البتة.

و المعنى: أ حسبوا أن يتركوا و لا يفتنوا بمجرد دعوى الإيمان و إظهاره و الحال أن الفتنة سنتنا و قد جرت فى الذين من قبلهم فمن الواجب أن يتميز الصادقون من الكاذبين بظهور آثار صدق هؤلاء و آثار كذب أولئک الملازم لاستقرار الإيمان فى قلوب هؤلاء و زوال صورته الكاذبة عن قلوب أولئک.

و الالتفات فى قوله : «فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ» إلى اسم الجلالة قيل: للتهويل و تربية المهابة و الظاهر أنه فى أمثال المقام لإفادة نوع من التعليل و ذلک أن الدعوة إلى الإيمان و الهداية إليه و الثواب عليه لما كانت راجعة إلى المسمى بالله الذى منه يبدأ كل شى ء و به يقوم كل شىء و إليه ينتهى كل شىء بحقيقته فمن الواجب أن يتميز عنده حقيقة الإيمان من

ص: 101

دعواه الخالية و يخرج عن حال الإبهام إلى حال الصراحة و لذلک عدل عن مثل قولنا:

فلنعلمن إلى قوله: «فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ».

قوله تعالى : «أَمْ حَسِبَ اَلَّذِينَ يَعْمَلُونَ اَلسَّيِّئاتِ أَنْ يَسْبِقُونا ساءَ ما يَحْكُمُونَ » أم منقطعة، و المراد بقوله : «اَلَّذِينَ يَعْمَلُونَ اَلسَّيِّئاتِ» المشركون الذين كانوا يفتنون المؤمنين و يصدونهم عن سبيل الله كما أن المراد بالناس فی قوله : «أَ حَسِبَ اَلنَّاسُ» هم الذين قالوا: آمنا و هم فی معرض الرجوع عن الإيمان خوفا من الفتنة و التعذيب.

و المراد بقوله: «أَنْ يَسْبِقُونا» الغلبة و التعجيز بسبب فتنة المؤمنين و صدهم عن سبيل الله- على ما يعطيه السياق.

و قوله: «ساءَ ما يَحْكُمُونَ» تخطئة لظنهم أنهم يسبقون الله بما يمكرون من فتنة و صد فإن ذلک بعينه فتنة من الله لهم أنفسهم و صد لهم عن سبيل السعادة و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

و قيل: مفاد الآية توبيخ العصاة من المؤمنين و هم المراد بقوله : «اَلَّذِينَ يَعْمَلُونَ اَلسَّيِّئاتِ » و المراد بالسيئات المعاصی التی يقترفونها غير الشرک، و أنت خبير بأن السياق لا يساعد عليه.

و قيل: المراد بعمل السيئات أعم من الشرک و اقتراف سائر المعاصی فالآية عامة لا موجب لتخصيصها بخصوص الشرک أو بخصوص سائر المعاصی دون الشرک.

و فيه أن اعتبار الآية من حيث وقوعها فی سياق خاص من السياقات أمر و اعتبارها مستقلة فی نفسها أمر آخر و الذی يقتضيه الاعتبار الأول و هو العمدة بالنظر إلى غرض السورة هو ما قدمناه من المعنى، و أما الاعتبار الثانی : فمقتضاه العموم و لا ضير فيه على ذلک التقدير.

قوله تعالى: «مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اَللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اَللَّهِ لَآتٍ وَ هُوَ اَلسَّمِيعُ اَلْعَلِيمُ» إلى تمام ثلاث آيات. لما وبخ سبحانه الناس على استهانتهم بأمر الإيمان و رجوعهم عنه بأی فتنة و إيذاء من المشركين و وبخ المشركين على فتنتهم و إيذائهم المؤمنين و صدهم عن سبيل الله إرادة لإطفاء نور الله و تعجيزا له فيما شاء و خطأ الفريقين فيما ظنوا.

رجع إلى بيان الحق الذی لا معدل عنه و الواجب الذی لا مخلص منه، فبين فی

ص: 102

هذه الآيات الثلاث أن من يؤمن بالله لتوقع الرجوع إليه و لقائه فليعلم أنه آت لا محالة و أن الله سميع لأقواله عليم بأحواله و أعماله فليأخذ حذره و ليؤمن حق الإيمان الذی لا يصرفه عنه فتنة و لا إيذاء و ليجاهد فی الله حق جهاده، و ليعلم أن الذی ينتفع بجهاده هو نفسه و لا حاجة لله سبحانه إلى إيمانه و لا إلى غيره من العالمين و ليعلم أنه إن آمن و عمل صالحا فإن الله سيكفر عنه سيئاته و يجزيه بأحسن أعماله، و العلمان الأخيران يؤكدان العلم الأول و يستوجبان لزومه الإيمان و صبره على الفتن و المحن فی جنب الله.

فقوله: «مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ » رجوع إلى بيان حال من يقول : آمنت فإنه إنما يؤمن لو صدق بعض الصدق لتوقعه الرجوع إلى الله سبحانه يوم القيامة إذ لو لا المعاد لغا الدين من أصله، فالمراد بقوله: «مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ» من كان يؤمن بالله أو من كان يقول: آمنت بالله، فالجملة من قبيل وضع السبب موضع المسبب.

و المراد بلقاء الله وقوف العبد موقفا لا حجاب بينه و بين ربه كما هو الشأن يوم القيامة الذى هو ظرف ظهور الحقائق، قال تعالى: «وَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ».

و قيل: المراد بلقاء الله هو البعث، و قيل : الوصول إلى العاقبة من لقاء ملك الموت و الحساب و الجزاء، و قيل : المراد ملاقاة جزاء الله من ثواب أو عقاب و قيل:

ملاقاة حكمه يوم القيامة، و الرجاء على بعض هذه الوجوه بمعنى الخوف.

و هذه وجوه مجازية بعيدة لا موجب لها إلا أن يكون من التفسير بلازم المعنى.

و قوله: «فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ » الأجل هو الغاية التى ينتهى إليها زمان الدين و نحوه و قد يطلق على مجموع ذلك الزمان و الغالب فى استعماله هو المعنى الأول.

و «أَجَلَ اللَّهِ» هو الغاية التى عينها الله تعالى للقائه، و هو آت لا ريب فيه و قد أكد القول تأكيدا بالغا، و لازم تحتم إتيان هذا الأجل و هو يوم القيامة أن لا يسامح فى أمره و لا يستهان بأمر الإيمان بالله حق الإيمان و الصبر عليه عند الفتن و المحن من غير رجوع و ارتداد، و قد زاد فى تأكيد القول بتذييله بقوله : «وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» إذ هو تعالى لما كان سميعا لأقوالهم عليما بأحوالهم فلا ينبغى أن يقول القائل: آمنت بالله إلا عن ظهر القلب و مع الصبر على كل فتنة و محنة.

و من هنا يظهر أن ذيل الآية: «فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ» إلخ، من قبيل وضع

ص: 103

السبب موضع المسبب كما كان صدرها : «مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ » أيضا كذلك، و الأصل من قال : آمنت بالله. فليقله مستقيما صابرا عليه مجاهدا فى ربه.

و قوله: «وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ » المجاهدة و الجهاد مبالغة من الجهد بمعنى بذل الطاقة، و فيه تنبيه لهم أن مجاهدتهم فى الله بلزوم الإيمان و الصبر على المكاره دونه ليست مما يعود نفعه إلى الله سبحانه حتى لا يهمهم و يلغو بالنسبة إليهم أنفسهم بل إنما يعود نفعه إليهم أنفسهم لغناه تعالى عن العالم ين فعليهم أن يلزموا الإيمان و يصبروا على المكاره دونه.

فقوله: «وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ» تأكيد لحجة الآية السابقة، و قوله:

«إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ» تعليل لما قبله.

و الالتفات من سياق التكلم بالغير إلى اسم الجلالة فى الآيتين نظير ما مر من الالتفات فى قوله : «فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا» الآية.

و قوله: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كانُوا يَعْمَلُونَ» بيان لعاقبة إيمانهم حق الإيمان المقارن للجهاد و يتبين به أن نفع إيمانهم يعود إليهم لا إلى الله سبحانه و أنه عطية من الله و فضل.

و على هذا فالآية لا تخلو من دلالة ما على أن الجهاد فى الله هو الإيمان و العمل الصالح فإنها فى معنى تبديل قوله فى الآية السابقة: «وَ مَنْ جاهَدَ» من قوله فى هذه الآية: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ».

و تكفير السيئات هو العفو عنها و الأصل فى معنى الكفر هو الستر، و قيل:

تكفير السيئات هو تبديل كفرهم السابق إيمانا و معاصيهم السابقة طاعات، و ليس بذاك.

و جزاؤهم بأحسن الذى كانوا يعملون هو رفع درجتهم إلى ما يناسب أحسن أعمالهم أو عدم المناقشة فى أعمالهم عند الحساب إذا كانت فيها جهات رداءة و خسة فيعاملون فى كل واحد من أعمالهم معاملة من أتى بأحسن عمل من نوعه فتحتسب صلاتهم أحسن الصلاة و إن اشتملت على بعض جهات الرداءة و هكذا.

قوله تعالى: «وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِى ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما » إلخ، التوصية العهد و هو هاهنا الأمر، و قوله: «حُسْناً»

مصدر فى معنى الوصف قائم مقام مفعول مطلق محذوف و التقدير : و وصينا الإنسان بوالديه توصية حسنة أو ذات حسن أى أمرناه أن يحسن إليهما و هذا مثل قوله : «وَ قُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً » أى قولا حسنا أو ذا حسن، و يمكن أن يكون وضع المصدر موضع الوصف للمبالغة نحو زيد عدل، و ربما وجه بتوجيهات أخر.

و قوله: «وَ إِنْ جاهَداكَ لِتُشْرِكَ بِى» إلخ، تتميم للتوصية بخطاب شفاهى للإنسان بنهيه عن إطاعة والديه إن دعواه إلى الشرك و الوجه فى ذلك أن التوصية فى معنى الأمر فكأنه قيل : و قلنا للإنسان أحسن إلى والديك و إن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما.

و لم يقل: و أن لا يطيعهما إ ن جاهداه على أن يشرك إلخ، لما فى الخطاب من الصراحة و ارتفاع الإبهام و لذلك قال أيضا : «لِتُشْرِكَ بِى» بضمير المتكلم وحده فافهمه و يئول معنى الجملة إلى أنا نهيناه عن الشرك طاعة لهما و رفعنا عنه كل إبهام.

و فی قوله: «ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ» إشارة إلی علة النهی عن الطاعة فإن دعوتهما إلی الشرک بعبادة إله من دون الله دعوة إلی الجهل و عبادة ما لیس له به علم افتراء علی الله و قد نهی الله عن اتباع غیر العلم قال: «وَ لا تَقْفُ ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ»: إسراء:

۳۸ و بهذه المناسبة ذیلها بقوله : «إِلَیَّ مَرْجِعُکُمْ فَأُنَبِّئُکُمْ بِما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » أی سأعلمکم ما معنی أعمالکم و منها عبادتکم الأصنام و شرککم بالله سبحانه.

و معنی الآیة: و عهدنا إلی الإنسان فی والدیه عهدا حسنا- و أمرناه أن أحسن إلی والدیک- و إن بذلا جهدهما أن تشرک بی فلا تطعهما لأنه اتباع ما لیس لک به علم.

و فی الآیة- کما تقدمت الإشارة إلیه- توبیخ تعریضی لبعض من کان قد آمن ثم رجع عن إیمانه بمجاهدة من والدیه.

قوله تعالی: «وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِی الصَّالِحِینَ» معنی الآیة ظاهر، و فی وقوعها بعد الآ یة السابقة و فی سیاقها، دلالة علی وعد جمیل منه تعالی و تطییب نفس لمن ابتلی من المؤمنین بوالدین مشرکین یجاهدانه علی الشرک فعصاهما و فارقهما، یقول سبحانه : إن جاهداه علی الشرک فعصاهما و هجرهما ففاتاه لم یکن بذلک بأس فإنا سنرزقه خیرا منهما و ندخله بإیمانه و عمله الصالح فی الصالحین و هم العباد

ص: 105

المنعمون فی الجنة، قال تعالی: «یا أَیَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِی إِلی رَبِّکِ راضِیَةً مَرْضِیَّةً فَادْخُلِی فِی عِبادِی وَ ادْخُلِی جَنَّتِی »: الفجر: ۳۰.

و أما إرادة المجتمع الصالح فی الدنیا فبعید من السیاق.

قوله تعالی: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذا أُوذِیَ فِی اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ کَعَذابِ اللَّهِ » إلی آخر الآیة، لما کان إیمان هؤلاء مقیدا بالعافیة و السلامة مغیی بالإیذاء و الابتلاء لم یعده إیمانا بقول مطلق و لم یقل: و من الناس من یؤمن بالله بل قال: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ» فالآیة بوجه نظیرة قوله: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یَعْبُدُ اللَّهَ عَلی حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَیْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلی وَجْهِهِ»: الحج: ۱۱.

و قوله: «فَإِذا أُوذِیَ فِی اللَّهِ » أی أوذی لأجل الإیمان بالله بناء علی أن فی للسببیة کما قیل و فیه عنایة کلامیة لطیفة بجعله تعالی- أی جعل الإیمان بالله- ظرفا للإیذاء و لمن یقع علیه الإیذاء لیفید أن الإیذاء منتسب إلیه تعالی ا نتساب المظروف إلی ظرفه و ینطبق علی معنی السببیة و الغرضیة و نظیره قوله : «یا حَسْرَتی عَلی ما فَرَّطْتُ فِی جَنْبِ اللَّهِ ».: الزمر: ۵۶ و قوله: «وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا»: العنکبوت: ۶۹.

و قیل: معنی الإیذاء فی الله هو الإیذاء فی سبیل الله و کأنه مبنی علی تقدیر مضاف محذوف.

و فيه أن العناية الكلامية مختلفة فالإيذاء فى الله ما كان السبب فيه محض الإيمان بالله و هو قولهم : ربنا الله، و الإيذاء فى سبيل الله ما كان سببه سلوک السبيل التى هى الدين قال تعالى : «فَالَّذِينَ هاجَرُوا وَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَ أُوذُوا فِي سَبِيلِي »: آل عمران: ۱۹۵ و من الشاهد على تغاير الاعتبارين قوله فى آخر السورة : «وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا » حيث جعل الجهاد فى الله طريقا إلى الاهتداء إلى سبله و لو كانا بمعنى واحد لم يصح ذلک.

و قوله: «جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذابِ اللَّهِ» أى نزل العذاب و الإيذاء الذى يصيبه من الناس فى وجوب التحرز منه منزلة عذاب الله الذى يجب أن يتحرز منه فرجع عن الإيمان إلى الشرک خوفا و جزعا من فتنتهم مع أن عذابهم يسير منقطع الآخر بنجاة أو موت و لا يقاس ذلک بعذاب الله العظيم المؤبدالذى يستتبع الهلاک الدائم.

ص: 106

و قوله: «وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّکَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ» أى لئن أتاكم من قبله تعالى ما فيه فرج و يسر لكم من بعد ما أنتم فيه من الشدة و العسرة من قبل أعداء الله ليقولن هؤلاء إنا كنا معكم فلنا منه نصيب.

و «لَيَقُولُنَ» بضم اللام صيغة جمع، و الضمير راجع إلى «مِنَ» باعتبار المعنى كما أن ضمائر الإفراد الأخر راجعة إليها باعتبار اللفظ.

و قوله: «أَ وَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِما فِي صُدُورِ الْعالَمِينَ» استفهام إنكارى فيه رد دعواهم أنهم مؤمنون بأن الله أعلم بما فى الصدور و لا تنطوى قلوب هؤلاء على إيمان.

و المراد بالعالمين الجماعات من الإنسان أو الجماعات المختلفة من أولى العقل إنسانا كان أو غيره كالجن و الملک، و لو كان المراد به جميع المخلوقات من ذوى الشعور و غيرهم كان المراد بالصدور البواطن و هو بعيد.

قوله تعالى: «وَ لَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ » من تتمة الكلام فى الآية السابقة و المحصل أن الله مع ذلک يميز بين المؤمنين و المنافقين بالفتنة و الامتحان.

و فى الآية إشارة إلى كون هؤلاء منافقين و ذلک لكون إيمانهم مقيدا بعدم الفتنة و هم يظهرونه مطلقا غير مقيد و الفتنة سنة إلهية جارية لا معدل عنها.

و قد استدل بالآيتين على أن السورة أو خصوص هذه الآيات مدنية و ذلک أن الآية تحدث عن النفاق و النفاق إنما ظهر بالمدينة بعد الهجرة و أما مكة قبل الهجرة فلم يكن للإسلام فيها شوكة و لا للمسلمين فيها إلا الذلة و الإهانة و الشدة و الفتنة و لا للنبى ص فى المجتمع العربى يومئذ و خاصة عند قريش عزة و لا منزلة فلم يكن لأحد منهم داع يدعوه إلى أن يتظاهر بالإيمان و هو ينوى الكفر.

على أن قوله فى الآية : «وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَ بِّکَ لَيَقُولُنَّ إِنّا كُنّا مَعَكُمْ» يخبر عن النصر و هو الفتح و الغنيمة و قد كان ذلک بالمدينة دون مكة.

و نظير الآيتين قوله السابق: «وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ» ضرورة إن الجهاد و القتال إنما كان بالمدينة بعد الهجرة.

و هو سخيف: أما حديث النفاق فالذى جعل فى الآية ملاكا للنفاق و هو قولهم:

آمَنّا بِاللّهِ حتى إذا أوذوا فى الله راجعوا عن قولهم كان جائز التحقق فى مكة كما فى

غيرها و هو ظاهر بل الذى ذكر من الإيذاء و الفتنة إنما كان بمكة فلم تكن فى المدينة بعد الهجرة فتنة.

و أما حديث النصر فالنصر غير منحصر فى الفتح و الغنيمة فله مصاديق أخر يفرج الله بها عن عباده . على أن الآية لا تخبر عنه بما يدل على التحقق فقوله : «فَإِذا أُوذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النّاسِ كَعَذابِ اللّهِ وَ لَئِنْ جاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّکَ لَيَقُو لُنَّ إِنّا كُنّا مَعَكُمْ» يدل على تحقق الإيذاء و الفتنة حيث عبر بإذا الدالة على تحقق الوقوع بخلاف مجى ء النصر حيث عبر عنه بأن الشرطية الدالة على إمكان الوقوع دون تحققه.

و أما قوله تعالى : «وَ مَنْ جاهَدَ» إلخ فقد اتضح مما تقدم أن المراد به جهاد النفس د ون مقاتلة الكفار فالحق أن لا دلالة فى شيء من الآيات على كون السورة أو بعضها مدنية.

قوله تعالى: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاي اهُمْ مِنْ شَيْ ءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» المراد بالذين كفروا مشركو مكة الذين أبدوا الكفر أول مرة بالدعوة الحقة، و بالذين آمنوا المؤمنون بها أول مرة و قولهم لهم: «اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ» نوع استمالة لهم و تطييب لنفوسهم أن لو رجعوا إلى الشرك و اتبعوا سبيلهم لم تكن عليهم تبعة على أى حال : إذ لو لم تكن فى ذلک خطيئة فهو، و إن كانت فهم حاملون لها عنهم، و لذلک لم يقولوا : و لنحمل خطاياكم لو كانت بل أطلقوا القول من غير تقييد.

فكأنهم قالوا: لنفرض أن اتباعكم لسبيلنا خطيئة فإنا نحملها عنكم و نحمل كل ما يتفرع عليه من الخطايا أو أنا نحمل عنكم خطاياكم عامة و من جملتها هذه الخطيئة.

و قوله: «وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ» رد لقولهم: «وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ» و هو رد محفوف بحجة إذ لو كان اتباعهم لسبيلهم و رجوعهم عن الإيمان بالله خطيئة كان خطيئة عند الله لاحقة بالراجعين و انتقالها عن عهدتهم إلى غيرهم يحتاج إلى إذن من الله و رضى فهو الذى يؤاخذهم به و يجازيهم و هو سبحانه يصرح و يقول : «ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ» و قد عمم النفى لكل شيء من خطاياهم.

و قوله: «إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ» تكذيب لهم لما أن قولهم: «وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ» يشتمل على دعوى ضمنى أن خطاياهم تنتقل إليهم لو احتملوها و أن الله يجيز لهم ذلک.

ص: 108

قوله تعالى: «وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ» من تمام القول السابق فی ردهم و هو فی محل الاستدراک أی إنهم لا يحملون خطاياهم بعينها فهی لازمة لفاعليها لكنهم حاملون أثقالا و أحمالا من الأوزار مثل أوزار فاعليها من غير أن ينقص من فاعليها فيحملونها مضافا إلى أثقال أنفسهم و أحمالها لما أنهم ضالون مضلون.

فالآية فی معنى قوله تعالى: «لِيَحْمِلُوا أَوْزارَهُمْ كامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَ مِنْ أَوْزارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ»: النحل: ۲۵.

و قوله: «وَ لَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَمَّا كانُوا يَفْتَرُونَ » فشركهم افتراء على الله سبحانه و كذا دعواهم القدرة على إنجاز ما وعدوه و أن الله يجيز لهم ذلک.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور، أخرج ابن الضريس و النحاس و ابن مردويه و البيهقی فی الدلائل عن ابن عباس و أيضا ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير قالا": نزلت سورة العنكبوت بمكة.

أقول: و قد نقل فی روح المعانی، عن البحر عن ابن عباس أن السورة مدنية.

و فی المجمع،": قيل نزلت الآية يعنی قوله تعالى: «أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا» فی عمار بن ياسر- و كان يعذب فی الله. عن ابن جريج.

و فی الدر المنثور، أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبی حاتم عن الشعبی": فی قوله: «الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا» الآية، قال: أنزلت فی أناس بمكة قد أقروا بالإسلام- فكتب إليهم أصحاب رسول الله ص من المدينة- لما نزلت آية الهجرة أنه لا يقبل منكم إقرار و لا إسلام حتى تهاجروا . قال: فخرجوا عامدين إلى المدينة فأتبعهم المشركون- فردوهم فنزلت فيهم هذه الآية- فكتبوا إليهم أنه نزل فيكم آية كذا و كذا- فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه- فخرجوا فأتبعهم المشركون فقاتلوهم- فمنهم من قتل و منهم من نجا فأنزل الله فيهم : «ثُمَّ إِنَّ رَبَّکَ لِلَّذِينَ هاجَرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهَدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»

ص: 109

و فيه، أخرج ابن جرير عن قتادة ": «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ - إلى قوله- وَ لَيَعْلَمَنَّ الْمُنافِقِينَ» قال هذه الآيات نزلت فی القوم الذين ردهم المشركون إلى مكة، و هذه الآيات العشر مدنية.

و فيه، أخرج ابن جرير عن الضحاک ": فی قوله: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ » قال: ناس من المنافقين بمکهٔ کانوا يؤمنون- فإذا أوذوا و أصابهم بلاء من المشرکين- رجعوا إلی الکفر و الشرک مخافهٔ من يؤذيهم- و جعلوا أذی الناس فی الدنيا کعذاب الله.

و فيه، أخرج ابن المنذر و ابن أبی حاتم و ابن مردويه عن سعد بن أبی وقاص قال ": قالت أمي: لا آکل طعاما و لا أشرب شرابا- حتی تکفر بمحمد فامتنعت من الطعام و الشراب- حتی جعلوا يسجرون فاها بالعصا فنزلت هذه الآيهٔ «وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً» الآيهٔ.

و فی المجمع، قال الکلبی ": نزل قوله: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ » الآيهٔ- فی عياش بن أبی ربيعهٔ المخزومی- و ذلک أنه أسلم فخاف أهل بيته- فهاجر إلی المدينهٔ قبل أن يهاجر النبی ص- فحلفت أمه أسماء بنت مخرمهٔ بن أبی جندل التميمی- أن لا تأکل و لا تشرب و لا تغسل رأسها- و لا تدخل کنا حتی يرجع إليها- فلما رأی ابناها أبو جهل و الحارث ابنا هشام- و هما أخوا عياش لأمه- جزعها رکبا فی طلبه- حتی أتيا المدينهٔ فلقياه و ذکرا له القصهٔ- فلم يزالا به حتی أخذ عليهما المواثيق- أن لا يصرفاه عن دينه و تبعهما- و قد کانت أمه صبرت ثلاثهٔ أيام ثم أکلت و شربت-.

فلما خرجوا من المدينهٔ أخذاه و أوثقاه کتافا- و جلده کل واحد منهما مائهٔ جلدهٔ- حتی بری ء من دين محمد جزعا من الضرب- و قال ما لا ينبغی فنزلت الآيهٔ- و کان الحارث أشدهما عليه- فحلف عياش لئن قدر عليه خارجا من الحرم ليضربن عنقه-.

فلما رجعوا إلی مکهٔ مکثوا حينا- ثم هاجر النبی ص و المؤمنون إلی المدينهٔ- و هاجر عياش و حسن إسلامه- و أسلم الحارث بن هشام و هاجر إلی المدينهٔ- و بايع النبی ص علی الإسلام و لم يحضر عياش- فلقيه عياش يوما بظهر قبا و لم يشعر بإسلامه- فضرب عنقه فقيل له: إن الرجل قد أسلم فاسترجع عياش و بکی- ثم أتی النبی ص فأخبره بذلک فنزل: «وَ ما کانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً» الآيهٔ.

ص: 110

أقول: و أنت تری اختلاف الروايات فی سبب نزول الآيات و قد تقدم أن الذی يعطيه سياق آيات السورهٔ أنها مکيهٔ محضهٔ.

و فی الکافی، عدهٔ من أصحابنا عن أحمد بن محمد عن معمر بن خلاد قال : سمعت أبا الحسن (ع) يقول: «الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَکُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا- وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ».

ثم قال لی : ما الفتنهٔ؟ قلت: جعلت فداک الفتنهٔ فی الدين- فقال: «يفتنون کما يفتن الذهب . ثم قال: يخلصون کما يخلص الذهب.

و فی المجمع،: قيل: إن معنی يفتنون يبتلون فی أنفسهم و أموالهم: و هو المروی عن أبی عبد الله (ع).

و فيه،: فى قوله تعالى: «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً»: و فى تفسير الكلبى،: أنه لما نزلت هذه الآية- قام النبى ص فتوضأ و أسبغ وضوءه- ثم قام و صلى فأحسن صلاته- ثم سأل الله سبحانه أن لا يبعث عذابا من فوقهم- أو من تحت أرجلهم أو يلبسهم شيعا- و لا يذيق بعضهم بأس بعض.

فنزل جبرئيل و لم يجرهم من الخصلتين الأخيرتين- فقال (ص): يا جبرئيل ما بقاء أمتى مع قتل بعضهم بعضا؟ فقام و عاد إلى الدعاء فنزل: «الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا » الآيتان- فقال: لا بد من فتنة يبتلى بها الأمة- بعد نبيها ليتعين الصادق من الكاذب- لأن الوحى انقطع و بقى السيف- و افتراق الكلمة إلى يوم القيامة.

و فى نهج البلاغة،: و قام إليه رجل فقال أخبرنا عن الفتنة- و هل سألت رسول الله ص عنها؟ فقال (ع): لما أنزل الله سبحانه قوله: «الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ » علمت أن الفتنة لا تنزل بنا و رسول الله ص بين أظهرنا- فقلت: يا رسول الله ما هذه الفتنة التى أخبرك الله بها؟ فقال: يا على إن أمتى سيفتنون من بعدى.

و فى التوحيد، عن على (ع)- فى حديث طويل: و قد سأله رجل عن آيات من القرآن- و قوله: «مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ» يعنى بقوله: من كان يؤمن بأنه مبعوث- فإن وعد الله لآت من الثواب و العقاب- فاللقاء هاهنا ليس بالرؤية و اللقاء هو البعث- فافهم جميع ما فى كتاب الله من لقائه فإنه يعنى بذلك البعث.

ص: 111

أقول: مراده (ع) نفى الرؤية الحسية و التفسير بلازم المعنى.

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ» الآية قال: من أحب لقاء الله جاءه الأجل «وَ مَنْ جاهَدَ» نفسه عن اللذات و الشهوات و المعاصى «فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ». «وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حُسْناً» قال:

هما اللذان ولداه.

و فيه،": فى قوله تعالى: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا- اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَ لْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ» قال: كان الكفار يقولون للمؤمنين: كونوا معنا- فإن الذى تخافون أنتم ليس بشىء- فإن كان حقا نتحمل عنكم ذنوبكم، فيعذبهم الله عز و جل مرتين: مرة بذنوبهم و مرة بذنوب غيرهم.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف و ابن المنذر عن ابن الحنفية قال ": كان أبو جهل و صناديد قريش يتلقون الناس- إذا جاءوا إلى النبى ص يسلمون يقولون: إنه يحرم الخمر و يحرم الزنا و يحرم ما كانت تصنع العرب- فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم فنزلت هذه الآية: «وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ»

و فيه، أخرج أحمد عن حذيفة قال: سأل رجل على عهد رسول الله ص فأمسک القوم- ثم إن رجلا أعطاه فأعطى القوم- فقال النبی ص: من سن خيرا فاستن به- كان له أجره و من أجور من تبعه- غير منتقص من أجورهم شيئا، و من سن شرا فاستن به كان عليه وزره و من أوزار من تبعه- غير منتقص من أوزارهم شيئا.

أقول: و فی هذا المعنى روايات أخر و فی بعضها تفسير قوله: «وَ لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ» بذلک.

[سورة العنكبوت (٢٩): الآيات ١۴ الى ۴٠]

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى‏ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (١۴) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (١۵) وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١۶) إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٨)

أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى‏ كُلِّ شَيْ‏ءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ (٢٢) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ لِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢۴) وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (٢۵) فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى‏ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢۶) وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (٢٨)

أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى‏ قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (٣١) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٢) وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِي‏ءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلاَّ امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (٣٣)

إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى‏ أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (٣۴) وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣۵) وَ إِلى‏ مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ ارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣۶) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ (٣٧) وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)

وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ (۳۹) فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۴۰)

(بیان)

لما ذکر سبحانه فی صدر السورة أن الفتنة سنة إلهیة لا معدل عنها و قد جرت فی الأمم السابقة عقب ذلک بالإشارة إلی قصص سبعة من الأنبیاء الماضین و أممهم و هم:

نوح و إبراهیم و لوط و شعیب و هود و صالح و موسی (ع) فتنهم الله و امتحنهم فنجا منهم من نجا و هلک، منهم من هلک و قد ذکر سبحانه فی الثلاثة الأول النجاة و الهلاک معا و فی الأربعة الأخیرة الهلاک فحسب.

قوله تعالی: «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلی قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ»، فی المجمع:، الطوفان الماء الکثیر الغامر لأنه یطوف بکثرته فی نواحی الأرض، انتهی . و قیل: هو کل ما یطوف بالشیء علی کثرة و شدة من السیل و الریح و الظلام و الغالب استعماله فی طوفان الماء.

و التعبیر بألف سنة إلا خمسین عاما دون أن یقال: تسعمائة و خمسین سنة للتکثیر و الآیة ظاهرة فی أن الألف إلا خمسین مدة دعوة نوح (ع) ما بین بعثته إلی أخذ الطوفان فیغایر ما فی التوراة الحاضرة أنها مدة عمره (ع) و قد تقدمت الإشارة إلی ذلک فی قصصه (ع) فی تفسیر سورة هود، و الباقی ظاهر.

قوله تعالی: «فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ» أی فأنجینا

نوحا و أصحاب السفینة الراکبین معه فیها و هم أهله و عدة قلیلة من المؤمنین به و لم یکونوا ظالمین.

و قوله: «وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ» الظاهر أن الضمیر للواقعة أو للنجاة و أما رجوعه إلی السفینة فلا یخلو من بعد، و العالمین الجماعات الکثیرة المختلفة من الأجیال اللاحقة بهم.

قوله تعالی: «وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» معطوف علی قوله: «نُوحاً» أی و أرسلنا إبراهیم إلی قومه.

و قوله لقومه: «اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ» دعوة إلی التوحید و إنذار بقرینة الآیات التالیة فتفید الجملة فائدة الحصر.

على أن الوثنية لا يعبدون الله سبحانه و إنما يعبدون غيره زعما منهم أنه تعالى لا يمكن أن يعبد إلا من طرى ق الأسباب الفعالة فى العالم المقربة عنده كالملائكة و الجن و لو عبد لكان معبودا وحده من غير شريك فدعوتهم إلى عبادة الله بقوله : «اعْبُدُوا اللَّهَ» تفيد الدعوة إليه وحده و إن لم تقيد بأداة الحصر.

قوله تعالى: «إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً» إلى آخر الآية، الأوثان جمع وثن بفتحتين و هو الصنم، و الإفک الأمر المصروف عن وجهه قولا أو فعلا.

و قوله: «إِنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثاناً » بيان لبطلان عبادة الأوثان و يظهر به كون عبادة الله هى العبادة الحقة و بالجم لة انحصار العبادة الحقة فيه تعالى «أَوْثاناً» منكر للدلالة على وهن أمرها و كون ألوهيتها دعوى مجردة لا حقيقة وراءها، أى لا تعبدون من دون الله إلا أوثانا من أمرها كذا و كذا.

و لذا عقب الجملة بقوله : «وَ تَخْلُقُونَ إِفْكاً» أى و تفتعلون كذبا بتسميتها آلهة و ع بادتها بعد ذلک فهناک إله تجب عبادته لكنه هو الله الواحد دون الأوثان.

و قوله: «إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً » تعليل لما ذكر من افتعالهم الكذب بتسمية الأوثان آلهة و عبادتها و محصله أن هؤلاء الذين تعبدون من دون الله و هم الأوثان بما هم تماثيل المقربين من الملائكة و الجن إنما تعبدونهم لجلب النفع و هو أن يرضوا عنكم فيرزقوكم و يدروا عليكم الرزق لكنهم ليسوا يملكون لكم رزقا

ص: 116

فإن الله هو الذى يملک رزقكم الذى هو السبب الممد لبقائكم لأنه الذى خلقكم و خلق رزقكم فجعله ممدا لبقائكم و الملک تابع للخلق و الإيجاد.

و لذلک عقبه بقوله : «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ » أى فاطلبوا الرزق من عند الله لأنه هو الذى يملكه فلا تعبدوهم بل اعبدوا الله و اشكروا له على ما رزقكم و أنعم عليكم بألوان النعم فمن الواجب شكر المنعم على ما أنعم .

و قوله: «إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» فى مقام التعليل لقوله : «وَ اعْبُدُوهُ وَ اشْكُرُوا لَهُ » و لذا جى ء بالفصل من غير عطف، و فى هذا التعليل صرفهم عن عبادة الإله ابتغاء للرزق إلى عبادته للرجوع و الحساب إذ لو لا المعاد لم يكن لعبادة الإله سبب محصل لأن الرزق و ما يجرى مجراه له أسباب خاصة كونية غير العبادات و القربات و لا يزيد و لا ينقص بإيمان أو كفر لكن سعادة يوم الحساب تختلف بالإيمان و الكفر و العبادة و الشكر و خلافهما فليكن الرجوع إلى الله هو الباعث إلى العبادة و الشكر دون ابتغاء الرزق.

قوله تعالى: «وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ » الظاهر أنه من تمام كلام إبراهيم (ع)، و ذكر بعضهم أنه خطاب منه تعالى لمشركى قريش و لا يخلو من بعد.

و معنى الشرط و الجزاء فى صدر الآية أن التكذيب هو المتوقع منكم لأنه كالسنة الجارية فى الأمم المشركة و قد كذب من قبلكم و أنتم منهم و فى آخرهم و ليس على بما أنا رسول إلا البلاغ المبين.

و يمكن أن يكون المراد أن حالكم فى تكذيبكم كحال الأمم من قبلكم لم ينفعهم تكذيبهم شيئا حل بهم عذاب الله و لم يكونوا بمعجزين فى الأرض و لا فى السماء و لم يكن لهم من دون الله من ولى و لا نصير، فكذلكم أنتم، و قوله : «وَ ما عَلَى الرَّسُولِ» يناسب الوجهين جميعا.

قوله تعالى: «أَ وَ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» هذه الآية إلى تمام خمس آيات من كلامه تعالى واقعة فى خلال القصة تقيم الحجة على المعاد و ترفع استبعادهم له متعلقه بما تقدم من حيث إن العمدة فى تكذيبهم الرسل إنكارهم للمعاد كما يشير إليه قول إبراهيم: «إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَ إِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ».

ص: 117

فقوله: «أَ وَ لَمْ يَرَوْا » إلخ الضمير فيه للمكذبين من جميع الأمم من سابق و لاحق و المراد بالرؤية النظر العلمى دون الرؤية البصرية، و قوله: «كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» فى موضع المفعول لقوله: «يَرَوْا» بعطف «يُعِيدُهُ» على موضع «يُبْدِئُ» خلافا لمن يرى عطفه على «أَ وَ لَمْ يَرَوْا» و الاستفهام للتوبيخ.

و المعنى: أ و لم يعلموا كيفية الإبداء ثم الإعادة أى إنهما من سنخ واحد هو إنشاء ما لم يكن، و قوله : «إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» الإشارة فيه إلى الإعادة بعد الإبداء و فيه رفع الاستبعاد لأنه إنشاء بعد إنشاء و إذ كانت القدرة المطلقة تتعلق بالإيجاد فهى جائزة التعلق بالإنشاء بعد الإنشاء و هى فى الحقيقة نقل للخلق من دار إلى دار و إنزال للسائرين إليه فى دار القرار.

و قول بعضهم: إن المراد بالإبداء ثم الإعادة إنشاء الخلق ثم إعادة أمثالهم بعد إفنائهم غير سديد لعدم ملائمة الاحتجاج على المعاد الذى هو إعادة عين ما فنى دون مثله.

قوله تعالى: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» الآية إلى تمام ثلاث آيات أمر للنبى ص أن يخاطبهم بما يتم به الحجة عليهم فيرشدهم إلى السير فى الأرض لينظروا إلى كيفية بدء الخلق و إنشائهم على اختلاف طبائعهم و تفاوت ألوانهم و أشكالهم من غير مثال سابق و حصر أو تحديد فى عدتهم و عدتهم ففيه دلالة على عدم التحديد فى القدرة الإلهية فهو ينشئ النشأة الآخرة كما أنشأ النشأة الأولى فالآية فى معنى قوله : «وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولى فَلَوْ لا تَذَكَّرُونَ»: الواقعة: ۶۲.

قوله تعالى: «يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَ إِلَيْهِ تُقْلَبُونَ » من مقول القول، و الظاهر أنه بيان لقوله : «يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ» و قلب الشىء تحويله عن وجهه أو حاله كجعل أسفله أعلاه و جعل باطنه ظاهره و هذا المعنى الأخير يناسب قوله تعالى : «يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ»: الطارق: ۹.

و فسروا القلب بالرد قال فى المجمع:، و القلب هو الرجوع و الرد فمعناه أنكم تردون إلى حال الحياة فى الآخرة حيث لا يملك فيه النفع و الضر إلا الله. انتهى و هذا

ص: 118

معنى لطيف يفسر به معنى الرجوع إلى الله و الرد إليه و هو وقوفهم موقفا تنقطع فيه عنهم الأسباب و لا يحكم فيه إلا الله سبحانه فالآية فى معنى قوله: «وَ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ»: يونس: ٣٠.

و محصل المعنى: أن النشأة الآخرة هى نشأة يعذب الله فيها من يشاء و هم المجرمون و يرحم من يشاء و هم غيرهم و إليه تردون فلا يحكم فيكم غيره.

قوله تعالى: «وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ» من مقول القول و توصيف لشأنهم يوم القيامة كما أن الآية السابقة توصيف لشأنه تعالى يومئذ.

فقوله: «وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ أى أنكم لا تقدرون أن تعجزوه تعالى يومئذ بالفوت منه و الخروج من حكمه و سلطانه بالفرار و الخروج من ملكه و النفوذ من أقطار الأرض و السماء، فالآية تجرى مجرى قوله: «يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا»: الرحمن: ٣٣.

و قيل: الكلام فى معنى «من فى السماء» فحذف من لدلالة الكلام عليه و التقدير و ما أنتم بمعجزين فى الأرض و لا من فى السماء بمعجزين فى السماء.

و هو بعيد و دلالة الكلام عليه غير مسلمة و لو بنى عليه لكفى فيه أن الخطاب للأعم من البشر بتغليب جانب البشر المخاطبين على غيرهم من الجن و الملك و المعنى: و ما أنتم معاشر الخلق بمعجزين فى الأرض و لا فى السماء.

و قوله: «وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا نَصِيرٍ » أى ليس لكم اليوم ولى من دون الله يتولى أمركم فيغنيكم من الله و لا نصير ينصركم فيقوى جانبكم و يتمم ناقص قوتكم فيظهركم عليه سبحانه.

فالآية- كما ترى- تنفى ظهورهم على الله و تعجيزهم له بالخروج و الامتناع عن حكمه بأقسامه فلا هم يستقلون بذلك و هو قوله: «وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ» إلخ و لا غيرهم يستقل بذلك و هو قوله : «وَ ما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ » و لا المجموع منهم و من غيرهم يعجزه تعالى و هو قوله: «وَ لا نَصِيرٍ».

قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ لِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَ أُولئِكَ

ص: 119

لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» خطاب مصروف إلى النبى ص خارج من مقول القول السابق «قُلْ سِيرُوا فِی الْأَرْضِ » إلخ و المطلوب فيه أن ينبئه (ص) صريح الحق فيمن يشقى و يهلک يوم القيامة فإنه أبهم ذلک فى قوله أولا: «يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ يَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ».

و من الدليل عليه الخطاب فى «أُولئِکَ» مرتين و لو كان من كلام النبى ص لقيل: أولئكم».

و يؤيد ذلک أيضا قوله: «مِنْ رَحْمَتِی» فإن الانتقال من مثل قولنا: أولئک يئسوا من رحمة الله أو من رحمته بسياق الغيبة على ما يقتضيه المقام إلى قوله: «أُولئِکَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِی » يفيد التصديق و الاعتراف مضافا إلى أصل الإخبار فيفيد صريح التعيين لأهل العذاب، و يؤيد ذلک أيضا تكرار الإشارة و ما فى السياق من التأكيد.

و كان فى تخصيص النبى ص بهذا الإخبار تقوية لنفسه الشريفة و عزلا لهم عن صلاحية السمع لمثله و هم لا يؤمنون.

و المراد بآيات الله- على ما يفيده إطلاق اللفظ- جميع الأدلة الدالة على الوحدانية و النبوة و المعاد من الآيات الكونية و المعجزات النبوية و منها القرآن فالكفر بآيات الله يشمل بعمومه الكفر بالمعاد فذكر الكفر باللقاء و هو المعاد بعد الكفر بالآيات من ذكر الخاص بعد العام و الوجه فيه الإشارة إلى أهمية الإيمان بالمعاد إذ مع إنكار المعاد يلغو أمر الدين الحق من أصله و هو ظاهر.

و المراد بالرحمة ما يقابل العذاب و يلازم الجنة و قد تكرر فى كلامه تعالى إطلاق الرحمة عليها بالملازمة كقوله: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِی رَحْمَتِهِ »: الجاثية: ٣٠ و قوله: «يُدْخِلُ مَنْ يَشاءُ فِی رَحْمَتِهِ وَ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً أَلِيماً»: الإنسان: ٣١.

و المراد بإسناد اليأس إليهم إما تلبسهم به حقيقة فإنهم لجحدهم الحياة الآخرة آيسون من السعادة المؤبدة و الجنة الخالدة و إما أنه كناية عن قضائه تعالى المحتوم أن الجنة لا يدخلها كافر.

و المعنى: و الذين جحدوا آيات الله الدالة على الدين الحق و خاصة المعاد أولئک يئسوا من الرحمة و الجنة و أولئک لهم عذاب أليم.

ص: 120

قوله تعالى: «فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ » إلخ، تفريع على قوله فى صدر القصة: «وَ إِبْراهِيمَ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ».

و ظاهر قوله: «قالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ» أن كلا من طرفى الترديد قول طائفة منهم و المراد بالقتل القتل بالسيف و نحوه فهو قولهم أول ما ائتمروا ليجازوه و إن اتفقوا بعد ذلک على إحراقه كما قال «قالُوا حَرِّقُوهُ وَ انْصُرُوا آلِهَتَكُمْ »: الأنبياء: ٦٨ و يمكن أن يكون الترديد من الجميع لترددهم فى أمره أولا ثم اتفاقهم على إحراقه.

و قوله: «فَأَنْجاهُ اللَّهُ مِنَ النّارِ» فيه حذف و إيجاز و تقديره ثم اتفقوا على إحراقه فأضرموا نارا فألقوه فيها فأنجاه الله منها، و قد فصلت القصة فى مواضع من كلامه تعالى.

قوله تعالى: «وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا » إلى آخر الآية إذ كان لا حجة عقلية لهم على اتخاذ الأوثان لم يبق لهم مما يستنون به إلا الاستنان بسنة من يعظمونه و يحترمون جانبه كالآباء للأبناء و الرؤساء المعظمين لأتباعهم و الأصدقاء لأصدقائهم و بالأخرة الأمة لأفرادها فهذا السبب الرابط هو عمدة ما يحفظ السنن القومية معمولا بها قائمة على ساقها.

فالاستنان بسنة الوثنية بالحقيقة من آثار الموت ا لاجتماعية يرى العامة ذلك بعضهم من بعض فتبعثه المودة القومية على تقليده و الاستنان به مثله ثم هذا الاستنان نفسه يحفظ المودة القومية و يقيم الاتحاد و الاتفاق على ساقه.

هذه حال العامة منهم و أما الخاصة فربما ركنوا فى ذلك إلى ما يحسبونه حجة و ما هو بحجة كقولهم إن الله سبحانه أجل من أن يحيط به حس أو وهم أو عقل فلا يتعلق به توجهنا العبادى فمن الواجب أن نتقرب إلى بعض من له به عناية كالملائكة و الجن ليقربونا إليه زلفى و يشفعوا لنا عنده.

فقوله: «إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا » خطاب منه (ع) لعامة قومه فى أمر اتخاذهم الأوثان للمودة القومية ليصلحوا به شأن حياتهم الدنيا الاجتماعية، و قد أجابوه بذلك حيث سألهم عن شأنهم «إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ

ص: 121

ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ، قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ»: الأنبياء: ۵۳ «قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ»: الشعراء: ۷۴.

و من هنا يظهر أن قوله : «مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ» صالح لأن يكون منصوبا بنزع الخافض بتقدير لام التعليل و المودة على هذا سبب مؤد إلى اتخاذ الأوثان، و أن يكون مفعولا له، و المودة غاية مقصودة من اتخاذ الأوثان، لكن ذيل الآية إنما تلائم الوجه الثانى على ما سيظهر.

ثم عقب (ع) بقوله: «إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ» إلخ، بقوله : «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً » يبين لهم عاقبة اتخاذهم الأوثان للمودة و هو باطن هذه المودة المقصودة الذى سيظهر يوم تبلى السرائر فإنهم توسلوا إلى هذا المتاع القليل بالشرك الذى هو أعظم الظلم و أكبر الكبائر الموبقة و اجتمعوا عليه و توافقوا لكنهم سيبدو لهم حقيقة عملهم و يلحق بهم وباله فيتبرأ بعضهم من بعض و ينكره بعضهم على بعض.

و المراد بكفر بعضهم ببعض كفر آلهتهم بهم و تبريهم منهم، كما قال تعالى:

«سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا»: مريم: ٨٢ و قال: «وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ»: فاطر: ١٤ و فى معناه: تبرى المتبوعين من تابعيهم، كما قال تعالى: «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَ رَأَوُا الْعَذابَ وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ»: البقرة: ١۶۶ و المراد بلعن بعضهم بعضا لعن كل بعض صاحبه، قال تعالى: «كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها»: الأعراف: ٣٨.

ثم عقب ذلک بقوله: «وَ مَأْواكُمُ النَّارُ وَ ما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ» إشارة إلى لحوق الوبال و وقوع الجزاء و هو النار التى فيها الهلاک المؤبد و لا ناصر ينصرهم و يدفع عنهم العذاب فهم إنما توسلوا إلى المودة ليتناصروا و يتعاونوا و يتعاضدوا فى الحياة لكنها عادت يوم القيامة معاداة و مضادة و أورثت تبريا و خذلانا.

قوله تعالى: «فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» أى آمن به لوط و الإيمان يتعدى باللام كما يتعدى بالباء و المعنى واحد.

ص: 122

و قوله: «وَ قالَ إِنِّي مُهاجِرٌ إِلى رَبِّي» قيل الضمير راجع إلى لوط، و قيل:

راجع إلى إبراهيم و يؤيده قوله تعالى حكاية عن إبراهيم «وَ قالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ»: الصافات: ٩٩.

و كأن المراد بالمهاجرة إلى الله هجره وطنه و خروجه من بين قومه المشركين إلى أرض لا يعترضه فيها المشركون و لا يمنعونه من عبادة ربه فعد المهاجرة مهاجرة إلى الله من المجاز العقلى.

و قوله: «إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» أى عزيز لا يذل من نصره حكيم لا يضيع من حفظه.

قوله تعالى: «وَ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ» معناه ظاهر.

قوله تعالى: «وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» الأجر هو الجزاء الذى يقابل العمل و يعود إلى عامله و الفرق بينه و بين الأجرة أن الأجرة تختص بالجزاء الدنيوى و الأجر يعم الدنيا و الآخرة، و الفرق بينه و بين الجزاء أن الأجر لا يقال إلا فى الخير و النافع، و الجزاء يعم الخير و الشر و النافع و الضار.

و الغالب فى كلا مه تعالى استعمال لفظ الأجر فى جزاء العمل العبودى الذى أعده الله سبحانه لعباده المؤمنين فى الآخرة من مقامات القرب و درجات الولاية و منها الجنة، نعم وقع فى قوله تعالى حكاية عن يوسف (ع): «إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَ يَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»: يوسف: ٩٠ و قوله: «وَ كَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَ لا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ»: يوسف: ۵۶ إطلاق الأجر على الجزاء الدنيوى الحسن.

فقوله: «وَ آتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا» يمكن أن يكون المراد به إيتاء الأجر الدنيوى الحسن و الأنسب على هذا أن يكون «فِي الدُّنْيا» متعلقا بالأجر لا بالإيتاء و ربما تأيد هذا المعنى بقوله تعالى فيه (ع) فى موضع آخر: «وَ آتَيْناهُ فِي الدُّنْيا حَسَنَةً وَ إِنَّهُ فِي

الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ»،: النحل: ۱۲۲ فإن الظاهر أن المراد بالحسنة الحياة الحسنة أو العيشة الحسنة و إيتاؤها فعلية إعطائها دون تقديرها و كتابتها.

و يمكن أن يكون المراد به تقديم ما أعد لعامة المؤمنين فی الآخرة من مقامات

ص: 123

القرب فی حقه (ع) و إيتاؤه ذلک فی الدنيا و قد تقدم إحصاء ما يذكره القرآن الكريم من مقاماته (ع) فی قصصه من تفسير سورة الأنعام.

و قوله: «وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ» تقدم الكلام فيه فی تفسير قوله تعالی:

«وَ لَقَدِ اصْطَفَيْناهُ فِی الدُّنْيا وَ إِنَّهُ فِی الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ»: البقرة: ۱۳۰ فی الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالی: «وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ » أی و أرسلنا لوطا أو و اذكر لوطا إذ قال لقومه، و قوله: «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ» إخبار بداعی الاستعجاب و الإنكار، و المراد بالفاحشة إتيان الذكران.

و قوله: «ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ » استئناف يوضح معنی الفاحشة و يؤكده، و كأن المراد أن هذا العمل لم يشع فی قوم قبلهم هذا الشيوع أو الجملة حال من فاعل «لَتَأْتُونَ».

قوله تعالی: «أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِی نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ» إلی آخر الآية، استفهام من أمر من الحری أن لا يصدقه سامع و لا يقبله ذو لب و لذا أكد بالنون و اللام، و هذا السياق يشهد أن المراد بإتيان الرجل اللواط و بقطع السبيل إهمال طريق التناسل و إلغاؤها و هی إتيان النساء، فقطع السبيل كناية عن الإعراض عن النساء و ترک نكاحهن، و بإتيانهم المنكر فی ناديهم- و النادی هو المجلس الذی يجتمعون فيه و لا يسمی نادية إلا إذا كان فيه أهله- الإتيان بالفحشاء أو بمقدماتها الشنيعة بمرأی من الجماعة.

و قيل: المراد بقطع السبيل قطع سبيل المارة بديارهم فإنهم كانوا يفعلون هذا الفعل بالمجتازين من ديارهم و كانوا يرمون ابن السبيل بالحجارة بالخذف فأيهم أصابه كان أولی به فيأخذون ماله و ينكحونه و يغرمونه ثلاثة دراهم و كان لهم قاض يقضی بذلک و قيل: بل كانوا يقطعون الطرق، و قد عرفت أن السياق يقضی بخلاف ذلک.

و قيل: المراد بإتيان المنكر فی النادی أن مجالسهم كانت تشتمل علی أنواع المنكرات و القبائح مثل الشتم و السخف و القمار و خذف الأحجار علی من مر بهم و ضرب المعازف و المزا مير و كشف العورات و اللواط و نحو ذلک و قد عرفت ما يقتضيه السياق.

ص: 124

و قوله: «فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » استهزاء و سخرية منهم، و يظهر من جوابهم أنه كان ينذرهم بعذاب الله و قد قال الله فى قصته فى موضع آخر: «وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ»: القمر: ٣۶.

قوله تعالى: «قالَ رَبِّ انْصُرْنِى عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ » سؤال للفتح و دعاء منه عليهم، و قد عدهم مفسدين لعملهم الذى يفسد الأرض و يقطع النسل و يهدد الإنسانية بالفناء.

قوله تعالى: «وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ » إجمال قصة هلاك قوم لوط، و قد كان ذلک برسل من الملائكة أرسلهم الله أولا إلى إبراهيم (ع) فبشروه و بشروا امرأته بإسحاق و يعقوب ثم أخبروه بأنهم مرسلون لإهلاک قوم لوط، و القصة مفصلة فى سورة هود و غيرها.

و قوله: «قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ » أى قالوا لإبراهيم، و فى الإتيان بلفظ الإشارة القريبة- هذه القرية- دلالة على قربها من الأرض التى كان إبراهيم (ع) نازلا بها، و هى الأرض المقدسة.

و قوله: «إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ» تعليل لإهلاكهم بأنهم ظالمون قد استقرت فيهم رذيلة الظلم، و قد كان مقتضى الظاهر أن يقال: إنهم كانوا ظالمين فوضع المظهر موضع المضمر للإشارة إلى أن ظلمهم ظلم خاص بهم يستوجب الهلاک و ليس من مطلق الظلم الذى كان الناس مبتلين به يومئذ كأنه قيل: إن أهلها بما أنهم أهلها ظالمون.

قوله تعالى: «قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ» ظاهر السياق أنه (ع) كان يريد بقوله: «إِنَّ فِيها لُوطاً» أن يصرف العذاب بأن فيها لوطا و إهلاک أهلها يشمله فأجابوه بأنهم لا يخفى عليهم ذلک بل معه غيره ممن لا يشمله العذاب و هم أهله إلا امرأته.

لكنه (ع) لم يكن ليجهل أن الله سبحانه لا يعذب لوطا و هو نبى مرسل، و إن شمل العذاب جميع من سواه من أهل قريته و لا أنه يخوفه و يزعره و يفزعه بقهره عليهم بل كان (ع) يريد بقوله: «إِنَّ فِيها لُوطاً» أن يصرف العذاب عن أهل القرية كرامة للوط لا أن يدفعه عن لوط، فأجيب بأنهم مأمورون بإنجائه و إخراجه من بين أهل القرية و معه أهله إلا امرأته كانت من الغابرين.

ص: 125

و الدليل على هذا الذى ذكرنا قوله تعالى فى سورة هود فى هذا الموضع من القصة:

«فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِى قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ، يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّکَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ »: هود: ٧۶ فالآيات أظهر ما يكون فى أن إبراهيم (ع) كان يدافع عن قوم لوط لا عن لوط نفسه.

فظاهر كلامه (ع) فى الآية التى نحن فيها الدفاع عن لوط و على ذلک جاراه الرسل فأبقوا كلامه على ظاهره و أجابوا بأنهم ما كانوا ليجهلوا ذلک فهم أعلم بمن فيها و عالمون بأن فيها لوطا و معه أهله ممن لا ينبغى أن يعذب لكنهم سينجونه و أهله إلا

امرأته، لكن الذى أراده إبراهيم (ع) بكلامه دفع العذاب عن أهل القريهٔ فأجيب بأنه من الأمر المحتوم على ما تشير إليه آيات سورهٔ هود.

و للقوم فى قوله : «إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ »، و قوله : «قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً » مشاجرات طويلهٔ أعرضنا عن التعرض لها لعدم الجدوى، من أراد الوقوف عليها فليراجع المطولات.

قوله تعالى: «وَ لَمّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ» إلى آخر الآيهٔ، ضميرا الجمع فى «سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ» للرسل و الباء للسببيهٔ أى أخذته المساءهٔ و هى سوء الحال بسببهم و ضاقت طاقته بسببهم لكونهم فى صور شبان حسان مرد يخاف عليهم من القوم ثم قصد القوم إياهم بالسوء و ضعف لوط من أن يدفعهم عنهم و هم ضيف له نازلون بداره.

و قوله: «وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ » أى لا خطر محتملا يهددک و لا مقطوعا يقع عليک فإن الخوف إنما هو فى المكروه الممكن و الحزن فى المكروه الواقع.

و قوله: «إِنّا مُنَجُّوکَ وَ أَهْلَکَ إِلَّا امْرَأَتَکَ کانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ» أى الباقين فى العذاب تعليل لنفى الخوف و الحزن.

قوله تعالى: «إِنّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَهِٔ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما کانُو ا يَفْسُقُونَ» بيان لما يشير إليه قوله : «إِنّا مُنَجُّوکَ وَ أَهْلَکَ» من العذاب، و الرجز العذاب.

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَهًٔ بَيِّنَهًٔ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» ضمير التأنيث للقريهٔ

ص: 126

و الترک الإبقاء أى أبقينا من القريهٔ علامهٔ واضحهٔ لقوم يعقلون ليعتبروا بها فيتقوا الله و هى الآثار الباقيهٔ منها بعد خرابها بنزول العذاب.

و هى اليوم مجهولهٔ المحل لا أثر منها و ربما يقال : إن الماء غمرها بعد و هى بحر لوط، لكن الآيهٔ ظاهرهٔ- كما ترى- أنها كانت ظاهرهٔ معروفهٔ فى زمن نزول القرآن و أوضح منها ق وله تعالى : «وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ »،: الحجر: ٧۶ و قوله: «وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ»: الصافات: ١٣٨.

قوله تعالى: «وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ وَ ارْ جُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » يدعوهم إلى عبادهٔ الله و هو التوحيد و إلى رجاء اليوم الآخر و هو الاعتقاد بالمعاد و أن لا يفسدوا فى الأرض و كانت عمدهٔ إفسادهم فيها- على ما ذكر فى قصتهم فى مواضع أخر- نقص الميزان و المكيال.

قوله تعالى: «فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ » الرجفة الاضطراب الشديد على ما ذكره الراغب، و الجثم و الجثوم فى المكان القعود فيه أو البروک على الأرض و هو كناية عن الموت و المعنى: فكذبوا شعيبا فأخذهم الاضطراب الشديد أو الزلزلة الشديدة فأصبحوا فى دارهم ميتين لا حراک بهم.

و قال فى قصتهم فى موضع آخر : «وَ أَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيا رِهِمْ جاثِمِينَ»: هود: ۹۴ و يستظهر من ذلک أنهم أهلكوا بالصيحة و الرجفة.

قوله تعالى: «وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ» إلى آخر الآية غير السياق تفننا فبدأ بذكر عاد و ثمود و كذا فى الآية التالية بدأ بذكر قارون و فرعون و هامان بخلاف قصص الأمم المذكورين سابقا حيث بدأ بذكر أنبيائهم كنوح و إبراهيم و لوط و شعيب. و قوله: «وَ عاداً وَ ثَمُودَ» منصوبان بفعل مقدر تقديره و اذكر عادا و ثمود.

و قوله: «وَ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَ كانُوا مُسْتَبْصِرِينَ» تزيين الشيطان لهم أعمالهم كناية استعارية عن تحبيب أعمالهم السيئة إليهم و تأكيد تعلقهم بها و صده إياهم عن السبيل صرفهم عن سبيل الله التى هى سبيل الفطرة، و لذا قال بعضهم: إن المراد بكونهم مستبصرين أنهم كانوا قبل ذلک على الفطرة الساذجة.

ص: 127

لكن الظاهر كما تقدم فى تفسير قوله : «كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ »: البقرة: ۲۱۳ أن عهد الفطرة الساذجة كان قبل بعثة نوح (ع) و عاد و ثمود كانوا بعد نوح فكونهم مستبصرين قبل انصدادهم عن السبيل هو كونهم يعيشون على عبادة الله و دين التوحيد و هو دين الفطرة.

قوله تعالى: «وَ قارُونَ وَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ» السبق استعارة كنائية من الغلبة، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: «فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ» إلى آخر الآية أى كل واحدة من الأمم المذكورين أخذناها بذنبها ثم أخذ فى التفصيل فقال : «فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً » و الحاصب الحجارة و قيل : الريح التى ترمى بالحصى و على الأول فهم قوم لوط، و على الثانى قوم عاد «وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ» و هم قوم ثمود و قوم شعيب «وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ» و هو قارون «وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا» و هم قوم نوح و فرعون و هامان و قومهما.

ثم عاد سبحانه إلى كافة القصص المذكورة و ما انتهى إليه أمر تلک الأمم من الأخذ و العذاب ف بين ببيان عام أن الذى أوقعهم فيما وقعوا لم يكن بظلم منه سبحانه بل بظلم منهم لأنفسهم فقال : «وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » أى فيجازيهم الله على ظلمهم لأن الدار دار الفتنة و الامتحان و هى السنة الإلهية التى لا مع دل عنها فمن اهتدى فقد اهتدى لنفسه و من ضل فعليها.

(بحث روائى)

فی الکافی، بإسناده عن أبی عمرو الزبیری عن أبی عبد الله (ع): فی حدیث یذکر فیه معانی الکفر قال : و الوجه الخامس من الکفر کفر البراءة قال تعالی: «وَ قالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثاناً- مَوَدَّةَ بَیْنِکُمْ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا ثُمَّ یَوْمَ الْقِیامَةِ- یَکْفُرُ بَعْضُکُمْ بِبَعْضٍ وَ یَلْعَنُ بَعْضُکُمْ بَعْضاً» یعنی یتبرأ بعضکم من بعض الحدیث.

أقول: و روی هذا المعنی فی التوحید، عن علی (ع)*: فی حدیث طویل یجیب فیه عما سئل عنه- من تهافت الآیات و فیه: و الکفر فی هذه الآیة البراءة- یقول: یتبرأ

ص: 128

بعضهم من بعض، و نظیرها فی سورة إبراهیم قول الشیطان : «إِنِّی کَفَرْتُ بِما أَشْرَکْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ» و قول إبراهیم خلیل الرحمن : «کَفَرْنا بِکُمْ» أی تبرأنا.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن مردویه عن جابر *: أن النبی ص نهی عن الخذف «۱» و هو قول الله : «وَ تَأْتُونَ فِی نادِیکُمُ الْمُنْکَرَ».

أقول: و روی هذا المعنی أیضا عن عدة من أصحاب الجوامع عن أم هانی بنت أبی طالب و لفظ الحدیث : قالت: سألت رسول الله ص عن قول الله: «وَ تَأْتُونَ فِی نادِیکُمُ الْمُنْکَرَ» قال: کانوا یجلسون بالطریق- فیخذفون ابن السبیل و یسخرون منهم.

و فی الکافی، بإسناده عن أبی زید الحماد عن أبی عبد الله (ع): فی حدیث نزول الملائکة علی إبراهیم بالبشری قال : فقال لهم إبراهیم: لما ذا جئتم؟ قالوا: فی إهلاک قوم لوط. فقال لهم: إن کان فیها مائة من المؤمنین أ تهلکونهم؟ فقال جبرئیل: لا.

قال: فإن کان فیها خمسون؟ قال: لا. قال: فإن کان فیها ثلاثون؟ قال: لا. قال:

فإن کان فیها عشرون؟ قال: لا. قال: فإن کان فیها عشرة؟ قال: لا. قال: فإن کان فیها خمسة؟ قال: لا. قال: فإن کان فیها واحد؟ قال: لا. قال: فإن فیها لوطا؟ قالوا: نحن أعلم بمن فیها لننجینه و أهله- إلا امرأته کانت من الغابرین.

قال الحسن بن علی (ع): لا أعلم هذا القول إلا و هو یستبقیهم- و هو قول الله عز و جل: «یُجادِلُنا فِی قَوْمِ لُوطٍ».

[سورة العنکبوت (۲۹): الآیات ۴۱ الی ۵۵]

مَثَلُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْلِیاءَ کَمَثَلِ الْعَنْکَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَیْتاً وَ إِنَّ أَوْهَنَ الْبُیُوتِ لَبَیْتُ الْعَنْکَبُوتِ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ (۴۱) إِنَّ اللّهَ یَعْلَمُ ما یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَیْ ءٍ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (۴۲) وَ تِلْکَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنّاسِ وَ ما یَعْقِلُها إِلاَّ الْعالِمُونَ (۴۳) خَلَقَ اللّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِلْمُؤْمِنِینَ (۴۴) اتْلُ ما أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنَ الْکِتابِ وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهی عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْکَرِ وَ لَذِکْرُ اللّهِ أَکْبَرُ وَ اللّهُ یَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ (۴۵)

وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِی هِیَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِینَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْنا وَ أُنْزِلَ إِلَیْکُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُکُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (۴۶) وَ کَذلِکَ أَنْزَلْنا إِلَیْکَ الْکِتابَ فَالَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ یُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ یُؤْمِنُ بِهِ وَ ما یَجْحَدُ بِآیاتِنا إِلاَّ الْکافِرُونَ (۴۷) وَ ما کُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ کِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِیَمِینِکَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (۴۸) بَلْ هُوَ آیاتٌ بَیِّناتٌ فِی صُدُورِ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ ما یَجْحَدُ بِآیاتِنا إِلاَّ الظَّالِمُونَ (۴۹) وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَیْهِ آیاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآیاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِیرٌ مُبِینٌ (۵۰)

أَ وَ لَمْ یَکْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَیْکَ الْکِتابَ یُتْلی عَلَیْهِمْ إِنَّ فِی ذلِکَ لَرَحْمَةً وَ ذِکْری لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ (۵۱) قُلْ کَفی بِاللَّهِ بَیْنِی وَ بَیْنَکُمْ شَهِیداً یَعْلَمُ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الَّذِینَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ کَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِکَ هُمُ الْخاسِرُونَ (۵۲) وَ یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالْعَذابِ وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّی لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَ لَیَأْتِیَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا یَشْعُرُونَ (۵۳) یَسْتَعْجِلُونَکَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِیطَةٌ بِالْکافِرِینَ (۵۴) یَوْمَ یَغْشاهُمُ الْعَذابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ یَقُولُ ذُوقُوا ما کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۵۵)

---

(۱) الخذف بالحصاة و النواة الرمی بها من بین السبابتین.

ص: 130

(بیان)

تتضمن الآیات تذییلا لقصص أولئک الأمم الماضیة الهالکة بمثل ضربه الله سبحانه لاتخاذهم أولیاء من دون الله فبین فیه أن بناءهم ذلک أوهن البناء ینادی ببطلانه و فساده خلق السماوات و الأرض و أنهم لیس لهم من دونه من ولی کما یذکره هذا الکتاب.

و من هنا ینتقل إلی أمر النبی ص بتلاوة هذا الکتاب الذی أوحی إلیه و إقامة الصلاة و دعوة أهل الکتاب بقول لین و مجادلة حسناء و یجیب عن اقتراح المشرکین علی النبی ص أن یأتیهم بآیات غیر القرآن و أن یعجلهم بالعذاب الذی ینذرهم به.

قوله تعالی: «مَثَلُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِیاءَ کَمَثَلِ الْعَنْکَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَیْتاً» إلی آخر الآیة، العنکبوت معروف و یطلق علی الواحد و الجمع و یذکر و یؤنث.

العنایة فی قوله: «مَثَلُ الَّذِینَ اتَّخَذُوا» إلخ، باتخاذ الأولیاء من دون الله و لذا جی ء بالموصول و الصلة کما أن العنایة فی قوله: «کَمَثَلِ الْعَنْکَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَیْتاً» إلی اتخاذها البیت فیئول المعنی إلی أن صفة المشرکین فی اتخاذهم من دون الله أولیاء کصفة العنکبوت فی اتخاذها بیتا له نبأ، و هو الوصف الذی یدل علیه تنکیر «بَیْتاً».

و یکون قوله: «إِنَّ أَوْهَنَ الْبُیُوتِ لَبَیْتُ الْعَنْکَبُوتِ» بیانا لصفة البیت الذی أخذته العنکبوت و لم یقل: إن أوهن البیوت لبیتها کما هو مقتضی الظاهر أخذا للجملة بمنزلة المثل السائر الذی لا یتغیر.

و المعنى: أن اتخاذهم من دون الله أولياء و هم آلهتهم الذين يتولونهم و يركنون

ص: 131

إليهم كاتخاذ العنكبوت بيتا هو أوهن البيوت إذ ليس له من آثار البيت إلا اسمه لا يدفع حرا و لا بردا و لا يكن شخصا و لا يقى من مكروه كذلک ليس لولاية أوليائهم إلا الاسم فقط لا ينفعون و لا يضرون و لا يملكون موتا و لا حياة و لا نشورا.

و مورد المثل هو اتخاذ المشركين آلهة من دون الله، فتبديل الآلهة من الأولياء لكون السبب الداعى لهم إلى اتخاذ الآلهة زعمهم أن لهم ولاية لأمرهم و تدبيرا لشأنهم من جلب الخير إليهم و دفع الشر عنهم و الشفاعة فى حقهم.

و الآية- مضافا إلى إيفاء هذه النكتة- تشمل بإطلاقها كل من اتخذ فى أمر من الأمور و شأن من الشئون وليا من دون الله يركن إليه و يراه مستقلا فى أثره الذى يرجوه منه و إن لم يعد من الأصنام إلا أن یرجع ولايته إلى ولاية الله كولاية الرسول و الأئمة و المؤمنين كما قال تعالى: «وَ ما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَ هُمْ مُشْرِكُونَ»: يوسف: ۱۰۶.

و قوله: «لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» أى لو كانوا يعلمون أن مثلهم كمثل العنكبوت ما اتخذوهم أولياء. كذا قيل.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْ‌ءٍ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» يمكن أن يكون «ما» فى «ما يَدْعُونَ» موصولة أو نافية أو استفهامية أو مصدرية و «مِنْ» فى «مِنْ شَيْ‌ءٍ» على الاحتمال الثانى زائدة للتأكيد و على ال باقى للتبيين و أرجح الاحتمالات الأولان و أرجحهما أولهما.

و المعنى: على الثانى أن الله يعلم أنهم ليسوا يدعون من دونه شيئا أى إن الذى يعبدونه من الآلهة لا حقيقة له فيكون كما قال صاحب الكشاف توكيدا للمثل و زيادة عليه حيث لم يجعل ما يدعونه شيئا.

و المعنى: على الأول أن الله يعلم الشى ء الذى يدعون من دونه و لا يجهل ذلک فيكون كناية عن أن المثل الذى ضربه فى محله، و ليس لأوليائهم من الولاية إلا اسمها.

و يؤكد هذا المعنى الاسمان الكريمان: العزيز الحكيم فى آخر الآية فهو تعالى العزيز الذى لا يغلبه شى ء فلا يشاركه فى تدبير ملكه أحد كما لا يشاركه فى الخلق و الإيجاد أحد، الحكيم الذى يأتى بالمتقن من الفعل و التدبير فلا يفوض تدبير خلقه إلى أحد، و هذا كالتمهيد لما سيبين فى قوله: «خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِ».

ص: 132

قوله تعالى: «وَ تِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ» يشير إلى أن الأمثال المضروبة فى القرآن على أنها عامة تقرع أسماع عامة الناس، لكن الإشراف على حقيقة معانيها و لب مقاصدها خاصة لأهل العلم ممن يعقل حقائق الأمور و لا ينجمد على ظواهرها.

و الدليل على هذا المعنى قوله: «وَ ما يَعْقِلُها» دون أن يقول: و ما يؤمن بها أو ما في معناه.

فالأمثال المضروبة في كلامه تعالى يختلف الناس في تلقيها باختلاف أفهامهم فمن سامع لا حظ له منها إلا تلقى ألفاظها و تصور مفاهيمها الساذجة من غير تعمق فيها و سبر لأغوارها، و من سا مع يتلقى بسمعه ما يسمعه هؤلاء ثم يغور في مقاصدها العميقة و يعقل حقائقها الأنيقة.

و فيه تنبيه على أن تمثيل اتخاذهم أولياء من دون الله باتخاذ العنكبوت بيتا هو أوهن البيوت ليس مجرد تمثيل شعري و دعوى خالية من البينة بل متك على حجة برهانية و حقيقة حقة ثابتة و ه ى التي تشير إليه الآية التالية.

قوله تعالى: «خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ » المراد بكون خلق السماوات و الأرض بالحق نفي اللعب في خلقها، كما قال تعالى: «وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما لاعِبِينَ ما خَلَقْناهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ»: الدخان: ٣٩.

فخلق السماوات و الأرض على نظام ثابت لا يتغير و سنة إلهية جارية لا تختلف و لا تتخلف، و الخلق و التدبير لا يختلفان حقيقة و لا ينفك أحدهما عن الآخر «١»، و إذ كان الخلق و الصنع ينتهي إليه تعالى انتهاء ضروريا و لا محيص فالتدبير أيضا له و لا محيص و ما من شي ء غيره تعالى إلا و هو مخلوقة القائم به المملوك له لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا، و من المحال قيامه بشيء من تدبير أمر نفسه أو غيره بحيث يستقل به مستغنيا

---

(١) و ذلك أن موطن التدبير الحوادث الجارية في الكون و معناه تعقيب حادث بحادث آخر على نظم و ترتيب يؤدي إلى غايات حقة و حقيقته خلق حادث بعد حادث فالتدبير هو الخلق و الإيجاد باعتبار قياس الشي ء إلى آخر مثله و انضمامه إليه فليس وراء الخلق و الإيجاد شيء منه.

في أمره عنه تعالى هذا هو الحق الذي لا لعب فيه و الجد الذي لا هزل فيه.

فلما تولى بعض خلقه أمر بعض لم يكن ذلك منه ولاية حق لكونه لا يملك شيئا بحقيقة معنى الملك بل كان ذلك منه جاريا على اللعب و تفويضه تعالى أمر التدبير إليه لعبا منه تعالى و تقدس إذ ليس إلا فرضا لا حقيقة له و وهما لا واقع له و هو معنى اللعب.

و منه يظهر أن ولاية من يدعون ولايته ليس لها إلا اسم الولاية من غير مسمى كما أن بيت العنكبوت كذلك.

و قوله: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ » تخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الآية لهم و لغيرهم لكون المنتفعين بها هم المؤمنون دون غيرهم.

قوله تعالی: «اتْلُ ما أُوحِیَ إِلَیْکَ مِنَ الْکِتابِ وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهی عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْکَرِ وَ لَذِکْرُ اللَّهِ أَکْبَرُ» إلخ، لما ذکر إجمال قصص الأمم و ما انتهی إلیه شرکهم و ارتکابهم الفحشاء و المنکر من الشقاء اللازم و الخسران الدائم انتقل من ذلک- مستأنفا للکلام- إلی أمره (ص) بتلاوة ما أوحی إلیه من الکتاب لکونه خیر رادع عن الشرک و ارتکاب الفحشاء و المنکر بما فیه من الآیات البینات التی تتضمن حججا نیرة علی الحق و تشتمل علی القصص و العبر و المواعظ و التبشیر و الإنذار و الوعد و الوعید یرتدع بتلاوة آیاته تالیه و من سمعه.

و شفعه بالأمر بإقامة الصلاة التی هی خیر العمل و علل ذلک بقوله: «إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهی عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْکَرِ» و السیاق یشهد أن المراد بهذا النهی ردع طبیعة العمل عن الفحشاء و المنکر بنحو الاقتضاء دون العلیة التامة.

فلطبیعة هذا التوجه العبادی- إذ أتی به العبد و هو یکرره کل یوم خمس مرات و یداوم علیه و خاصة إذا زاول علیه فی مجتمع صالح یؤتی فیه بمثل ما أتی به و یهتم فی ه بما اهتم- به أن یردعه عن کل معصیة کبیرة یستشنعه الذوق الدینی کقتل النفس عدوانا و أکل مال الیتیم ظلما و الزنا و اللواط، و عن کل ما ینکره الطبع السلیم و الفطرة المستقیمة ردعا جامعا بین التلقین و العمل.

و ذلک أنه یلقنه أولا بما فیه من الذکر الإیمان بوحدانیته تعالی و الرسالة و جزاء یوم الجزاء و أن یخاطب ربه بإخلاص العبادة و الاستعانة به و سؤال الهدایة إلی صراطه

ص: 134

المستقیم متعوذا من غضبه و من الضلال، و یحمله ثانیا علی أن یتوجه بروحه و بدنه إلی ساحة العظمة و الکبریاء و یذکر ربه بحمده و الثناء علیه و تسبیحه و تکبیره ثم السلام علی نفسه و أترابه و جمیع الصالحین من عباد الله.

مضافا إلی حمله إیاه علی التطهر من الحدث و الخبث فی بدنه و الطهارة فی لباسه و التحرز عن الغصب فی لباسه و مکانه و استقبال بیت ربه فالإنسان لو داوم علی صلاته مدة یسیرة و استعمل فی إقامتها بعض الصدق أثبت ذلک فی نفسه ملکة الارتداع عن الفحشاء و المنکر البتة، و لو أنک وکلت علی نفسک من یربیها تربیة صالحة تصلح بها لهذا الشأن و تتحلی بأدب العبودیة لم یأمرک بأزید مما تأمرک به الصلاة و لا روضک بأزید مما تروضک به.

و قد استشکل علی الآیة بأنا کثیرا ما نجد من المصلین من لا یبالی ارتکاب الکبائر و لا یرتدع عن المنکرات فلا تنهاه صلاته عن الفحشاء و المنکر.

و لذلک ذکر بعضهم أن الصلاة فی الآیة بمعنی الدعاء و المراد الدعوة إلی أمر الله و المعنی : أقم الدعوة إلی أمر الله فإن ذلک یردع الناس عن الفحشاء و المنکر. و فیه أنه صرف الکلام عن ظاهره.

و ذکر آخرون أن الصلاة فی الآیة فی معنی النکرة و المعنی أن بعض أنواع الصلاة أو أفرادها یوجب الانتهاء عن الفحشاء و المنکر و هو کذلک و لیس المراد الاستغراق حتی یرد الإشکال.

و ذكر قوم أن المراد نهيها عن الفحشاء و المنكر ما دامت قائمة و المصلى فى صلاته كأنه قيل : إن المصلى ما دام مصليا فى شغل من معصية الله بإتيان الفحشاء و المنكر.

و قال بعضهم: إن الآية على ظاهرها و الصلاة بمنزلة من ينهى و يقول : لا تفعل كذا و لا تقترف كذا لكن النهى لا يستوجب الانتهاء فليس نهى الصلاة بأعظم من نه يه تعالى كما فى قوله : «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِيتاءِ ذِي الْقُرْبى وَ يَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ»،: النحل: ٩٠ و نهيه تعالى لا يستوجب الانتهاء و ليس الإشكال إلا مبنيا على توهم استلزام النهى للانتهاء و هو توهم باطل.

و عن بعضهم فى دفع الإشكال أن الصلاة تقام لذكر الله كما قال تعالى: «أَقِمِ

ص: 135

الصَّلاةَ لِذِكْرِي» و من كان ذاكرا لله تعالى منعه ذلک عن الإتيان بما يكرهه و كل من تراه يصلى و يأتى بالفحشاء و المنكر فهو بحيث لو لم يصل لكان أشد إتيانا فقد أثرت الصلاة فى تقليل فحشائه و منكره.

و أنت خبير بأن شيئا من هذه الأجوبة لا يلائم سياق الحكم و التعليل فى الآية فإن الذى يعطيه السياق أن الأمر بإقامة الصلاة إنما علل بقوله: «إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ» ليفيد أن الصلاة عمل عبادى يورث إقامته صفة روحية فى الإنسان تكون رادعة له عن الفحشاء و المنكر فتتنزه النفس عن الفحشاء و المنكر و تتطهر عن قذارة الذنوب و الآثام.

فالمراد به التوسل إلى ملكة الارتداع التى هى من آثار طبيعة الصلاة بنحو الاقتضاء لا أنها أثر بعض أفراد طبيعة الصلاة كما فى الجواب الثانى، و لا أنها أثر الاشتغال بالصلاة ما دام مشتغلا بها كما فى الجواب الثالث، و لا أن المراد هو التوسل إلى تلقى نهى الصلاة فحسب من غير نظر إلى الانتهاء عن نهيها كأنه قيل أقم الصلاة لتسمع نهيها كما فى الجواب الرابع، و لا أن المراد أقم الصلاة لينهاک الذكر الذى تشتمل عليه عن الفحشاء و المنكر كما فى الجواب الخامس.

فالحق فى الجواب أن الردع أثر طبيعة الصلاة التى هى توجه خاص عبادى إلى الله سبحانه و هو بنحو الاقتضاء دون الاستيجاب و العلية التامة فربما تخلف عن أثرها لمقارنة بعض الموانع التى تضعف الذكر و تقربه من ا لغفلة و الانصراف عن حاق الذكر فكلما قوى الذكر و كمل الحضور و الخشوع و تمحض الإخلاص زاد أثر الردع عن الفحشاء و المنكر و كلما ضعف ضعف الأثر.

و أنت إذا تأملت حال بعض من تسمى بالإسلام من الناس و هو تارك الصلاة وجدته يضيع بإضاعة الصلاة فريضة الصوم و الحج و الزكاة و الخمس و عامة الواجبات الدينية و لا يفرق بين طاهر و نجس و حلال و حرام فيذهب لوجهه لا يلوى على شىء ثم إذا قست إليه حال من يأتى بأدنى مراتب الصلاة مما يسقط به التكليف، وجدته مرتدعا عن كثير مما يقترفه تارك الصلاة غير مكترث به ثم إذا قست إليه من هو فوقه فى الاهتمام بأمر الصلاة وجدته أكثر ارتداعا منه و على هذا القياس.

ص: 136

و قوله: «وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» قال الراغب فی المفردات :، الذكر تارة يقال و يراد به هيئة للنفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة و هو كالحفظ إلا أن الحفظ يقال اعتبارا بإحرازه و الذكر يقال اعتبارا باستحضاره. و تارة يقال لحضور الشیء القلب أو القول و لذلک قيل : الذكر ذكران ذكر عن نسيان و ذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ، و كل قول يقال له ذكر . انتهی.

و الظاهر أن الأصل فی معناه هو المعنی الأول و تسمية اللفظ ذكرا إنما هو لاشتماله علی المعنی القلبی و الذكر القلبی بالنسبة إلی اللفظی كالأثر المترتب علی سببه و الغاية المقصودة من الفعل.

و الصلاة تسمی ذكرا لاشتمالها علی الأذكار القولية من تهليل و تحميد و تنزيه و هی باعتبار آخر مصداق من مصاديق الذكر لأنها بمجموعها ممثل لعبودية العبد لله سبحانه كما قال : «إِذا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللَّهِ»: الجمعة: ٩ و هی باعتبار آخر أمر يترتب عليه الذكر ترتب الغاية علی ذی الغاية يشير إليه قوله تعالی:

«وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِی»: طه: ١۴.

و الذكر الذی هو غاية مترتبة علی الصلاة أعنی الذكر القلبی بمعنی استحضار المذكور فی ظرف الإدراک بعد غيبته نسيانا أو إدامة استحضاره، أفضل عمل يتصور صدوره عن الإنسان و أعلاه كعبا و أعظمه قدرا و أثرا فإنه السعادة الأخيرة التی هيئت للإنسان و مفتاح كل خير.

ثم إن الظاهر من سياق قوله: «وَ أَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْكَرِ» إن قوله: «وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» متصل به مبين لأثر آخر للصلاة و هو أكبر مما بين قبله، فيقع قوله : «وَ لَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ» موقع الإضراب و الترقی و يكون المراد الذكر القلبی الذی يترتب علی الصلاة ترتب الغاية علی ذی الغاية فكأنه قيل : أقم الصلاة لتردعک عن الفحشاء و المنكر بل الذی تفيده من ذكر الله الحاصل بها أكبر من ذلک أی من النهی عن الفحشاء و المنكر لأنه أعظم ما يناله الإنسان من الخير و هو مفتاح كل خير و النهی عن الفحشاء و المنكر بعض الخير.

و من المحتمل أن يراد بالذكر ما تشتمل عليه الصلاة من الذكر أو نفس الصلاة.

ص: 137

و الجملة أيضا واقعة موقع الإضراب، و المعنی: بل الذی تشتمل عليه الصلاة من ذكر الله أو نفس الصلاة التی هی ذكر الله أكبر من هذا الأثر الذی هو النهی عن الفحشاء و المنكر لأن النهی أثر من آثارها الحسنة و «لَذِكْرُ اللَّهِ» علی الاحتمالين جميعا من المصدر المضاف إلی مفعوله و المفضل عليه لقوله: «أَكْبَرُ» هو النهی عن الفحشاء و المنكر.

و لهم فی معنی الذكر و كون المضاف إليه فاعلا أو مفعولا للمصدر و كون المفضل عليه خاصا أو عاما أقوال أخر.

فقيل: معنى الآية: ذكر الله العبد أكبر من ذكر العبد لله تعالى و ذلک أن الله تعالى يذكر من ذكره لقوله : «فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ»،: البقرة: ۱۵۲ و قيل: المعنى:

ذكر الله تعالى العبد أكبر من الصلاة، و قيل: المعنى: لذكر الله العبد أكبر من كل شیء.

و قيل: المعنى: لذكر العبد لله فی الصلاة أكبر من سائر أركان الصلاة، و قيل:

المعنى: لذكر العبد لله فی الصلاة أكبر من ذكره خارج الصلاة، و قيل: المعنى: لذكر العبد لله أكبر من سائر أعماله، و قيل: المعنى: للصلاة أكبر من سائر الطاعات و قيل: المعنى: لذكر العبد لله عند الفحشاء و المنكر و ذكر نهيه عنهما أكبر من زجر الصلاة و ردعها، و قيل: إن قوله: «أَكْبَرُ» معرى من معنى التفضيل لا يحتاج إلى مفضل عليه كقوله: «ما عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ».

فهذه أقوال لهم متفرقة أغمضنا عن البحث عما فيها إيثارا للاختصار، و التدبر فی الآية يكفی مئونة البحث على أن التحكم فی بعضها ظاهر لا يخفى.

و قوله: «وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَصْنَعُونَ» أی ما تفعلونه من خير أو شر فعليكم أن تراقبوه و لا تغفلوا عنه ففيه حث و تحريض على المراقبة و خاصة على القول الأول.

قوله تعالى: «وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» لما أمر فی قوله: «اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْکَ» إلخ، بالتبليغ و الدعوة من طريق تلاوة الكتاب عقبه ببيان كيفية الدعوة فنهى عن مجادلة أهل الكتاب و هم على ما يقتضيه الإطلاق اليهود و النصارى و يلحق بهم المجوس و الصابئون- إلا بالمجادلة- التی هی أحسن المجادلة.

و المجادلة إنما تحسن إذا لم تتضمن إغلاظا و طعنا و إهانة، فمن حسنها أن تقارن

ص: 138

رفقا و لينا فی القول لا يتأذى به الخصم و أن يقترب المجادل من خصمه و يدنو منه حتى يتفقا و يتعاضدا لإظهار الحق من غير لجاج و عناد فإذا اجتمع فيها لين الكلام و الاقتراب بوجه زادت حسنا على حسن فكانت أحسن.

و لهذا لما نهى عن مجادلتهم إلا بالتی هی أحسن استثنى منه الذين ظلموا منهم، فإن المراد بالظلم بقرينة السياق كون الخصم بحيث لا ينفعه الرفق و اللين و الاقتراب فی المطلوب بل يتلقى حسن الجدال نوع مذلة و هوان للمجادل و يعتبره تمويها و احتيالا لصرفه عن معتقده فهؤلاء الظالمون لا ينجح معهم المجادلة بالأحسن.

و لهذا أيضا عقب الكلام ببيان كيفية الاقتراب معهم و بناء المجادلة على كلمة يجتمع فيها الخصمان فيتقاربان معه و يتعاضدان على ظهور الحق فقال: «وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنا وَ أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «وَ كَذلِکَ أَنْزَلْنا إِلَيْکَ الْکِتابَ فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْکِتابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الْکافِرُونَ» أى على تلک الصفة و هى الإسلام لله و تصديق كتبه و رسله أنزلنا إليک القرآن.

و قيل: المعنى: مثل ما أنزلنا إلى موسى و عيسى الكتاب أنزلنا إليک الكتاب و هو القرآن.

فقوله: «فَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْکِتابَ» إلخ، تفريع على نحو نزول الكتاب أى لما كان القرآن نازلا فى الإسلام لله و تصديق كتبه و رسله فأهل الكتاب يؤمنون به بحسب الطبع لما عندهم من الإيمان بالله و تصديق كتبه و رسله، و من هؤلاء و هم المشركون من عبدة الأوثان من يؤمن به و ما يجحد بآياتنا و لا ينكرها من أهل الكتاب و هؤلاء المشركين إلا الكافرون و هم الساترون للحق بالباطل.

و قد احتمل أن يكون المراد بالذين آتيناهم الكتاب المسلمين و المشار إليه بهؤلاء أهل الكتاب و هو بعيد، و مثله فى البعد إرجاع الضمير فى «يؤمن به» إلى النبى ص.

و فى قوله: «وَ مِنْ هؤُلاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ» نوع استقلال لمن آمن به من المشركين.

قوله تعالى: «وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِکَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ» التلاوة هى القراءة سواء كانت عن حفظ أو عن كتاب مخطوط و المراد به

ص: 139

فى الآية الثانى بقرينة المقام، و الخط الكتابة، و المبطلون جمع مبطل و هو الذى يأتى بالباطل من القول، و يقال أيضا للذى يبطل الحق أى يدعى بطلانه، و الأنسب فى الآية المعنى الثانى و إن جاز أن يراد المعنى الأول.

و ظاهر التعبير فى قوله: «وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا» إلخ، نفى العادة أى لم يكن من عادتک أن تتلو و تخط كما يدل عليه قوله فى موضع آخر: «فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ»: يونس: ١۶.

و قيل المراد به نفى القدرة أى ما كنت تقدر أن تتلو و تخط من قبله و الوجه الأول أنسب بالنسبة إلى سياق الحجة و قد أقامها لتثبيت حقية القرآن و نزوله من عنده.

و تقييد قوله: «وَ لا تَخُطُّهُ» بقوله: «بِيَمِينِکَ» نوع من التمثيل يفيد التأكيد كقول القائل: رأيته بعينى و سمعته بأذنى.

و المعنى: و ما كان من عادتک قبل نزول القرآن أن تقرأ كتابا و لا كان من عادتک أن تخط كتابا و تكتبه- أى ما كنت تحسن القراءة و الكتابة لكونک أميا- و لو كان كذلک لارتاب هؤلاء المبطلون الذين يبطلون الحق بدعوى أنه باطل لكن لما لم تحسن القراءة و الكتابة و استمرت على ذلک و عرفوک على هذه الحال لمخالطتک لهم و معاشرتک معهم لم يبق محل ريب لهم فى

أمر القرآن النازل إليک أنه کلام الله تعالى و ليس تلفيقا لفقته من کتب السابقين و نقلته من أقاصيصهم و غيرهم حتى يرتاب المبطلون و يعتذروا به.

قوله تعالى: «بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظّالِمُونَ » إضراب عن مقدر يستفاد من الآية السابقة کأنه لما نفى عنه (ص) التلاوة و الخط معا تحصل من ذلک أن القرآن ليس بکتاب مؤلف مخطوط فأضرب عن هذا المقدر بقوله: «بَلْ هُوَ- أي القرآن- آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ».

و قوله: «وَ ما يَجْحَدُ بِآياتِنا إِلَّا الظّالِمُونَ » المراد بالظلم بقرينة المقام الظلم لآيات الله بتکذيبها و الاستکبار عن قبولها عنادا و تعنتا.

قوله تعالى: «وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللّهِ وَ إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ » لما ذکر الکتاب و أمر النبي ص أن يتلوه و يدعوهم إليه به و أن منهم

من يؤمن به و منهم من لا يؤمن به و هم الکافرون الظالمون أشار في هذه الآية و الآيتين بعدها إلى عدم اعتنائهم بالقرآن الذي هو آية النبوة و اقتراحهم على النبي ص أن يأتيهم بآيات غيره و الجواب عنه.

فقوله: «وَ قالُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ» اقتراح منهم أن يأتيهم بآيات غير القرآن تعريضا منهم أنه ليس بآية و زعما منهم أن النبي يجب أن يکون ذا قوة إلهية غيبية يقوى على کل ما يريد، و في قولهم : لو لا أنزل عليه، دون أن يقولوا : لو لا يأتينا بآيات نوع سخرية کقولهم: «يا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّکْرُ إِنَّکَ لَمَجْنُونٌ لَوْ ما تَأْتِينا بِالْمَلائِکَةِ إِنْ کُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ»: الحجر: ٧.

و قوله: «قُلْ إِنَّمَا الْآياتُ عِنْدَ اللّهِ » جواب عن زعمهم أن من يدعي الرسالة يدعي قوة غيبية يقدر بها ع لى کل ما أراد بأن الآيات عند الله ينزلها متى ما أراد و کيفما شاء لا يشارکه في القدرة عليها غيره فليس إلى النبي شي ء إلا أن يشاء الله ثم زاده بيانا بقصر شأن النبي ص في الإنذار فحسب بقوله: «إِنَّما أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ».

قوله تعالى: «أَ وَ لَمْ يَکْفِهِمْ أَنّا أَنْزَلْنا عَلَيْکَ الْکِتابَ يُتْلى عَلَيْهِمْ» إلى آخر الآية توطئة و تمهيد للجواب عن تعريضهم بالقرآن أنه ليس بآية، و الاستفهام للإنکار و الخطاب للنبي ص أي يکفيهم آية هذا الکتاب الذي أنزلناه عليک و هو يتلى عليهم فيسمعونه و يعرفون مکانته من الإعجاز و هو مملو رحمة و تذکرة للمؤمنين.

قوله تعالى: «قُلْ کَفى بِاللّهِ بَيْنِي وَ بَيْنَکُمْ شَهِيداً » إلقاء جواب إلى النبي ص ليجيبهم به و هو أن الله سبحانه شهيد بيني و بينکم فيما نتخاصم فيه و هو أمر الرسالة فإنه سبحانه يشهد في کلامه الذي أنزله على برسالتي و هو تعالى يعلم ما في السماوات و الأرض من غير أن يجهل شيئا و کفى بشهادته لي دليلا على دعواي.

و ليس لهم أن يقولوا إنه ليس بكلام الله لمكان تحديه مرة بعد مرة فی خلال الآيات و منه يعلم أن قوله : «قُلْ كَفى‏ بِاللَّهِ بَيْنِی وَ بَيْنَكُمْ شَهِيداً» ليس دعوى مجردة أو كلاما خطابيا بل هو بيان استدلالی و حجة قاطعة علی ما عرفت.

و قوله: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْباطِلِ وَ كَفَرُوا بِاللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ » قصر الخسران فيهم لعدم إيمانهم بالله بالكفر بكتابه الذی فيه شهادته علی الرسالة و هم بكفرهم بالله

ص: 141

الحق يؤمنون بالباطل و لذلک خسروا فی إيمانهم.

قوله تعالی: «وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ لَوْ لا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجاءَهُمُ الْعَذابُ وَ لَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ» إشارة إلی قولهم كقول متقدميهم: ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين، و قد حكی الله عنهم استعجالهم فی قوله : «وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلى‏ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ ما يَحْبِسُهُ»: هود: ٨.

و المراد بالأجل المسمی هو الذی قضاه لبنی آدم حين أهبط آدم إلی الأرض فقال:

«وَ لَكُمْ فِی الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتاعٌ إِلى‏ حِينٍ»،: البقرة: ٣۶ و قال: «وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا يَسْتَقْدِمُونَ»: الأعراف: ٣۴.

و هذا العذاب الذی يحول بينه و بينهم الأجل المسمی هو الذی يستحقونه لمطلق أعماله م السيئة كما قال عز من قائل : «وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا»،: الكهف: ۵٨ و لا ينافی ذلک تعجيل العذاب بنزول الآيات المقترحة علی الرسول من غير إمهال و إنظار، قال تعالی : «وَ ما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ»: إسراء: ۵٩.

قوله تعالی: «يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذابِ وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ، يَوْمَ يَغْشاهُمُ الْعَذابُ » إلی آخر الآية، تكرار «يَسْتَعْجِلُونَكَ» للدلالة علی كمال جهلهم و فساد فهمهم و أن استعجالهم استعجال لأمر مؤجل لا معجل أولا و استعجال لعذاب واقع لا صارف له عنهم لأنهم مجزيون بأعمالهم التی لا تفارقهم ثانيا.

و الغشاوة و الغشاية التغطية بنحو الإحاطة، و قوله: «يَوْمَ يَغْشاهُمُ» ظرف لقوله:

«لَمُحِيطَةٌ» و الباقی ظاهر.

(بحث روائی)

فی المجمع،: فی قوله تعالی: «وَ ما يَعْقِلُها إِلَّا الْعالِمُونَ»:

روی الواحدی بالإسناد عن جابر قال : تلا النبی ص هذه الآیة- و قال: العالم الذی یعقل عن الله- فعمل بطاعته و اجتنب سخطه.

ص: 142

و فیه،: فی قوله تعالی: «إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهی عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْکَرِ»:

روی أنس بن مالک عن النبی ص: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء و المنکر لم یزدد من الله إلا بعدا:

أقول: و رواه فی الدر المنثور، عن عمران بن الحصین و ابن مسعود و ابن عباس و ابن عمر عنه (ص) و رواه القمی فی تفسیره مضمرا مرسلا.

و فیه، و أیضا عن النبی ص: لا صلاة لمن لم تطع الصلاة و طاعة الصلاة أن تنتهی عن الفحشاء و المنکر:

أقول: و رواه فی الدر المنثور، عن ابن مسعود و غیره.

و فیه، و روی أنس : أن فتی من الأنصار کان یصلی الصلوات مع رسول الله ص- و یرتکب الفواحش فوصف ذلک لرسول الله ص- فقال: إن صلاته تنهاه یوما ما.

و فیه، روی أصحابنا عن أبی عبد الله (ع) قال*: من أحب أن یعلم قبلت صلاته أم لم تقبل، فلینظر هل منعته صلاته عن الفحشاء و المنکر- فبقدر ما منعته قبلت صلاته.

و فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالی: «وَ لَذِکْرُ اللَّهِ أَکْبَرُ»:

فی روایة أبی الجارود عن أبی جعفر (ع): فی قوله: «وَ لَذِکْرُ اللَّهِ أَکْبَرُ» یقول: ذکر الله لأهل الصلاة أکبر من ذکرهم إیاه- أ لا تری أنه یقول: «فَاذْکُرُونِی أَذْکُرْکُمْ».

أقول: و هذا أحد المعانی التی تقدم نقلها .

و فی نور الثقلین، عن مجمع البیان، و روی أصحابنا عن أبی عبد الله (ع) قال: ذکر الله عند ما أحل و حرم.

و فیه، عن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله ص: أی الأعمال أحب إلی الله؟ قال: أن تموت و لسانک رطب من ذکر الله عز و جل.

و فیه، و قال (ص): یا معاذ إن السابقین الذین یسهرون بذکر الله عز و جل- و من أحب أن یرتع فی ریاض الجنة- فلیکثر من ذکر الله عز و جل.

و فی الکافی، بإسناده عن العبدی عن أبی عبد الله (ع): فی قول الله عز و جل : «بَلْ هُوَ آیاتٌ بَیِّناتٌ فِی صُدُورِ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ» قال : هم الأئمة.

أقول: و هذا المعنى مروی فی الکافی، و فی بصائر الدرجات، بعدة طرق : و هو من الجری بمعنى انطباق الآیة على أکمل المصادیق بدلیل الروایة الآتیة.

ص: 143

و فی البصائر، بإسناده عن برید بن معاویة عن أبی جعفر (ع) قال: قلت له:

«بَلْ هُوَ آیاتٌ بَیِّناتٌ فِی صُدُورِ الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ» فقال: أنتم هم من عسى أن یکونوا؟.

و فی الدر المنثور، أخرج الإسماعیلی فی معجمه و ابن مردویه من طریق یحیى بن جعدة عن أبی هریرة قال ※: کان ناس من أصحاب رسول الله ص یکتبون من التوراة فذکروا ذلک لرسول الله ص فقا ل: إن أحمق الحمق و أضل الضلالة قوم رغبوا- عما جاء به نبیهم إلى نبی غیر نبیهم- و إلى أمة غیر أمتهم ثم أنزل الله: «أَ وَ لَمْ یَکْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَیْکَ الْکِتابَ یُتْلى عَلَیْهِمْ» الآیة.

و فیه، أخرج ابن عساکر عن ابن أبی ملیکة قال": أهدى عبد الله بن عامر بن کریز إلى عائشة هدیة- فظنت أنه عبد الله بن عمر فردتها- و قالت: یتتبع الکتب و قد قال الله : «أَ وَ لَمْ یَکْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَیْکَ الْکِتابَ یُتْلى عَلَیْهِمْ» فقیل لها: إنه عبد الله بن عامر فقبلها.

أقول: ظاهر الروایتین و خاصة الأولى الآیة فی بعض الصحابة و سیاق الآیات یأبى ذلک.

[سورة العنکبوت (۲۹): الآیات ۵۶ الى ۶۰]

یا عِبادِیَ الَّذِینَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِی واسِعَةٌ فَإِیَّایَ فَاعْبُدُونِ (۵۶) کُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَیْنا تُرْجَعُونَ (۵۷) وَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِینَ (۵۸) الَّذِینَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ (۵۹) وَ کَأَیِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ یَرْزُقُها وَ إِیَّاکُمْ وَ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ (۶۰)

ص: 144

(بیان)

لما استفرغ الکلام فی توبیخ من ارتد عن دینه من المؤمنین خوف الفتنة عطف الکلام على بقیة المؤمنین ممن استضعفه المشرکون بمکة و کانوا یهددونهم بالفتنة و العذاب فأمرهم أن یصبروا و یتوکلوا على ربهم و أن یهاجروا منها إن أشکل علیهم أمر الدین و إقامة فرائضه، و أن لا یخافوا أمر الرزق فإن الرزق على الله سبحانه و هو یرزقهم إن ارتحلوا و هاجروا کما کان یرزقهم فی مقامهم.

قوله تعالى: «يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ » توجيه للخطاب إلى المؤمنين الذين وقعوا فى أرض الكفر لا يقدرون على التظاهر بالدين الحق و الاستنان بسنته و يدل على ذلك ذيل الآية.

و قوله: «إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ» الذى يظهر من السياق أن المراد بالأرض هذه الأرض التى نعيش عليها و إضافتها إلى ضمير التكلم للإشارة إلى أن جميع الأرض لا فرق عنده فى أن يعبد فى أى قطعة منها كانت، و وسعة الأرض كناية عن أنه إن امتنع فى ناحية من نواحيها أخذ الدين الحق و العمل به فهناك نواح غيرها لا يمتنع فيها ذلك فعبادته تعالى وحده ليست بممتنعة على أى حال.

و قوله: «فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ» الفاء الأولى للتفريع على سعة الأرض أى إذا كان كذلك فاعبدونى وحدى و الفاء الثانية فاء الجزاء للشرط المحذوف المدلول عليه بالكلام و الظاهر أن تقديم «إياى» لإفادة الحصر فيكون قصر قلب و المعنى : لا تعبدوا غيرى بل اعبدونى، و قوله: «فَاعْبُدُونِ» قائم مقام الجزاء.

و محصل المعنى: أن أرضى واسعة إن امتنع عليكم عبادتى فى ناحية منها تسعكم لعبادتى أخرى منها فإذا كان كذلك فاعبدونى وحدى و لا تعبدوا غيرى فإن لم يمكنكم عبادتى فى قطعة منها فهاجروا إلى غيرها و اعبدونى وحدى فيها .

قوله تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ » الآية تأكيد للأمر السابق فى قوله : «فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ» و كالتوطئة لقوله الآتى: «الَّذِينَ صَبَرُوا» إلخ.

و قوله: «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ» من الاستعارة بالكناية و المراد أن كل نفس

ص: 145

ستموت لا محالة، و الالتفات فى قوله : «ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ» من سياق التكلم وحده إلى سياق التكلم مع الغير للدلالة على العظمة.

و محصل المعنى : أن الحياة الدنيا ليست إلا أياما قلائل و الموت وراءه ثم الرجوع إلينا للحساب فلا يصدنكم زينة الحياة الدنيا- و هى زينة فانية- عن التهيؤ للقاء الله بالإيمان و العمل ففيه السعادة الباقية و فى الحرمان منه هلاك مؤبد مخلد.

قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً » إلخ، بيان لأجر الإيمان و العمل الصالح بعد الموت و الرجوع إلى الله و فيه حث و ترغيب للمؤمنين على الصبر فى الله و التوكل على الله، و التبوئة الإنزال على وجه الإقامة، و الغرف جمع غرفة و هى فى الدار، العلية العالية.

و قد بين تعالى أولا ثواب الذين آمنوا و عملوا الصالحات ثم سماهم عاملين إذ قال:

«نِعْمَ أَجْرُ الْعامِلِينَ » ثم فسر العاملين بقوله : «الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فعاد بذلك الصبر و التوكل سمة خاصة للمؤمنين فدل بذلک کله أن المؤمن إنما يرضى عن إيمانه إذا صبر فی الله و توكل عليه، فعلى المؤمن أن يصبر فی الله على كل أذى و جفوة ما يجد إلى العيشة الدينية سبيلا فإذا تعذرت عليه إقامة مراسم الدين فی أرضه فليخرج و ليهاجر إلى أرض غيرها و ليصبر على ما يصيبه من التعب و العناء فی الله.

قوله تعالى: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَ عَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» وصف للعالمين، و الصبر أعم من الصبر عند المصيبة و الصبر على الطاعة و الصبر على المعصية، و إن كان المورد مورد الصبر عند المصيبة فهو المناسب لحال المؤمنين بمكة المأمورين بالهجرة.

قوله تعالى: «وَ كَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُها وَ إِيَّاكُمْ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» كأين للتكثير، و حمل الرزق هو ادخاره كما يفعله الإنسان و النمل و الفأر و النحل من سائر الحيوان.

و فی الآية تطييب لنفس المؤمنين و تقوية لقلوبهم أنهم لو هاجروا فی الله أتاهم رزقهم أينما كانوا و لا يموتون جوعا فرازقهم ربهم دون أوطانهم، يقول: و كثير من

ص: 146

الدواب لا رزق مدخر لها يرزقها الله و يرزقكم معاشر الآدميين الذين يدخرون الأرزاق و هو السميع العليم.

و فی تذييل الآية بالاسمين الكريمين السميع العليم إشارة إلى الحجة على مضمونها و هو أن الإنسان و سائر الدواب محتاجون إلى الرزق يسألون الله ذلک بلسان حاجتهم إليه و الله سبحانه سميع للدعاء عليم بحوائج خلقه و مقتضى الاسمين الكريمين أن يرزقهم.

(بحث روائی)

فی تفسير القمی، و فی رواية أبی الجارود عن أبی جعفر (ع): فی قوله تعالى:

«يا عِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي واسِعَةٌ » يقول: لا تطيعوا أهل الفسق من الملوك فإن خفتموهم أن يفتنوكم عن دينكم فإن أرضی واسعة، و هو يقول: «فِيمَ كُنْتُمْ قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ» فقال: «أَ لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ واسِعَةً فَتُهاجِرُوا فِيها».

و فی المجمع،: و قال أبو عبد الله (ع): معناه إذا عصى الله فی أرض أنت بها فاخرج منها إلى غيرها.

و فی العيون، بإسناده إلى الرضا (ع) قال: قال رسول الله ص: لما نزلت «إِنَّکَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ» قلت: يا رب أ يموت الخلائق كلهم و يبقى الأنبياء؟ فنزلت «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ»:

أقول: و رواه أيضا فی الدر المنثور، عن ابن مردويه عن علی

، و لا يخلو متنه عن شیء فإن قوله: «إِنَّکَ مَیِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَیِّتُونَ» يخبر عن موته (ص) و موت سائر الناس، و کان (ص) يعلم أن الأنبياء المتقدمين عليه ماتوا فلا معنى لقوله: أ يموت الخلائق کلهم و يبقى الأنبياء.

و فی الجمع، عن عطاء عن ابن عمر قال: خرجنا مع رسول الله ص حتى دخلنا بعض حيطان الأنصار- فجعل يلتقط من التمر و يأکل فقال لی: يا ابن عمر ما لک لا تأکل؟ فقلت: لا أشتهيه يا رسول الله. قال: أنا أشتهيه و هذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاما- و لو شئت لدعوت ربی فأعطانی مثل ملک کسرى و قيصر- فکيف بک يا ابن عمر

إذا بقيت مع قوم يخبئون رزق سنتهم لضعف اليقين- فوالله ما برحنا حتى نزلت «وَ کَأَیِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ یَرْزُقُها وَ إِیَّاکُمْ- وَ هُوَ السَّمِیعُ الْعَلِیمُ»

أقول: و قد روى الرواية فی الدر المنثور، و ضعف سندها و هی مع ذلک لا تلائم وقوع الآية فی سياق ما تقدمها.

[سورة العنکبوت (۲۹): الآيات ۶۱ الى ۶۹]

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَیَقُو لُنَّ اللَّهُ فَأَنَّی یُؤْفَکُونَ (۶۱) اللَّهُ یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ یَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِکُلِّ شَیْ ءٍ عَلِیمٌ (۶۲) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْیا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَیَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لا یَعْقِلُونَ (۶۳) وَ ما هذِهِ الْحَیاةُ الدُّنْیا إِلاَّ لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَیَوانُ لَوْ کانُوا یَعْلَمُونَ (۶۴) فَإِذا رَکِبُوا فِی الْفُلْکِ دَعَوُا اللهَّ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَی الْبَرِّ إِذا هُمْ یُشْرِکُونَ (۶۵)

لِیَکْفُرُوا بِما آتَیْناهُمْ وَ لِیَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ یَعْلَمُونَ (۶۶) أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ یُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَ فَبِالْباطِلِ یُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ یَکْفُرُونَ (۶۷) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً أَوْ کَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَ لَیْسَ فِی جَهَنَّمَ مَثْویً لِلْکافِرِینَ (۶۸) وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِینَ (۶۹)

(بيان)

الآيات تصرف الخطاب عن المؤمنين إلى النبی ص و هو فی المعنى خطاب عام يشمل الجميع و إن کان فی اللفظ خاصا به (ص) لأن الحجج المذکورة فيها مما يناله الجميع.

و الآيات تذکر مناقضات فی آراء المشرکين فيما ألقى فی الفصل السابق على المؤمنين فآمنوا به فإنهم يعترفون أن خالق السماوات و الأرض و مدبر الشمس و القمر- و عليهما مدار الأرزاق- هو الله و أن منزل الماء من السماء و محيی الأرض بعد

موتها هو الله سبحانه ثم يدعون غيره ليرزقهم و هم يعبدونه تعالى إذا ركبوا البحر ثم إذا أنجاهم عبدوا غيره و يقيمون فى حرم آمن و هو نعمة لهم فيؤمنون بالباطل و يجحدون الحق و يكفرون بنعمة الله.

و ما ختمت به السورة من قوله: «وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا» يلائم ما فى مفتح السورة «أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ- إلى أن قال- وَ مَنْ جاهَدَ فَإِنَّما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ» إلخ.

قوله تعالى: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ».

خلق السماوات و الأرض من الإيجاد و تسخير الشمس و القمر- و ذلك بتحويل حالاتهما بالطلوع و الغروب و القرب و البعد من الأرض- من التدبير الذى يتفرع عليه كينونة أرزاق الإنسان و سائر الحيوان و هذا الخلق و التد بير لا ينفك أحدهما عن الآخر فمن اعترف بأحدهما فليعترف بالآخر.

و إذا كان الله هو الخالق و بيده تدبير السماوات و يتبعه تدبير الأرض و كينونة الأرزاق كان هو الذى يجب أن يدعى للرزق و سائر التدبير فمن العجب حينئذ أن يصرف عنه الإنسان إلى غيره ممن لا يملك شيئا و ه و قوله: «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» أى فإذا كان الخلق و تدبير الشمس و القمر إليه تعالى فكيف يصرف هؤلاء إلى دعوة غيره من الأصنام و عبادته.

قوله تعالى: «اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ

ص: 149

عَلِيمٌ» فى الآية تصريح بما تلوح إليه الآية السابقة، و القدر التضييق و يقابله البسط و المراد به لازم معناه و هو التوسعة، و وضع الظاهر موضع المضمر فى قوله: «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» للدلالة على تعليل الحكم، و المعنى: و هو بكل شىء عليم لأنه الله.

و المعنى: الله يوسع الرزق على من يشاء من عباده و يضيقه على من يشاء- و لا يشاء إلا على طبق المصلحة- لأنه بكل شىء عليم لأنه الله الذى هو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال.

قوله تعالى: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَ أَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها »- إلى قوله- لا يَعْقِلُونَ» المراد بإحياء الأرض بعد موتها إنبات النبات فى الربيع.

و قوله: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» أى احمد الله على تمام الحجة عليهم باعترافهم بأن الله هو المدبر لأمر خلقه فلزمهم أن يعبدوه دون غيره من الأصنام و أرباب الأصنام.

و قوله: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ» أى لا يتدبرون الآيات و لا يحكمون العقول حتى يعرفوا الله و يميزوا الحق من الباطل فهم لا يعقلون حق التعقل.

قوله تعالى: «وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ   الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ » اللهو ما يلهيك و يشغلك عما يهمک فالحياة الدنيا من اللهو لأنها تلهى الإنسان و تشغله بزينتها المزوقة الفانية عن الحياة الخالدة الباقية.

و اللعب فعل أو أفعال منتظمة انتظاما خياليا لغاية خيالية كملاعب الصبيان و الحياة الدنيا لعب لأنها فانية سريعة البطلان كلعب الصبيان يجتمعون عليه و يتولعون به ساعة ثم يتفرقون و سرعان ما يتفرقون.

على أن عامة المقاصد التى يتنافس فيها المتنافسون و يتكالب عليه الظالمون أمور وهمية سرابية كالأموال و الأزواج و البنين و أنواع التقدم و التصدر و الرئاسة و المولوية و الخدم و الأنصار و غيرها فالإنسان لا يملك شيئا منها إلا فى ظرف الوهم و الخيال.

و أما الحياة الآخرة التى يعيش فيها الإنسان بكماله الواقعى الذى اكتسبه بإيمانه و عمله الصالح فهى المهمة التى لا لهو فى الاشتغال بها و الجد الذى لا لعب فيها و لا لغو و لا تأثيم، و البقاء الذى لا فناء معه، و اللذة التى لا ألم، عندها و السعادة التى لا شقاء دونها، فهى الحياة بحقيقة معنى الكلمة.

ص: 150

و هذا معنى قوله سبحانه: «وَ ما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ».

و فى الآية- كما ترى- قصر الحياة الدنيا فى اللهو و اللعب و الإشارة إليها بهذه المفيدة للتحقير و قصر الحياة الآخرة فى الحيوان و هو الحياة و تأكيده بأدوات التأكيد كان و اللام و ضمير الفصل و الجملة الاسمية.

و قوله: «لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ» أى لو كانوا يعلمون لعلموا أن الأمر كما وصفنا.

قوله تعالى: «فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ» تفريع على ما تحصل من الآيات السابقة من شأنهم و هو أنهم يؤفكون و أن كثيرا منهم لا يعقلون أى لما كانوا يؤفكون و يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره و أكثرهم لا يعقلون و يناقضون أنفسهم بالاعتراف و الجحد فَإِذا رَكِبُوا «إلخ».

و الركوب الاستعلاء بالجلوس على الشى ء المتحرك و هو متعد بنفسه و تعديته فى الآية بفى لتضمنه معنى الاستقرار أو ما يشبهه، و المعنى: فإذا ركبوا مستقرين فى الفلك أو استقروا فى الفلك راكبين، و معنى الآية ظاهر و هى تحكى عنهم تناقضا آخر و كفرانا للنعمة.

قوله تعالى: «لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ وَ لِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُ ونَ» اللام فى «لِيَكْفُرُوا» و «لِيَتَمَتَّعُوا» لام الأمر و أمر الآمر بما لا يرتضيه تهديد و إنذار كقولک لمن تهدده: «افعل ما شئت»، قال تعالى: «اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ »: حم السجدة: ۴۰.

و احتمل كون اللام للغاية، و المعنى : أنهم يأتون بهذه الأعمال لتنتهى بهم إلى كفران النعمة التى آتيناهم و إلى التمتع، و أول الوجهين أوفق لقوله فى ذيل الآية:

«فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ»، و يؤيده قوله فى موضع آخر : «لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ »،: الروم: ۳۴ و لذا قرأه من قرأ «وَ لِيَتَمَتَّعُوا» بسكون اللام إذ لا يسكن غير لام الأمر.

قوله تعالى: «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً وَ يُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » الحرم الأمن هو مكة و ما حولها و قد جعله الله مأمنا بدعاء إبراهيم (ع) و التخطف

ص: 151

كالخطف استلاب الشىء بسرعة و اختلاسه و قد كانت العرب يومئذ تعيش فى التغاور و التناهب و لا يزالون يغير بعضهم على بعض بالقتل و السبى و النهب لكنهم يحترمون الحرم و لا يتعرضون لمن أقام بها فيها.

و المعنى: أ و لم ينظروا أنا جعلنا حرما آمنا لا يتعرض لمن فيه بقتل أو سبى أو نهب و الحال أن الناس يختلسون من حولهم خارج الحرم.

و قوله: «أَ فَبِالْباطِلِ يُؤْمِنُونَ وَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ » توبيخ آخر لهم حيث يقابلون هذه النعمة و هى نعمة عظيمة بالكفران لكنهم يؤمنون بالأصنام و هى باطلة ليس لها إلا الاسم.

قوله تعالى: «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُ أَ لَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكافِرِينَ » تهديد لهم بالنار بتوسيمهم بأشد الظلم و أعظمه و هو افتراء الكذب على الله بالقول بالآلهة و أن الله اتخ ذهم شركاء لنفسه، و تكذيب الإنسان بالحق لما جاءه و الوصفان جميعا موجودان فيهم فقد عبدوا الأصنام و كذبوا بالقرآن لما جاءهم فهم كافرون و مثوى الكافرين و محل إقامتهم فى الآخرة جهنم.

قوله تعالى: «وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ» الجهد الوسع و الطاقة و المجاهدة استفراغ الوسع فى مدافعة العدو و الجهاد ثلاثة أضرب:

مجاهدة العدو الظاهر، و مجاهدة الشيطان، و مجاهدة النفس كذا ذكره الراغب.

و قوله: «جاهَدُوا فِينا» أى استقر جهادهم فينا و هو استعارة كنائية عن كو ن جهده مبذولا فيما يتعلق به تعالى من اعتقاد عمل، فلا ينصرف عن الإيمان به و الائتمار بأوامره و الانتهاء عن نواهيه بصارف يصرفه.

و قوله: «لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا» أثبت لنفسه سبلا و هی أیا ما کانت تنتهی إلیه تعالی فإنما السبیل سبیل لتأدیته إلی ذی السبیل و ه و غایتها فسبله هی الطرق المقربهٔ منه و الهادیهٔ إلیه تعالی، و إذ کانت نفس المجاهدهٔ من الهدایهٔ کانت الهدایهٔ إلی السبل هدایهٔ علی هدایهٔ فتنطبق علی مثل قوله تعالی: «وَ الَّذِینَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدیً»: محمد: ۱۷.

و مما تقدم یظهر أن لا حاجهٔ فی قوله: «فِینا» إلی تقدیر مضاف کشأن و التقدیر فی شأننا.

ص: 152

و قوله: «وَ إِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِینَ » قیل أی معیهٔ النصرهٔ و المعونهٔ و تقدم الجهاد المحتاج إلیهما قرینهٔ قویهٔ علی إرادهٔ ذلک . انتهی. و هو وجه حسن و أحسن منه أن یفسر بمعیهٔ الرحمهٔ و العنایهٔ فیشمل معیهٔ النصرهٔ و المعونهٔ و غیرهما من أقسام العنایات التی له سبحانه بالمحسنین من عباده لکمال عنایته بهم و شمول رحمته لهم، و هذه المعیهٔ أخص من معیهٔ الوجود الذی ینبئ عنه قوله تعالی: «وَ هُوَ مَعَکُمْ أَیْنَ ما کُنْتُمْ»: الحدید: ۴.

و قد تقدمت الإشارهٔ إلی أن الآیهٔ خاتمهٔ للسورهٔ منعطفهٔ علی فاتحتها .

(بحث روائی)

فی الدر المنثور، أخرج ابن أبی الدنیا و البیهقی فی شعب الإیمان عن أبی جعفر قال : قال رسول الله ص : یا عجبا کل العجب للمصدق بدار الحیوان- و هو یسعی لدار الغرور.

و فیه، أخرج جویبر عن الضحاک عن ابن عباس أنهم قالوا : یا محمد ما یمنعنا أن ندخل فی دینک- إلا مخافهٔ أن یتخطفنا الناس لقلتنا و العرب أکثر منا- فمتی بلغهم أنا قد دخلنا فی دینک اختطفنا- فکنا أکلهٔ رأس فأنزل الله : «أَ وَ لَمْ یَرَوْا أَنّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً» الآیهٔ.

و فی تفسیر القمی،: فی قوله تعالی: «وَ الَّذِینَ جاهَدُوا فِینا- لَنَهْدِیَنَّهُمْ سُبُلَنا وَ إِنَّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِینَ»:

فی روایهٔ أبی الجارود عن أبی جعفر (ع) قال: هذه الآیهٔ لآل محمد (ع) و لأشیاعهم.

ص: 153

(۳۰) (سورهٔ الروم مکیهٔ، و هی ستون آیهٔ) (۶۰)

[سورهٔ الروم (۳۰): الآیات ۱ الی ۱۹]

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِی أَدْنَی الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَیَغْلِبُونَ (٣) فِی بِضْعِ سِنِینَ لِلّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ یَوْمَئِذٍ یَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (۴)

بِنَصْرِ اللّٰهِ یَنْصُرُ مَنْ یَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِیزُ الرَّحِیمُ (۵) وَعْدَ اللّٰهِ لا یُخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَ لٰکِنَّ أَکْثَرَ النّاسِ لا یَعْلَمُونَ (۶) یَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ (٧) أَ وَ لَمْ یَتَفَکَّرُوا فِی أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللّٰهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما إِلاّٰ بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّی وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ النّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَکافِرُونَ (٨) أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَیَنْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلِهِمْ کانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ أَثارُوا الْأَرْضَ وَ عَمَرُوها أَکْثَرَ مِمّا عَمَرُوها وَ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّناتِ فَما کانَ اللّٰهُ لِیَظْلِمَهُمْ وَ لٰکِنْ کانُوا أَنْفُسَهُمْ یَظْلِمُونَ (٩)

ثُمَّ کانَ عاقِبَةَ الَّذِینَ أَساؤُا السُّوایٰ أَنْ کَذَّبُوا بِآیاتِ اللّٰهِ وَ کانُوا بِها یَسْتَهْزِؤُنَ (١٠) اللّٰهُ یَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ ثُمَّ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَ یَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ یُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَ لَمْ یَکُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَکائِهِمْ شُفَعاءُ وَ کانُوا بِشُرَکائِهِمْ کافِرِینَ (١٣) وَ یَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ یَوْمَئِذٍ یَتَفَرَّقُونَ (١۴)

فَأَمَّا الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصّالِحاتِ فَهُمْ فِی رَوْضَةٍ یُحْبَرُونَ (١۵) وَ أَمَّا الَّذِینَ کَفَرُوا وَ کَذَّبُوا بِآیاتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ فَأُولٰئِکَ فِی الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (١۶) فَسُبْحانَ اللّٰهِ حِینَ تُمْسُونَ وَ حِینَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَ لَهُ الْحَمْدُ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِیًّا وَ حِینَ تُظْهِرُونَ (١٨) یُخْرِجُ الْحَیَّ مِنَ الْمَیِّتِ وَ یُخْرِجُ الْمَیِّتَ مِنَ الْحَیِّ وَ یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ کَذٰلِکَ تُخْرَجُونَ (١٩)

ص: 154

(بیان)

تفتتح السورة بوعد من الله و هو أن الروم ستغلب الفرس فی بضع سنین بعد انهزامهم أیام نزول السورة عن الفرس ثم تنتقل منه إلی ذکر میعاد أکبر و هو الوعد بیوم یرجع الکل فیه إلی الله و تقیم الحجة علی المعاد ثم تنعطف إلی ذکر آیات الربوبیة و تصف صفاته تعالی الخاصة به ثم تختتم السورة بوعد النصر للنبی ص و تؤکد القول فیه إذ تقول : «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ لا یَسْتَخِفَّنَّکَ الَّذِینَ لا یُوقِنُونَ» و قد قیل قبیل ذلک: «وَ کانَ حَقًّا عَلَیْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ».

فغرض السورة هو الوعد القطعی منه تعالی بنصرة دینه و قد قدم علیه نصر الروم علی الفرس فی بضع سنین من حین النزول لیستدل بإنجاز هذا الوعد علی إنجاز ذلک الوعد، و کذا یحتج به و من طریق العقل علی أنه سینجز وعده بیوم القیامة لا ریب فیه.

ص: 155

قوله تعالی: «غُلِبَتِ الرُّومُ فِی أَدْنَی الْأَرْضِ » الروم جیل من الناس علی ساحل البحر الأبیض بالمغرب کانت لهم إمبراطوریة وسیعة منبسطة إلی الشامات وقعت بینهم و بین الفرس حرب عوان فی بعض نواحی الشام قریبا من الحجاز فغلبت الفرس و انهزمت الروم، و الظاهر أن المراد بالأرض أرض الحجاز و اللام للعهد.

قوله تعالى: «وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ » ضمير الجمع الأول للروم و كذا الثالث و أما الثانى فقد قيل إنه للفرس و المعنى: و الروم من بعد غلبة الفرس سيغلبون، و يمكن أن يكون الغلب من المصدر المبنى للمفعول و الضمير للروم كالضميرين قبلها و بعدها فلا تختلف الضمائر و المعنى : و الروم من بعد مغلوبيتهم سيغلبون . و البضع من العدد من ثلاثة إلى تسعة.

قوله تعالى: «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ » قبل و بعد مبنيان على الضم فهناک مضاف إليه مقدر و التقدير لله الأمر من قبل أن غلبت الروم و من بعد أن غلبت يأمر بما يشاء فينصر من يشاء و يخذل من يشاء.

و قيل: المعنى لله الأمر من قبل كونهم غالبين و هو وقت كونهم مغلوبين و من بعد كونهم مغلوبين و هو وقت كونهم غالبين أى وقت كونهم مغلوبين و وقت كونهم غالبين و المعنى الأول أرجح إن لم يكن راجحا متعينا.

قوله تعالى: «وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » الظرف متعلق بيفرح و كذا قوله «يَنْصُرُ» و المعنى: و يوم إذ يغلب الروم يفرح المؤمنون بنصر الله الروم، ثم استأنف و قال : «يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ» تقريرا لقوله: «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ».

و قوله: «وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» أى عزيز يعز بنصره من يشاء رحيم يخص برحمته من يشاء.

و فى الآية وجوه أخر ضعيفة ذكروها:

منها: أن قوله «وَ يَوْمَئِذٍ» عطف على قوله : «مِنْ قَبْلُ» و المراد به شمول سلطنته تعالى لجميع الأزمنة الثلاثة : الماضى و المستقبل و الحال كأنه قيل: لله الأمر من قبل و من بعد و يومئذ ثم ابتداء و قيل: يفرح المؤمنون بنصر الله. و فيه أنه يبطل

ص: 156

انسجام الآية و ينقطع به آخرها عن أولها.

و منها: أن قوله: «بِنَصْرِ» متعلق بقوله: «الْمُؤْمِنُونَ» دون «يَفْرَحُ» و يدل بالملازمة المقامية أن غلبة الروم بنصر من الله.

و فيه أن لازمه أن يفرح المؤمنون يوم غلبة الفرس و يوم غلبة الروم جميعا فإن فى الغلبة نصرا و كل نصر من الله قال تعالى : «وَ مَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ»: آل عمران: ١٢٦ فقصر فرح المؤمنين بالنصر بيوم غلبة الروم ترجيح بلا مرجح فافهمه.

و منها: أن المراد بنصر الله نصر المؤمنين على المشركين يوم بدر دون نصر الروم على الفرس و إن توافق النصران زمانا فكأنه قيل: إن الروم سيغلبون فى بضع سنين و يوم يغلبون يغلب المؤمنون المشركين فيفرحون بنصر الله إياهم.

و فيه أن هذا المعنى لا يلائم قوله بعد: «يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ».

و منها: أن المراد بالنصر نصر المؤمنين بصدق إخبارهم بغلبة الروم، و قيل : النصر هو استيلاء بعض الكفار على بعض و تفرق كلمتهم و انكسار شوكتهم. و هذان و ما يشبههما وجوه لا يعبأ بها.

قوله تعالى: «وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ » «وَعْدَ اللَّهِ» مفعول مطلق محذوف العامل و التقدير وعد الله وعدا و إخلاف الوعد خلاف إنجازه و قوله : «وَعْدَ اللَّهِ» تأكيد و تقرير للوعد السابق فى قوله : «سَيَغْلِبُونَ» و «يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ» كما أن قوله: «لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ» تأكيد و تقرير لقوله: «وَعْدَ اللَّهِ».

و قوله: «لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ» كقوله: «إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ»: الرعد: ٣١ و خلف الوعد و إن لم يكن قبيحا بالذات لأنه ربما يحسن عند الاضطرار لكنه سبحانه لا يضطره ضرورة فلا يحسن منه خلف الوعد فى حال.

على أن خلف الوعد يلازم النقص دائما و يستحيل النقص عليه تعالى.

على أنه تعالى أخبر فى كلامه بأنه لا يخلف الميعاد و هو أصدق الصادقين و هو القائل عز من قائل : «وَ الْحَقَّ أَقُولُ»- ص: ٨۴.

و قوله: «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ » أى هم جهلاء بشئونه تعالى لا يثقون بوعده و يقيسونه إلى أمثالهم ممن يصدق و يكذب و ينجز و يخلف.

ص: 157

قوله تعالى: «يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ» جملة «يَعْلَمُونَ» على ما ذكره فى الكشاف، بدل من قوله: «لا يَعْلَمُونَ» و فى هذا الإبدال من النكتة أنه أبدله منه و جعله بحيث يقوم مقامه و يسد مسده ليعلمك أنه لا فرق بين عدم العلم الذى هو الجهل و بين وجود العلم الذى لا يتجاوز الدنيا انتهى.

و قيل: الجملة استئنائية لبيان موجب جهلهم بأن وعد الله حق و أن لله الأمر من قبل و من بعد و أنه ينصر المؤمنين على الكافرين. انتهى و هذا أظهر.

و تنكير «ظاهِراً» للتحقير و ظاهر الحياة الدنيا ما يقابل بـاطنها و هو الذى يناله حواسهم الظاهرة من زينة الحياة فيرشدهم إلى اقتنائها و العكوف عليها و الإخلاد إليها و نسيان ما وراءها من الحياة الآخرة و المعارف المتعلقة بها و الغفلة عما فيه خيرهم و نفعهم بحقيقة معنى الكلمة.

و قيل: الظهور فى الآية بمعنى الزوال و استشهد بقوله:

و عيرها الواشون أنى أحبها   و تلك شكاة ظاهر عنك عارها

و المعنى: يعلمون أمرا زائلا لا بقاء له لكنه معنى شاذ الاستعمال.

قوله تعالى: «أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى » إلخ المراد من خلق السماوات و الأرض و ما بينهما- و ذلک جملة العالم المشهود- بالحق أنها لم تخلق عبثا لا غاية لها وراءها بأن يوجد و يعدم ثم يوجد ثم يعدم من غير غرض و غاية فهو تعالى إنما خلقها لغاية تترتب عليها.

ثم إن العالم بأجزائها ليس بدائم الوجود غير منقطع الآخر حتى يحتمل كون كل جزء لاحق غاية للجزء السابق و كل آت خلفا لماضيه بل هو بأجزائه فان بائد فهناک غاية مقصودة من خلق العالم ستظهر بعد فناء العالم و هذا المعنى هو المراد بتقييد قوله:

«ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما» بقوله: «وَ أَجَلٍ مُسَمًّى» بعد تقييده بقوله: «إِلَّا بِالْحَقِ».

فقوله: «أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ» الاستفهام للتعجيب، و كونهم في أنفسهم استعارة كنائية عن فراغ البال و حضور الذهن كأنهم عند اشتغالهم بأمور الدنيا و سعيهم للمعيشة و تشوش البال يغيبون عن أنفسهم فيكونون عند حضور الذهن حاضرين مستقرين

ص: 158

في أنفسهم فيكون تفكرهم حينئذ مجتمعا غير متفرق فيهديهم إلى الحق و يرشدهم إلى الواقع .

و قيل: المراد بتفكرهم في أنفسهم أن يتفكروا في خلق أنفسهم و أن الواحد م نهم محدث و المحدث- بالفتح- يحتاج إلى محدث- بالكسر- قديم حي قادر عليم حكيم فلا يخلق ما يخلق عبثا بل لغاية مطلوبة و ليست تعود إليه نفسه لغناء المطلق بل إلى الخلق و هو الثواب و لا يكون إلا لصالح العمل فلا بد من دين مشرع يميز العمل الصالح من السيئ فلا بد من دا ر يمتحنون فيها و هي الدنيا و دار يثابون فيها و هي الآخرة.

و فيه أن الجملة أعني قوله : «أَ وَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ» صالح في نفسه لأن يراد منها هذا المعنى لكن اتصال قوله : «ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ» إلخ، بها يأباه لاستلزامه بطلان الاتصال لعدم الارتباط بين صدر الآية و ذيلها على هذا التقدير.

و قوله: «ما خَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلَّا بِالْحَقِّ وَ أَجَلٍ مُسَمًّى» هو الفكر الذي يجب عليهم أن يمعنوا فيه النظر في أنفسهم و تقريره على ما تقدم أن الله سبحانه ما خلق هذا العالم كلا و لا بعضا إلا خلقا ملابسا للحق أو مصاحبا للحق أي لغاية حقيقية لا عبثا لا غاية له و لا إلى أجل معين فلا يبقى شي ء منها إلى ما لا نهاية له بل يفنى و ينقطع و إذا كان كل من أجزائه و المجموع مخلوقا ذا غاية تترتب عليها و ليس شي ء منها دائم الو جود كانت غايته مترتبة عليه بعد انقطاع وجوده و فنائه، و هذا هو الآخرة التي ستظهر بعد انقضاء الدنيا و فنائها.

و قوله: «وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ لَكافِرُونَ» مسوق سوق التعجيب كما بدأت الآية باستفهام التعجيب، و المراد بلقاء الله هو الرجوع إليه فى المعاد، و قد عبر عنه باللقاء ليزداد كفرهم به عجبا فكيف يمكن أن يبتدءوا منه ثم لا ينتهوا إليه، و لذلك أكده بإن إشارة إلى أن الكفر بالمعاد من شأنه فى نفسه أن لا يصدق به.

قوله تعالى: «أَ وَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» إلى آخر الآية، لما ذكر كفر كثير من الناس بالمعاد و ذلك أمر يلغو معه الدين الحق ذكرهم حال الأمم الكافرة و ما انتهت إليه من سوء العذاب لعلهم يعتبرون بها فيرجعوا عما هم عليه من الكفر. و إثارة الأرض قلبها ظهر البطن للحرث و التعمير و نحو ذلك.

ص: 159

و قوله: «وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» أى بالكفر و المعاصى.

قوله تعالى: «ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذِينَ أَساؤُا السُّوأى أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ وَ كانُوا بِها يَسْتَهْزِؤُنَ» بيان لما انتهى إليه أمر أولئك الظالمين و لذا عبر بثم، و «عاقِبَةَ» بالنصب خبر كان و اسمه «السُّوأى» قدم الخبر عليه لإفادة الحصر و «أَساؤُا» مقطوع عن المتعلق بمعنى عملوا السوء، و السوآى الخلة التى يسوء صاحبها و المراد بها سوء العذاب و «أَنْ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ» بحذف لام التعليل و التقدير لتكذيبهم بآيات الله و استهزائهم بها.

و المعنى: ثم كان سوء العذاب هو الذى انتهى إليه أمر أولئك الذين عملوا السوء لم تكن لهم عاقبة غيرها لتكذيبهم بآيات الله و استهزائهم بها.

و قيل: إن «السُّوأى» مفعول لقوله: «أَساؤُا» و خبر كان هو قوله: «أَنْ كَذَّبُوا» إلخ، و المراد أن المعاصى ساقتهم إلى الكفر بتكذيب آيات الله و الاستهزاء بها.

و فيه: أنه فى نفسه معنى صحيح لكن المناسب للمقام هو المعنى الأول لأن المقام مقام الاعتبار و الإنذار و المناسب له بيان انتهاء معاصيهم إلى سوء العذاب لا انتهاء معاصيهم المتفرقة إلى التكذيب و الاستهزاء الذى هو أعظمها.

قوله تعالى: «اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» بعد ما ذكر الحجة و تكذيب كثير من الناس لخص القول فى نتيجتها و هو أن البدء و العود بيده سبحانه و سيرجع إليه الجميع، و المراد بالخلق المخلوقون، و لذا أرجع إليه ضمير الجمع فى ترجعون.

قوله تعالى: «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ» ذكر حال المجرمين بعد قيام الساعة و هى ساعة الرجوع إليه تعالى للحساب و الجزاء، و الإبلاس اليأس من الله و فيه كل الشقاء.

قوله تعالى: «وَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَ كانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ» يريد أنهم على يأسهم من الرحمة من ناحية أعمالهم أنفسهم آيسون من آلهتهم الذين اتخذوهم شركاء لله فعبدوهم ليشفعوا لهم عند الله كما كانوا يقولون فى الدنيا: هؤلاء شفعاؤنا عند الله و كانوا بعبادة شركائهم كافرين ساترين.

قوله تعالى: «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ- إلى قوله- مُحْضَرُونَ» قال

ص: 160

فی المجمع: الروضة البستان المتناهی منظرا و طيبا . انتهی. و قال فی المفردات : الحبر الأثر المستحسن- إلی أن قال- و قوله عز و جل: «فِی رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ» أی يفرحون حتی يظهر عليهم حبار نعيمهم. انتهی.

و المراد بتفرق الخلق يومئذ تميز المؤمنين الصالحين من المجرمين و دخول هؤلاء النار و دخول أولئک الجنة علی ما يشير إليه الآيتان التاليتان.

و لزوم هذا التميز و التفرق فی الوجود هو الذی أخذه الله سبحانه حجة علی ثبوت المعاد حيث قال : «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَ مَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ: الجاثية: ٢١.

قوله تعالى: «فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَ حِينَ تُصْبِحُونَ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ» لما ذكر أنه يبدأ الخلق ثم يعيدهم و يرجعهم للقائه فيفرقهم طائفتين : أهل الجنة و النعمة و أهل ا لنار و العذاب، أما أهل الجنة فهم المؤمنون العاملون للصالحات و أما أهل النار فهم الكفار المكذبون لآيات الله و قد ذكر أنهم كانوا فی الدنيا أهل قوة و نعمة لكنهم نسوا الآخرة و كذبوا بآيات الله و استهزءوا بها حتی انتهی بهم الأمر إلی سوء العذاب عذاب الاستئصال جز اء لظلمهم أنفسهم و ما ظلمهم الله و لكن كانوا أنفسهم يظلمون.

فتحصل من ذلک أن فی دار الخلقة تدبيرا إلهيا متقنا صالحا جميلا علی أجمل ما يكون و أن للإنسان علی توالی الأزمنة و الدهور آثاما و خطيئات من العقيدة السيئة فی حق ربه و اتخاذ شركاء له و إنكار لقائه إلی سائر المعاصی.

ذيل الكلام بتسبيحه كلما تجدد حين بعد حين و تحميده علی صنعه و تدبيره فی السماوات و الأرض و هو مجموع العالم المشهود فهو سبحانه منزه عن هذه الاعتقادات الباطلة و الأعمال الردية و محمود فی جميع ما خلقه و دبره فی السماوات و الأرض.

و من هناک يظهر:

أولا: أن التسبيح و التحميد فی الآيتين إنشاء تنزيه و ثناء منه تعالی لا من غيره حتی يكون المعنی : قولوا سبحان الله و قولوا الحمد لله فقد تكرر فی كلامه تعالی تسبيحه و تحميده لنفسه كقوله: «سُبْحانَ رَبِّکَ رَبِّ الْعِزَّةِ»: الصافات: ١٨٠ و قوله:

«تَبارَکَ الَّذِی نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلی عَبْدِهِ»: الفرقان: ١.

ص: 161

و ثانيا: أن المراد بالتسبيح و التحميد معناهما المطلق دون الصلوات اليومية المفروضة كما يقول به أكثر القائلين بكون القول مقدرا. و المعنى: قولوا سبحان الله و قولوا الحمد لله.

و ثالثا: أن قوله: «وَ لَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» معترضة واقعة بين المعطوف و المعطوف عليه، و قوله : «وَ عَشِيًّا وَ حِينَ تُظْهِرُونَ» معطوفان على محل «حِينَ تُمْسُونَ» لا على قوله: «فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» حتى يختص المساء و الصباح بالتسبيح و السماوات و الأرض و العشى و الظهيرة بالتحميد بل الأوقات و ما فيها للتسبيح و الأمكنة و ما فيها للتحميد.

فالسياق يشير إلى أن ما فى السماوات و الأرض من خلق و أمر هو لله يستدعى بحسنه حمدا و ثناء لله سبحانه و أن للإنسان على مر الدهور و تغير الأزمنة و الأوقات من الشرك و المعصية ما يتنزه عنه ساحة قدسه تعالى و تقدس.

نعم هاهنا اعتبار آخر يتداخل فيه التحميد و التسبيح و هو أن الأزمنة و الأوقات على تغيرها و تصرمها من جملة ما فى السماوات و الأرض فهى بوجودها يثنى على الله تعالى، ثم كل ما فى السماوات و الأرض بفقرها إليه تعالى و ذلتها دونه و نقصها بالنسبة إلى كماله تعالى تسبحه كما قال: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ»،: إسراء: ۴۴ لكن هذا الاعتبار غير منظور إليه فى الآيتين اللتين نحن فيهما.

و للمفسرين فى الآيتين أقوال أخر متفرقة أشرنا إلى المهم منها فى الوجوه التى قدمناها.

و تغيير السياق فى قوله: «وَ عَشِيًّا» لكون العشى لم يبن منه فعل من باب الإفعال بخلاف المساء و الصباح و الظهيرة حيث بنى منها الإمساء و الإصباح و الإظهار بمعنى الدخول فى المساء و الصباح و الظهيرة كذا قيل.

و الخطاب الذى فى الآيتين فى قوله : «تُمْسُونَ و تُصْبِحُونَ و تُظْهِرُونَ» ليس من الالتفات فى شى ء بل تعميم للخطاب الذى للنبى ص منذ شرعت السورة، و المعنى:

فإذا كان الأمر على هذه السبيل فالله منزه حينما دخلتم أنتم معاشر البشر فى مساء و حينما دخلتم فى صباح و فى العشى و حينما دخلتم فى ظهيرة و له الثناء الجميل فى السماوات و الأرض.

و نظير هذا التعميم ما فى قوله سابقا: «ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» و لاحقا فى قوله:

«وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ».

قوله تعالى: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ» ظاهر إخراج الحى من الميت و بالعكس خلق ذوى الحياة من الأرض الميتة ثم تبديل ذوى الحياة أرضا ميتة، و قد فسر بخلق المؤمن من الكافر و

خلق الكافر من المؤمن فإنه يعد المؤمن حيا و الكافر ميتا، قال تعالى : «أَ وَ مَنْ كا نَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناهُ وَ جَعَلْنا لَهُ نُوراً »: الأنعام: ۱۲۲.

و أما إحياء الأرض بعد موتها فهو انتعاش الأرض و ابتهاجها بالنبات فى الربيع و الصيف بعد خمودها فى الخريف و الشتاء، و قوله: «وَ كَذلِكَ تُخْرَجُونَ» أى تبعثون و تخرجون من قبوركم بإحياء جديد كإ حياء الأرض بعد موتها، و قد تقدم تفسير نظير صدر الآية و ذيلها مرارا.

(بحث روائى)

فى الدر المنثور، أخرج أحمد و الترمذى و حسنه و النسائى و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الطبرانى فى الكبير و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى الدلائل و الضياء عن ابن عباس": فى قوله: «الم غُلِبَتِ الرُّومُ» قال: غلبت و غلبت.

قال: كان المشركون يحبون أن يظهر فارس على الروم، لأنهم أصحاب أوثان، و كان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس- لأنهم أصحاب كتاب، فذكروه لأبى بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ص- فقال له رسول الله ص: أما إنهم سيغلبون فذكره أبو بكر لهم- فقالوا: اجعل بيننا و بينك أجلا- فإن ظهرنا كان لنا كذا و كذا و إن ظهرتم كان لكم كذا و كذا- فجعل لهم خمس سنين فلم يظهروا- فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ص- فقال: أ لا جعلته- أراه- قال: دون العشر، فظهرت الروم بعد ذلك- فذلك قوله: الم غُلِبَتِ الرُّومُ فغلبت ثم غلبت بعد.

ص: 163

يقول الله: «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ- وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ» قال سفيان: سمعت أنهم قد ظهروا يوم بدر.

أقول: و فى هذا المعنى روايات أخر مختلفة المضامين فى الجملة ففى بعضها أن المقامرة كانت بين أبى بكر و أبى بن خلف و فى بعضها أنها كانت بين المسلمين و المشركين و كان أبو بكر من قبل المسلمين و أبى من قبل المشركين، و فى بعضها أنها كانت بين الطائفتين، و فى بعضها بين أبى بكر و بين المشركين كما فى هذه الرواية.

ثم الأجل المضروب فى بعضها ثلاث سنين، و فى بعضها خمس، و فى بعضها ست، و فى بعضها سبع سنين.

و فى بعضها أن الأجل المضروب أولا انقضى بمكة و هو سبع سنين فمادهم أبو بكر سنتين بأمر من النبى ص فغلبت الروم، و فى بعضها خلافه.

ثم فى بعضها أن الأجل الثانى انقضى بمكة و فى ب عضها أنه انقضى بعد الهجرة و كانت غلبة الروم يوم بدر، و فى بعضها يوم الحديبية.

و فی بعضها أن أبا بکر لما قمرهم بغلبة الروم أخذ منهم الخطر و هو مائة قلوص و جاء به إلی النبی ص فقال : إنه سحت تصدق به.

و الذی تتفق فیه الروایات أنه قامرهم فقمرهم و کان القمار بإشا رة من النبی ص و وجه ذلک بأنه کان قبل تحریم القمار فإنه حرم مع الخمر فی سورة المائدة و قد نزلت فی آخر عهد النبی ص.

و قد تحقق بما قدمناه فی تفسیر آیة الخمر و المیسر أن الخمر کانت محرمة من أول البعثة و کان من المعروف من الدین أنه یحرم الخمر و الزنا.

علی أن الخمر و المیسر من الإثم بنص آیة البقرة : «یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَیْسِرِ قُلْ فِیهِما إِثْمٌ کَبِیرٌ ». الآیة: البقرة: ٢١٩ و الإثم محرم بنص آیة الأعراف : «قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّیَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَ ما بَطَنَ وَ الْإِثْمَ وَ الْبَغْ یَ»، الآیة: الأعراف: ٣٣ و الأعراف من العتائق النازلة بمکة فمن الممتنع أن یشیر النبی ص بالمقامرة.

و علی تقدیر تأخر الحرمة إلی آخر عهد النبی ص یشکل قوله (ص) لأبی بکر لما أتی بالخطر إلیه أنه سحت ثم قوله : تصدق به. فلا سبیل إلی تصحیح شیء من ذلک

ص: 164

بالموازین الفقهیة و قد تکلفوا فی توجیه ذلک بما لا یزید إلا إشکالا.

ثم إن ما فی الروایة أن الفرس کانوا عبدة الأوثان لا یوافق ما کان علیه القوم فإنهم و إن کانوا مشرکین لکنهم کانوا لا یتخذون أوثانا.

و فی تفسیر القمی، ": فی قوله: «یَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَ یاةِ الدُّنْیا- وَ هُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غافِلُونَ » قال: یرون حاضر الدنیا و یتغافلون عن الآخرة.

و فی الخصال،: و سئل الصادق (ع) عن قول الله تعالی: «أَ وَ لَمْ یَسِیرُوا فِی الْأَرْضِ» فقال: أ و لم ینظروا فی القرآن.

و فی تفسیر القمی،": و قوله عز و جل: «وَ یَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ یَوْمَئِذٍ یَتَفَرَّقُونَ» قال:

إلی الجنة و النار.

[سورة الروم (٣٠): الآیات ٢٠ الی ٢٦]

وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ خَلَقَکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً لِتَسْکُنُوا إِلَیْها وَ جَعَلَ بَیْنَکُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَتَفَکَّرُونَ (٢١) وَ مِنْ آیاتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِکُمْ وَ

أَلْوانِكُمْ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیاتٍ لِلْعا لِمِینَ (۲۲) وَ مِنْ آیاتِهِ مَنامُکُمْ بِاللَّیْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُکُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَسْمَعُونَ (۲۳) وَ مِنْ آیاتِهِ یُرِیکُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ یُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَیُحْیِی بِهِ الْأَرْ ضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ (۲۴)

وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاکُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْ رُجُونَ (۲۵) وَ لَهُ مَنْ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ کُلٌّ لَهُ قانِتُونَ (۲۶)

ص: 165

(بیان)

یذکر فی هذا الفصل عدة من الآیات الدالة علی وحدانیته تعالی فی الربوبیة و الألوهیة، و یشار فیها إلی امتزاج الخلق و التدبیر و تداخلهما لیتضح بذلک أن الربوبیة بمعنی ملک التدبیر و الألوهیة بمعنی المعبودیة بالحق لا یستحقهما إلا الله الذی خلق الأشیاء و أوجدها، لا کما یزعم الوثنی أن الخلق لله وحده و التدبیر و العبادة لأرباب الأصنام لیکونوا شفعاء لهم عند الله، و لیس له سبحانه إلا أنه رب الأرباب و إله الآلهة.

قوله تعالی: «وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ خَلَقَکُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ » المراد بالخلق من تراب انتهاء خلقة الإنسان إلی الأرض فإن مراتب تکون الإنسان من مضغة أو علقة أو نطفة أو غیرها مرکبات أرضیة تنتهی إلی العناصر الأرضیة.

و قوله: «ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ» إذا فجائیة أی یفاجئکم أنکم أناسی تنتشرون فی الأرض أی یخلقکم من ترکیبات أرضیة المترقب منها کینونة أرضیة میتة أخری مثلها لکن یفاجئکم دفعة أنه یصیر بشرا ذوی حیاة و شعور عقلی ینتشرون فی الأرض فی سبیل تدمیر أمر الحیاة فقوله: «ثُمَّ إِذا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ» فی معنی قوله: «ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ»: المؤمنون: ۱۴.

فخلق الإنسان أی جمع أجزائه من الأرض و تألیفها آیة و کینونة هذا المجموع إنسانا ذا حیاة و شعور عقلی آیة أو آیات أخر تدل علی صانع حی علیم یدبر الأمر و یجری هذا النظام العجیب.

و قد ظهر بهذا المعنی أن «ثُمَ» للتراخی الرتبی و الجملة معطوفة علی قوله:

«خَلَقَکُمْ» لا علی قوله: «أَنْ خَلَقَکُمْ».

قوله تعالی: «وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَکُمْ مِنْ أَنْفُسِکُمْ أَزْواجاً لِتَسْکُنُوا إِلَیْها»

ص: 166

إلى آخر الآية، قال الراغب: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر و الأنثى من الحيوانات المتزاوجة: زوج و لكل قرينين فيها و فى غيرها: زوج، قال تعالى: «فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَ الْأُنْثى‌ » و قال: «وَ زَوْجُکَ الْجَنَّةَ» و زوجة لغة رديئة و جمعها زوجات- إلى أن قال- و جمع الزوج أزواج. انتهى.

فقوله: «أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها » أى خلق لأجلكم- أو لينفعكم- من جنسكم قرائن و ذلك أن كل واحد من الرجل و المرأة مجهز بجهاز التناسل تجهيزا يتم فعله بمقارنة الآخر و يتم بمجموعهما أمر التوالد و التناسل فكل واحد منهما ناقص فى نفسه مفتقر إلى الآخر و يحصل من المجموع واحد تام له أن يلد و ينسل، و لهذا النقص و الافتقار يتحرك الواحد منهما إلى الآخر حتى إذا اتصل به سكن إليه لأن كل ناقص مشتاق إلى كماله و كل مفتقر مائل إلى ما يزيل فقره و هذا هو الشبق المودع فى كل من هذين القرينين.

و قوله: «وَ جَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَ رَحْمَةً » المودة كأنها الحب الظاهر أثره فى مقام العمل فنسبة المودة إلى الحب كنسبة الخضوع الظاهر أثره فى مقام العمل إلى الخشوع الذى هو نوع تأثر نفسانى عن العظمة و الكبرياء.

و الرحمة نوع تأثر نفسانى عن مشاهدة حر مان المحروم عن الكمال و حاجته إلى رفع نقيصته يدعو الراحم إلى إنجائه من الحرمان و رفع نقصه.

و من أجل موارد المودة و الرحمة المجتمع المنزلى فإن الزوجين يتلازمان بالمودة و المحبة و هما معا و خاصة الزوجة يرحمان الصغار من الأولاد لما يريان ضعفهم و عجزهم عن القيام بواجب العمل لرفع الحوائج الحيوية فيقومان بواجب العمل فى حفظهم و حراستهم و تغذيتهم و كسوتهم و إيوائهم و تربيتهم و لو لا هذه الرحمة لانقطع النسل و لم يعش النوع قط.

و نظير هذه المودة و الرحمة مشهود فى المجتمع الكبير المدنى بين أفراد المجتمع فالواحد منهم يأ نس بغيره بالمودة و يرحم المساكين و العجزة و الضعفاء الذين لا يستطيعون القيام بواجبات الحياة.

و المراد بالمودة و الرحمة فى الآية الأوليان على ما يعطيه مناسبة السياق أو الأخيرتان على ما يعطيه إطلاق الآية.

و قوله: «لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» لأنهم إذا تفكروا فى الأصول التكوينية التى يبعث الإنسان إلى عقد المجتمع من الذكورة و الأنوثة الداعيتين إلى الاجتماع المنزلى و المودة و الرحمة الباعثتين على الاجتماع المدنى ثم ما يترتب على هذا الاجتماع من بقاء النوع و استكمال الإنسان فى حياتيه الدنيا و الأخرى عثروا من عجائب الآيات الإلهية فى تدبير أمر هذا النوع على ما يبهر به عقولهم و تدهش به أحلامهم.

قوله تعالى: «وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَ أَلْوانِكُمْ » إلى آخر الآية. الظاهر أن يكون المراد باختلاف الألسن اختلاف اللغات من العربية و الفارسية و الأردوية و غيرها و باختلاف الألوان اختلاف الأمم فى ألوانهم كالبياض و السواد و الصفرة و الحمرة.

و يمكن أن يستفاد اختلاف الألسنة من جهة النغم و الأصوات و نحو التكلم و النطق و باختلاف الألوان اختلاف كل فرد ين من أفراد الإنسان بحسب اللون لو دقق فيه النظر على ما يقول به علماء هذا الشأن.

فالباحثون عن العالم الكبير يعثرون فى نظام الخلقة على آيات دقيقة دالة على أن الصنع و الإيجاد مع النظام الجارى فيه لا يقوم إلا بالله و لا ينتهى إلا إليه.

قوله تعالى: «وَ مِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ وَ ابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ» إلى آخر الآية، الفضل الزيادة على مقدار الحاجة و يطلق على العطية لأن المعطى إنما يعطى ما فضل من مقدار حاجته، و المراد به فى الآية الكريمة الرزق فابتغاء الفضل طلب الرزق.

و فى خلق الإنسان ذا قوى فعالة تبعثه إلى طلب الرزق و رفع حوائج الحياة للبقاء بالحركة و السعى ثم هدايته إلى الاستراحة و السكون لرفع متاعب السعى و تجديد تجهيز القوى و تخصيص الليل و النهار المتعاقبين للسعى و السكون و التسبيب إلى وجود الليل و النهار بأوضاع سماوية قائمة بالأرض و الشمس لآيات نافعة لمن له سمع واع يعقل ما يسمع فإذا وجده حقا اتبعه.

قال فى الكشاف، فى الآية: هذا من باب اللف و ترتيبه: و من آياته منامكم و ابتغاؤكم من فضله بالليل و النهار إلا أنه فصل بين القرينين الأولين بالقرينين الآخرين لأنهما زمانان و الزمان و الواقع فيه كشىء واحد مع إعانة اللف على الاتحاد و يجوز أن

ص: 168

يراد منامكم فى الزمانين و ابتغاؤكم فيهما، و الظاهر هو الأول لتكرره فى القرآن و أسد المعانى ما دل عليه القرآن. انتهى.

و قد ظهر مما تقدم معنى تذييل الآية بقوله: «إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ».

قوله تعالى: «وَ مِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِ ها» الظاهر أن الفعل نزل منزلة المصدر و لذلک لم يصدر بأن المصدرية كما صدر به قوله : «أَنْ خَلَقَكُمْ» و قوله: «أَنْ خَلَقَ لَكُمْ» و تنزيل الفعل منزلة المصدر لغة عربية جيدة و عليه يحمل المثل السائر : «و تسمع بالمعيدى خير من أن تراه» و لا ضير فى حمل كلامه تعالى عليه فهو تعالى يأتى فى مفتتح هذه الآيات بفنون التعبير كقوله:

«مَنامُكُمْ» «يُرِيكُمُ» «أَنْ تَقُومَ».

و احتمل فى قوله: «يُرِيكُمُ» أن يكون بحذف أن المصدرية و التقدير أن يريكم البرق و أيد بقراءة النصب فى يريكم.

و احتمل أن يكون من حذف المضاف، و التقدير : و من آياته آية أن يريكم البرق، و احتمل أن يكون التقدير و من آياته آية البرق ثم استونف فقيل: يريكم البرق إلخ، و احتمل أن يكون «مِنْ آياتِهِ» متعلقا بقوله: «يُرِيكُمُ»، و التقدير:

و يريكم من آياته البرق، و احتمل أن يكون «مِنْ آياتِهِ» حالا من البرق، و التقدير:

و یریکم البرق حال کون البرق من آیاته.

و هذه وجوه متفرقة لا یخفی علیک بعدها علی أ ن بعضها یخرج الکلام فی الآیة عن موافقة السیاق فی الآیات السابقة النظیرة له کالوجهین الأخیرین.

و قوله: «خَوْفاً وَ طَمَعاً» أی خوفا من الصاعقة و طمعا فی المطر، و قوله:

«وَ یُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَیُحْیِی بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها» تقدم تفسیره کوارا، و قوله:

«إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یَعْقِلُونَ» أی إن أهل التعقل یفقهون أن هناک عنایة متعلقه بهذه المصالح فلیس مجرد اتفاق و صدفة.

قوله تعالی: «وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذا دَعاکُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ» القیام مقابل القعود و لما کان أعدل حالات الإنسان حیث یقوی به علی عامة أعماله أستعیر لثبوت الشیء و استقراره علی أعدل حالاته کما یستعار

لتدبیر الأمر، قال تعالی: «أَ فَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلی کُلِّ نَفْسٍ بِما کَسَبَتْ»: الرعد: ٣٣.

و المراد بقیام السماء و الأرض بأمر من الله ثبوتهما علی حالهما من حرکة و سکون و تغیر و ثبات بأمره تعالی و قد عرف أمره بقوله: «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ»: یس: ٨٢.

و قوله: «ثُمَّ إِذا دَعاکُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ» «إِذا» الأولی شرطیة و «إِذا» الثانیة فجائیة قائمة مقام فاء الجزاء و «مِنَ الْأَرْضِ» متعلق بقوله:

«دَعْوَةً» و الجملة معطوفة علی محل الجملة الأولی لأن المراد بالجملة أعنی قوله: «ثُمَّ إِذا دَعاکُمْ» إلخ البعث و الرجوع إلی الله و لیس فی عداد الآیات بل الجملة إخبار بأمر احتج علیه سابقا و سیحتج علیه لاحقا.

و أما قول القائل: إن الجملة علی تأویل المفرد و هی معطوفة علی «أَنْ تَقُومَ» و التقدیر و من آیاته قیام السماء و الأرض بأمره ثم خروجکم إذا دعاکم دعوة من الأرض.

فلازمه کون البعث معدودا من الآیات و لیس منها علی أن البعث أحد الأصول الثلاثة التی یحتج بالآیات علیه، و لا یحتج به علی التوحید مثلا بل لو احتج فبالتوحید علیه فافهم ذلک.

و لما کانت الآیات المذکورة من خلق البشر من تراب و خلقهم أزواجا و اختلاف ألسنتهم و ألوانهم و منامهم و ابتغائهم من فضله و إراءة البرق و تنزیل الماء من السماء کلها آیات راجعة إلی تدبیر أمر الإنسان کان المراد بقوله : «أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ» بمعونة السیاق ثبات السماء و الأرض علی و ضعهما الطبیعی و حالهما العادیة ملائمتین لحیاة النوع الإنسانی المرتبطة

بهما و كان قوله: «ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ» إلخ مترتبا على ذلک ترتب التأخير أى إن خروجهم من الأرض متأخر عن هذا القيام مقارن لخرابهما كما ينبئ به آيات كثيرة فى مواضع مختلفة من كلامه تعالى.

و يظهر بذلک أيضا أن المراد من قوله السابق «وَ مِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ » خلقهما من جهة ما يرتبطان بالحياة البشرية و ينفعانها.

و قد رتبت الآيات المذكورة آخذة من بدء خلق الإنسان و تكونه ثم تصنفه صنفين: الذكر و الأنثى ثم ارتباط وجوده بالسماء و الأرض و اختلاف ألسنتهم و ألوانهم

ثم السعى فى طلب الرزق و سكون المنام ثم إراءة البرق و تنزيل الأمطار حتى تنتهى إلى قيام السماء و الأرض إلى أجل مسمى ليتم لهذا النوم الإنسانى ما قدر له من أمد الحياة و يعقب ذلک البعث فهذا بعض ما فى ترتيب ذكر هذه الآيات من النكات.

و قد رتبت الفواصل أعنى قوله «يَتَفَكَّرُونَ» «لِلْعالِمِينَ» «يَسْمَعُونَ» «يَعْقِلُونَ» على هذا الترتيب لأن الإنسان يتفكر فيصير عالما ثم إذا سمع شيئا من الحقائق وعاه ثم عقله و الله أعلم.

قوله تعالى: «وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ» كانت الآيات المذكورة مسوقة لإثبات ربوبيته تعالى و ألوهيته كما تقدمت الإشارة إليه و لما انتهى الكلام إلى ذكر البعث و الرجوع إلى الله عقب ذلک بالبرهان على إمكانه و الحجة مأخوذة من الخلق و التدبير المذكورين فى الآيات السابقة.

فقوله: «وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ » إشارة إلى إحاطة ملكه الحقيقى لجميع من فى السماوات و الأرض و هم المحشورون إليه و ذلک لأن وجودهم من جميع الجهات قائم به تعالى قيام فقر و حاجة لا استقلال و لا استغناء لهم عنه بوجه من الوجوه و هذا هو الملک الحقيقى الذى أثره جواز تصرف المالک فى ملكه كيف شاء فله تعالى أن يتصرف فى مملوكيه بنقلهم من النشأة الدنيا إلى النشأة الآخرة.

و قد أكد ذلک بقوله: «كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ» و القنوت لزوم الطاعة مع الخضوع- على ما ذكره الراغب فى المفردات- ، و المراد بالطاعة مع الخضوع الطاعة التكوينية- على ما يعطيه السياق- دون التشريعية التى ربما تخلفت.

و ذلک أنهم الملائكة و الجن و الإنس فأما الملائكة فليس عندهم إلا خضوع الطاعة، و أما الجن و الإنس فهم مطيعون منقادون للعلل و الأسباب الكونية و كلما احتالوا فى إلغاء أثر علة من العلل أو سبب من الأسباب الكونية توسلوا إلى علة أخرى و سبب آخر كونى ثم علمهم و إرادتهم كاختيارهم جميعا من الأسباب الكونية فلا يكون إلا ما شاء الله أى الذى تمت علله فى الخارج و لا يتحقق مما شاءوا إلا ما أذن فيه و شاءه فهو المالک لهم و لما يملكونه.

ص: 171

[سورة الروم (۳۰): الآيات ۲۷ الى ۳۹]

وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۷) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۲۸) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ (۲۹) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۳۰) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (۳۱)

مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (۳۲) وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (۳۳) لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۳۴) أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (۳۵) وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ (۳۶)

أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (۳۷) فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۳۸) وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (۳۹)

ص: 172

(بيان)

لما انساق الاحتجاج على الوحدانية و المعاد من طريق عد الآيات الدالة على ذلك بقوله: «وَ مِنْ آياتِهِ» إلى قوله: «وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» الآية، و هو من صفات الفعل غير سياق الاحتجاج بالآيات إلى سياق الاحتجاج بصفاته الفعلية و أوردها إلى آخر السورة في أربعة فصول يورد في كل فصل شيئا من صفات الفعل المستوجبة للوحدانية و المعاد و هي قوله: «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» إلخ، و قوله: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ» إلخ، و قوله: «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ» إلخ، و قوله: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ» إلخ.

و إنما لم يبدأ الفصل الأول باسم الجلالة كما بدأ به في الفصول الأخر لسبق ذكره في الآية السابقة عليه المتصلة به أعني قوله: «وَ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قانِتُونَ» الذي هو كالبرزخ المتوسط بين السياقين، فقوله: «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ» فصل في صورة الوصل.

قوله تعالى: «وَ هُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» إلى آخر الآية، بدء الخلق إنشاؤه ابتداء من غير مثال سابق و الإعادة إنشاء بعد إنشاء.

و قوله: «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» الضمير الأول للإعادة المفهوم من قوله: «يُعِيدُهُ» و الضمير الثانى راجع إليه تعالى على ما يتبادر من السياق.

و قد استشكل قوله: «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» الدال ظاهرا على كون الإعادة أسهل و أهون عليه من البدء و هو ينافى كون قدرته مطلقة غير محدودة فإن القدرة

اللامتناهية لا تختلف حالها فى تعلقها بشىء دون شىء فتعلقها بالصعب و السهل على السواء فلا معنى لاسم التفضيل هاهنا.

و قد أجيب عنه بوجوه:

منها: أن ضمير «عَلَيْهِ» راجع إلى الخلق دونه تعالى و الإعادة أهون على الخلق لأنه مسبوق بالابتداء الذى يسهل الفعل على الفاعل بتحققه منه مرة أو أزيد بخلاف الابتداء الذى لا يسبقه فعل، فالابتد اء أصعب بالطبع بالنسبة إلى الإعادة و الإعادة بالعكس، فالمعنى: أن الإعادة أهون من البدء بالنسبة إلى الخلق و إذا كان كذلك بالنسبة إلى الخلق فما ظنك بالخالق.

و فيه أن رجوع الضمير إلى الخلق خلاف ظاهر الآية.

و منها: أن أفعل هاهنا منسلخ عن معنى التفضيل فأهون عليه بمعنى هين عليه نظير قوله: «ما عِنْدَ اللّٰهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ».

و فيه أنه تحكم ظاهر لا دليل عليه.

و منها: أن التفضيل إنما هو للإعادة فى نفسها بالقياس إلى الإنشاء الابتدائى لا بالنسبة إليه تعالى و وقوع التفضيل بين فعل منه و فعل لا بأس به كما فى قوله تعالى:

«لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّاسِ»: المؤمن: ۵۷.

و هذا هو الذى يستفاد من كلام الزمخشرى إذ يقول: فإن قلت: ما بال الإعادة استعظمت فى قوله: «ثُمَّ إِذا دَعاكُمْ» حتى كأنها فضلت على قيام السماوات و الأرض بأمره ثم هونت بعد ذلك؟ قلت: الإعادة فى نفسها عظيمة لكنها هونت بالقياس إلى الإنشاء. انتهى.

و فيه أن تقييد الوصف بقوله: «عَلَيْهِ» أصدق شاهد على أن القياس الواقع بين الإعادة و الإنشاء إنما هو بالنسبة إليه تعالى لا بين نفس الإعادة و الإنشاء فالإشكال على ما كان.

و منها: أن التفضيل إنما هو بالنظر إلى الأصول الدائرة بين الناس و الموازين المتبعة عندهم لا بالنظر إلى الأمر فى نفسه، لما يرون أن تكرر الوقوع حتى لمرة واحدة يوجب سهولته على الفاعل بالنسبة إلى الفعل غير المسبوق بمثله فكأنه قيل: و الإعادة

ص: 174

أهون عليه بالنظر إلى أصولكم العلمية المتبعة عندكم و إلا فالإنشاء و الإعادة بالنسبة إليه تعالى على السواء.

و فيه أنه معنى صحيح فى نفسه لكن الشأن فى استفادته من اللفظ و لا شاهد عليه من جهة لفظ الآية.

و منها: ما ذكره أيضا فى الكشاف، قال: و وجه آخر و هو أن الإنشاء من قبيل التفضل الذى يتخير فيه الفاعل بين أن يفعله و أن لا يفعله و الإعادة من قبيل الواجب الذى لا بد له من فعله لأنها لجزاء الأعمال و جزاؤها واجب و الأفعال إما محال و المحال ممتنع أصلا خارج عن المقدور و أما ما يصرف الحكيم عن فعله صارف و هو القبيح و هو رديف المحال لأن الصا رف يمنع وجود الفعل كما تمنعه الإحالة، و إما تفضل و التفضل حالة بين بين للفاعل أن يفعله و أن لا يفعله، و إما واجب لا بد من فعله و لا سبيل إلى الإخلال به.

فكان الواجب أبعد الأفعال من الامتناع و أقربها من الحصول فلما كانت الإعادة من قبيل الواجب كانت أبعد الأفعال من الامتناع و إذا كانت أبعدها من الامتناع كانت أدخلها فى التأتى و التسهل فكانت أهون منها و إذا كانت أهون منها كانت أهون من الإنشاء انتهى.

و فيه أولا: أنه مبنى على تحقق الأشياء بالأولوية دون الوجوب و قد تحقق فى محله بطلانه.

و ثانيا: أن القرب و البعد اللذين ذكرهما تصوير عقلى محض و السهولة و الصعوبة وصفان وجوديان يتصف بهما وجود الشى ء من حيث صدوره عن فاعله الموجد له و لا يبتنى الوصف الوجودى على الاعتبار العقلى.

و ثالثا: أن الإنشاء أيضا كالإعادة فى الابتناء على المصلحة و هى الغاية فما لم يكن الإنشاء ذا مصلحة موجبة لم يتحقق كما أن الإعادة كذلك فهما فى القرب و البعد من الامتناع على السواء كما قيل.

و رابعا: أن مقتضى هذا الوجه كون الإعادة أهون من الإنشاء بالنظر إلى أنفسهما فيعود فى الحقيقة إلى الوجه الثالث و يتوجه إليه ما توجه إليه.

ص: 175

و الذى ينبغى أن يقال أن الجملة أعنى قوله: «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ» معلل بقوله بعده: «وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فهو الحجة المثبتة لقوله: «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ».

و المستفاد من قوله: «وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى» إلخ، إن كل وصف كمالى يمثل به شى ء فى السماوات و الأرض كالحياة و القدرة و العلم و الملك و الجود و الكرم و العظمة و الكبرياء و غيرها فلله سبحانه أعلى ذلك الوصف و أرفعها من مرتبة تلك الموجودات المحدودة كما قال: «وَ لِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى»: الأعراف: ١٨٠.

و ذلک أن کل وصف من أوصاف الکمال اتصف به شیء مما فی السماوات و الأرض فله فی حد نفسه ما یقابله فإنه مما أفاضه الله علیه و هو فی نفسه خال عنه فالحی منها میت فی ذاته و القادر منها عاجز فی ذاته و لذلک کان الوصف فیها محدودا مقیدا بشیء دون شیء و حال دون حال، و هکذا فالعلم فیها مثلا لیس مطلقا غیر محدود بل محدود مخلوط بالجهل بما وراءه و کذلک الحیاة و القدرة و الملک و العظمة و غیرها.

و الله سبحانه هو المفیض لهذه الصفات من فضله و الذی له من معنى هذه الصفات مطلق غیر محدود و صرف غیر مخلوط فلا جهل فی مقابل علمه و لا ممات یقابل حیاته و هکذا فله سبحانه من کل صفة یتصف به الموجودات السماویة و الأرضیة- و هی صفات غیر ممحضة و لا مطلقة- ما هو أعلاها أی مطلقها و محضها.

فکل صفة توجد فیه تعالى و فی غیره من المخلوقات، فالذی فیه أعلاها و أفضلها و الذی فی غیره مفضول بالنسبة إلى ما عنده.

و لما کانت الإعادة متصفة بالهون إذا قیس إلى الإنشاء فیما عند الخلق فهو عنده تعالى أهون أی هون محض غیر مخلوط بصعوبة و مشقة بخلاف ما عندنا معاشر الخلق و لا یلزم منه أن یکون فی الإنشاء صعوبة و مشقة علیه تعالى لأن المشقة و الصعوبة فی الفعل تتبع قدرة الفاعل بالتعاکس فکلما قلت القدرة کثرت المشقة و کلما کثرت قلت حتى إذا کانت القدرة غیر متناهیة انعدمت المشقة من رأس، و قدرته تعالى غیر متناهیة فلا یشق علیه فعل أصلا و هو المستفاد من قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَلى‌ کُلِّ شَیْ‌ءٍ قَدِیرٌ» فإن القدرة إذا جاز تعلقها بکل شیء لم تکن إلا غیر متناهیة فافهم ذلک.

ص: 176

و قوله: «وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى‌ فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ» تقدم أنه فی مقام الحجة بالنسبة إلى قوله: «وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَیْهِ» و محصله أن کل صفة کمالیة یتصف به شی ء مما فی السماوات و الأرض من جمال أو جلال فإن لله سبحانه أعلاها أی مطلقها من غیر تقیید و محضها من غیر شوب و صرفها من غیر خلط.

و قوله: «وَ هُوَ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ» فی مقام التعلیل بالنسبة إلى قوله: «وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى‌» إلخ، أی إنه تعالى عزیز واجد لکل ما یفقده غیره ممتنع من أن یمتنع علیه شیء حکیم لا یعرض فعله فتور، و لو لم تکن صفة من صفاته مثلا أعلى مما عند غیره من الممکنات کانت محدودة غیر مطلقة و مخلوطة غیر صرفة غیر خالیة من النقص و القصور فاستذله ذاک القصور فلم یکن عزیزا على الإطلاق و أحدث ذاک النقص فی فعله ثلمة و فتورا فلم یکن حکیما على الإطلاق.

قوله تعالى: «ضَرَبَ لَکُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِکُمْ هَلْ لَکُمْ مِنْ ما مَلَکَتْ أَیْمانُکُمْ مِنْ شُرَکاءَ فِی ما رَزَقْناکُمْ فَأَنْتُمْ فِیهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ کَخِیفَتِکُمْ أَنْفُسَکُمْ» إلخ، «مِنْ» فی قوله: «مِنْ أَنْفُسِکُمْ» لابتداء الغایة أی ضرب لکم مثلا متخذا من أنفسکم منتزعا من الحالات التی لدیکم، و قوله: «هَلْ لَکُمْ» شروع فی المثل المضروب و الاستفهام للإنکار، و «ما» فی «مِنْ ما مَلَکَتْ» للنوع أی من نوع ما ملکت أیمانکم من العبید و الإماء، و «مِنْ» فی «مِنْ شُرَکاءَ» زائدة و هو مبتدأ، و قوله: «فَأَنْتُمْ فِیهِ سَواءٌ» تفریع على الشرکة،

و «فَأَنْتُمْ» خطاب شامل للمالكين و المملوكين على طريق التغليب، و قوله : «تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ » أى تخافون المماليک الشركاء أن تستبدوا فى تصرف المال المشترک من غير إذن منهم و رضى كما تخافون أنفسكم من الشركاء الأحرار.

و هذا مثل ضربه الله لبيان بطلان ما يزعمون أن الله سبحانه مما خلق شركاء فى الألوهية و الربوبية و قد ألقى المثل فى صورة الاستفهام الإنكارى: هل يوجد بين مماليككم من العبد و الإماء من يكونون شركاء لكم فى الأموال التى رزقناكم- و الحال أنهم مماليک لكم تملكونهم و ما فى أيديهم- بحيث تخافونهم من التصرف فى أموالكم بغير إذن منهم و رضى كما تخافون الشركاء الأحرار من نوع أنفسكم؟!.

لا يكون ذلک أبدا و لا يجوز أن يكون المملوک شريكا لمولاه فى ماله و إذا لم

ص: 177

يجز فكيف يجوز أن يكون بعض من خلقه الله كالملائكة و الجن و هم عبيده المملوكون شركاء له فيما يملک من مخلوقيه و آلهة و أربابا من دونه؟.

ثم تمم الكلام بقوله: «كَذلِکَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» و فيه تمهيد لما يتلوه من الكلام.

قوله تعالى: «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ » إضراب عما يستفاد من ذيل الآية السابقة و التقدير و هؤلاء المشركون لم يبنوا شركهم على التعقل بل اتبعوا فى ذلک أهواءهم بغير علم.

و كان مقتضى الظاهر أن يقال: بل اتبع الذين أشركوا و إنما بدله من قوله:

«بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا » فوصفهم بالظلم ليتعلل به ما سيصفهم بالضلال فى قوله : «فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ » فالظلم يستتبع الإضلال الإلهى، قال تعالى: «يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ فِي الْآخِرَةِ وَ يُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَ يَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ»: إبراهيم: ٢٧.

فقوله: «فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ» استفهام إنكارى مدلوله الإيئاس من نعمة الهداية للمشركين المتبعين لأهوائهم مع ظهور الحق لهم لمكان ظلمهم الموجب لإضلالهم و قد تكرر فى كلامه تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

و قوله: «وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ» نفى لنجاتهم بنصرة الناصرين لهم من غيرهم بعد ما لم ينالوا النجاة من الضلال و تبعاته من عند أنفسهم لإضلال الله لهم و نفى الجمع دليل على أن لغيرهم ناصرين كالشفعاء.

و قول القائل إن معنى نفى الناصرين لهم أنه ليس لواحد منهم ناصر واحد على ما هو المشهور من مقابلة الجمع بالجمع غير مطرد.

و معنى الآية : بل اتبع الذين ظلموا بشركهم أهواءهم بغير علم و تعقل فأضلهم الله بظلمهم و لا هادى يهديهم و ليس لهم ناصرون ينصرونهم.

قوله تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِکَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» الكلام متفرع على ما تحصل

ص: 178

من الآيات السابقة المثبتة للمبدإ و المعاد أى إذا ثبت أن الخلق و التدبير لله وحده لا شريک له و هو سيبعث و يحاسب و لا نجاة لمن أعرض عنه و أقبل على غيره فأقم وجهک للدين و الزمه فإنه الدين الذى تدعو إليه الخلقة الإلهية.

و قيل: الكلام متفرع على معنى التسلية المفهوم من سياق البيان السابق الدال على ما هو الحق و أن المشركين لظلمهم اتبعوا الأهواء و أعرضوا عن التعقل الصحيح فأضلهم الله و لم يأذن لناصر ينصرهم بالهداية و لا لمنقذ ينقذهم من الضلال لا أنت و لا غيرک فاستيئس منهم و اهتم بخاصة نفسک و من تبعک من المؤمنين و أقم وجهک و من تبعک للدين.

فقوله: «فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّينِ» المراد بإقامة الوجه للدين الإقبال عليه بالتوجه من غير غفلة منه كالمقبل على الشى ء بقصر النظر فيه بحيث لا يلتفت عنه يمينا و شمالا و الظاهر أن اللام فى الدين للعهد و المراد به الإسلام.

و قوله: «حَنِيفاً» حال من فاعل أقم و جوز أن يكون حالا من الدين أو حالا من الوجه و الأول أظهر و أنسب للسياق، و الحنف ميل القدمين إلى الوسط و المراد به الاعتدال.

و قوله: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها » الفطرة بناء نوع من الفطر بمعنى الإيجاد و الإبداع و «فِطْرَتَ اللَّهِ» منصوب على الإغراء أى الزم الفطرة ففيه إشارة إلى أن هذا الدين الذى يجب إقامة الوجه له هو الذى يهتف به الخلقة و يهدى إليه الفطرة الإلهية التى لا تبديل لها.

و ذلک أنه ليس الدين إلا سنة الحياة و السبيل التى يجب على الإنسان أن يسلكها حتى يسعد فى حياته فلا غاية للإنسان يتبعها إلا السعادة و قد هدى كل نوع من أنواع الخليقة إلى سعادته التى هى بغية حياته بفطرته و نوع خلقته و جهز فى وجوده بما يناسب غايته من التجهيز، قال تعالى : «رَبُّنَا الَّذِی أَعْطى كُلَّ شَيْ ءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى »،: طه: ۵۰ و قال: «الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّى وَ الَّذِی قَدَّرَ فَهَدى»: الأعلى: ٣.

فالإنسان كسائر الأنواع المخلوقة مفطور بفطرة تهديه إلى تتميم نواقصه و رفع حوائجه و ته تف له بما ينفعه و ما يضره فى حياته، قال تعالى: «وَ نَفْسٍ وَ ما سَوَّاها

ص: 179

فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَ تَقْواها »،: الشمس: ۸ و هو مع ذلک مجهز بما يتم له به ما يجب له أن يقصده من العمل، قال تعالى : «ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ»: عبس: ٢٠.

فللإنسان فطرة خاصة تهديه إلى سنة خاصة فى الحياة و سبيل معينة ذات غاية مشخصة ليس له إلا أن يسلكها خاصة و هو قوله: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها » و ليس الإنسان العائش فى هذه النشأة إلا نوعا واحدا لا يختلف ما ينفعه و ما يضره بالنظر إلى هذه البنية المؤلفة من روح و بدن فما للإنسان من جهة أنه إنسان إلا سعادة واحدة و شقاء واحد فمن الضرورى حينئذ أن يكون تجاه عمله سنة واحدة ثابتة يهديه إليها هاد واحد ثابت.

و ليكن ذاک الهادى هو الفطرة و نوع الخلقة و لذلک عقب قوله «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» بقوله: «لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ».

فلو اختلفت سعادة الإنسان باختلاف أفراده لم ينعقد مجتمع واحد صالح يضمن سعادة الأفراد المجتمعين، و لو اختلفت السعادة باختلاف الأقطار التى تعيش فيها الأمم المختلفة بمعنى أن يكون الأساس الوحيد للسنة الاجتماعية أعنى الدين هو ما يقتضيه حكم المنطقة كان الإنسان أنواعا مختلفة باختلاف الأقطار، و لو اختلفت السعادة باختلاف الأزمنة بمعنى أن تكون الأعصار و القرون هى الأساس الوحيد للسنة الدينية اختلفت نوعية كل قرن و جيل مع من ورثوا من آبائهم أو أخلفوا من أبنائهم و لم يسر الاجتماع الإنسانى سير التكامل و لم تكن الإنسانية متوجهة من النقص إلى الكمال إذ لا يتحقق النقص و الكمال إلا مع أمر مشترک ثابت محفوظ بينهما.

و ليس المراد بهذا إنكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة بعض التأثير فى انتظام السنة الدينية فى الجملة ب ل إثبات أن الأساس للسنة الدينية هو البنية الإنسانية التى هى حقيقة واحدة ثابتة مشتركة بين الأفراد، فللإنسانية سنة واحدة ثابتة بثبات أساسها الذى هو الإنسان و هى التى تدير رحى الإنسانية مع ما يلحق بها من السنن الجزئية المختلفة باختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة.

و هذا هو الذى يشير إلى قوله بعد : «ذلِکَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ » و سنزيد المقام إيضاحا فى بحث مستقل إن شاء الله تعالى.

ص: 180

و للقوم فى مفردات الآية و معناها أقوال أخر متفرقة:

منها: أن المراد بإقامة الوجه تسديد العمل فإن الوجه هو ما يتوجه إليه و هو العمل و إقامته تسديده.

و فيه: أن وجه العمل هو غايته المقصودة منه و هى غير العمل و الذى فى الآية هو «فَأَقِمْ وَجْهَکَ» و لم يقل فأقم وجه عملک.

و منها: أن «فِطْرَتَ اللَّهِ» منصوب بتقدير أعنى و الفطرة هى الملة، و المعنى:

اثبت و أدم الاستقامة للدين أعنى الملة التى خلق الله الناس عليها لا تبديل لخلق الله.

و فيه: أنه مبنى على اختلاف المراد بالفطرة و هى الملة و «فَطَرَ النّاسَ» و هو الخلقة و التفكيك خلاف ظاهر الآية و لو أخذ «فَطَرَ النّاسَ» بمعنى الإدانة أى الحمل على الدين و هو التوحيد بقى قوله: «لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ» لا يلائم ما قبله.

على أن فيه خلاف ظاهر آخر و هو حمل الدين على التوحيد، و لو أخذ الدين بمعنى الإسلام أو مجموع الدين كله و أبقيت الفطرة على معناه المتبادر منها و هو الخلقة لم يستقم تقدى «أعنى» فإن الدين بهذا المعنى غير الفطرة بمعنى الخلقة.

و منها: أن «فِطْرَتَ» بدل من «حَنِيفاً» و الفطرة بمعنى الملة و يرد عليه ما يرد على سابقه.

و منها: أن «فِطْرَتَ» مفعول مطلق لفعل محذوف مقدر، و التقدير: فطر الله فطرة فطر الناس عليها و فساده غنى عن البيان.

و منها: أن معناه اتبع من الدين ما دلک عليه فطرة الله و هو ما دلک عليه ابتداء خلقه للأشياء لأنه خلقهم و ركبهم و صورهم على وجه يدل على أن لهم صانعا قادرا عالما حيا قديما واحدا لا يشبه شيئا و لا يشبهه شيء.

و فيه أنه مبنى على كون «فِطْرَتَ» منصوبا بتقدير اتبع و قد ذكره أبو السعود و قبله أبو مسلم المفسر فيكون المراد من اتباع الفطرة اتباع دلالة الفطرة بمعنى الخلقة و المراد بعدم تبديل الخلق عدم تغيره فى الدلالة على الصانع بما له من الصفات الكريمة، و هذا قريب من المعنى الذى قدمناه للآية بحمل «فِطْرَتَ» على الإغراء لكن يبقى عليه أن الآية عامة لا دليل على تخصيصها بالتوحيد.

و منها: أن لا فى قوله: «لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ» تفيد النهى أى لا تبدلوا خلق الله أى دينه الذى أمرتم بالتمسک به، أو لا تبدلوا خلق الله بإنكار دلالته على التوحيد و منه ما نسب إلى ابن عباس أن المراد به النهى عن الخصاء.

و فيه أن لا دليل على أخذ الخلق بمعنى الدين و لا موجب لتسمية الإعراض عن دلالة الخلقة أو إنكارها تبديلا لخلق الله . و أما ما نسب إلى ابن عباس ففساده ظاهر.

و منها: ما ذكره الرازى فى التفسير الكبير، قال: و يحتمل أن يقال: خلق الله الخلق لعبادته و هم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله أى ليس كونهم عبيدا مثل كون المملوک عبدا للإنسان فإنه ينتقل عنه إلى غيره و يخرج عن ملكه بالعتق بل لا- خروج للخلق عن العبادة و العبودية. و هذا لبيان فساد قول من يقول: العبادة لتحصيل الكمال و العبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف، و قول المشركين: إن الناقص لا يصلح لعبادة الله و إنما الإنسان عبد الكواكب و الكواكب عبيد الله، و قول النصارى إن عيسى كان يحل الله فيه و صار إلها فقال: لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللّهِ بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلک. انتهى.

و فيه أنه مغالطة بين الملک و العبادة التکوينيين و الملک و العبادة التشريعيين فإن ملكه تعالى الذى لا يقبل الانتقال و البطلان ملک تکوينى بمعنى قيام وجود الأشياء به تعالى و العبادة التى بإزائه عبادة تکوينية و هو خضوع ذوات الأشياء له تعالى و لا تقبل التبديل و الترک كما فى قوله : «وَ إِنْ مِنْ شَيْ‌ءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ»: إسراء: ۴۴ و أما العبادة الدينية التى تقبل التبديل و الترک فهى عبادة تشريعية بإزاء الملک التشريعى المعتبر له تعالى فافهمه.

و لو دل قوله: «لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» على عدم تبديل الملک و العبادة و العبودية لدل على التکوينى منهما و الذى يبدله القائلون بارتفاع التکليف عن الإنسان الکامل أو بعبادة الكواكب أو المسيح فإنما يعنى به التشريعى منهما.

قوله تعالى: «مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» تعميم للخطاب بعد تخصيصه بالنبى ص نظير قوله: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ»: الطلاق: ۱ و قوله: «فَاسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ مَنْ تابَ مَعَكَ وَ لا تَطْغَوْا»: هود: ۱۱۲

ص: 182

فيئول المعنى إلى نحو من قولنا: فأقم وجهک للدين حنيفا أنت و من معک منيبين إلى الله، و الإنابة الرجوع بالتوبة.

و قوله: «وَ اتَّقُوهُ وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ» التقوى بحسب دلالة المقام يشمل امتثال أوامره و الانتهاء عن نواهيه تعالى فاختصاص إقامة الصلاة من بين سائر العبادات بالذكر للاعتناء بشأنها فهى عمود الدين.

و قوله: «وَ لا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» القول فى اختصاصه من بين المحرمات بالذكر نظير القول فى الصلاة فالشرک بالله أكبر الكبائر الموبقة، و قد قال تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ»: النساء: ۴۸ إلى غير ذلک من الآيات.

قوله تعالى: «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» «من» للتبيين و «مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ» إلخ، بيان للمشركين و فيه تعريفهم بأخص صفاتهم فى دينهم و هو تفرقهم فى دينهم و عودهم شيعة شيعة و حزبا حزبا يفرح و يسر كل شيعة و حزب بما عندهم من الدين و السبب فى ذلک ما ذكره قبيل هذا بقوله: «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْواءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَ ما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ» فبين أنهم بنوا دينهم على أساس الأهواء و أنه لا يهديهم و لا هادى غيره.

و من المعلوم أن هوى النفس لا يتفق فى النفوس بل و لا يثبت على حال واحدة دون أن يختلف باختلاف الأحوال و إذا كان هو الأساس للدين لم يلبث دون أن يسير بسير الأهواء و ينزل بنزولها، و لا فرق فى ذلک بين الدين الباطل و الدين الحق المبنى على أساس الهوى.

و من هنا يظهر أن النهى عن تفرق الكلمة فى الدين نهى فى الحقيقة عن بناء الدين على أساس الهوى دون العقل، و ربما احتمل كون الآية استئنافا من الكلام و هو لا يلائم السياق.

و فى الآية ذم للمشركين بما عندهم من صفة التفرق فى الكلمة و التحزب فى الدين.

قوله تعالى: «وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ» التعبير بالمس للدلالة على القلة و الخفة و تنكير ضر

ص: 183

و رحمة أيضا لذلک و المعنى : إذا أصاب الناس شى ء من الضر و لو قليلا كمرض ما و فقر ما و شدة ما دعوا ربهم و هو الله سبحانه حال كونهم راجعين من غيره ثم إذا أذاقهم الله من عنده رحمة إذا فريق من هؤلاء الناس بربهم الذى كانوا يدعونه و يعترفون بربوبيته يشركون باتخاذ الأنداد و الشركاء.

أى إنهم كافرون للنعمة طبعا و إن اعترفوا بها عند الضر و قد أخذ لذلک فريقا منهم لأن منهم من ليس كذلک.

قوله تعالى: «لِيَكْفُرُوا بِما آتَيْناهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » تهديد لأولئک المشركين عند إذاقة الرحمة و اللام فى «لِيَكْفُرُوا» للأمر الغائب و قوله: «فَتَمَتَّعُوا» متفرع على سابقه و هو أمر آخر و الأمران جميعا للتهديد، و الالتفات من الأمر الغائب إلى الأمر الحاضر لثوران الوجد و السخط من تفريطهم فى جنب الله و استهانتهم بأمره فقد بلغ منهم ذلک أن يتضرعوا عند الضر و يكفروا إذا كشف.

قوله تعالى: «أَمْ أَنْزَلْنا عَلَيْهِمْ سُلْطاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِما كانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ» «أَمْ» منقطعة و المراد بالإنزال الاعلام أو التعليم مجازا، و السلطان البرهان، و المراد بالتكلم الدلالة مجازا فالمعنى بل أعلمناهم برهانا فهو يدل على ما كانوا به يشركون أو بشركهم.

و يمكن أن يراد بالسلطان ذو السلطان و هو الملک فلا مجاز فى الإنزال و التكلم و المعنى : بل أ أنزلنا عليهم ملكا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون أو بشركم.

قوله تعالى: «وَ إِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِها وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ» الإذاقة كالمس تدل على قليل النيل و يسيره، و القنوط اليأس.

و إذا الأولى شرطية و الثانية فجائية و المقابلة بين «إِذا» فى إذاقة الرحمة و «إِنْ» فى إصابة السيئة لأن الرحمة كثيرة قطعية و السيئة قليلة احتمالية، و نسبة الرحمة إليه تعالى دون السيئة لأن الرحمة وجودية مفاضة منه تعالى و السيئة عدمية هى عدم الإفاضة و لذا عللها بقوله: «بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ»، و فى تعليل السيئة بذلک و عدم التعليل فى جانب الرحمة بشى ء إشارة إلى أن الرحمة تفضل.

و التعبير فى الرحمة بقوله : «فَرِحُوا» و فى السيئة بقوله : «إِذا هُمْ يَقْنَطُونَ» للدلالة على حدوث القنوط و لم يكن بمترقب فإن الرحمة و السيئة بيد الله و الرحمة واسعة

ص: 184

و لهذا عبر بالمضارع الدال على الحال لتمثيل حالهم.

و المراد بالآية بيان أن الناس لا يعدو نظرهم ظاهر ما يشاهدونه من النعمة و النقمة إذا وجدوا فرحوا بها من غير أن يتبصروا و يعقلوا أن الأمر بيد غيرهم و بمشية من ربهم إذا لم يشأ لم يكن، و إذا فقدوا قنطوا كان ليس ذ لك بإذن من ربهم و إذا لم يشأ لم يأذن و فتح باب النعمة فهم ظاهريون سطحيون.

و بهذا يتضح أن لا تدافع بين هذه الآية و بين قوله السابق : «وَ إِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ » الآية و ذلك أن مدلول هذه الآية أن أفهامهم سطحية إذا وجد وا فرحوا و إذا فقدوا قنطوا و مدلول تلك أنهم إذا وجدوا فرحوا و إذا فقدوا دعوا الله و هم قانطون من الشيء و أسبابه منيبين راجعين إلى الله سبحانه فلا تدافع.

و ربما أجيب بأن المراد بالناس فى هذه الآية فريق آخر غير الفريق المراد بالناس فى الآية السابقة و لو فرض اتحادهما كان ما ذكر من دعائهم فى حال و قنوطهم فى حال أخرى.

و أجيب عنه أيضا بأن الدعاء لسانى جار على العادة و لا ينافى القنوط الذى هو أمر قلبى و أنت خبير بما فى كل من الجوابين من الفتور.

و أجيب أيضا أن المراد بقنوطهم فعلهم فعل القانطين كالاهتمام بجمع الذخا ئر أيام الغلاء. و فيه مضافا إلى عدم الدليل على ذلك أنه لا يلائم معنى المفاجأة فى القنوط.

قوله تعالى: «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » بيان لخطئهم فى المبادرة إلى الفرح و القنوط عند إذاقة الرحمة و إصابة السيئة فإن الرزق فى سعته و ضيقه تابع لمشية الله فعلى الإنسان أن يعلم أن الرحمة التى ذاقها و السيئة التى أصابته ممكنة الزوال بمشية الله سبحانه و لا موجب للفرح بما لا يؤمن فقده و لا للقنوط مما يرجى زواله.

و أما أنه أمر ظاهر للإنسان مقطوع به كأنه يراه فلأن الرزق الذى يناله الإنسان أو يكتسبه متوقف الوجود على ألوف و ألوف من الأسباب و الشرائط ليس الإنسان الذى يراه لنفسه إلا أحد تلك الأسباب و لا السبب الذى يركن إليه و يطيب به نفسا إلا بعض تلك الأسباب و عامة الأسباب منتهية إليه سبحانه فهو الذى يعطى و يمنع و هو

ص: 185

الذى يبسط و يقدر أى يوسع و يضيق، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: «فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ وَ الْمِسْكِينَ وَ ابْنَ السَّبِيلِ » إلخ، ذو القربى صاحب القرابة من الأرحام و المسكين أسوأ حالا من الفقير و ابن السبيل المسافر ذو الحاجة، و إضافة الحق إلى الضمير تدل على أن لذى القربى حقا ثابتا، و الخطاب للنبى ص، فظاهر الآية بما تحتف به من القرائن أن المراد بها الخمس و التكليف للنبى ص و يتبعه غيره ممن كلف بالخمس، و القرابة على أى حال قرابة النبى ص كما فى آية ا لخمس، هذا كله على تقدير كون الآية مدنية و أما على تقدير كونها مكية كسائر آيات السورة فالمراد مطلق الإحسان للقرابة و المسكين و ابن السبيل.

و لعموم الآية معنى عمم ذكره أثره الجميل فقال: «ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

قوله تعالى: «وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ، وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ» الربا نماء المال، و قوله: «لِيَرْبُوَا» إلخ، يشير إلى وجه التسمية، فالمراد أن المال الذى تؤتونه الناس ليزيد فى أموالهم لا إرادة لوجه الله- بقرينة ذكر إرادة الوجه فى مقابله- فليس يزيد و ينمو عند الله أى لا تثابون عليه لعدم قصد الوجه.

و قوله: «وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ» المراد بالزكاة مطلق الصدقة أى إعطاء المال لوجه الله من غير تبذير، و المضعف ذو الضعف، و المعنى: و ما أعطيتم من المال صدقة تريدون وجه الله فأولئك هم الذين يضاعف لهم مالهم أو ثوابهم.

فالمراد بالربا و الزكاة بقرينة المقابلة و ما احتف بهما من الشواهد، الربا الحلال و هو العطية من غير قربة، و الصدقة و هى إعطاء المال مع قصد القربة. هذا كله على تقدير كون الآية مكية و أما على تقدير كونها مدنية فالمراد بالربا الربا المحرم و بالزكاة هى الزكاة المفروضة.

و هذه الآية و التى قبلها أشبه بالمدنيات منهما بالمكيات و لا اعتبار بما يدعى من الرواية أو الإجماع المنقول.

ص: 186

(بحث روائى)

فى العيون، عن عبيد الله بن عباس قال: قام رسول الله ص فينا خطيبا- فقال فى آخر خطبته: نحن كلمة التقوى و سبيل الهدى و المثل الأعلى- و الحجة العظمى و العروة الوثقى.

الحديث.

و فى تفسير القمى،: فى قوله تعالى: «ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ» الآية- أن سبب نزولها- أن قريشا كانوا يحجون البيت بحج إبراهيم (ع)- و يلبون تلبيته: لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك- إن الحمد و النعمة لك و الملك لا شريك لك.

فجاءهم إبلیس فی صورة شیخ فغیر تلبیتهم- إلی قول: لبیک اللهم لا شریک لک إلا شریکا هو لک تملکه و ما ملک. فکانت قریش تلبی هذه التلبیة حتی بعث رسول الله ص- فأنکر علیهم ذلک و قال: إنه شرک.

فأنزل الله عز و جل: «ضَرَبَ لَکُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِکُمْ- هَلْ لَکُمْ مِنْ ما مَلَکَتْ أَیْمانُکُمْ مِنْ شُرَکاءَ فِی ما رَزَقْناکُمْ- فَأَنْتُمْ فِیهِ سَواءٌ» أی أ ترضون أنتم فیما تملکون أن یکون لکم فیه شریک؟ فکیف ترضون أن تجعلوا لی شریکا فیما أملک؟.

و فی الکافی، بإسناده عن أبی بصیر عن أبی عبد الله (ع)*: فی قوله تعالی: «فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ حَنِیفاً» قال: هی الولایة.

و فیه، بإسناده عن هشام بن سالم عن أبی عبد الله (ع) قال*: قلت: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَیْها» قال: التوحید:

أقول: و رواه أیضا عن الحلبی و زرارة عنه (ع) و رواه الصدوق فی التوحید، عن العلاء بن فضیل و زرارة و بکیر عنه (ع).

و فی روضة الکافی، بإسناده عن إسماعیل الجعفی عن أبی جعفر (ع) قال*: کانت شریعة نوح (ع)- أن یعبد الله بالتوحید و الإخلاص و خلع الأنداد، و هو الفطرة التی فطر الناس علیها.

و فی تفسیر القمی، بإسناده عن الهیثم الرمانی عن الرضا عن أبیه عن جده عن أبیه محمد بن علی (ع): فی قوله عز و جل: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَیْها» قال:

ص: 187

هو لا إله إلا الله محمد رسول الله- علی أمیر المؤمنین ولی الله إلی هاهنا التوحید.

أقول: و روی هذا المعنی فی بصائر الدرجات، عن أبی عبد الله (ع)، و رواه فی التوحید، عن عبد الرحمن مولی أبی جعفر عنه (ع).

و معنی کون الفطرة هی الشهادات الثلاث أن الإنسان مفطور علی الاعتراف بالله لا شریک له بما یجد من الحاجة إلی الأسباب المحتاجة إلی ما وراءها و هو التوحید و بما یجد من النقص المحوج إلی دین یدین به لیکمله و هو النبوة، و بما یجد من الحاجة إلی الدخول فی ولایة الله بتنظیم العمل بالدین و هو الولایة و الفاتح لها فی الإسلام هو علی (ع)، و لیس معناه أن کل إنسان حتی الإنسان الأولی یدین بفطرته بخصوص الشهادات الثلاث.

و إلی هذا یئول معنی الروایة السابقة أن ها الولایة فإنها تستلزم التوحید و النبوة و کذا ما مر من تفسیره الفطرة بالتوحید فإن التوحید هو القول بوحدانیة الله تعالی المستجمع لصفات الکمال المستلزمة للمعاد و النبوة و الولایة فالمال فی تفسیرها بالشهادات الثلاث و التوحید و الولایة واحد.

و فی المحاسن، بإسناده عن زرارة قال: سألت أبا جعفر (ع) عن قول الله عز و جل «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَیْها» قال: فطرهم علی معرفة أنه ربهم- و لو لا ذلک لم یعلموا إذا سئلوا من ربهم و من رازقهم؟.

و فى الكافى، بإسناده عن الحسين بن نعيم الصحاف عن أبى عبد الله (ع) فى حديث قال: فقال (ع): إن الله عز و جل خلق الناس كلهم- على الفطرة التى فطرهم عليها- لا يعرفون إيمانا بشريعة و لا كفرا بجحود- ثم بعث الله عز و جل الرسل يدعو العباد إلى الإيمان به فمنهم من هدى الله و منهم من لم يهده.

أقول: و فى هذا المعنى روايات أخر وارد ة فى تفسير قوله تعالى: «كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً»: البقرة: ٢١٣ و المراد فيها بالإنسان الفطرى الإنسان الساذج الذى يعيش على الفطرة الإنسانية الذى لم يفسده الأوهام الفكرية و الأهواء النفسانية فإنه بالقوة القريبة من الفعل بالنسبة إلى أصول العقائد الحقة و كليات الشرائع الإلهية فإنه يعيش ببعث و تحريك من فطرته و خصوص خلقته . و أما الاهتداء إلى خصوص العقائد الحقة

و تفاصيل الشرائع الإلهية فيتوقف على هداية خاصة إلهية من طريق النبوة من الجزء الثانى من الكتاب.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن حماد بن عمرو الصفار قال: سألت قتادة عن قوله تعالى: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» فقال: حدثنى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ص: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» قال: دين الله.

و فيه، أخرج البخارى و مسلم و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و ابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ص: ما من مولود إلا يولد على الفطرة- فأبواه يهودانه و ينصرانه و يمجسانه- كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟ قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها» الآية.

أقول:

و رواه أيضا عن مالك و أبى داود و ابن مردويه عن أبى هريرة عنه (ص) و لفظه: كل مولود يولد على الفطرة- فأبواه يهودانه و ينصرانه- كما تنتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحس من جدعاء.

و رواه أيضا فى الكافى، بإسناده عن زرارة عن أبى جعفر (ع) فى حديث قال:

قال رسول الله ص: كل مولود يولد على الفطرة يعنى على المعرفة بأن الله خالقه.

الحديث.

و فى التوحيد، بإسناده عن عمر قال: قال رسول الله ص: لا تضربوا أطفالكم على بكائهم- فإن بكاءهم أربعة أشهر شهادة أن لا إله إلا الله، و أربعة أشهر الصلاة على النبى و أربعة أشهر الدعاء لوالديه.

أقول: هو حديث لطيف و معناه: أن الطفل فى الأربعة أشهر الأولى لا يعرف أحدا و إنما يحس بالحاجة فيطلب بالبكاء رفعها و الرافع لها هو الله سبحانه فهو يتضرع إليه و يشهد له بالوحدانية.

و فى الأربعة أشهر الثانية يعرف من والديه واسطة ما بينه و بين رافع حاجته من غير أن يعرفهما بشخصيهما و الواسطة بينه و بين ربه هو النبى فبكاؤه طلب الرحمة من ربه للنبى حتى يصل بتوسطه إليه.

و فى الأربعة أشهر الثالثة يميز والديه بشخصيهما عن غيرهما فبكاؤه دعاء منه لهما و طلب جريان الرحمة من طريقهما إليه . ففى الحديث ألطف الإشارة إلى كيفية جريان

الفيض من مجرى الوسائط فافهم ذلک.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى: «وَ آتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ»:

و روى أبو سعيد الخدرى و غيره: أنه لما نزلت هذه الآية على النبى ص- أعطى فاطمة (ع) فدكا و سلمه إليها- و هو المروى عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع).

و فى الكافى، بإسناده عن إبراهيم اليمانى عن أبى عبد الله (ع) قال: الربا رباءان:

ربا يؤكل و ربا لا يؤكل، فأما الذى يؤكل فهديتک إلى الرجل- تطلب منه الثواب أفضل منها فذلک الربا الذى يؤكل، و هو قول الله عز و جل: «وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِی أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ» و أما الذى لا يؤكل فهو الذى نهى الله عنه و أوعد عليه النار:

أقول: و رواه أيضا فى التهذيب، عن إبراهيم بن عمر عنه (ع)، و فى تفسير القمى، عن حفص بن غياث عنه (ع)، و فى المجمع، مرسلا عن أبى جعفر (ع).

و فى المجمع،: فى قوله تعالى: «فَأُولئِکَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ» قال أمير المؤمنين (ع):

فرض الله الصلاة تنزيها عن الكبر، و الزكاة تسبيبا للرزق، و الصيام ابتلاء لإخلاص الخلق، و صلة الأرحام منماة للعدد.

و فى الفقيه،: خطبة للزهراء (ع) و فيها: ففرض الله الإيمان تطهيرا من الشرک و الصلاة- تنزيها عن الكبر و الزكاة زيادة فى الرزق.

(كلام فى معنى كون الدين فطريا، فى فصول)

١- إذا تأملنا هذه الأنواع الموجودة التى تتكون و تتكامل تدريجا سواء كانت ذوات حياة و شعور كأنواع الحيوان أو ذات حياة فقط كأنواع النبات أو ميتة غير ذى حياة كسائر الأنواع الطبيعية- على ما يظهر لنا- وجدنا كل نوع منها يسير فى وجوده سيرا

تكوينيا معينا ذا مراحل مختلفة بعضها قبل بعض و بعضها بعد بعض يرد النوع فى كل منها بعد المرور بالبعض الذى قبله و قبل الوصول إلى ما بعده و لا يزال يستكمل بطى هذه المنازل حتى ينتهى إلى آخرها و هو نهاية كماله.

نجد هذه المراتب المطوية بحركة النوع يلازم كل منها مقامه الخاص به لا يستقدم و لا يستأخر من لدن حركة النوع فى وجوده إلى أن تنتهى إلى كماله فبينها

ص: 190

رابطة تكوينية يربط بها بعض المراتب ببعض بحيث لا يتجافى و لا ينتقل إلى غير مكانه و من هنا يستنتج أن للنوع غاية تكوينية يتوجه إليها من أول وجوده حتى يبلغها.

فالجوزة الواحدة مثلا إذا استقرت فى الأرض استقرارا يهيئها للنمو على اجتماع مما يتوقف عليه النمو من العلل و الشرائط كالرطوبة و الحرارة و غيرهما أخذ لبها فى النمو و شق القشر و شرع فى ازدياد من أقطار جسمه و لم يزل يزيد و ينمو حتى يصل إلى حد يعود فيه شجرة قوية خضراء مثمرة و لا يختلف حاله فى مسيره هذا التكوينى و هو فى أول وجوده قاصدا تكوينيا إلى غايته التكوينية التى هى مرتبة الشجرة الكاملة المثمرة.

و كذا الواحد من نوع الحيوان كالواحدة من الضأن مثلا لا نشك فى أنها فى أول تكونها جنينا متوجهة إلى غايتها النوعية التى هى مرتبة الضأنة الكاملة التى لها خواصها فلا تضل عن سبيلها التكوينية الخاصة بها إلى سبيل غيرها و لا تنسى غايتها يوما فتسير إلى غير غايتها كغاية الفيلة مثلا أو غاية شجرة الجوز مثلا فكل نوع من الأنواع التكوينية له مسير خاص فى استكمال الوجود ذو مراتب خاصة مترتبة بعضها على بعض تنتهى إلى مرتبة هى غاية النوع ذاتا يطلبها طلبا تكوينيا بحركته التكوينية و النوع فى وجوده مجهز بما هو وسيلة حركته و بلوغه إلى غايته.

و هذا التوجه التكوينى لاستناده إلى الله يسمى هداية عامة إلهية و هى كما عرفت لا تضل و لا تخطئ فى تسيير كل نوع مسيره التكوينى و سوقه إلى غايته الوجودية بالاستكمال التدريجى و بإعمال قواه و أدواته التى جهز بها لتسهيل مسيره إلى غايته، قال تعالى: «رَبُّنَا الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى »: طه: ۵۰ و قال: «الَّذِي خَلَقَ فَسَوّى وَ الَّذِي قَدَّرَ فَهَدى وَ الَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعى فَجَعَلَهُ غُثاءً أَحْوى»: الأعلى: ۵.

۲- نوع الإنسان غير مستثنى من كلية الحكم المذكور أعنى شمول الهداية العامة له فنحن نعلم أن النطفة الإنسانية من حين تشرع فى التكون متوجهة إلى مرتبة إنسان تام كامل له آثاره و خواصه قد قطع فى مسيره مراحل الجنينية و الطفولية و المراهقة و الشباب و الكهولة و الشيب.

ص: 191

غير أن الإنسان يفارق سائر الأنواع الحيوانية و النباتية و غيرها فيما نعلم فى أمر «۱» و هو أنه لسعة حاجته التكوينية و كثرة نواقصه الوجودية لا يقدر على تتميم نواقصه الوجودية و رفع حوائجه الحيوية وحده بمعنى أن الواحد من الإنسان لا تتم له

حياته الإنسانية و هو وحده بل يحتاج إلى اجتماع منزلى ثم ا جتماع مدنى يجتمع فيه مع غيره بالازدواج و التعاون و التعاضد فيسعى الكل بجميع قواهم التى جهزوا بها للكل ثم يقسم الحاصل من عملهم بين الكل فيذهب كل بنصيبه على قدر زنته الاجتماعية.

و قد عرفت فى سابق مباحث هذا الكتاب أن المدنية ليست بطبيعية للإنسان بمعنى أن ينبع ث إليه من ناحية طبيعته الإنسانية ابتداء بل له طبيعة مستخدمة لغيره لنفع نفسه ما وجد إليه سبيلا فهو يستخدم الأمور الطبيعية ثم أقسام النبات و الحيوان فى سبيل مقاصده الحيوية فهو باستخدام فرد مثله أو أفراد أمثاله أجرأ لكنه يجد سائر الأفراد أمثاله فى الأميال و ا لمقاصد و فى الجهازات و القوى فيضطر إلى المسالمة و أن يسلم لهم حقوقا مثل ما يراه لنفسه.

و ينتهى هذا التضارب بين المنافع أن يشارك البعض البعض فى العمل التعاونى ثم يقسم الحاصل من الأعمال بين الجميع و يعطى منه لكل ما يستحقه.

و كيف كان فالمجتمع الإنسانى لا يتم انعقاده و لا يعمر إلا بأصول علميه و قوانين اجتماعية يحترمها الكل و حافظ يحفظها من الضيعة و يجريها فى المجتمع و عند ذلك تطيب لهم العيشة و تشرف عليهم السعادة.

أما الأصول العلمية فهى معرفته إجمالا بما عليه نشأة الوجود من الحقيقة و ما عليه الإنسان من حيث البدا ية و النهاية فإن المذاهب المختلفة مؤثرة فى خصوص السنن المعمول بها فى المجتمعات فالمعتقدون فى الإنسان أنه مادى محض ليس له من الحياة إلا الحياة المعجلة المؤجلة بالموت و أن ليس فى دار الوجود إلا السبب المادى الكائن الفاسدة ينظمون سنن اجتماعهم، بحيث تؤديهم إلى اللذائذ المحسوسة و الكمالات المادية ما وراءها شىء.

---

(١) و عامة الحيوان و إن كان لها شىء من الاجتماع الحيوى لكنه يسير فى جنب الاجتماع لا يعبأ به.

و المعتقدون بصانع وراء المادة كالوثنية يبنون سننهم و قوانينهم على إرضاء الآلهة ليسعدوهم فى حياتهم الدنيوية و المعتقدون بالمبدإ و المعاد يبنون حياتهم على أساس يسعدهم فى الحياة الدنيوية ثم فى الحياة المؤبدة التى بعد الموت فصور الحياة الاجتماعية تختلف باختلاف الأصول الاعتقادية فى حقيقة العالم و الإنسان الذى هو جزء من أجزائه.

و أما القوانين و السنن الاجتماعية فلو لا وجود قوانين و سنن مشتركة يحترمها المجتمعون جميعهم أو أكثرهم و يتسلمونها تفرق الجمع و انحل المجتمع.

و هذه السنن و القوانين قضايا كلية عملية صورها : يجب أن يفعل كذا عند كذا أو يحرم أو يجوز و هى أيا ما كانت معتبرة فى العمل لغايات مصلحة للاجتماع و المجتمع تترتب عليها تسمى مصالح الأعمال و مفاسدها.

۳- قد عرفت أن الإنسان إنما ينال ما قدر له من كمال و سعادة بعقد مجتمع صالح يحكم فيه سنن و قوانين صالحة تضمن بلوغه و نيله سعادته التى تليق به و هذه السعادة أمر أو أمور كمالية تكوينية تلحق الإنسان الناقص الذى هو أيضا موجود تكوينى فتجعله إنسانا كاملا فى نوعه تاما فى وجوده.

فهذه السنن و القوانين- و هى قضايا عملية اعتبارية- واقعة بين نقص الإنسان و كماله متوسطة كالعبرة بين المنزلتين و هى كما عرفت تابعة للمصالح التى هى كمال أو كمالا ت إنسانية، و هذه الكمالات أمور حقيقية مسانخة ملائمة للنواقص التى هى مصاديق حوائج الإنسان الحقيقية.

فحوائج الإنسان الحقيقية هى التى وضعت هذه القضايا العملية و اعتبرت هذه النواميس الاعتبارية، و المراد بالحوائج هى ما تطلبه النفس الإنسانية بأميالها و عزائمها و يصدقه العقل الذى هو القوة الوحيدة التى تميز بين الخير و النافع و بين الشر و الضار دون ما تطلبه الأهواء النفسانية مما لا يصدقه العقل فإنه كمال حيوانى غير إنسانى.

فأصول هذه السنن و القوانين يجب أن تكون الحوائج الحقيقة التى هى بحسب الواقع حوائج لا بحسب تشخيص الأهواء النفسانية.

و قد عرفت أن الصنع و الإيجاد قد جهز كل نوع من الأنواع- و منها الإنسان-

من القوى و الأدوات بما يرتفع بفعاليته حوائجه و يسلک به سبيل الكمال و منه يستنتج أن للجهازات التكوينية التى جهز بها الإنسان اقتضاءات للقضايا العملية المسماة بالسنين و القوانين التى بالعمل بها يستقر الإنسان فى مقر كماله مثل السنن و القوانين الراجعة إلى التغذى المعتبرة بما أن الإنسان مجهز بجهاز التغذى و الراجعة إلى النكاح بما أن الإنسان مجهز بجهاز التوالد و التناسل.

فتبين أن من الواجب أن يتخذ الدين- أى الأصول العلمية و السنن و القوانين العملية التى تضمن باتخاذها و العمل بها سعادة الإنسان الحقيقية- من اقتضاءات الخلقة الإنسانية و ينطبق التشريع على الفطرة و التكوين، و هذا هو المراد بكون الدين فطريا و هو قوله تعالى: «فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِکَ الدِّينُ الْقَيِّمُ».

۴- قد عرفت معنى كون الدين فطريا فالإسلام يسمى دين الفطرة لما أن الفطرة الإنسانية تقتضيه و تهدى إليه.

و يسمى إسلاما لما أن فيه تسليم العبد لإرادة الله سبحانه منه، و مصداق الإرادة و هى صفة الفعل تجمع العلل المؤلفة من خصوص خلقة الإنسان و ما يحتف به من مقتضيات الكون العام على اقتضاء الفعل أو الترک قال تعالى : «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ».

و يسمى دين الله لأنه الذى يريده الله من عباده من فعل أو ترک، بما مر من معنى الإرادة.

و يسمى سبيل الله لما أنه السبيل التى أرادها الله أن يسلكها الإنسان لتنتهى به إلى كماله و سعادته، قال تعالى : «الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَها عِوَجاً»: الأعراف: ۴۵.

و أما أن الدين الحق يجب أن يؤخذ من ط ريق الوحى و النبوة و لا يكفى فيه العقل فقد تقدم بيانه فى مباحث النبوة و غيرها من مباحث الكتاب.

ص: 194

[سورة الروم (۳۰): الآيات ۴۰ الى ۴۷]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (۴۰) ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۱) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (۴۲) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (۴۳) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (۴۴)

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ (۴۵) وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۴۶) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (۴۷)

(بيان)

هذا هو الفصل الثانى من الفصول الأربعة التى يحتج فيها بالأفعال الخاصة به و إن شئت فقل: بأسماء الأفعال على إبطال الشركاء و نفى ربوبيتهم و ألوهيتهم و على إثبات المعاد.

ص: 195

قوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ» إلخ، اسم الجلالة مبتدأ و «الَّذِي خَلَقَكُمْ» خبره، و كذا قوله: «مَنْ يَفْعَلُ» إلخ مبتدأ خبره «مِنْ شُرَكائِكُمْ» المقدم عليه و الاستفهام إنكارى و قد ذكر فى تركيب الآية احتمالات أخر.

و المعنى: أن الله سبحانه هو الذى اتصف بكذا و كذا وصفا من أوصاف الألوهية و الربوبية فهل من الآلهة الذين تدعون أنهم آلهة من يفعل شيئا من ذلكم يعنى من الخلق و الرزق و الإماتة و الإحياء و إذ ليس منهم من يفعل شيئا من ذلكم فالله سبحانه ه و إلهكم و ربكم لا إله إلا هو.

و لعل الوجه فى ذكر الخلق مع الرزق و الإحياء و الإماتة مع تكرر تقدم ذكره فى سلك الاحتجاجات السابقة الإشارة إلى أن الرزق لا ينفک عن الخلق بمعنى أن بعض الخلق يسمى بالقياس إلى بعض آخر يديم بقاءه به رزقا فالرزق فى الحقيقة من الخلق فالذى يخلق الخلق هو الذى يرزق الرزق.

فليس لهم أن يقولوا: إن الرازق و كذا المحيى و المميت بعض آلهتنا كما ربما يدعيه بعضهم أن مدبر عالم الإنسان بعض الآلهة و مدبر كل شأن من شئون العالم من الخيرات و الشرور بعضهم لكنهم لا يختلفون أن الخلق و الإيجاد منه تعالى لا يشاركه فى ذلک أحد فإذا سلم ذلک و من المسلم أن الرزق مثلا خلق و كذا سائر الشئون لا تنفک عن الخلق رجع الأمر كالخلق إليه تعالى و لم يبق لآلهتهم شأن من الشئون.

ثم نزه سبحانه نفسه عن شركهم فقال: «سُبْحانَهُ وَ تَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

قوله تعالى: «ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُ ونَ» الآية بظاهر لفظها عامة لا تختص بزمان دون زمان أو بمكان أو بواقعة خاصة، فالمراد بالبر و البحر معناهما المعروف و يستوعبان سطح ا لكرة الأرضية.

و المراد بالفساد الظاهر المصائب و البلايا الظاهرة فيهما الشاملة لمنطقة من مناطق الأرض من الزلازل و قطع الأمطار و السنين و الأمراض السارية و الحروب و الغارات و ارتفاع الأمن و بالجملة كل ما يفسد النظام الصالح الجارى فى العالم الأرضى سواء كان

مستندا إلى اختيار الناس أو غير مستند إليه. فكل ذلک فساد ظاهر فى البر أو البحر مخل بطيب العيش الإنسانى.

و قوله: «بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ» أى بسبب أعمالهم التى يعملونها من شرک أو معصية و قد تقدم فى تفسير قوله تعالى : «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ»، الآية: الأعراف: ٩۶ و أيضا فى مباحث النبوة من الجزء الثانى من الكتاب أن بين أعمال الناس و الحوادث الكونية رابطة مستقيمة يتأثر إحداهما من صلاح الأخرى و فسادها.

و قوله: «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا » اللام للغاية، أى ظهر ما ظهر لأجل أن يذيقهم الله وبال بعض أعمالهم السيئة بل ليذيقهم نفس ما عملوا و قد ظهر فى صورة الوبال و إنما كان بعض ما عملوا لأن الله سبحانه برحمته يعفو عن بعض كما قال : «وَ ما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَ يَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ»: الشورى: ٣٠.

و الآية ناظرة إلى الوبال الدنيوى و إذاقة بعضه لأكله من غير نظر إلى وبال الأعمال الأخروى فما قيل : إن المراد إذاقة الوبال الدنيوى و تأخير الوبال الأخروى إلى يوم ا لقيامة لا دليل عليه و لعله جعل تقدير الكلام : «ليذيقهم بعض جزاء ما عملوا مع أن التقدير «ليذيقهم جزاء بعض ما عملوا»، لأن الذى يحوجنا إلى تقدير المضاف- لو أحوجنا- هو أن الراجع إليهم ثانيا فى صورة الفساد هو جزاء أعمالهم لا نفس أعمالهم فالذى أذيقوا هو جزاء بعض ما عملوا لا بعض جزاء ما عملوا.

و قوله: «لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» أی یذیقهم ما یذیقهم رجاء أن یرجعوا من شرکهم و معاصیهم إلی التوحید و الطاعة.

و وجه اتصال الآیة بما قبلها أنه لما احتج فی الآیة السابقة علی التوحید و نزهه عن شرکهم أشار فی هذه الآیة إلی ما یستتبع الشرک- و هو معصیة- من الفساد فی الأرض و إذاقة وبال السیئات فبین ذلک بیان عام.

و لهم فی الآیة تفاسیر مختلفة عجیبة کقول بعضهم المراد بالأرض أرض مکة و قول بعضهم : المراد بالبر القفار التی لا یجری فیها نهر و بالبحر کل قریة علی شاطئ نهر عظیم، و قول بعضهم : البر الفیافی و مواضع القبائل و البحر السواحل و المدن التی عند

ص: 197

البحر و النهر، و قول بعضهم: البر البریة و البحر المواضع المخصبة الخضرة، و قول بعضهم:

إن هناک مضافا محذوفا و التقدیر فی البر و مدن البحر، و لعل الذی دعاهم إلی هذه الأقاویل ما ورد أن الآیة ناظرة إلی القحط الذی وقع بمکة إثر دعاء النبی ص علی قریش لما لجوا فی کفرهم و داموا علی عنادهم فأرادوا تطبیق الآیة علی سبب النزول فوقعوا فیما وقعوا من التکلف.

و قول بعضهم: إن المراد بالفساد فی البر قتل ابن آدم أخاه و فی البحر أخذ کل سفینة غصبا و هو کما تری.

قوله تعالی: «قُلْ سِیرُوا فِی الْأَرْضِ فَانْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلُ کانَ أَکْثَرُهُمْ مُشْرِکِینَ » أمر للنبی ص أن یأمرهم أن یسیروا فی الأرض فینظروا إلی آثار الذین کانوا من قبل حیث خربت دیارهم و عفت آثارهم و بادوا عن آخرهم و انقطع دابرهم بأنواع من النوائب و البلایا کان أکثرهم مشرکین فأذاقهم الله بعض ما عملوا لیعتبر به المعتبرون فیرجعوا إلی التوحید، فالآیة فی مقام الاستشهاد لمضمون الآیة السابقة.

قوله تعالی: «فَأَقِمْ وَجْهَکَ لِلدِّینِ الْقَیِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ یَوْمَئِذٍ یَصَّدَّعُونَ» تفریع علی ما تقدمه أی إذا کان الشرک و الکفر بالحق بهذه المثابة و له وبال سیلحق بالمتلبس به فأقم وجهک للدین القیم.

و قوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ یَأْتِیَ یَوْمٌ لا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللّٰهِ» متعلق بقوله: «فَأَقِمْ» و المرد مصدر میمی بمعنی الرد و هو بمعنی الراد و الیوم الذی لا مرد له من الله یوم القیامة.

و قوله: «یَوْمَئِذٍ یَصَّدَّعُونَ» أصله یتصدعون، و التصدع فی الأصل تفرق أجزاء الأوانی ثم استعمل فی مطلق التفرق کما قیل، و المراد به- کما قیل- تفرقهم یومئذ إلی الجنة و النار.

و قیل: المراد تفرق الناس بأشخاصهم کما یشیر إلیه قوله تعالی: «یَوْمَ یَکُونُ النّٰاسُ کَالْفَرٰاشِ الْمَبْثُوثِ».: القارعة: ۴ و لکل وجه، و لعل الأظهر امتیاز الفریقین کما سیأتی.

قوله تعالى: «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » الظاهر أنه تفسير لقوله فى الآية السابقة : «يَتَفَرَّقُونَ» و قوله: «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» أى وبال

ص: 198

كفره بتقدير المضاف أو نفس كفره الذى سينقلب عليه نارا يخلد فيها و هذا أحد الفريقين.

و قوله: «وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ » مهد الفراش بسطه و إيطاؤه، و هؤلاء الفريق الآخر الذين آمنوا و عملوا الصالحات، و قد جى ء بالجزاء «فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ» جمعا نظرا إلى المعنى، كما أنه جى ء به مفردا فى الشرطية السابقة «فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» نظرا إلى اللفظ، و اكتفى فى الشرط بذكر العمل الصالح و لم يذكر الإيمان معه لأن العمل إنما يصلح بالإيمان على أنه مذكور فى الآية التالية.

و المعنى: و الذين عملوا عملا صالحا- بعد الإيمان- فلأنفسهم يوطئون ما يعيشون به و يستقرون عليه.

قوله تعالى: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ » قال الراغب: الجزاء الغناء و الكفاية، قال الله تعالى: «لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً »، و قال: «لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَيْئاً » و الجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيرا فخير و إن شرا فشر، يقال: جزيته كذا و بكذا. انتهى.

و قوله: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْ فَضْلِهِ » اللام للغاية و لا ينافى عد ما يؤتيهم جزاء- و فيه معنى المقابلة- عده من فضله و فيه معنى عدم الاستحقاق و ذلك لأنهم بأعيانهم و ما يصدر عنهم من أعمالهم ملك طلق لله سبحانه فلا يملكون لأنفسهم شيئا حتى يستحقوا به أجرا، و أين العبودية من الملك و الاستحقاق فما يؤتونه من الجزاء فضل من غير استحقاق.

لكنه سبحانه بفضله و رحمته اعتبر لهم ملكا لأعمالهم فى عين أنه يملكهم و يملك أعمالهم فجعل لهم بذلك حقا يستحقونه، و جعل ما ينالونه من الجنة و الزلفى أجرا مقابلا لأعمالهم و هذا الحق المجعول أيضا فضل آخر منه سبحانه.

و منشأ ذلك حبه تعالى لهم لأنهم لما أحبوا ربهم أقاموا وجوههم للدين القيم و اتبعوا الرسول فيما دعا إليه فأحبهم الله كما قال : «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ»: آل عمران: ٣١.

و لذا كانت الآية تعد ما يؤتيهم الله من الثواب جزاء و فيه معنى المقابلة و المبادلة

ص: 199

و تعد ذلك من فضله نظرا إلى أن نفس هذه المقابلة و المبادلة فضل منه سبحانه و منشؤه حبه تعالى لهم كما يومئ إليه تذييل الآية بقوله: «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ».

و من هنا يظهر أن قوله : «إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ »، يفيد التعليل بالنسبة إلى جانبى النفى و الإثبات جميعا أى أنه تعالى يخص المؤمنين العاملين للصالحات بهذا الفضل و يحرم الكافرين منه لأنه يحب هؤلاء و لا يحب هؤلاء.

قوله تعالى: «وَ مِنْ آياتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، المراد بكون الرياح مبشرات تبشيرها بالمطر حيث تهب قبيل نزوله.

و قوله: «وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ» عطف على موضع مبشرات لما فيه من معنى التعليل و التقدير يرسل الرياح لتبشركم و ليذيقكم من رحمته و المراد بإذاقة الرحمة إصابة أنواع النعم المترتبة على جريان الرياح كتلقيح الأشجار و دفع العفونات و تصفية الأجواء و غير ذلک مما يشمله إطلاق الجملة.

و قوله: «وَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ» أى لجريان الرياح و هبوبها. و قوله: «وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ» أى لتطلبوا من رزقه الذى هو من فضله.

و قوله: «وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ»، غاية معنوية كما أن الغايات المذكورة من قبل غايات صورية، و الشكر هو استعمال النعمة بنحو ينبئ عن إنعام منعمه أو الثناء اللفظى عليه بذكر إنعامه، و ينطبق بالأخرة على عبادته و لذلک ج ىء بلعل المفيدة للرجاء فإن الغايات المعنوية الاعتبارية ربما تخلفت.

قوله تعالى : «وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ رُسُلًا إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ» قال الراغب : أصل الجرم- بالفتح فالسكون- قطع الثمرة عن الشجر- إلى أن قال- و أجرم صار ذا جرم نحو أثمر و أتمر و ألبن و أستعير ذلک لكل اكتساب مكروه، و لا يكاد يقال فى عامة كلامهم للكيس المحمود انتهى.

و الآية كالمعترضة و كأنها مسوقة لبيان أن للمؤمنين حقا على ربه م و هو نصرهم فى الدنيا و الآخرة و منه الانتقام من المجرمين، و هذا الحق مجعول من قبله تعالى لهم على

ص: 200

نفسه فلا يرد عليه محذور لزوم كونه تعالى مغلوبا فى نفسه مقهورا محكوما لغيره.

و قوله: «فَانْتَقَمْنا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا» الفاء فصيحة أى فآمن بعضهم و أجرم آخرون فانتقمنا من المجرمين و كان حقا علينا نصر المؤمنين بإنجائهم من العذاب و إهلاک مخالفيهم، و فى الآية بعض الإشعار بأن الانتقام من المجرمين لأجل المؤمنين فإنه من النصر.

(بحث روائى)

فی تفسیر القمی، ": فی قوله تعالی : «ظَهَرَ الْفَسادُ فِی ا لْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما کَسَبَتْ أَیْدِی النَّاسِ » قال: فی البر فساد الحیوان إذا لم یمطر- و کذلک هلاک دواب البحر بذلک.

و قال الصادق (ع): حیاة دواب البحر بالمطر- فإذا کف المطر ظهر الفساد فی البر و البحر، و ذلک إذا کثرت الذنوب و المعاصی.

أقول: و هو من الجری.

و فی روضة الکافی، بإسناده عن أبی الربیع الشامی قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز و جل: «قُلْ سِیرُوا فِی الْأَرْضِ- فَانْظُرُوا کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الَّذِینَ مِنْ قَبْلُ» فقال: عنی بذلک أی انظروا فی القرآن- فانظروا کیف کان عاقبة الذین من قبلکم».

و فی المجمع، : فی قوله : «وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ یَمْهَدُونَ »: روی منصور بن حازم عن أبی عبد الله (ع) قال: إن العمل الصالح لیسبق صاحبه إلی الجنة- فیمهد له کما یمهد لأحدهم خادمه فراشه.

و فیه، و جاءت الروایة عن أم الدرداء أنها قالت : سمعت رسول الله ص یقول : ما من امرئ یرد عن عرض أخیه- إلا کان حقا علی الله أن یرد عنه نار جهنم یوم القیامة ثم قرأ: «وَ کانَ حَقًّا عَلَیْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِینَ»:

أقول: و رواه فی الدر المنثور، عن ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردویه عن أبی الدرداء.

ص: 201

[سورة الروم (۳۰): الآیات ۴۸ الی ۵۳]

اللَّهُ الَّذِی یُرْسِلُ الرِّیاحَ فَتُثِیرُ سَحاباً فَیَبْسُطُهُ فِی السَّماءِ کَیْفَ یَشاءُ وَ یَجْعَلُهُ کِسَفاً فَتَرَی ا لْوَدْقَ یَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذا أَصابَ بِهِ مَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ إِذا هُمْ یَسْتَبْشِرُونَ (۴۸) وَ إِنْ کانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ یُنَزَّلَ عَلَیْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِینَ (۴۹) فَانْظُرْ إِلی آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ کَیْفَ یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ ذلِکَ لَمُحْیِ الْمَوْتی وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ (۵۰) وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِیحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ یَکْفُرُونَ (۵۱) فَإِنَّکَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتی وَ لا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِینَ (۵۲)

وَ ما أَنْتَ بِهادِ الْعُمْیِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ یُؤْمِنُ بِآیاتِنا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (۵۳)

(بیان)

هذا هو الفصل الثالث من الآیات المحتجة من طریق أفعاله تعالی و إن شئت فقل:

أسماء أفعاله و عمدة غرضها الاحتجاج على المعاد، و لما كان عمدة إنكارهم و جحودهم متوجها إلى المعاد و بإنكاره يلغو الأحكام و الشرا ئع فيلغو التوحيد عقب الاحتجاج بإيئاس النبى ص و أمره بأن يشتغل بدعوة فى نفسه استعداد الإيمان و صلاحية الإسلام و التسليم للحق.

قوله تعالى: «اَللّٰهُ اَلَّذِي يُرْسِلُ اَلرِّيٰاحَ فَتُثِيرُ سَحٰاباً فَيَبْسُطُهُ فِي اَلسَّمٰاءِ كَيْفَ يَشٰاءُ » إلى آخر الآية، الإثارة التحريك و النشر و السحاب الغمام و السماء جهة العلو فكل ما علاك و أظلك فهو سماء و الكسف بالكسر فالفتح جمع كسفة و هى القطعة و الودق

ص: 202

القطر من المطر و الخلال جمع خلة و هى الفرجة.

و المعنى: الله الذى يرسل الرياح فتحرك و تنشر سحابا و يبسط ذلك السحاب فى جهة العلو من الجو كيف يشاء سبحانه و يجعله قطعات متراكبة متراكمة فترى قطر المطر يخرج من فرجه فإذا أصاب بذلك المطر من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون لأنه مادة حياتهم و حياة الحيوان و النبات.

قوله تعالى: «وَ إِنْ كٰانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ» الإبلاس:

اليأس و القنوط.

و ضمير «يُنَزَّلَ» للمطر و كذا ضمير «مِنْ قَبْلِهِ» على ما قيل، و عليه يكون «مِنْ قَبْلِهِ» تأكيدا لقوله: «مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ» و فائدة التأكيد- على ما قيل- الاعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من اليأس إلى الاستبشار، و ذلك أن قوله : «مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ» يحتمل الفسحة فى الزمان فجاء «مِنْ قَبْلِهِ» للدلالة على الاتصال و دفع ذلك الاحتمال.

و فى الكشاف، أن قوله: «مِنْ قَبْلِهِ» من باب التكرير و التوكيد كقوله تعالى:

«فَكٰانَ عٰاقِبَتَهُمٰا أَنَّهُمٰا فِي اَلنّٰارِ خٰالِدَيْنِ فِيهٰا » و معنى التوكيد فيه الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول و بعد فاستحكم يأسهم و تمادى إبلاسهم فكان الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك. انتهى.

و ربما قيل: إن ضمير «مِنْ قَبْلِهِ» لإرسال الرياح، و المعنى: و إن كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر من قبل إرسال الرياح لآيسين قانطين.

قوله تعالى: «فَانْظُرْ إِلىٰ آثٰارِ رَحْمَتِ اَللّٰهِ كَيْفَ يُحْيِ اَلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهٰا إِنَّ ذٰلِكَ لَمُحْيِ اَلْمَوْتىٰ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» الآثار جمع الأثر و هو ما يبقى بعد الشى ء فيدل عليه كأثر القدم و أثر البناء و أستعير لكل ما يتفرع على شى ء، و المراد برحمة الله

المطر النازل من السحاب الذی بسطته الریاح، و آثارها ما یترتب علی نزول المطر من النبات و الأشجار و الأثمار و هی بعینها آثار حیاة الأرض بعد موتها.

و لذا قال: «فَانْظُرْ إِلی آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ کَیْفَ یُحْیِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها » فجعل آثار الرحمة التی هی المطر کیفیة إحیاء الأرض بعد موتها، فحیاة الأرض بعد موتها

ص: 203

من آثار الرحمة و النبات و الأشجار و الأثمار من آثار حیاتها و هی أیضا من آثار الرحمة و التدبیر تدبیر إلهی یتفرع علی خلقة الریاح و السحاب و المطر.

و قوله: «إِنَّ ذلِکَ لَمُحْیِ الْمَوْتی » الإشارة بذلک إلیه تعالی بما له من الرحمة التی من آثارها إحیاء الأرض بعد موتها، و فی الإشارة البعیدة تعظیم، و المراد بالموتی موتی الإنسان أو الإنسان و غیره من ذوی الحیاة.

و المراد بقوله: «إِنَّ ذلِکَ لَمُحْیِ الْمَوْتی » الدلالة علی المماثلة بین إحیاء الأرض المیتة و إحیاء الموتی إذ فی کل منهما موت هو سقوط آثار الحیاة من شیء محفوظ و حیاة هی تجدد تلک الآثار بعد سقوطها، و قد تحقق الإحیاء فی الأرض و النبات و حیاة الإنسان و غیره من ذوی الحیاة مثلها و حکم الأمثال فیما یجوز و فیما لا یجوز واحد، فإذا جاز الإحیاء فی بعض هذه الأمثال و هو الأرض و النبات فلیجز فی البعض الآخر.

و قوله: «وَ هُوَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ» تقریر للإحیاء المذکور ببیان آخر و هو عموم القدرة فإن القدرة غیر محدودة و لا متناهیة فیشمل الإحیاء بعد الموت و إلا لزم تقیدها و قد فرضت مطلقة غیر محدودة.

قوله تعالی: «وَ لَئِنْ أَرْسَلْنا رِیحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ یَکْفُرُونَ » ضمیر «فَرَأَوْهُ» للنبات المفهوم من السیاق، و قوله «لَظَلُّوا» جواب للقسم قائم مقام الجزاء، و المعنی: و أقسم لئن أرسلنا ریحا باردة فضربت زروعهم و أشجارهم بالصفار و رأوه لظلوا بعده کافرین بنعمه.

ففی الآیة توبیخهم بالتقلب السریع فی النعمة و النقمة، فإذا لاحت لهم النعمة بادروا إلی الاستبشار، و إذا أخذ بعض ما أنعم الله به من فضله لم یلبثوا دون أن یکفروا بالمسلمات من النعم.

و قیل: ضمیر «فَرَأَوْهُ» للسحاب لأن السحاب إذا کان أصفر لم یمطر، و قیل:

للریح فإنه یذکر و یؤنث، و القولان بعیدان.

قوله تعالى: «فَإِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى‏ - إلى قوله- فَهُمْ مُسْلِمُونَ» تعليل لما يفهم من السياق السابق كأنه قيل: لا تشتغل و لا تحزن بهؤلاء الذين تتبدل بهم الأحوال من إبلاس و استبشار و كفر و من عدم الإيمان بآياتنا و عدم تعقلها فإنهم موتى و صم و عمى

ص: 204

و أنت لا تقدر على إسماعهم و هدايتهم و إنما تسمع و تهدى من يؤمن بآياتنا أى يعقل هذه الحجج و يصدقها فهم مسلمون. و قد تقدم تفسير الآيتين فى سورة النمل.

[سورة الروم (٣٠): الآيات ٥۴ الى ۶٠]

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (۵۴) وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ (۵۵) وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى‏ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ (۵۶) فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (۵۷) وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُبْطِلُونَ (۵۸)

كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى‏ قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۵۹) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (۶٠)

(بيان)

هذا هو الفصل الرابع من الآيات و هو كسابقه و فيها ختام السورة.

قوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَ يْبَةً» إلخ، الضعف و القوة متقابلان، و «مِنْ» فى قوله: «مِنْ

ص: 205

ضَعْفٍ للابتداء أى ابتداء خلقكم من ضعف أى ابتدأكم ضعفاء، و مصداقه على ما تفيده المقابلة أول الطفولية و إن أمكن صدقه على النطفة.

و المراد بالقوة بعد الضعف بلوغ الأشد و بالضعف بعد القوة الشيخوخة و لذا عطف عليه «شَيْبَةً» عطف تفسير، و تنكير «ضَعْفٍ» و «قُوَّةً» للدلالة على الإبهام و عدم تعين المقدار لاختلاف الأفراد فى ذلك.

و قوله: «يَخْلُقُ ما يَشاءُ» أى كما شاء الضعف فخلقه ثم القوة بعده فخلقها ثم الضعف بعدها فخلقه و فى ذلك أتم الإشارة إلى أن تتالى هذه الأحوال من الخلق و إذ كان هذا النقل من حال إلى حال فى عين أنه تدبير خلقا فهو لله الخالق للأشياء فليس لقائل منهم أن يقول: إن ذلك من التدبير الراجع إلى إله الإنسان، مثلا كما يقوله الوثنية.

ثم تمم الكلام بالعلم و القدرة فقال: «وَ هُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ».

قوله تعالى: «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ »، هذه الآيات كالذنابة للآيات السابقة العادة للآيات و الحجج على وحدانيته تعالى و البعث، و كالتمهيد و التوطئة للآية التى تختتم بها السورة فإنه لما عد شيئا من الآيات و الحجج و أشار إلى أنهم ليسوا ممن يترقب منهم الإيمان أو يطمع فى إيمانهم أراد أن يبين أنهم فى جهل من الحق يتلقون الحديث الحق باطلا و الآيات الصريحة الدلالة منعزلة عن دلالتها و كذلك يؤفكون و لا عذر لهم يعتذرون به.

و هذا الإفك و التقلب من الحق إلى الباطل يدوم عليهم و يلازمهم حتى قيام الساعة فيظنون أنهم لم يلبثوا فى قبورهم فيما بين الموت و البعث غير ساعة من نهار فاشتبه عليهم أمر البعث كما اشتبه عليهم كل حق فظنوه باطلا.

فقوله: «وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ»، يحكى عنهم اشتباه الأمر عليهم فى أمر الفصل بين الدنيا و يوم البعث حتى ظنوه ساعة من ساعات الدنيا.

و قوله: «كَذلِكَ كانُوا يُؤْفَكُونَ » أى يصرفون من الحق إلى الباطل فيدعون إلى الحق و يقام عليه الحجج و الآيات فيظنونه باطلا من القول و خرافة من الرأى.

ص: 206

قوله تعالى: «وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ » إلخ، رد منهم لقول المجرمين: «ما لَبِثُوا غَيْرَ ساعَةٍ» فإن المجرمين لإخلادهم إلى الأرض و توغلهم فى نشأة الدنيا يرون يوم البعث و الفصل بينه و بين الدنيا محكوما بنظام الدنيا فقدروا الفصل بساعة و هو مقدار قليل من الزمان كأنهم ظنوا أنهم بعد فى الدنيا لأنه مبلغ علمهم.

فرد عليهم أهل العلم و الإيمان أن اللبث مقدر بالفصل بين الدنيا و يوم البعث و هو الفصل الذى يشير إليه قوله : «وَ مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»: المؤمنون: ١٠٠.

فاستنتجوا منه أن اليوم يوم البعث و لكن المجرمين لما كانوا فى ريب من البعث و لم يكن لهم يقين بغير الدنيا ظنوا أنهم لم يمر بهم إلا ساعة من ساعات الدنيا و هذا معنى قولهم : «لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ»، أى كنتم جاهلين مرتابين لا يقين لكم بهذا اليوم و لذلك اشتبه عليكم أمر اللبث.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله: «أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمانَ»، اليقين و الالتزام بمقتضاه و أن العلم بمعنى اليقين بالله و بآياته و الإيمان بمعنى الالتزام بمقتضى اليقين من الموهبة الإلهية، و من هنا يظهر أيضا أن المراد بكتاب الله الكتب «۱» السماوية أو خصوص القرآن لا غيره و قول بعضهم : إن فى الآية تقديما و تأخيرا و التقدير و قال الذين أوتوا العلم و الإيمان فى كتاب الله لقد لبثتم إلى يوم البعث لا يعتد به.

قوله تعالى: «فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَ لا هُمْ يُسْتَ عْتَبُونَ» الاستعتاب طلب العتبى، و العتبى إزالة العتاب أى لا ينفعهم المعذرة عن ظلمهم و لا يطلب منهم أن يزيلوا العتاب عن أنفسهم.

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ ضَرَبْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ» إلخ، إشارة

---

(١) و يمكن أن يكون المراد بكتاب الله اللوح المحفوظ فيكون ذلک استدلالا على قولهم بكتاب الله و يكون نظير ما فى قوله : «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق»، الجاثية: ٢٩ بناء على ما سيأتى من معناه «منه».

إلى كونهم مأفوكين مصروفين عن الحق حيث لا ينفعهم مثل يقرب الحق من قلوبهم لأنها مطبوع عليها، و لذا عقبه بقوله : «وَ لَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ » أى جاءون بالباطل و هذا القول منهم لأنهم مصروفون عن الحق يرون كل حق باطلا، و وضع الموصول و الصلة موضع الضمير للدلالة على سبب القول.

قوله تعالى: «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ»، أى يجهلون بالله و آياته و منها البعث و هم يصرون على جهلهم و ارتيابهم.

قوله تعالى: «فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ »، أى فاصبر على ما يواجهونک به من قولهم : «إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ» و سائر تهكماتهم، إن وعد الله أنه ينصرک حق كما أومأ إليه بقوله : «وَ كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ »، و لا يستخفنک الذين لا يوقنون بوعد الله سبحانه.

و قول بعضهم: إن المعنى لا يوقنون بما تتلو عليهم من الآيات البينات بتكذيبهم لها و إيذائهم لک بأباطيلهم، ليس بشى ء و قد بدأت السورة بالوعد و ختمت بالوعد و الوعدان جميعا بالنصرة.

(٣١) (سورة لقمان مكية، و هى أربع و ثلاثون آية) (٣۴)

[سورة لقمان (٣١): الآيات ١ الى ١١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ (٣) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (۴)

أُولئِکَ عَلى ‌هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۵) وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (۶) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِی أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (۷) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (۸) خالِدِينَ فِيها وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۹)

خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَ أَلْقى فِی الْأَرْضِ رَواسِیَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (۱۰) هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِی ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِی ضَلالٍ مُبِينٍ (۱۱)

(بيان)

غرض السورة كما يومئ إليه فاتحتها و خاتمتها و يشير إليه سياق عامة آياتها الدعوة إلى التوحيد و الإيقان بالمعاد و الأخذ بكليات شرائع الدين.

و يلوح من صدر السورة أنها نزلت فی بعض المشركين حيث كان يصد الناس عن استماع القرآن بنشر بعض أحاديث مزوقة ملهية كما ورد فيه الأثر فی سبب نزول قوله:

«وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» الآية، و سيوافی حديثه.

فنزلت السورة تبين أصول عقائد الدين و كليات شرائعه الحقة و قصت شيئا من خبر لقمان الحكيم و مواعظه تجاه أحاديثهم الملهية.

و السورة مكية بشهادة سياق آياتها. و من غرر الآيات فيها قوله تعالى: «ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ» الآية.

قوله تعالى: «تِلْکَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ - إلى قوله- يُوقِنُونَ» تقدم تفسير مفردات هذه الآيات فی السور السابقة.

و قد وصف الكتاب بالحكيم إشعارا بأنه ليس من لهو الحديث من شی‌ء بل كتاب لا انثلام فيه ليداخله لهو الحديث و باطل القول، و وصفه أيضا بأنه هدى و رحمة للمحسنين تتميما لصفة حكمته فهو يهدی إلى الواقع الحق و يوصل إليه لا كاللهو الشاغل للإنسان عما يهمه، و هو رحمة لا نقمة صارفة عن النعمة.

و وصف المحسنين بإقامة الصلاة و إيتاء الزكاة اللتين هما العمدتان فی الأعمال و بالإيقان بالآخرة و يستلزم التوحيد و الرسالة و عامة التقوى، كل ذلک مقابلة الكتاب للهو الحديث المصغی إليه لمن يستمع لهو الحديث.

قوله تعالى: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً » إلخ، اللهو ما يشغلک عما يهمک، و لهو الحديث: الحديث الذى يلهى عن الحق بنفسه كالحكايات الخرافية و القصص الداعية إلى الفساد و الفجور، أو بما يقارنه كالتغنى بالشعر أو بالملاهى و المزامير و المعازف فكل ذلك يشمله لهو الحديث.

ص: 210

و قوله: «لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ» مقتضى السياق أن يكون المراد بسبيل الله القرآن الكريم بما فيه من المعارف الحقة الاعتقادية و العلمية و خاصة قصص الأنبياء و أممهم الخالية فإن لهو الحديث و الأساطير المزوقة المختلقة تعارض أولا هذه القصص ثم تهدم بنيان سائر المعارف الحقة و توهنها فى أنظار الناس.

و يؤيد ذلک قوله بعد: «وَ يَتَّخِذَها هُزُواً» فإن لهو الحديث بما أنه حديث كما سمعت يعارض أولا الحديث و يتخذه سخريا.

فالمراد بسبيل الله القرآن بما فيه من القصص و المعارف و كأن مراد من كان يشترى لهو الحديث أن يضل الناس بصرفهم عن القرآن و أن يتخذ القرآن هزوا بأنه حديث مثله و أساطير كأساطيره.

و قوله: «بِغَيْرِ عِلْمٍ» متعلق بيضل و هو فى الحقيقة وصف ضلال الضالين دون إضلال المضلين و إن كانوا أيضا لا علم لهم ثم هددهم بقوله: «أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ» أى مذل يوهنهم و يذلهم حذاء استكبارهم فى الدنيا.

قوله تعالى: «وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً » إلخ، وصف لذاک الذى يشترى لهو الحديث ليضل الناس عن القرآن و يهزأ به و الوقر الحمل الثقيل و المراد بكون الوقر على أذنيه أن يشد عليهما ما يمنع من السمع و قيل: هو كناية عن الصمم.

و المعنى: و إذا تتلى على هذا المشترى لهو الحديث آياتنا أى القرآن ولى و أعرض عنها و هو مستكبر كأن لم يسمعها قط كأنه أصم فبشره بعذاب أليم.

و قد أعيد إلى من يشترى ضمير الإفراد أولا كما فى «يَشْتَرِي» و «لِيُضِلَ» و «يَتَّخِذَها» باعتبار اللفظ و الضمير الجمع، ثانيا باعتبار المعنى ثم ضمير الإفراد باعتبار اللفظ كما فى «عَلَيْهِ» و غيره كذا قيل، و من الممكن أن يكون ضمير «لَهُمْ» فى الآية السابقة راجعا إلى مجموع المضل و الضالين المدلول عليهم بالسياق فكون الضمائر الراجعة إلى «مِنَ» مفردة جميعا.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ - إلى قوله- الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» رجوع بعد إنذار ذاک المشترى و تهديده بالعذاب المهين ثم العذاب

ص: 211

الأليم إلى تبشير المحسنين و تطييب أنفسهم بجنة النعيم الخالدة الموعودة من قبله تعالى و وعده الحق.

و لما كان غرض من اشترى لهو الحديث أن يلتبس الأمر على من يضله بغير علم فيحسب القرآن من الأساطير الباطلة كأساطيره و يهين به و كان لا يعتنى بما تتلى عليه من الآيات مستكبرا و ذلك استهانة بالله سبحانه أكد أولا ما وعده للمحسنين بقوله:

«وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا» ثم وصف ثانيا نفسه بالعزة المطلقة، فلا يطرأ عليه ذلة و أهانه و الحكمة المطلقة فلا يداخل كلامه باطل و لا هزل و خرافة.

ثم وصفه ثالثا بأنه الذى يدبر أمر السماء و الأرض و النبات و الحيوان و الإنسان لأنه خالقها فله أن يعد هؤلاء بالجنة و أولئك بالعذاب و هو قوله: «خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» إلخ.

قوله تعالى: «خَلَقَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها » إلخ، تقدم فى تفسير قوله تعالى : «اللَّهُ الَّذِی رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها »: الرعد: ٢ أن قوله: «تَرَوْنَها» يحتمل أن يكون قيدا توضيحيا، و المعنى أنكم ترونها و لا أعمدة لها، و أن يكون قيدا احترازيا و المعنى خلقها بغير أعمدة مرئية إشعارا بأن هناك أعمدة غير مرئية.

و قوله: «وَ أَلْقى فِی الْأَرْضِ رَواسِیَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ»، أى ألقى فيها جبالا شامخة لئلا تضطرب بكم و فيه إشعار بأن بين الجبال و الزلازل رابطة مستقيمة.

و قوله: «وَ بَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ» أى نشر فى الأرض من كل حيوان يدب عليها.

و قوله: «وَ أَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ » أى و أنزلنا من جهة العلو ماء و هو المطر و أنبتنا فيها شيئا من كل زوج نباتى شريف فيه منافع و له فوائد، و فيه إشارة إلى تزوج النبات و قد تقدم الكلام فيه فى نظيره.

و الالتفات فيها من الغيبة إلى التكلم مع الغير للإشارة إلى كمال العناية بأمره كما قيل.

قوله تعالى: «هذا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِی ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِی ضَلالٍ مُبِينٍ »، لما أراهم خلقه و تدبيره تعالى للسماوات و الأرض و ما عليها فأثبت به ربوبيته و ألوهيته تعالى كلفهم أن يروه شيئا من خلق آلهتهم إن كانوا آلهة و أربابا فإن

ص: 212

لم يقدروا على إراءة شيء ثبت بذلك وحدانيته تعالى فى ألوهيته و ربوبيته.

و إنما كلفهم بإراءة شيء من خلق آلهتهم- و هم يعترفون أن الخلق لله وحده و لا يسندون إلى آلهتهم خلقا و إنما ينسبون إليهم التدبير فقط، لأنه نسب إلى الله خلقا هو بعينه تدبير من غير انفكاك، فلو كان لآلهتهم تدبير فى العالم كان لهم خلق ما يدبرون أمره و إذ ليس لهم خلق فليس لهم تدبير فلا إله إلا الله و لا رب غيره.

و قد سيقت الآية خطابا من النبى ص لأن نوع هذا الخطاب «فَأَرُونِی ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ» لا يستقيم من غيره (ص).

(بحث روائی)

فی المجمع،": نزل قوله تعالی: «وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ یَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِیثِ » فی النضر بن الحارث بن علقمة بن کلدة- بن عبد الدار بن قصی بن کلاب- کان یتجر فیخرج إلی فارس فیشتری أخبار الأعاجم- و یحدث بها قریشا و یقول لهم: إن محمدا یحدثکم بحدیث عاد و ثمود- و أنا أحدثکم بحدیث رستم و إسفندیار- و أخبار الأکاسرة فیستمعون حدیثه و یترکون استماع القرآن ": عن الکلبی.

أقول: و روی هذا المعنی فی الدر المنثور، عن البیهقی عن ابن عباس، و لا یبعد أن یکون ذلک سبب نزول تمام السورة کما تقدمت الإشارة إلیه.

و فی المعانی، بإسناده عن یحیی بن عبادة عن أبی عبد الله (ع): قلت: قوله عز و جل: «وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ یَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِیثِ » قال: منه الغناء.

أقول: و روی هذا المعنی فی الکافی، بإسناده عن مهران عنه (ع)، و بإسناده عن الوشاء عن الرضا عنه (ع)، و بإسناده عن الحسن بن هارون عنه (ع).

و فی الکافی، بإسناده عن محمد بن مسلم عن أبی جعفر (ع) قال: سمعته یقول: الغناء مما أوعد الله علیه النار و تلا هذه الآیة: «وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ یَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِیثِ لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ یَتَّخِذَهٰا هُزُواً- أُولٰئِکَ لَهُمْ عَذٰابٌ مُهِینٌ».

و فیه، بإسناده عن أبی بصیر قال: سألت أبا جعفر (ع) عن کسب المغنیات

ص: 213

فقال: التی یدخل علیها الرجال حرام- و التی تدعی إلی الأعراس لیس به بأس- و هو قول الله عز و جل: «وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ یَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِیثِ لِیُضِلَّ عَنْ سَبِیلِ اللّٰهِ».

و فی المجمع، و روی أبو أمامة عن النبی ص قال: لا یحل تعلیم المغنیات و لا بیعهن و أثمانهن حرام- و قد نزل تصدیق ذلک فی کتاب الله: «وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ یَشْتَرِی لَهْوَ الْحَدِیثِ» الآیة:

أقول: و رواه فی الدر المنثور، عن جم غفیر من أصحاب الجوامع عن أبی أمامة عنه (ص).

و فیه، و روی عن أبی عبد الله (ع) أنه قال: هو الطعن فی الحق و الاستهزاء به و ما کان أبو جهل و أصحابه یجیئون به إذ قال: یا معاشر قریش- أ لا أ طعمکم من الزقوم الذی یخوفکم به صاحبکم؟ ثم أرسل إلی زبد و تمر فقال: هذا هو الزقوم الذی یخوفکم به. قال: و منه الغناء.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن أبی الدنیا عن علی بن الحسین قال: ما قدست أمة فیها البربط.

و فى تفسير القمى، فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر (ع): فى قوله: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الْحَدِيثِ- لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ» فهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة- من بنى عبد الدار بن قصى، و كان النضر ذا رواية لأحاديث الناس و أشعارهم، يقول الله عز و جل: «وَ إِذا تُتْلىٰ عَلَيْهِ آياتُنا وَلّىٰ مُسْتَكْبِراً» الآية.

و فيه، عن أبيه عن الحسين بن خالد عن أبى الحسن الرضا (ع) قال: قلت له:

أخبرنى عن قول الله تعالى : «وَ السَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ » قال: هى محبوكة إلى الأرض و شبك بين أصابعه . فقلت: كيف تكون محبوكة إلى الأرض و الله يقول: «رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها»؟ فقال: سبحان الله أ ليس يقول: «بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها»؟

فقلت: بلى. فقال: فثم عمد و لكن لا ترونها.

ص: 214

[سورة لقمان (٣١): الآيات ١٢ الى ١٩]

وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (١٢) وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لاِبْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلىٰ وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَ لِوالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (١٤) وَ إِنْ جاهَداكَ عَلىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَ صاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١۶)

يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلىٰ ما أَصابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ (١٨) وَ اقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩)

(بيان)

فى الآيات إشارة إلى إيتاء لقمان الحكمة و نبذة من حكمه و مواعظه لابنه و لم يذكر فى القرآن إلا فى هذه السورة و يناسب المورد من حيث مقابلة قصته الممتلئة حكمة و موعظة لما قص من حديث من كان يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم و يتخذها هزوا.

ص: 215

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ» إلخ، الحكمة على ما يستفاد من موارد استعمالها هى المعرفة العلمية النافعة و هى وسط الاعتدال بين الجهل و الجربزة. و قوله: «أَنِ اشْكُرْ لِي» قيل: هو بتقدير القول أى و قلنا: أَنِ اشْكُرْ لِي.

و الظاهر أنه تفسير إيتائه الحكمة من غير تقدير القول، و ذلک أن حقیقة الشکر هی وضع النعم فی موضعها الذی ینبغی له بحیث یشیر إلی إنعام المنعم، و إیقاعه کما هو حقه یتوقف علی معرفة المنعم و معرفة نعمه بما هی نعمة و کیفیة وضعها موضعه بحیث یحکی عن إنعامه فإیتاؤه الحکمة بعث له إلی الشکر فإیتاء الحکمة أمر بالشکر بالملازمة.

و فی قوله: «أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ» التفات من التکلم مع الغیر إلی الغیبة و ذلک أن التکلم مع الغیر من المتکلم إظهار للعظمة بالتکلم عن قبل نفسه و خدمه و قول أن اشکر لنا علی هذا لا یناسب التوحید فی الشکر و هو ظاهر.

و قوله: «وَ مَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّما يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » استغناء منه تعالی أن نفع الشکر إنما یرجع إلی نفس الشاکر و الکفر لا یتضرر به إلا نفسه دونه سبحانه و من یشکر فإنما یوقع الشکر لنفع نفسه و لا ینتفع به الله سبحانه لغناه المطلق و من کفر فإنما یتضرر به نفسه إن الله غنی لا یؤ ثر فیه الشکر نفعا و لا ضرا حمید محمود علی ما أنعم سواء شکر أو کفر.

و فی التعبیر عن الشکر بالمضارع الدال علی الاستمرار و فی الکفر بالماضی الدال علی المرة إشعار بأن الشکر إنما ینفع مع الاستمرار لکن الکفر یتضرر بالمرة منه.

قوله تعالی: «وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » عظمة کل عمل بعظمة أثره و عظمة المعصیة بعظمة المعصی فإن مؤاخذة العظیم عظیمة فأعظم المعاصی معصیة الله لعظمته و کبریائه فوق کل عظمة و کبریاء بأنه الله لا شریک له و أعظم معاصیه معصیته فی أنه الله لا شریک له.

و قوله: «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» حیث أطلق عظمته من غیر تقیید بقیاسه إلی سائر المعاصی یدل علی أن له من العظمة ما لا یقدر بقدر.

قوله تعالی: «وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ » إلی آخر الآیة، اعتراض و اقع بین الکلام المنقول عن لقمان و لیس من کلام لقمان و إنما اطرد هاهنا للدلالة علی وجوب

ص: 216

شکر الوالدین کوجوب الشکر لله بل هو من شکره تعالی لانتهائه إلی وصیته و أمره تعالی، فشکرهما عبادة له تعالی و عبادته شکر.

و قوله: «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَ فِصالُهُ فِي عامَيْنِ» ذکر بعض ما تحملته أمه من المحنة و الأذی فی حمله و تربیته لیکون داعیا له إلی شکرهما و خاصة الأم.

و الوهن الضعف و هو حال بمعنى ذات وهن أو مفعول مطلق و التقدير تهن وهنا على وهن، و الفصال الفطم و ترک الإرضاع، و معنى كون الفصال فی عامین تحققه بتحقق العامین فیئول إلى كون الإرضاع عامین، و إذا ضم إلى قوله تعالى: «وَ حَمْلُهُ وَ فِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً»،: الأحقاف: ۱۵ بقی لأقل الحمل ستة أشهر، و ستكرر الإشارة إلیه فیما سیأتی «۱».

و قوله: «أَنِ اشْكُرْ لِی وَ لِوالِدَیْکَ إِلَیَّ الْمَصِیرُ» تفسیر لقوله: «وَصَّیْنَا» إلخ، فی أول الآیة أی كانت وصیتنا هو أمرنا بشكرهما كما أمرناه بشكر الله، و قوله: «إِلَیَّ الْمَصِیرُ» إنذار و تأكید للأمر بالشكر.

و القول فی الالتفات الواقع فی الآیة فی قوله : «أَنِ اشْكُرْ لِی وَ لِوالِدَیْکَ إِلَیَّ الْمَصِیرُ» إلخ، من سیاق التكلم مع الغیر إلى سیاق التكلم وحده كالقول فی الالتفات فی قوله السابق: «أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ».

قوله تعالى: «وَ إِنْ جاهَداکَ عَلى أَنْ تُشْرِکَ بِی ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما » إلى آخر الآیة. أی إن ألحا علیک بالمجاهدة أن تجعل ما لیس لک علم به أو بحقیقته شریكا لی فلا تطعهما و لا تشرک بی، و المراد بكون الشریک المفروض لا علم به كونه معدوما مجهولا مطلقا لا یتعلق به علم فیئول المعنى: لا تشرک بی ما لیس بشیء، هذا محصل ما ذكره فی الكشاف، و ربما أیده قوله تعالى: «أَ تُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا یَعْلَمُ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ»: یونس: ۱۸.

و قیل: «تُشْرِکَ» بمعنى تكفر و «ما» بمعنى الذی، و المعنى : و إن جاهداک أن تكفر بی كفرا لا حجة لک به فلا تطعهما و یؤیده تكرار نفی السلطان على الشریک

---

(۱) فی بحث روائی فی ذیل آیة الأحقاف.

فی كلامه تعالى كقوله: «ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّیْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ »،: یوسف: ۴۰ إلى غیر ذلک من الآیات.

و قوله: «وَ صاحِبْهُما فِی الدُّنْیا مَعْرُوفاً وَ اتَّبِعْ سَبِیلَ مَنْ أَنابَ إِلَیَّ » الجملتان كالتلخیص و التوضیح لما تقدم فی الآیتین من الوصیة بهما و النهی عن إطاعتهما إن جاهدا على الشرک بالله.

یقول سبحانه: یجب على الإنسان أن یصاحبهما فی الأمور الدنیویة غیر الدین الذی هو سبیل الله صحابا معروفا و معاشرة متعارفة غیر منكرة من رعایة حالهما بالرفق و اللین من غیر جفاء و خشونة و تحمل المشاق التی تلحقه من جهتهما فلیست الدنیا إلا أیاما معدودة متصرمة، و أما الوالدین فإن كانا ممن أناب إلى الله فلتتبع سبیلهما و إلا فسبیل غیرهم ا ممن أناب إلى الله.

و من هنا يظهر أن فى قوله: «وَ اتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنابَ إِلَيَ» إيجازا لطيفا فهو يفيد أنهما لو كانا من المنيبين إلى الله فلتتبع سبيلهما و إلا فلا يطاعا و لتتبع سبيل غيرهما ممن أناب إلى الله.

و قوله: «ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أى هذا الذى ذكر، تكليفكم فى الدنيا ثم ترجعون إلى يوم القيامة فأظهر لكم حقيقة أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا فأقضى بينكم على حسب ما تقتضيه أعمالكم من خير أو شر.

و بما مر يظهر أن قوله: «فِي الدُّنْيا» يفيد أولا قصر المصاحبة بالمعروف فى الأمور الدنيوية دون الدينية، و ثانيا: تهوين أمر الصحبة و أنها ليست إلا فى أيام قلائل فلا كثير ضير فى تحمل مشاق خدمتهما، و ثالثا المقابلة ليوم الرجوع إلى الله المشار إليه بقوله: «ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ» إلخ.

قوله تعالى: «يا بُنَيَّ إِنَّها إِنْ تَكُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّماواتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ» إلخ، ذكروا أن الضمير فى «إِنَّها» للخصلة من الخير و الشر لدلالة السياق على ذلك و هو أيضا اسم كان و «مِثْقالَ حَبَّةٍ» خبره، و المراد بكونها فى صخرة اختفاؤها بالاستقرار فى جوف الصخرة الصماء أو فى السماوات أو فى الأرض، و المراد بالإتيان بها إحضارها للحساب و الجزاء.

ص: 218

كان الفصل السابق من كلامه المنقول راجعا إلى التوحيد و نفى الشريك و ما فى هذه الآية فصل ثان فى المعاد و فيه حساب الأعمال، و المعنى: يا بنى إن تكن الخصلة التى عملت من خير أو شر أخف الأشياء و أدقها كمثقال حبة من خردل فتكن تلك الخصلة الصغيرة مستقرة فى جوف صخرة أو فى أى مكان من السماوات و الأرض يأت بها الله للحساب و الجزاء لأن الله لطيف ينفذ علمه فى أعماق الأشياء و يصل إلى كل خفى خبير يعلم كنه الموجودات.

قوله تعالى: «يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَ أْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَ انْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ اصْبِرْ عَلى ما أَصابَكَ إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» الآية و ما بعدها من كلامه راجع إلى نبذة من الأعمال و الأخلاق الفاضلة.

فمن الأعمال الصلاة التى هى عمود الدين و يتلوها الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و من الأخلاق الصبر على ما يصيب من مصيبة.

و قوله: «إِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ» الإشارة إلى الصبر و الإشارة البعيدة للتعظيم و الترفيع و قول بعضهم: إن الإشارة إلى جميع ما تقدم من الصلاة و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و الصبر ليس فى محله لتكرر عد الصبر من عزم الأمور فى كلامه تعالى كقوله: «وَ لَمَنْ صَبَرَ وَ غَفَرَ إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»: الشورى: ۴۳ و قوله:

«إِنْ تَصْبِرُوا وَ تَتَّقُوا فَإِنَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ»: آل عمران: ۱۸۶.

و العزم- على ما ذكره الراغب- عقد القلب على إمضاء الأمر و كون الصبر- و هو حبس النفس فى الأمر- من العزم إنما هو من حيث إن العقد القلبى ما لم ينحل و ينفصم ثبت الإنسان على الأمر الذى عقد عليه فالصبر لازم الجد فى العقد و المحافظة عليه و هو من قدرة النفس و شهامتها.

و قول بعضهم: إن المعنى أن ذلك من عزيمة الله و إيجابه فى الأمور بعيد و كذا قول بعضهم: إن العزم هو الجزم و هو لغة هذيل.

قوله تعالى: «وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنّاسِ وَ لا تَمْشِ فِی الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللّهَ لا یُحِبُّ کُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ» قال الراغب: الصعر ميل فى العنق و التصعير إمالته عن النظر كبرا قال: «وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنّاسِ» و قال: المرح شدة الفرح و التوسع فيه انتهى.

فالمعنى: لا تعرض بوجهك عن الناس تكبرا و لا تمش فى الأرض مشية من اشتد فرحه إن الله لا يحب كل من تأخذه الخيلاء- و هو التكبر بتخيل الفضيلة- و يكثر من الفخر. و قال بعضهم إن معنى: «لا تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنّاسِ» لا تلو عنقك لهم تذللا عند الحاجة و فيه أنه لا يلائمه ذيل الآية.

قوله تعالى: «وَ اقْصِدْ فِی مَشْیِکَ وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِکَ إِنَّ أَنْکَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِیرِ» القصد فى الشىء الاعتدال فيه و الغض- على ما ذكره الراغب- النقصان من الطرف و الصوت فغض الصوت النقص و القصر فيه.

و المعنى: و خذ بالاعتدال فى مشيك و بالنقص و القصر فى صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير لمبالغتها فى رفعه.

(بحث روائى)

فى الكافى، بإسناده عن عبد الله بن سنان قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: إن من الكبائر عقوق الوالدين- و اليأس من روح الله و الأمن من مكر الله

و قد روى: أكبر الكبائر الشرك بالله.

و فى الفقيه، فى الحقوق المروية عن سيد العابدين (ع)*: حق الله الأكبر عليك أن تعبده و لا تشرك به شيئا- فإذا فعلت ذلك بإخلاص- جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا و الآخرة.

قال: و أما حق أمك- أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحد أحدا- و أعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطى أحد أحدا- و وقتك بجميع جوارحها، و لم تبال أن تجوع و تطعمك، و تعطش و تسقيك، و تعرى و تكسوك، و تضحى و تظلك، و تهجر النوم لأجلك، و وقتك الحر و البرد لتكون لها- فإنك لا تطيق شكرها إلا بعون الله و توفيقه.

و أما حق أبيك فأن تعلم أنه أصلك- فإنك لولاه لم تكن فمهما رأيت من نفسك ما يعجبك- فاعلم أن أباك أصل النعمة عليك فيه- فاحمد الله و اشكره على قدر ذلك و لا قوة إلا بالله.

و فی الکافی، بإسناده عن هشام بن سالم عن أبی عبد الله (ع) قال: جاء رجل

إلی النبی ص- فقال: یا رسول الله من أبر؟ قال: أمک. قال: ثم من؟ قال:

أمک. قال: ثم من؟ قال: أمک. قال: ثم من؟ قال: أباک.

و فی المناقب،: مر الحسین بن علی (ع)- علی عبد الرحمن بن عمرو بن العاص.

فقال عبد الله: من أحب أن ینظر إلی أحب أهل الأرض إلی أهل السماء- فلینظر إلی هذا المجتاز و ما کلمته منذ لیالی صفین.

فأتی به أبو سعید الخدری إلی الحسین (ع)- فقال له الحسین (ع): أ تعلم أنی أحب أهل الأرض إلی أهل السماء- و تقاتلنی و أبی یوم صفین؟ و الله إن أبی لخیر منی.

فاستعذر- و قال إن النبی ص قال لی: أطع أباک. فقال له الحسین (ع): أ ما سمعت قول الله عز و جل: «وَ إِنْ جاهَداکَ عَلی أَنْ تُشْرِکَ بِی ما لَیْسَ لَکَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما»

و قال رسول الله ص: إنما الطاعة بالمعروف، و قوله: لا طاعة لمخلوق فی معصیة الخالق.

و فی الفقیه،: فی ألفاظه (ص) الموجزة: لا طاعة لمخلوق فی معصیة الخالق.

و فی الکافی، بإسناده عن أبی بصیر عن أبی جعفر (ع) قال: سمعته یقول: اتقوا المحقرات من الذنوب فإن لها طالبا، یقول أحدکم أذنب و أستغفر إن الله عز و جل یقول: «وَ نَکْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ- وَ کُلَّ شَیْءٍ أَحْصَیْناهُ فِی إِمامٍ مُبِینٍ- و قال عز و جل: «إِنَّها إِنْ تَکُ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ- فَکُنْ فِی صَخْرَةٍ أَوْ فِی السَّماواتِ أَوْ فِی الْأَرْضِ- یَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِیفٌ خَبِیرٌ».

و فیه، بإسناده إلی معاویة بن وهب قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن أفضل ما یتقرب به العباد إلی ربهم- و أحب ذلک إلی الله عز و جل- فقال: ما أعلم شیئا بعد المعرفة أفضل من هذه الصلاة.

الحدیث.

و فیه، بإسناده عن محمد بن الفضیل عن أبی الحسن الرضا (ع) أنه قال: الصلاة قربان کل تقی.

و فی المجمع،: «وَ اصْبِرْ عَلی ما أَصابَکَ» من المشقة و الأذی- فی الأمر بالمعروف و النهی عن المنکر: عن علی (ع).

و فيه،: في قوله تعالى: «وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنَّاسِ» أی و لا تمل وجهک من الناس بکل- و لا تعرض عمن یکلمک استخفافا به،: و هذا المعنى قول ابن عباس و أبی عبد الله (ع).

ص: 221

و فی الدر المنثور، أخرج الطبرانی و ابن عدی و ابن مردویه عن أبی أیوب الأنصاری : أن رسول الله ص سئل عن قول الله : «وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّکَ لِلنَّاسِ» قال:

إلى الشدق.

و فی المجمع،: فی قوله تعالى: «إِنَّ أَنْکَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ»: و

روی عن أبی عبد الله (ع) قال: هی العطسة المرتفعة القبیحة- و الرجل یرفع صوته بالحدیث رفعا قبیحا- إلا أن یکون داعیا أو یقرأ القرآن.

أقول: و فی جمیع هذه المعانی و خاصة فی العقوق روایات کثیرة متظافرة.

(کلام فی قصة لقمان و نبذ من حکمه، فی فصلین

١- لم یرد اسم لقمان فی کلامه تعالى إلا فی سورة لقمان و لم یذکر من قصصه إلا ما فی قوله عز من قائل : «وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ» و قد وردت فی قصته و حکمه روایات کثیرة مختلفة و نحن نورد بعض ما کان منها أقرب إلى الاعتبار.

ففی الکافی، عن بعض أصحابنا رفعه إلى هشام بن الحکم قال : قال لی أبو الحسن موسى بن جعفر (ع): یا هشام- إن الله قال: «وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ» قال:

الفهم و العقل.

و فی المجمع، روى نافع عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ص یقول : حقا أقول لم یکن لقمان نبیا- و لکن کان عبدا کثیر التفکر حسن الیقین- أحب الله فأحبه و من علیه بالحکمة-.

کان نائما نصف النهار إذ جاءه نداء : یا لقمان هل لک أن یجعلک الله خلیفة فی الأرض- تحکم بین الناس بالحق؟ فأجاب الصوت إن خیرنی ربی قبلت العافیة- و لم أقبل البلاء و إن هو عزم علی فسمعا و طاعة- فإنی أعلم أنه إن فعل بی ذلک أعاننی و عصمنی.

فقالت الملائکة بصوت لا یراهم : لم یا لقمان؟ قال : لأن الحکم أشد المنازل و آکدها- یغشاه الظلم من کل مکان إن وفی فبالحری أن ینجو، و إن أخطأ أخطأ طریق الجنة، و من یکن فی الدنیا ذلیلا و فی الآخرة شریفا خیر- من أن یکون فی الدنیا شریفا و فی الآخرة ذلیلا- و من تخیر الدنیا علی الآخرة تفته الدنیا و لا یصیب الآخرة.

ص: 222

فعجبت الملائکة من حسن منطقه- فنام نومة فأعطی الحکمة فانتبه یتکلم بها- ثم کان یوازر داود بحکمته فقال له داود: طوبی لک یا لقمان أعطیت الحکمة و صرفت عنک البلوی.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن مردویه عن أبی هریرة قال: قال رسول الله ص: أ تدرون ما کان لقمان؟ قالوا: الله و رسوله أعلم. قال: کان حبشیا.

۲- و فی تفسیر القمی، بإسناده عن حماد قال: سألت أبا عبد الله (ع)- عن لقمان و حکمته التی ذکرها الله عز و جل، فقال: أما و الله ما أوتی لقمان الحکمة- بحسب و لا مال و لا أهل و لا بسط فی جسم و لا جمال.

و لکنه کان رجلا قویا فی أمر الله- متورعا فی الله ساکتا مستکینا- عمیق النظر طویل الفکر حدید النظر- مستغن بالعبر لم ینم نهارا قط- و لم یره أحد من الناس علی بول و لا غائط- و لا اغتسال لشدة تستره و عموق نظره- و تحفظه فی أمره، و لم یضحک من شیء قط مخافة الإثم- و لم یغضب قط، و لم یمازح إنسانا قط، و لم یفرح بشی ء أتاه من أمر الدنیا- و لا حزن منها علی شیء قط- و قد نکح من النساء و ولد له من الأولاد الکثیر و قدم أکثرهم أفراطا فما بکی علی موت أحد منهم.

و لم یمر برجلین یختصمان أو یقتتلان إلا أصلح بینهما- و لم یمض عنهما حتی تحابا، و لم یسمع قولا قط من أحد استحسنه- إلا سأل عن تفسیره و عمن أخذه، و کان یکثر مجالسة الفقهاء و الحکماء، و کان یغشی القضاة و الملوک و السلاطین- فیرثی للقضاة مما ابتلوا به، و یرحم الملوک و السلاطین لغر تهم بالله و طمأنینتهم فی ذلک، و یعتبر و یتعلم ما یغلب به نفسه و یجاهد به هواه- و یحترز به من الشیطان یداوی قلبه بالفکر- و یداوی نفسه بالعبر، و کان لا یظعن إلا فیما یعنیه- فبذلک أوتی الحکمة و منح العصمة.

و إن الله تبارک و تعالی أمر طوائف من الملائکة- حین انتصف النهار و هدأت العیون بالقائلة- فنادوا لقمان حیث یسمع و لا یراهم فقالوا: یا لقمان هل لک أن یجعلک الله خلیفة فی الأرض تحکم بین الناس؟ فقال لقمان : إن أمرنی الله بذلک فالسمع و الطاعة- لأنه إن فعل ذلک أعاننی علیه و علمنی و عصمنی- و إن هو خیرنی قبلت العافیة. مفقالت الملائکة: یا لقمان لم؟ قال: لأن الحکم بین الناس بأشد المنازل- و أکثر

ص: 223

فتنا و بلاء يخذل و لا يعان و يغشاه الظلم من كل مكان- و صاحبه فيه بين أمرين إن أصاب فيه الحق- فبالحرى أن يسلم و إن أخطأ أخطأ طريق الجنة، و من يكن فى الدنيا ذليلا ضعيفا كان أهون عليه فى المعاد- من أن يكون حكما سريا شريفا، و من اختار الدنيا على الآخرة يخسرهما كلتيهما- تزول هذه و لا تدرک تلک.

قال: فتعجب الملائکة من حکمته- و استحسن الرحمن منطقه- فلما أمسى و أخذ مضجعه من الليل- أنزل الله عليه الحکمة فغشاه بها من قرنه إلى قدمه- و هو نائم و غطاه بالحکمة غطاء فاستيقظ- و هو أحکم الناس فى زمانه، و خرج على الناس ينطق بالحکمة و يبثها فيها.

قال: فلما أوتى الحکم بالخلافة و لم يقبلها- أمر الله عز و جل الملائکة فنادت داود بالخلافة فقبلها- و لم يشترط فيها بشرط لقمان- فأعطاه الله عز و جل الخلافة فى الأرض و ابتلى بها غير مرة كل ذلک يهوى فى الخطإ- يقيله الله و يغفر له، و كان لقمان يكثر زيارة داود (ع)- و يعظه بمواعظه و حکمته و فضل علمه، و كان داود يقول له: طوبى لک يا لقمان- أوتيت الحکمة و صرفت عنک البلية- و أعطى داود الخلافة و ابتلى بالحکم و الفتنة.

ثم قال أبو عبد الله (ع) فى قول الله عز و جل: «وَ إِذْ قالَ لُقْمانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ- يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ» قال: فوعظ لقمان ابنه بآثار «۱» حتى تفطر و انشق.

و كان فيما وعظه به يا حماد أن قال: يا بنى إنک منذ سقطت إلى الدنيا استدبرتها و استقبلت الآخرة فدار أنت إليها تسير أقرب إليک من دار أنت عنها متباعد . يا بنى جالس العلماء و زاحمهم بركبتيک و لا تجادلهم فيمنعوک، و خذ من الدنيا بلاغا و لا ترفضها- فتكون عيالا على الناس، و لا تدخل فيها دخولا يضر بآخرتک، و صم صوما يقطع شهوتک- و لا تصم صياما يمنعک من الصلاة- فإن الصلاة أحب إلى الله من الصيام.

يا بنى: إن الدنيا بحر عميق قد هلک فيها عالم كثير- فاجعل سفينتک فيها الإيمان و اجعل شراعها التوكل، و اجعل زادک فيها تقوى الله- فإن نجوت فبرحمة الله و إن

---

(۱) بآثار ابنه و التفطر و الانشقاق كناية عن كمال التأثر.

هلكت فبذنوبک.

يا بنى: إن تأدبت صغيرا انتفعت به كبيرا- و من عنى بالأدب اهتم به، و من اهتم به تكلف علمه و من تكلف علمه اشتد له طلبه- و من اشتد له طلبه أدرک منفعته فاتخذه عادة- فإنک تخلف فى سلفک و ينتفع به من خلفک- و يرتجيک فيه راغب و

یخشی صولتک راهب، و إیاک و الکسل عنه با لطلب لغیره- فإن غلبت علی الدنیا فلا تغلبن علی الآخرة و إذا فاتک طلب العلم فی مظانه- فقد غلبت علی الآخرة- و اجعل فی أیامک و لیالیک و ساعاتک نصیبا فی طلب العلم- فإنک لن تجد له تضییعا أشد من ترکه- و لا تمارین فیه لجوجا- و لا تجادلن فقیها و لا تعادین سلطانا، و لا تماشین ظلوما و لا تصادقنه- و لا تؤاخین فاسقا و لا تصاحبن متهما- و اخزن علمک کما تخزن ورقک.

یا بنی: خف الله عز و جل خوفا- لو أتیت القیامة ببر الثقلین خفت أن یعذبک و ارج الله رجاء- لو وافیت القیامة بإثم الثقلین رجوت أن یغفر الله لک.

فقال له ابنه: یا أبت- کیف أطیق هذا و إنما لی قلب واحد؟ فقال له لقمان:

یا بنی: لو استخرج قلب المؤمن یوجد فیه نوران- نور للخوف و نور للرجاء- لو وزنا لما رجح أحدهما علی الآخر بمثقال ذرة- فمن یؤمن بالله یصدق ما قال الله عز و جل- و من یصدق ما قال الله یفعل ما أمر الله، و من لم یفعل ما أمر الله لم یصدق ما قال الله- فإن هذه الأخلاق یشهد بعضها لبعض.

فمن یؤمن بالله إیمانا صادقا یعمل لله خالصا ناصحا- و من یعمل لله خالصا ناصحا فقد آمن بالله صادقا- و من أطاع الله خافه، و من خافه فقد أحبه، و من أحبه فقد اتبع أمره- و من اتبع أمره استوجب جنته و مرضاته، و من لم یتبع رضوان الله فقد هان علیه سخطه- نعوذ بالله من سخط الله.

یا بنی: لا ترکن إلی الدنیا و لا تشغل قلبک بها- فما خلق الله خلقا هو أهون علیه منها- أ لا تری أنه لم یجعل نعیمها ثواب المطیعین- و لم یجعل بلاءها عقوبة للعاصین.

و فی قرب الإسناد:، هارون عن ابن صدقة عن جعفر عن أبیه (ع): قیل للقمان:

ما الذی أجمعت علیه من حکمتک؟ قال: لا أتکلف ما قد کفیته و لا أضیع ما ولیته.

-

و فی البحار، عن قصص الأنبیاء بإسناده عن جابر عن أبی جعفر (ع) قال: کان

فیما وعظ به لقمان ابنه أن قال : یا بنی: إن تک فی شک من الموت- فارفع عن نفسک النوم و لن تستطیع ذلک- و إن کنت فی شک من البعث- فارفع عن نفسک الانتباه و لن تستطیع ذلک- فإنک إذا فکرت فی هذا- علمت أن نفسک بید غیرک- و إنما النوم بمنزلة الموت- و إنما الیقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت، و قال : قال لقمان لابنه: یا بنی لا تقترب فیکون أبعد لک و لا تبعد فتهان، کل دابة تحب مثلها و ابن آدم «۱» لا یحب مثله . لا تنشر «۲» بزک إلا عند باغیه، و کما لیس بین

الکبش و الذئب خلهٔ، کذلک لیس بین البار و الفاجر خلهٔ، من یقترب من الزفت تعلق به بعضه- کذلک من یشارک الفاجر یتعلم من طرفه، من یحب المراء یشتم، و من یدخل مدخل السوء یتهم، و من یقارن قرین السوء لا یسلم، و من لا یملک لسانه یندم.

و قال یا بنی صاحب مائهٔ و لا تعاد واحدا، یا بنی إنما هو خلاقک و خلقک فخلاقک دینک و خلقک بینک و بین الناس- فلا تبغضن إلیهم و تعلم محاسن الأخلاق.

یا بنی کن عبدا للأخیار و لا تکن ولدا للأشرار. یا بنی أد الأمانهٔ تسلم دنیاک و آخرتک- و کن أمینا فإن الله لا یحب الخائنین. یا بنی لا تر الناس أنک تخشی الله و قلبک فاجر.

و فی الکافی، بإسناده عن یحیی بن عقبهٔ الأزدی عن أبی عبد الله (ع) قال: کان فیما وعظ به لقمان لابنه- یا بنی إن الناس قد جمعوا قبلک لأولادهم- فلم یبق ما جمعوا و لم یبق من جمعوا له، و إنما أنت عبد مستأجر- قد أمرت بعمل و وعدت علیه أجرا- فأوف عملک و استوف أجرک، و لا تکن فی هذه الدنیا بمنزلهٔ شاهٔ- وقعت فی زرع أخضر فأکلت حتی سمنت- فکان حتفها عند سمنها، و لکن اجعل الدنیا بمنزلهٔ قنطرهٔ علی نهر جزت علیها فترکتها- و لم ترجع إلیها آخر الدهر أخربها- و لا تعمرها فإنک لم تؤمر بعمارتها.

و اعلم أنک ستسأل غدا- إذا وقفت بین یدی الله عز و جل عن أربع: شبابک فیما

---

(۱) أی أن ابن آدم لا یجب أن یکافیه غیره فی مزیهٔ من المزایا

(۲) أی لا تظهر متاعک إلا عند طالبه.

ص: 226

أبلیته، و عمرک فیما أفنیته، و مالک مما اکتسبته و فیما أنفقته، فتأهب لذلک و أعد له جوابا- و لا تأس علی ما فاتک من الدنیا- فإن قلیل الدنیا لا یدوم بقاؤه- و کثیرها لا یؤمن بلاؤه فخذ حذرک، و جد فی أمرک، و اکشف الغطاء عن وجهک، و تعرض لمعروف ربک، و جدد التوبهٔ فی قلبک، و أکمش فی فراقک قبل أن یقصد قصدک، و یقضی قضاؤک، و یحال بینک و بین ما ترید.

و فی البحار، عن القصص بإسناده عن حماد عن الصادق (ع) قال: قال لقمان:

یا بنی إیاک و الضجر و سوء الخلق و قلة الصبر- فلا یستقیم علی هذه الخصال صاحب، و ألزم نفسک التؤدة «۱» فی أمورک- و صبر علی مئونات الإخوان نفسک، و حسن مع جمیع الناس خلقک.

یا بنی إن عدمک ما تصل به قرابتک- و تتفضل به علی إخوانک- فلا یعدمنک حسن الخلق و بسط البشر- فإن من أحسن خلقه أحبه الأخیار و جانبه الفجار، و اقنع بقسم الله لیصفو عیشک- فإن أردت أن تجمع عز الدنیا- فاقطع طمعک مما فی أیدی الناس- فإنما بلغ الأنبیاء و الصدیقون ما بلغوا بقطع طمعهم.

أقول: و الأخبار فی مواعظه کثیرة اکتفینا منها بما أوردناه إیثارا للاختصار.

[سورة لقمان (۳۱): الآیات ۲۰ الی ۳۴]

أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَکُمْ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَیْکُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ یُجادِلُ فِی اللَّهِ بِغَیْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدیً وَ لا کِتابٍ مُنِیرٍ (۲۰) وَ إِذا قِیلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَیْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ کانَ الشَّیْطانُ یَدْعُوهُمْ إِلی عَذابِ السَّعِیرِ (۲۱) وَ مَنْ یُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَی اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَکَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقی وَ إِلَی اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ (۲۲) وَ مَنْ کَفَرَ فَلا یَحْزُنْکَ کُفْرُهُ إِلَیْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (۲۳) نُمَتِّعُهُمْ قَلِیلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلی عَذابٍ غَلِیظٍ (۲۴)

وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَیَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَکْثَرُهُمْ لا یَعْلَمُونَ (۲۵) لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِیُّ الْحَمِیدُ (۲۶) وَ لَوْ أَنَّ ما فِی الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ یَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ کَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ (۲۷) ما خَلْقُکُمْ وَ لا بَعْثُکُمْ إِلاَّ کَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ بَصِیرٌ (۲۸) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ یُولِجُ اللَّیْلَ فِی النَّهارِ وَ یُولِجُ النَّهارَ فِی اللَّیْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ کُلٌّ یَجْرِی إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی وَ أَنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِیرٌ (۲۹)

ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِیُّ الْکَبِیرُ (۳۰) أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْکَ تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِیُرِیَکُمْ مِنْ آیاتِهِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیاتٍ لِکُلِّ صَبَّارٍ شَکُورٍ (۳۱) وَ إِذا غَشِیَهُمْ مَوْجٌ کَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَی الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ ما یَجْحَدُ بِآیاتِنا إِلاَّ کُلُّ خَتَّارٍ کَفُورٍ (۳۲) یا أَیُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّکُمْ وَ اخْشَوْا یَوْماً لا یَجْزِی والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شَیْئاً إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّکُمُ الْحَیاةُ الدُّنْیا وَ لا یَغُرَّنَّکُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (۳۳) إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ یُنَزِّلُ الْغَیْثَ وَ یَعْلَمُ ما فِی الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِی نَفْسٌ ما ذا تَکْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِی نَفْسٌ بِأَیِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ خَبِیرٌ (۳۴)

---

(۱) التؤدة- بضم التاء کهمزة- السکون و الرزانة.

(بیان)

رجوع إلى ما قبل القصة من آيات الوحدانية و نفى الشريک و أدلتها المنتهية إلى قوله: «هذا خَلْقُ اللّهِ فَأَرُونِی ما ذا خَلَقَ الَّذِینَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظّالِمُونَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ».

قوله تعالى: «أَ لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللّهَ سَخَّرَ لَکُمْ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ أَسْبَغَ عَلَیْکُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً » رجوع إلى ما قبل قصة لقمان و هو الدليل على أن الخطاب للمشركين و إن كان ذيل الآية يشعر بعموم الخطاب.

و عليه فصدر الآية من تتمة كلام النبى ص و يتصل بقوله : «هذا خَلْقُ اللّهِ فَأَرُونِی ما ذا خَلَقَ الَّذِینَ مِنْ دُونِهِ» و لا التفات فى قوله: «أَ لَمْ تَرَوْا».

و على تقدير كونه من كلامه تعالى ففى قوله: «أَ لَمْ تَرَوْا» التفات من سياق الغيبة الذى فى قوله: «بَلِ الظّالِمُونَ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ» إلى الخطاب، و الالتفات فى مثل هذه الموارد يكون لاشتداد وجد ا لمتكلم و تأكد غيظه من جهل المخاطبين و تماديهم فى غيهم بحيث لا ينفعهم دلالة و لا ينجح فيهم إشارة فيواجهون بذكر ما هو بمرأى منهم و مسمع لعلهم يتنبهوا عن نومتهم و ينتزعوا عن غفلتهم.

و كيف كان فالمراد بتسخير السماوات و الأرض للإنسان و هم يرون ذلک ما نشاهده من ارتباط أجزاء الكون بعضها ببعض فى نظام عام يدبر أمر العالم عامة و الإنسان خاصة لكونه أشرف أجزاء هذا العالم المحسوس بما فيه من الشعور و الإرادة فقد سخر الله الكون لأجله.

ص: 229

و التسخير قهر الفاعل فى فعله بحيث يفعله على ما يستدعيه القاهر و يريده كتسخير الكاتب القلم للكتابة و كما يسخر المولى عبده و المخدوم خادمه فى أن يفعل باختياره و إرادته ما يختاره و يريده المولى و المخدوم و الأسباب الكونية كائنة ما كانت تفعل بسببيتها الخاصة ما يريده الله من نظام يدبر به العالم الإنسانى.

و مما مر يظهر أن اللام فى «لَکُمْ» للتعليل الغائى و المعنى لأجلكم و المسخر بالكسر هو الله تعالى دون الإنسان، و ربما احتمل كون اللام للملک و المسخر بالكسر هو الإنسان بمشية من الله تعالى كما يشاهد من تقدم الإنسان بمرور ال زمان فى تسخير أجزاء الكون و استخدامه لها فى سبيل مقاصده لكن لا يلائمه تصدير الكلام بقوله: «أَ لَمْ تَرَوْا».

و قوله: «وَ أَسْبَغَ عَلَیْکُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً » الإسباغ الإتمام و الإيساع أى أتم و أوسع عليكم نعمه، و النعم جمع نعمة و هو فى الأصل بناء النوع و غلب عليه استعماله فى ما يلائم الإنسان فيستلذ منه، و المراد بالنعم الظاهرة و الباطنة بناء على كون الخطاب للمشركين النعم الظاهرة للحس كالسمع و البصر و سائر الجوارح و الصحة و العافية و الطيبات من الرزق و النعم الغائبة عن الحس كالشعور و الإرادة و العقل.

و بناء على عموم الخطاب لجميع الناس الظاهرة من النعم هى ما ظهر للحس كما تقدم و كالدين الذى به ينتظم أمور دنياهم و آخرتهم و الباطنة منها كما تقدم و كالمقامات المعنوية التى تنال بإخلاص العمل.

و قوله: «وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدىً وَ لا كِتابٍ مُنِيرٍ » رجوع الخطاب إلى النبى ص على ما كان فى السياق السابق، و المجادلة المخاصمة النظرية بطريق المغالبة، و المقابلة بين العلم و الهدى و الكتاب تلوح بأن المراد بالعلم ما هو مكتسب من حجة عقلية، و بالهدى ما يفيضه الله بالوحى أو الإلهام، و بالكتاب الكتاب السماوى المنتهى إليه تعالى بالوحى النبوى و لذلك وصفه بالمنير فهذه طرق ثلاث من العلم لا رابع لها.

فمعنى قوله: يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ كذا و كذا أنه يجادل فى وحدانيته تعالى فى الربوبية و الألوهة بغير حجة يصح الركون إليها بل عن تقليد.

قوله تعالى: «وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ

آباءَنا» إلخ، ضمائر الجمع راجعة إلى «مِنَ» باعتبار المعنى كما أن ضمير الإفراد فى الآية السابقة راجع إليه باعتبار اللفظ.

و قوله: «وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ » فى التعبير بما أنزل الله من غير أن يقال : اتبعوا الكتاب أو القرآن إشارة إلى كون الدعوة دعوة ذات حجة لا تحكم فيها لأن نزول الكتاب مؤيد بحجة النبوة فكأنه قيل : و إذا دعوا إلى دين التوحيد الذى يدل عليه الكتاب المقطوع بنزوله من عند الله سبحانه، و بعبارة أخرى إذا ألقى إليهم القول مع الحجة قابلوه بالتحكم من غير حجة فقالوا نتبع ما وجدنا عليه آباءنا.

و قوله: «أَ وَ لَوْ كانَ الشَّيْطانُ يَدْعُوهُمْ إِلى عَذابِ السَّعِيرِ» أى أ يتبعون آباءهم و لو كان الشيطان يدعوهم بهذا الاتباع إلى عذاب السعير؟ فالاستفهام للإنكار و لو وصلية معطوفة على محذوف مثلها و التقدير أ يتبعونهم لو لم يدعهم الشيطان و لو دعاهم.

و محصل الكلام: أن الاتباع إنما يحسن إذا كانوا على الحق و أما لو كانوا على ال باطل و كان اتباعا يدعوهم به إلى الشقاء و عذاب السعير و هو كذلك فإنه اتباع فى عبادة غير الله و لا معبود غيره.

قوله تعالى: «وَ مَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى وَ إِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ» استئناف و يحتمل أن يكون حالا من مفعول «يَدْعُوهُمْ» و فى معنى الجملة الحالية ضمير عائد إليهم، و المعنى : أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى كذا و الحال أن من أسلم وجهه إلى الله كذا فقد نجا و أفلح و الحال أن عاقبة الأمور ترجع إلى الله فيجب أن يكون هو المعبود.

و إسلام الوجه إلى الله تسليمه له و هو إقبال الإنسان بكليته عليه بالعبادة و إعراضه عمن سواه . و الإحسان الإتيان بالأعمال الصالحة عن إيقان بالآخرة كما فسره به فى أول السورة «هُدىً وَ رَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّ كاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ» و العروة الوثقى المستمسك الذى لا انفصام له.

و المعنى: و من وحد الله و عمل صالحا مع اليقين بالمعاد فهو ناج غير هالك البتة فى عاقبة أمره لأنها إلى الله و هو الذى يعده بالنجاة و الفلاح.

و من هنا يظهر أن قوله: «وَ إِلَى اللَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ» فى مقام التعليل لقوله:

«فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى» بما أنه استعارة تمثيلية عن النجاة و الفلاح.

قوله تعالى: «وَ مَنْ كَفَرَ فَلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ – إلى قوله- إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ» تسلية للنبى ص و تطييب لنفسه أن لا يغلبه الحزن و هم بالآخرة راجعون إليه تعالى فينبؤهم بما عملوا أى يظهر لهم حقيقة أعمالهم و تبعاتها و هى النار.

و قوله: «نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ» كشف عن حقيقة حالهم ببيان آخر فإن البيان الساب ق «إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا» ربما أوهم أنهم ما داموا متنعمين فى الدنيا خارجون من قدرة الله ثم إذا ماتوا أو بعثوا دخلوا فيما خرجوا منه فانتقم منهم بالعذاب جى ء بهذا البيان للدلالة على أنهم غير خارجين من التدبير قط و إنما يمتعهم فى الدنيا قليلا ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ فهم مغلوبون مقهورون على كل حال و أمرهم إلى الله دائما لن يعجزوا الله فى حال التنعم و لا غيرها.

قوله تعالى: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَ كْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ» إشارة إلى أنهم مفطورون على التوحيد معترفون به من حيث لا يشعرون، فإنهم إن سئلوا عمن خلق السماوات و الأرض اعترفوا بأنه الله عز اسمه و إذا كان الخالق هو هو فالمدبر لها هو هو لأن التدبير لا ينفك عن الخلق، و إذا كان مدبر الأمر و الم نعم الذى يبسط و يقبض و يرجى و يخاف هو فالمعبود هو هو وحده لا شريك له فقد اعترفوا بالوحدة من حيث لا يعلمون.

و لذلك أمره (ص) أن يحمد الله على اعترافهم من حيث لا يشعرون فقال : «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ» ثم أشار إلى أن كون أكثرهم لا يعلمون معنى اعترافهم أن الله هو الخالق و ما يستلزمه فقال : «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ» نعم قليل منهم يعلمون ذلك و لكنهم لا يطاوعون الحق بل يجحدونه و قد أيقنوا به كما قال تعالى: «وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ»: النمل: ١۴.

قوله تعالى: «لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ » لما كان اعترافهم بأن الخالق هو الله سبحانه إنما يثبت التوحد بالربوبية و الألوهية إذا كان التدبير و التصرف إليه تعالى و كان نفس الخلق كافيا فى استلزامه اكتفى به فى تمام الحجة و استحمد النبى ص و استجهل القوم لغفلتهم.

ثم احتج عليه ثانيا من طريق انحصار الملک الحقيقى فيه تعالى لكونه غنيا محمودا مطلقا و تقريره أنه تعالى مبدئ كل خلق و معطى كل كمال فهو واجد لكل ما يحتاج إليه الأشياء فهو غنى على الإطلاق إذ لو لم يكن غنيا من جهة من الجها ت لم يكن مبدئا له معطيا لكماله هذا خلف، و إذا كان غنيا على الإطلاق كان له ما فى السماوات و الأرض فهو المالک لكل شى ء على الإطلاق فله أن يتصرف فيها كيف شاء فكل تدبير و تصرف يقع فى العالم فهو له إذ لو كان شى ء من التدبير لغيره لا له كان مالكه ذلک الغير دونه و إذا كان التدبير و التصرف له تعالى فهو رب العالمين و الإله الذى يعبد و يشكر إنعامه و إحسانه.

و هذا هو الذى يشير إليه قوله: «لِلَّهِ ما فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِیُّ» فقوله: «لِلَّهِ ما فِی» إلخ، حجة على وحدانيته و قوله: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِیُّ» تعليل للملک.

و أما قوله: «الْحَمِیدُ» أى المحمود فى أفعاله فهو مبدأ آخر للحجة و ذلک أن الحمد هو الثناء على الجميل الاختيارى و كل جميل فى العالم فهو له سبحانه فإليه يعود الثناء فيه فهو حميد على الإطلاق و لو كان شی ء من هذا التدبير المتقن الجميل من غيره تعالى من غير انتساب إليه لكان الحمد و الثناء لغيره تعالى لا له فلا يكون حميدا على الإطلاق و بالنسبة إلى كل شی ء و قد فرض أنه حميد على الإطلاق هذا خلف.

قوله تعالى: «وَ لَوْ أَنَّ ما فِی الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ یَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ کَلِماتُ اللَّهِ » إلخ، «مِنْ شَجَرَةٍ» بيان للموصول و الشجرة واحد الشجر و تفيد فى المقام- و هى فى سياق «لَوْ» الاستغراق أى كل شجرة فى الأرض، و المراد بالبحر مطلق البحر، و قوله: «یَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ» أى يعينه بالانضياف إليه سبعة أمثاله و الظاهر أن المراد بالسبعة التكثير دون خصوص هذا العدد و الكلمة هى اللفظ الدال على معنى، و قد أطلق فى كلامه تعالى على الوجود المفاض بأمره تعالى، و قد قال: «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَیْئاً أَنْ یَقُولَ لَهُ کُنْ فَیَکُونُ »: يس: ٨٢ و قد أطلق على المسيح (ع) الكلمة فى قوله: «وَ کَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلی مَرْیَمَ»: النساء: ١٧١.

فالمعنى: و لو جعل أشجار الأرض أقلاما و أخذ البحر و أضيف إليه سبعة أمثاله و جعل المجموع مدادا فكتب كلمات الله- بتبديلها ألفاظا دالة عليها- بتلک

ص: 233

الأقلام من ذلک المداد لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات الله لكونها غير متناهية.

و من هنا يظهر أن فى الكلام إيجازا بالحذف و أن قوله : «إِنَّ اللَّهَ عَزِیزٌ حَکِیمٌ» فى مقام التعليل، و المعنى: لأنه تعالى عزيز لا يعزه و لا يقهره شیء فهذه الكتابة لا ينفد بها ما هو من عنده حكيم لا يفوض التدبير إلى غيره.

و الآية متصلة بما قبلها من حيث دلالته على كون تدبير الخلق له سبحانه لا لغيره فسيقت هذه الآية للدلالة على سعة تدبيره و كثرة أوامره التكوينية فى الخلق و التدبير إلى حيث ينفد البحر الممدود بسبعة أمثاله لو جعل مدادا و كتبت به أشجار الأرض المجعولة أقلاما قبل أن ينفد أوامره و كلماته.

قوله تعالى: «ما خَلْقُکُمْ وَ لا بَعْثُکُمْ إِلَّا کَنَفْسٍ واحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِیعٌ بَصِیرٌ » سوق للكلام إلى إمكان الحشر و خاصة من جهة استبعادهم المعاد لكثرة عدد الموتى و اختلاطهم بالأرض من غير تميز بعضهم من بعض.

فقال تعالى: «ما خَلْقُکُمْ وَ لا بَعْثُکُمْ إِلَّا کَنَفْسٍ واحِدَةٍ» فى الإمكان و التأتى فإنه تعالى لا يشغله شأن عن شأن و لا يعجزه كثرة و لا يتفاوت بالنسبة إليه الواحد و الجمع، و ذكر الخلق مع البعث للدلالة على عدم الفرق بين البدء و العود من حيث السهولة و الصعوبة بل لا يتصف فعله بالسهولة و الصعوبة.

و يشهد لما ذكر إضافة الخلق و البعث إلى ضمير الجمع المخاطب و المراد به الناس ثم تنظيره بالنفس الواحدة، و المعنى : ليس خلقكم معاشر الناس على كثرتكم و لا بعثكم إلا كخلق نفس واحدة و بعثها فأنتم على كثرتكم و النفس الواحدة سواء لأنه لو أشكل عليه بعث الجميع على كثرتهم و البعث لجزاء الأعمال فإنما يشكل من جهة الجهل بمختلف أعمالكم على كثرتها و اختلاط بعضها ببعض لكنه ليس يجهل شيئا منها لأنه سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم و بعبارة أخرى عليم بأعمالكم من طريق المشاهدة.

و بما مر يندفع الاعتراض على الآية بأن المناسب لتعليل كون خلق الكثير و بعثهم كنفس واحدة أن يعلل بمثل قولنا : إن الله على كل شيء قدير أو قوى عزيز أو ما يشبه ذلك لا بمثل السميع البصير الذى لا ارتباط له بالخلق و البعث.

و ذلك أن الإشكال الذى تعرضت الآية لدفعه هو أن البعث لجزاء الأعمال و هى

ص: 234

على كثرتها و اندماج بعضها فى بعض كيف تتميز حتى تجزى عليها فالإشكال متوجه إلى ما ذكره قبل ثلاث آيات بقوله : «فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا» و قد أجيب بأنه كيف يخفى عليه شيء من الأقوال و الأعمال و هو سميع بصير لا يشذ عن مشاهدته قول و لا فعل.

و قد كان ذيل قوله السابق: «فَنُنَبِّئُهُمْ بِما عَمِلُوا» بقوله: «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ» و هو مبنى على أن الجزاء على حسب ما يحمله القلب من الحسنة و السيئة كما يشير إليه قوله: «وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ »،: البقرة: ٢٨٤ و جواب عن هذا الإشكال لو وجه إلى ما تحمله القلوب على كثرته فيجاب عنه أن الله عليم بذات الصدور و لو وجه إلى نفس الأعمال الخارجية من الأقوال و الأفعال فالجواب عنه بما فى هذه الآية التى نحن فيها : «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ »، فالإشكال و الجواب بوجه نظير ما وقع فى قوله تعالى: «قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَ لا يَنْسى »: طه: ٥٢، فافهم.

و قد أجابوا عن الاعتراض بأجوبة أخرى غير تامة من أراد الوقوف عليها فليراجع المطولات.

قوله تعالى: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَ يُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَ سَخَّرَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى» إلخ، استشهاد لما تقدم فى الآية السابقة من علمه بالأعمال بأن التدبير الجارى فى نظام الليل و النهار حيث يزيد هذا و ينقص ذاك و بالعكس بحسب الفصول المختلفة و بقاع الأرض المتفرقة فى نظم ثابت جار على اختلافه، و كذا التدبير الجارى فى الشمس و القمر على اختلاف طلوعهما و غروبهما و اختلاف جريانهما و مسيرهما بحسب الحس و كل منهما يجرى لأجل مسمى و لا اختلاف و لا تشوش فى النظام الدقيق الذى لهما فهذا كله مما يمتنع من غير علم و خبرة من مدبرها.

فالمراد بإيلاج الليل فى النهار أخذ الليل فى الطول و إشغاله بعض ساعات النهار من قبل و بإيلاج النهار فى الليل عكس ذلك، و المراد بجريان الشمس و القمر المسخرين إلى أجل مسمى انتهاء كل وضع من أوضاعهما إلى وقت محدود مقدر ثم عودهما

إلى بدء فمن شاهد هذا النظام الدقيق الجارى و أمعن فيه لم يشک فى أن مدبره إنما يدبره عن علم لا يخالطه جه ل و ليس ذلک عن صدفة و اتفاق.

ص: 235

و قوله: «وَ أَنَّ اللّٰهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ» عطف على موضع «أَنَّ اللّٰهَ يُولِجُ» و التقدير أ لم تر أن الله بما تعملون خبير و ذلک لأن من شاهد نظام الليل و النهار و الشمس و القمر لم يكد يغفل عن كون صانعه عليما بجلائل أعماله و دقائقها، كذا قيل.

و فيه أن استنتاج العلم بالأعمال من العلم بالنظام الجارى فى الليل و النهار و الشمس و القمر و إن صح فى نفسه فهو علم حدسى لا مصحح لتسميتها رؤية و هو ظاهر.

و لعل المراد من مشاهدة خبرته تعالى بالأعمال أن الإنسان لو أمعن ف ى النظام الجارى فى أعمال نفسه بما أنها صادرة عن العالم الإنسانى موزعة من جهة إلى الأعمال الصادرة عن القوى الظاهرة من سمع و بصر و شم و ذوق و لمس و الصادرة عن القوى الباطنة المدركة أو الفعالة أو من جهة إلى بعض القوى و الأدوات أو كلها و من جهة إلى جاذبة و داف عة و من جهة إلى سنى العمر من طفولية و رهاق و شباب و شيب إلى غير ذلک.

ثم فى ارتباط بعضها ببعض و استخدام بعضها لبعض و اهتداء النفس إلى وضع كل فى موضعه الذى يليق به و حركته بهذه القافلة من القوى و الأعمال نحو غايتها من الكمال و سعادتها فى المال و تورطها فى ور طات عالم المادة و موطن الزينة و الفتنة فمن ناج أو هالک.

فإذا أمعن فى هذا النظام المحير للأحلام لم يرتب أنه تقدير قدره ربه و نظام نظمه صانعه العليم القدير و مشاهدة هذا النظام العلمى العجيب مشاهدة أنه بما يعملون خبير، و الله العالم.

قوله تعالى: «ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ وَ أَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» لما ذكر سبحانه أن منه بدء كل شيء فيستند إليه فى وجوده و تدبير أمره و أن إليه عود كل شى ء من غير فرق بين الواحد و الكثير و أنه ليس إلى من يدعو ن من دونه خلق و لا أمر جمع الجميع تحت بيان واحد جامع فقال مشيرا إلى ما تقدم:

«ذٰلِکَ بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ» إلخ.

توضيحه أن الحق هو الثابت من جهة ثبوته و الباطل يقابل الحق فهو اللاثابت من جهة عدم ثبوته، و قوله: «بِأَنَّ اللّٰهَ هُوَ الْحَقُّ» بما فيه من ضمير الفصل و تعريف

ص: 236

الخبر باللام يفيد القصر أعنى حصر المبتدإ فى الخبر.

فقوله: «بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُ» قصر له تعالى فى الثبوت، أى هو ثابت لا يشوب ثبوته بطلان و بعبارة أخرى هو ثابت من جميع الجهات و بعبارة ثالثة هو موجود على كل تقدير فوجوده مطلق غير مقيد بقيد و لا مشروط بشرط فوجوده ضرورى و عدمه ممتنع و غيره من الموجودات الممكنة موجود على تقدير و هو تقدير وجود سببه و هو الوجود المقيد الذى يوجد بغيره من غير ضرورة فى ذاته.

و إذا كان حقية الشيء هو ثبوته فهو تعالى حق بذاته و غيره إنما يحق و يتحقق به.

و إذا تأملت هذا المعنى حق تأمله وجدت أولا : أن الأشياء بأجمعها تستند فى وجودها إليه تعالى و أيضا تستند فى النظام الجارى فيها عامة و فى النظامات الجزئية الجارية فى كل نوع من أنواعها و كل فرد من أفرادها إليه تعالى.

و ثانيا: أن الكمالات الوجودية التى هى صفات الوجود كالعلم و القدرة و الحياة و السمع و البصر و الوحدة و الخلق و الملك و الغنى و الحمد و الخبرة- مما عد فى الآيات السابقة أو لم يعد- صفات قائمة به تعالى على حسب ما يليق بساحة كبريائه و عز قدسه لأنها صفات وجودية و الوجود قائم به تعالى فهى إما عين ذاته كالعلم و القدرة و إما صفات خارجة عن ذاته منتزعة عن فعله كالخلق و الرزق و الرحمة.

و ثالثا: أن قبول الشريک فى ذاته أو فى تدبيره و كل ما يحمل معنى الفقد و النقص مسلوب عنه تعالى و هذه هى الصفات السلبية كنفى الشريک و نفى التعدد و نفى الجسم و المكان و الزمان و الجهل و العجز و البطلان و الزوال إلى غيرها.

فإن إطلاق وجوده و عدم تقيده بقيد ينفى عنه كل معنى عدمى أى إثبات الوجود مطلقا فإن مرجع نفى النفى إلى الإثبات.

و لعل قوله: «وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» يفيد ثبوت الصفات له بكلتا مرحلتيها بناء على أن اسم «الْعَلِيُ» يفيد معنى تنزهه عن ما لا يليق بساحته فهو مجمع الصفات السلبية و الكبير يفيد سعته لكل كمال وجودى فهو مجمع الصفات الثبوتية.

و أن صدر الآية برهان على ذيلها و ذيلها برهان على استجماعه تع الى الصفات الثبوتية و السلبية جميعا على ما تقدم تقريره فهو الذات المستجمع لجميع صفات الكمال

ص: 237

فهو الله عز اسمه.

و قوله: «وَ أَنَّ ما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْباطِلُ » يجرى فيه ما جرى فى قوله : «ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُ » فالذى يدعونه من الآلهة ليس لهم من الحقيقة شى ء و لا إليهم من الخلق و التدبير شى ء لأن الشريک فى الألوهية و الربوبية باطلا لا حق فيه و إذ كان باطلا على كل تقدير فلا يستند إليه خلق و لا تدبير مطلقا.

و الحق و العلى و الكبير ثلاثة من الأسماء الحسنى و قد تحقق مما تقدم أن ا لحق فى معنى الواجب الوجود و أن العلى من الصفات السلبية و الكبير من الصفات الثبوتية قريب المعنى من قولنا: المستجمع لصفات الكمال.

قوله تعالى: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْکَ تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللّٰهِ لِیُرِیَکُمْ مِنْ آیاتِهِ » إلخ، الباء فى «بِنِعْمَتِ اللّٰهِ» للسببية و ذكر النعمة كالتوطئة لآخر الآية و فيه تلويح إلى وجوب شكره على نعمته لأن شكر المنعم واجب.

و المعنى: أ لم تر أن الفلک تجرى و تسير فى البحر بسبب نعمة الله و هى أسباب جريانها من الريح و رطوبة الماء و غير ذلک.

و احتمل بعضهم أن الباء للتعدية أو المعية و المراد بالنعمة ما تحمله السفن من الطعام و سائر أمتعة الحياة.

و قد تمم الآية بقوله : «إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیاتٍ لِکُلِّ صَبّٰارٍ شَکُورٍ » و الصبار الشكور أى كثير الصبر عند الضراء و كثير الشكر عند النعماء كناية عن المؤمن على ما قيل.

قوله تعالى: «وَ إِذٰا غَشِیَهُمْ مَوْجٌ کَالظُّلَلِ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِینَ لَهُ الدِّینَ » إلخ، قال الراغب: الظلة سحابة تظل و أكثر ما يقال فيما يستوخم و يكره، قال: «کَأَنَّهُ ظُلَّةٌ» «عَذٰابُ یَوْمِ الظُّلَّةِ» انتهى.

و المعنى: و إذا غشيهم و أحاط بهم فى البحر موج كقطع السحاب انقطعوا إلى الله و دعوه للنجاة حال كونهم مخلصين له الدين أى و فى ذلک دليل على أن فطرتهم على التوحيد.

و قوله: «فَلَمّٰا نَجّٰاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ » المقتصد سألک القصد أى الطريق المستقيم و المراد به التوحيد الذى دلتهم عليه فطرتهم إذ ذلک، و فى التعبير بمن التبعيضية

ص: 238

استقلال عدتهم أى فلما نجا الله سبحانه هؤلاء الداعين بالإخلاص إلى البر فقليل منهم المقتصدون.

و قوله: «وَ مٰا یَجْحَدُ بِآیٰاتِنٰا إِلاّٰ کُلُّ خَتّٰارٍ کَفُورٍ » الختار مبالغة من الختر و هو شدة الغدر و فى السياق دليل على الاستكثار و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: «یٰا أَیُّهَا النّٰاسُ اتَّقُوا رَبَّکُمْ» لما ساق الحجج و المواعظ الشافية الوافية جمعهم فى خاتمتها فى خطاب عام يدعوهم إلى التقوى و ينذرهم بيوم القيامة الذى لا يغنى فيه مغن إلا الإيمان و التقوى.

قال الراغب: الجزاء الغنى و الكفاية، و قال: يقال: غررت فلانا أصبت غرته و نلت منه ما أريد و الغرة غفلة فى اليقظة و الغرار غفلة مع غفوة، إلى أن قال : فالغرور كل ما يغر الإنسان من مال و جاه و شهوة و شيطان و قد فسر بالشيطان إذ هو أخبث الغارين و بالدنيا لما قيل: الدنيا تغر و تضر و تمر انتهى.

فمعنى الآية: «يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ » و هو الله سبحانه «وَ اخْشَوْا يَوْماً » و هو يوم القيامة «لا يَجْزِى » لا يغنى «والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَ لا مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ » مغن كاف «عَنْ والِدِهِ» شَيْئاً «إِنَّ وَعْدَ اللّهِ» بالبعث «حَقٌّ» ثابت لا يخلف «فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا» بزينتها الغارة «وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّهِ الْغَرُورُ» أى جنس ما يغر الإنسان من شئون الحياة الدنيا أو خصوص الشيطان.

قوله تعالى: «إِنَّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَ يُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَ يَعْلَمُ ما فِى الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِى نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَ ما تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» الغيث المطر و معنى جمل الآية ظاهر.

و قد عد سبحانه أمورا ثلاثة مما تعلق به علمه و هى العلم بالساعة و هو مما استأثر الله علمه لنفسه لا يعلمه إلا هو و يدل على القصر قوله: «إِنَّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ» و تنزيل الغيث و علم ما فى الأرحام و يختصان به تعالى إلا أن يعلمه غيره.

و عد أمرين آخرين يجهل بهما الإنسان و بذلك يجهل كل ما سيجرى عليه من الحوادث و هو قوله : «وَ ما تَدْرِى نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً» و قوله: «وَ ما تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ».

و كان المراد تذكرة أن الله يعلم كل ما دق و جل حتى مثل الساعة التى لا يتيسر علمها للخلق و أنتم تجهلون أهم ما يهمكم من العلم فالله يعلم و أنتم لا تعلمون فإياكم أن تشركوا به و تتمردوا عن أمره و تعرضوا عن دعوته فتهلكوا بجهلكم.

(بحث روائى)

فى كمال الدين، بإسناده إلى حماد بن أبى زياد قال: سألت سيدى موسى بن جعفر (ع) عن قول الله عز و جل: «وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً» فقال: النعمة الظاهرة الإمام الظاهر، و الباطنة الإمام الغائب.

أقول: هو من الجرى و الآية أعم مدلولا.

و فى تفسير القمى، بإسناده عن جابر قال : قال رجل عند أبى جعفر (ع): «وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَ باطِنَةً » قال: أما النعمة الظاهرة فالنبى ص- و ما جاء به من معرفة الله عز و جل و توحيده- و أما النعمة الباطنة فولايتنا أهل البيت و عقد مودتنا.

الحديث.

أقول: هو كسابقه.

و فى المجمع،: فى قوله تعالى: «وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ» الآية،: و

فی روایة الضحاک عن ابن عباس قال : سألت النبی ص عنه فقال : یا ابن عباس أما ما ظهر فالإسلام- و ما سوی الله من خلقک و ما أفاض علیک من الرزق- و أما ما بطن فستر مساوی عملک و لم یفضحک به، یا ابن عباس إن الله تعالی یقول : ثلاثة جعلتهن للمؤمن و لم یکن له:

صلاة المؤمنین علیه من بعد انقطاع عمله، و جعلت له ثلث ماله أکفر به عنه خطایاه، و الثالث سترت مساوی عمله و لم أفضحه بشیء منه- و لو أبدیتها علیه لنبذه أهله فمن سواهم.

أقول: روی ما یقرب منه فی الدر المنثور، بطرق عن ابن عباس، و الحدیث کسابقیه من الجری.

و فی التوحید، بإسناده عن عمر بن أ ذینة عن أبی جعفر (ع)*: فی حدیث: و قال رسول الله ص : کل مولود یولد علی الفطرة یعنی علی المعرفة بأن الله خالقه- فذلک قوله عز و جل: «وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

ص: 240

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «أَ لَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْکَ تَجْرِی فِی الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ» قال: السفن تجری فی البحر بقدرة الله.

و فیه،": فی قوله: «إِنَّ فِی ذٰلِکَ لَآیاتٍ لِکُلِّ صَبَّارٍ شَکُورٍ » قال: الذی یصبر علی الفقر و الفاقة- و یشکر الله عز و جل علی جمیع أحواله.

و فی المجمع،": فی الآیة و

فی الحدیث: الإیمان نصفان: نصف صبر و نصف شکر.

أقول: و هو مأخوذ من الآیة فقد مر أنه کنایة عن المؤمن.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «إِلَّا کُلُّ خَتَّارٍ کَفُورٍ» قال: الختار الخداع و فی قوله: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ» قال: ذلک القیامة.

و فی إرشاد المفید،: من کلام أمیر المؤمنین (ع) لرجل- سمعه یذم الدنیا من غیر معرفة بما یجب أن یقول فی معناها : الدنیا دار صدق لمن صدقها، و دار عافیة لمن فهم عنها، و دار غنی لمن تزود منها، مسجد أنبیاء الله و مهبط وحیه، و مصلی ملائکته و متجر أولیائه، اکتسبوا فیها الرحمة، و ربحوا فیها الجنة فمن ذا یذمها؟ و قد آذنت ببینها، و نادت بفراقها، و نعت نفسها، فشوقت بسرورها إلی السرور، و حذرت ببلائها البلاء تخویفا و تحذیرا و ترغیبا و ترهیبا.

فیا أیها الذام للدنیا و المغتر بتغریرها متی غرتک؟ أ بمصارع آبائک فی البلی أم بمصارع أمهاتک تحت الثری؟ کم عللت بکفیک و مرضت بیدیک تبتغی لهم الشفاء- و استوصفت لهم الأطباء، و تلتمس لهم الدواء، لم تنفعهم بطلبک و لم تشفعهم بشفاعتک مثلت بهم الدنیا مصرعک و مضجعک- حیث لا ینفعک بکاؤک و لا تغنی عنک أحباؤک.

و فی الخصال، عن أبی أسامة عن أبی عبد الله (ع) قال: قال: أ لا أخبرکم بخمسة لم یطلع الله علیها أحدا من خلقه؟ قال : قلت: بلی قال: «إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ یُنَزِّلُ الْغَیْثَ- وَ یَعْلَمُ ما فِی الْأَرْحامِ وَ ما تَدْرِی نَفْسٌ ما ذا تَکْسِبُ غَداً- وَ ما تَدْرِی نَفْسٌ بِأَیِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِیمٌ خَبِیرٌ».

أقول: هناک روایات کثیرة جدا عن النبی و الأئمة (ع) تخبر عن مستقبل حالهم و عن زمان موتهم و مکانه و هی تقید هذه الروایة و ما فی معناها من الروایات بالتعلیم الإلهی لکن بعض الروایات یأبی التقیید و لا یعبأ بأمرها.

ص: 241

و فی الدر المنثور، أخرج ابن المنذر عن عکرمة : أن رجلا یقال له الوراث- من بنی مازن بن حفصة بن قیس غیلان جاء إلی النبی ص فقال: یا محمد، متی تقوم الساعة؟

و قد أجدبت بلادنا فمتی تخصب؟ و قد ترکت امرأتی حبلی فمتی تلد؟ و قد علمت ما کسبت الیوم فما ذا أکسب غدا؟ و قد علمت بأی أرض ولدت فبأی أرض أموت؟

فنزلت هذه الآیة.

أقول: الحدیث لا یخلو من شیء لعدم انطباق الآیة علی فقرات السؤال.

و فیه، أخرج ابن مردویه عن علی بن أبی طالب قال: لم یعم علی نبیکم (ص) إلا الخمس من سرائر الغیب- هذه الآیة فی آخر لقمان إلی آخر السورة.

ص: 242

(۳۲) (سورة السجدة مکیة، و هی ثلاثون آیة) (۳۰)

[سورة السجده (۳۲): الآیات ۱ الی ۱۴]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِیمِ

الم (۱) تَنْزِیلُ الْکِتابِ لا رَیْبَ فِیهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ (۲) أَمْ یَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّکَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِیرٍ مِنْ قَبْلِکَ لَعَلَّهُمْ یَهْتَدُونَ (۳) اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَیْنَهُما فِی سِتَّةِ أَیَّامٍ ثُمَّ اسْتَوی عَلَی الْعَرْشِ ما لَکُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِیٍّ وَ لا شَفِیعٍ أَ فَلا تَتَذَکَّرُونَ (۴)

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (۵) ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۶) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ (۷) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ (۸) ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ (۹)

وَ قالُوا أَ إِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ أَ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ (۱۰) قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (۱۱) وَ لَوْ تَرى إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (۱۲) وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَ لكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (۱۳) فَذُوقُوا بِما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا إِنَّا نَسِيناكُمْ وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (۱۴)

ص: 243

(بيان)

غرض السورة تقرير المبدإ و المعاد و إقامة الحجة عليهما و دفع ما يختلج القلوب فى ذلك مع إشارة إلى النبوة و الكتاب ثم بيان ما يتميز به الفريقان المؤمنون بآيات الله حقا و الفاسقون الخارجون عن زى العبودية و وعد أولئك بما هو فوق تصور المتصورين من الثواب و وعيد هؤلاء بالانتقام الشديد بأليم العذاب المخلد و أنهم سيذوقون عذابا أدنى دون العذاب الأكبر، و تختتم السورة بتأكيد الوعيد و أمر النبى ص بالانتظار كما هم منتظرون.

و هى مكية إلا ثلاث آيات نزلت- كما قيل- بالمدينة و هى قوله تعالى: «أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً» إلى تمام ثلاث آيات.

و الذى أوردناه من آياتها يتضمن الفصل الأول من فصلى غرض السورة الذى أشرنا إليه.

قوله تعالى: «تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ»، أى هذا تنزيل الكتاب، و التنزيل مصدر بمعنى اسم المفعول و إضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى الموصوف، و المعنى: هذا هو الكتاب المنزل لا ريب فيه.

و قوله: «مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ» فيه براعة استهلال لما فى غرض السورة أن يتعاطى بيانه من الوحدانية و المعاد اللذين ينكرهما الوثنية لما مر مرارا أنهم لا يقولون برب

ص: 244

العالمين بل يثبتون لكل عالم إلها و لمجموع الآلهة إلها هو الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا.

قوله تعالى: «أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ» إلخ، أم منقطعة، و المعنى: بل يقولون افترى القرآن على الله و ليس من عنده فرده بقوله: «بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ» إلخ.

و قوله: «لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ » قيل: يعنى قريشا فإنهم لم يأتهم نبى قبله (ص) بخلاف غيرهم من قبائل العرب فإنهم أتاهم بعض الأنبياء كخالد بن سنان العبسى و حنظلة على ما فى الروايات.

و قيل: المراد به أهل الفترة بين عيسى و محمد ص فكانوا كأنهم فى غفلة عما لزمهم من حق نعم الله و ما خلقهم له من العبادة و فيه أن معنى الفترة هو عدم انبعاث نبى له شريعة و كتاب و أما الفترة عن مطلق النبوة فلا نسلم تحققها و خلو جميع الزمان و هو قريب من ستة قرون من النبى مطلقا.

و قوله: «لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ» غاية رجائية لإرسال الرسول و الترجى قائم بالمقام أو بالمخاطب دون المتكلم كما تقدم فى نظائره.

قوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ - إلى قوله- أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ» تقدم الكلام فى تفسير قوله : «خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ» فى نظائره من الآيات و تقدم أيضا أن الاستواء على العرش كناية عن مقام تدبير الموجودات بنظام عام إجمالى يحكم على الجميع و لذا اتبع العرش فى أغلب ما وقع فيه من الموارد بما فيه معنى التدبير كقوله: «ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ»: الأعراف: ۵۴ و قوله: «ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ»: يونس: ۳ و قوله: «ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ »: الحديد: ۴ و قوله: «ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ »: البروج: ۱۶.

و الوجه فى ذكر الاستواء على العرش، بعد ذكر خلق السماوات و الأرض أن الكلام فى اختصاص الربوبية و الألوهية بالله وحده و مجرد استناد الخلقة إليه تعالى لا ينفع فى إبطال ما يقول به الوثنية شيئا فإنهم لا ينكرون استناد الخلقة إليه وحده و إنما يقولون باستناد التدبير و هو الربوبية للعالم إلى آلهتهم ثم اختصاص الألوهية و هى المعبودية بآلهتهم و لله تعالى من الشأن أنه رب الأرباب و إله الآلهة.

ص: 245

فكان من الواجب عند إقامة الحجة لإبطال قولهم إن يذكر أمر الخلقة ثم يتعقب بأمر التدبير لمكان تلازمهما و عدم انفكاك أحدهما من الآخر حتى يكون موجد الأشياء و خالقها هو الذى يربها و يدبر أمرها فيكون ربا وحده و إلها وحده كما أنه موجد خالق وحده.

و لذلك بعينه ذكر أمر التدبير بعد ذكر الخلقة فى الآية التى نحن فيها إذ قيل:

«خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ- وَ ما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا شَفِيعٍ » فالولاية و الشفاعة كالاستواء على العرش من شئون التدبير.

و قوله: «ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا شَفِيعٍ » الولى هو الذى يملك تدبير أمر الشى ء و من المعلوم أن أمورنا و الشئون التى تقوم به حياتنا قائمة بالوجود محكومة مدبرة للنظام العام الحاكم فى الأشياء عامة و ما يخص بنا من نظام خاص، و النظام أيا

ما كان من لوازم خصوصيات خلق الأشياء و الخلقة كيفما كانت مستندة إليه تعالى فهو تعالى ولينا القائم بأمرنا المدبر لشئوننا و أمورنا، كما هو ولى كل شيء كذلک وحده لا شريک له.

و الشفيع- على ما تقدم فى مباحث الشفاعة فى الجزء الأول من الكتاب- هو الذى ينضم إلى سبب ناقص فيتمم سببيته و تأثيره، و الشفاعة تتميم السبب الناقص فى تأثيره و إذا طبقناها على الأسباب و المسببات الخارجية كانت أجزاء الأسباب المركبة و شرائطها بعضها شفيعا لبعض لتتميم حصة من الأثر منسوبة إليه كما أن كلا من السحاب و المطر و الشمس و الظل و غيرها شفيع للنبات.

و إذ كان موجد الأسباب و أجز ائها و الرابط بينها و بين المسببات هو الله سبحانه فهو الشفيع بالحقيقة الذى يتمم نقصها و يقيم صلبها فالله سبحانه هو الشفيع بالحقيقة لا شفيع غيره.

و ببيان آخر أدق قد تقدم فى البحث عن الأسماء الحسنى فى الجزء الثامن من الكتاب أن أسماءه تعالى الحسنى وسائط بينه و بين خلقه فى إيصال الفيض إليهم فهو تعالى يرزقهم مثلا بما أنه رازق جواد غنى رحيم و يشفى المريض بما أنه شاف معاف رءوف رحيم و يهلک الظالمين بما أنه شديد البطش ذو انتقام عزيز و هكذا.

ص: 246

فما من شی ء من المخلوقات المركبة الوجود إلا و يتوسط لوجوده عدة من الأسماء الحسنى بعضها فوق بعض و بعضها فى عرض بعض و كل ما هو أخص منها يتوسط بين الشی ء و بين الأعم منها كما أن الشافى يتوسط بين المريض و بين الرءوف الرحيم و الرحيم يتوسط بينه و بين القدير و هكذا.

و التوسط المذكور فى الحقيقة تتميم لتأثير السبب فيه و إن شئت فقل هو تقريب للشی ء من السبب لفعلية تأثيره و ينتج منه أنه تعالى شفيع ببعض أسمائه عند بعض فهو الشفيع ليس من دونه شفيع فى الحقيقة فافهم.

و قد تبين بما مر أن لا إشكال فى إطلاق الشفيع عليه تعالى بمعنى كونه شفيعا بنفسه عند نفسه و حقيقته توسط صفة من صفاته الكريمة بين الشیء و صفة من صفاته كما يستعاذ من سخطه إلى رحمته و من عدله إلى فضله، و أما كونه تعالى شفيعا بمعنى شفاعته لشیء عند غيره فهو مما لا يجوز البتة.

و القوم لتقريبهم إشكال إطلاق الشفيع عليه تعالى على المعنى الثانى أى بمعنى كونه شفيعا عند غيره اختلفوا فى تفسير الآية على أقوال:

فقال بعضهم: إن دون فى قوله: «ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا شَفِيعٍ» بمعنى عند و «مِنْ دُونِهِ» حال من ضمير «لَكُمْ» و المعنى: ما لكم حال كونكم مجاوزين دونه و من عند ولى و لا شفيع أى لا ولى لكم و لا شفيع ففيه نفى الولى و الشفيع لهم عند الله.

و فيه أن دون و إن صح كونه بمعنى عند لكن وجود «مِنْ» قرينة على أنه بمعنى غير، و لا معنى لأخذ المجاوزة و رجوع «ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ» إلى معنى «ما لكم عنده».

و قال بعضهم: إن الشفيع فى الآية بمعنى الناصر مجازا و دون بمعنى غير و «مِنْ دُونِهِ» حال من «وَلِيٍ» و المعنى: ما لكم ولى و لا ناصر غيره، و فيه أنه تجوز من غير موجب.

و قال بعضهم إن إطلاق الشفيع هنا من قبيل المشاكلة التقديرية لما أن المشركين المنذرين كثيرا ما كانوا يقولون فى آلهتهم : هؤلاء شفعاؤنا و يزعمون أن كل واحد منهم شفيع لهم و المعنى: على هذا لو فرض و قدر أن الإله ولى شفيع ما لكم ولى و لا شفيع غير الله سبحانه.

و قال بعضهم: إن دون بمعنى عند و الضمير فى «مِنْ دُونِهِ» للعذاب، و المعنى:

ليس لكم من دون عذابه ولى، أى قريب ينفعكم و يرد عذابه عنكم و لا شفيع يشفع لكم.

و فيه أن إرجاع الضمير إلى العذاب تحكم من غير دليل، و يرد على جميع هذه الوجوه أنها تكلفات ناشئة من أخذ الشفيع غير المشفوع عنده و قد عرفت أن المعنى تحليلى و الشفيع و المشفوع عنده واحد.

و قوله: «أَ فَلا تَتَذَكَّرُونَ» استفهام توبيخى يوبخهم على استمر ارهم على الإعراض عن أدلة العقول حتى يتذكروا أن الملك و التدبير لله سبحانه و هو المعبود بالحق ليس لهم دونه ولى و لا شفيع كما يزعمون ذلك لآلهتهم.

قوله تعالى: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» تتميم لبيان أن تدبير أمر الموجودات قائم به سبحانه و هذا هو القرينة على أن المراد بالأمر فى الآية الشأن دون الأمر المقابل للنهى.

و التدبير وضع الشى ء فى دابر الشى ء و الإتيان بالأمر بعد الأمر فيرجع إلى إظهار وجود الحوادث واحدا بعد واحد كالسلسلة المتصلة بين السماء و الأرض و قد قال تعالى:

«وَ إِنْ مِنْ شَيْ ءٍ إِلَّا عِنْدَنا خَزائِنُهُ وَ ما نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ»،: الحجر: ٢١ و قال:

«إِنَّا كُلَّ شَيْ ءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ»: القمر: ۴۹.

و قوله: «ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ» بعد قوله: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّماءِ إِلَى الْأَرْضِ » لا يخلو من إشعار بأن «يُدَبِّرُ» مضمن معنى التنزيل و المعنى: يدبر الأمر منزلا أو ينزله مدبرا- من السماء إلى الأرض و لعله الأمر الذى يشير إليه قوله : «فَقَضاهُنَّ سَبْعَ سَماواتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها»: حم السجدة: ١٢.

و فى قوله : «يَعْرُجُ إِلَيْهِ» إشعار بأن المراد بالسماء مقام القرب الذى تنتهى إليه أزمة الأمور دون السماء بمعنى جهة العلو أو ناحية من نواحى العالم الجسمانى فإن الأمر قد وصف قبل العروج بالنزول فظاهر العروج أنه صعود من الطريق التى نزل منها، و لم يذكر هناک إلا علو هو السماء، و سفل هو الأرض و نزول و عروج فالنزول من السماء و العروج إلى الله يشعر بأن السماء هو مقام الحضور الذى يصدر منه تدبير

ص: 248

الأمر أو أن موطن تدبير الأمر الأرضى هو السماء و الله المحيط بكل شى ء ينزل التدبير الأرضى من هذا الموطن، و لعل هذا هو الأقرب إلى الفهم بالنظر إلى قوله: «وَ أَوْحى فِي كُلِّ سَماءٍ أَمْرَها».

و قوله: «فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ » معناه على أى حال أنه فى ظرف لو طبق على ما فى الأرض من زمان الحوادث و مقدار حركتها انطبق على ألف سنة مما نعده فإن من المسلم أن الزمان الذى يقدره ما نعده من الليل و النهار و الشهور و السنين لا يتجاوز العالم الأرضى.

و إذ كان المراد بالسماء هو عالم القرب و الحضور و هو مما لا سبيل للز مان إليه كان المراد أنه وعاء لو طبق على مقدار حركة الحوادث فى الأرض كان مقداره ألف سنة مما تعدون.

و أما أن هذا المقدار هل هو مقدار النزول و اللبث و العروج أو مقدار مجموع النزول و العروج دون اللبث أو مقدار كل واحد من النزول و العروج أو مقدار نفس العروج فقط بناء على أن «فِي يَوْمٍ» قيد لقوله: «يَعْرُجُ إِلَيْهِ» فقط كما وقع فى قوله:

«تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَ الرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»: المعارج: ۴.

ثم على تقدير كون الظرف قيدا للعروج هل العروج مطلق عروج الحوادث إلى الله أو العروج يوم القيامة و هو مقدار يوم القيامة، و أما كونه خمسين ألف سنة فهو بالنسبة إلى الكافر من حيث الشقة أو أن الألف سنة مقدار مشهد من مشاهد يوم القيامة و هو خمسون موقفا كل موقف مقداره ألف سنة.

ثم المراد بقوله : «مِقْدارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ » هل هو التحد يد حقيقة أو المراد مجرد التكثير كما فى قوله : «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ»: البقرة: ۹۶ أى يعمر عمرا طويلا جدا و إن كان هذا الاحتمال بعيدا من السياق.

و الآية- كما ترى- تحتمل الاحتمالات جميعا و لكل منها وجه و الأقرب من بينها إلى الذهن كو ن «فِي يَوْمٍ» قيدا لقوله: «ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ» و كون المراد بيوم عروج الأمر مشهدا من خمسين مشهدا من مشاهد يوم القيامة، و الله أعلم.

قوله تعالى: «ذلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » تقدم تفسير مفردات الآية، و مناسبة الأسماء الثلاثة الكريمة للمقام ظاهرة.

ص: 249

قوله تعالى: «الَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْ ءٍ خَلَقَهُ» قال الراغب: الحسن عبارة عن کل مبهج- بصیغة الفاعل- مرغوب فیه و ذلک ثلاثة أضرب: مستحسن من جهة العقل و مستحسن من جهة الهوی و مستحسن من جهة الحس . انتهی. و هذا تعریف له من جهة خاصته و انقسامه بانقسام الإدراکات الإنسانیة.

و حقیقته ملاءمة أجزاء الشی ء بعضها لبعض و المجموع للغرض و الغایة الخارجة منه فحسن الوجه تلاؤم أجزائه من العین و الحاجب و الأنف و الفم و غیرها، و حسن العدل ملاءمته للغرض من الاجتماع المدنی و هو نیل کل ذی حق حقه، و هکذا.

و التدبر فی خلقة الأشیاء و کل منها فی نفسه متلائم الأجزاء بعضها لبعض و المجموع من وجوده مجهز ب ما یلائم کماله و سعادته تجهیزا لا أتم و لا أکمل منه یعطی أن کلا منها حسن فی نفسه حسنا لا أتم و أکمل منه بالنظر إلی نفسه.

و أما ما نری من المساءة و القبح فی الأشیاء فلأحد أمرین : إما لکون الشی ء السیئ ذا عنوان عدمی یعود إلیه المساءة لا لوجوده فی نفسه کالظلم و الزنا فإن الظلم لیس بسیئ قبیح بما أنه فعل من الأفعال بل بما أنه مبطل لحق ثابت و الزنا لیس بسیئ قبیح من جهة نفس العمل الخارجی الذی هو مشترک بینه و بین النکاح بل بما أن فیه مخالفة للنهی الشرعی أو للمصلحة الاجتماعیة.

أو بقیاسه إلی شی ء آخر فیعرضه المساءة و القبح من طریق المقایسة کقیاس الحنظل إلی البطیخ و قیاس الشوک إلی الورد و قیاس العقرب إلی الإنسان فإن المساءة إنما تطرأ هذه الأشیاء من طریق القیاس إلی مقابلاتها ثم قیاسها إلی طبعنا، و یرجع هذا الوجه من المساءة إلی الوجه الأول بالحقیقة.

و کیف کان فالشی ء بما أنه موجود مخلوق لا یتصف بالمساءة و یدل علیه الآیة «الَّذِی أَحْسَنَ کُلَّ شَیْ ءٍ خَلَقَهُ» إذا انضم إلی قوله: «اللَّهُ خالِقُ کُلِّ شَیْ ءٍ»: الزمر: ۶۲ فینتجان أولا: أن الخلقة تلازم الحسن فکل مخلوق حسن من حیث هو مخلوق.

و ثانیا: أن کل سیئ و قبیح لیس بمخلوق من حیث هو سیئ قبیح کالمعاصی و السیئات من حیث هی معاص و سیئات و الأشیاء السیئة من جهة القیاس.

قوله تعالی: «وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِینٍ» المراد بالإنسان النوع فالمبدو خلقه

ص: 250

من طین هو النوع الذی ینتهی أفراده إلی من خلق من طین من غیر تناسل من أب و أم کآدم و زوجه (ع)، و الدلیل علی ذلک قوله بعده: «ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِینٍ» فالنسل الولادة بانفصال المولود عن الوالدین و المقابلة بین بدء الخلق و بین النسل لا یلائم کون المراد ببدء الخلق بدء خلق الإنسان المخلوق من ماء مهین، و لو کان المراد ذلک لکان حق الکلام أن یقال: ثم جعله سلالة من ماء مهین فافهمه.

و قوله: «ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاٰلَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ » السلالة كما فى المجمع، الصفوة التى تنسل أى تنزع من غيرها و يسمى ماء الرجل سلالة لانسلاله من صلبه، و المهين من الهون و هو الضعف و الحقارة و ثم للتراخى الزمانى.

و المعنى: ثم جعل ولادته بطريق الانفصال من صفوة من ماء ضعيف أو حقير.

قوله تعالى: «ثُمَّ سَوّٰاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» التسوية التصوير و تتميم العمل، و فى قوله : «نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» استعارة بالكناية بتشبيه الروح بالنفس الذى يتنفس به ثم نفخة فى قالب من سواه، و إضافة الروح إليه تعالى إضافة تشريفية، و المعنى:

ثم صور الإنسان المبدو خلقه من الطين و المجعول نسله من سلالة من ماء مهين و نفخ فيه من روح شريف منسوب إليه تعالى.

قوله تعالى: «وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصٰارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مٰا تَشْكُرُونَ » امتنان بنعمة الإدراک الحسى و الفكرى فالسمع و البصر للمحسوسات و القلوب للفكريات أعم من الإدراكات الجزئية الخيالية و الكلية العقلية .

و قوله: «قَلِيلاً مٰا تَشْكُرُونَ» أى تشكرون شكرا قليلا، و الجملة اعتراضية فى محل التوبيخ و قيل: الجملة حالية، و المعنى: جعل لكم الأبصار و الأفئدة و الحال أنكم تشكرون قليلا، و الجملة على أى حال مسوقة للبث و الشكوى و التوبيخ.

و الالتفات فى قوله : «وَ جَعَلَ لَكُمُ » إلخ، من الغيبة إلى خطاب الجمع لتسجيل أن الإنعام الإلهى الشامل للجميع يربو على شكرهم فهم قاصرون أو أكثرهم مقصرون.

قوله تعالى: «وَ قٰالُوا أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِى الْأَرْضِ أَ إِنّٰا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ كٰافِرُونَ» حجة من منكرى البعث مبنية على الاستبعاد. و الضلال فى الأرض قيل: هو الضيعة كما يقال: ضلت النعمة أى ضاعت، و قيل: هو بمعنى الغيبة، و كيف

ص: 251

كان فمرادهم به أ إنا إذا متنا و انتشرت أجزاء أبداننا فى الأرض و صرنا بحيث لا تميز لأجزائنا من سائر أجزاء الأرض و لا خبر عنا نقع فى خلق جديد و نخلق ثانيا خلقنا الأول.؟

و الاستفهام للإنكار، و الخلق الجديد هو البعث.

و قوله: «بَلْ هُمْ بِلِقٰاءِ رَبِّهِمْ كٰافِرُونَ » إضراب عن فحوى قولهم : «أَ إِذٰا ضَلَلْنٰا فِى الْأَرْضِ » كأنه قيل: إنهم لا يجحدون الخلق الجديد لجحدهم قدرتنا على ذلک أو لسبب آخر بل هم كافرون بالرجوع إلينا و لقائنا و لذا جى ء فى الجواب عن قولهم بما يدل على الرجوع.

قوله تعالى: «قُلْ يَتَوَفّٰاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» توفى الشىء أخذه تاما كاملا كتوفى الحق و توفى الدين من المديون.

و قوله: «مَلَکُ الْمَوْتِ الَّذِی وُکِّلَ بِکُمْ» قیل: أی وکل بإماتتکم و قبض أرواحکم و الآیة مطلقة ظاهرة فی أعم من ذلک.

و قد نسب التوفی فی الآیة إلی ملک الموت، و فی قوله : «اللهُ یَتَوَفَّی الْأَنْفُسَ حِینَ مَوْتِها »: الزمر: ۴۲ إلیه تعالی، و فی قوله : «حَتَّی إِذا جاءَ أَحَدَکُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا »: الأنعام: ۶۱ و قوله: «اَلَّذِینَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِکَةُ ظالِمِی أَنْفُسِهِمْ »: النحل: ۲۸ إلی الرسل و الملائکة نظرا إلی اختلاف مراتب الأسباب فالسبب القریب الملائکة الرسل أعوان ملک الموت و فوقهم ملک الموت الآمر بذلک المجری لأمر الله و الله من ورائهم محیط و هو السبب الأعلی و مسبب الأسباب فذلک بوجه کمثل کتابة الإنسان بالقلم فالقلم کاتب و الید کاتبة و الإنسان کاتب.

و قوله: «ثُمَّ إِلی رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ» هو الرجوع الذی عبر عنه فی الآیة السابقة باللقاء و موطنه البعث المترتب علی التوفی و المتراخی عنه، کما یدل علیه العطف بثم الدالة علی التراخی.

و الآیة- علی أی تقدیر- جواب عن الاحتجاج بضلال الموتی فی الأرض علی نفی البعث و من المعلوم أن إماتة ملک الموت لهم لیس یحسم مادة الإشکال فیبقی قوله:

«ثُمَّ إِلی رَبِّکُمْ تُرْجَعُونَ» دعوی خالیة عن الدلیل فی مقابل دعواهم المدللة و الکلام

ص: 252

الإلهی أنزه ساحة أن یتعاطی هذا النوع من المحاجة.

لکنه تعالی أمر رسوله أن یجیب عن حجتهم المبنیة علی الاستبعاد بأن حقیقة الموت لیس بطلانا لکم و ضلالا منکم فی الأرض بل ملک الموت الموکل بکم یأخذکم تامین کاملین من أجسادکم أی ینزع أرواحکم من أبدانکم بمعنی قطع علاقتها من الأبدان و أرواحکم تمام حقیقتکم فأنتم أی ما یعنی بلفظة «کم» محفوظون لا یضل منکم شیء فی الأرض و إنما یضل الأبدان و تتغیر من حال إلی حال و قد کانت فی معرض التغیر من أول کینونتها . ثم إنکم محفوظون حتی ترجعوا إلی ربکم بالبعث و رجوع الأرواح إلی أجسادها.

و بهذا یندفع حجتهم علی نفی المعاد بضلالهم سواء قررت علی نحو الاستبعاد أو قررت ع لی أن تلاشی البدن یبطل شخصیة الإنسان فینعدم و لا معنی لإعادة المعدوم فإن حقیقة الإنسان هی نفسه التی یحکی عنها بقول «أنا» و هی غیر البدن و البدن تابع لها فی شخصیته و هی لا تتلاشی بالموت و لا تنعدم بل محفوظة فی قدرة الله حتی یؤذن فی رجوعها إلی ربها للحساب و الجزاء فیبعث علی الشریطة التی ذکر الله سبحانه.

و ظهر بما تقدم أولا وجه اتصال قوله : «قُلْ یَتَوَفَّاکُمْ» إلخ بقوله: «أَ إِذا ضَلَلْنا فِی الْأَرْضِ » إلخ و أنه جواب حاسم للإشکال قاطع للشبهة، و قد أشکل الأمر علی بعض من فسر التوفی بمطلق الإماتة من غیر التفا ت إلی نکتة التعبیر بلفظ التوفی فتکلف فی توجیه اتصال الآیتین بما لا یرتضیه العقل السلیم.

و ثانیا: أن الآیة من أوضح الآیات القرآنیة الدالة علی تجرد النفس بمعنی کونها غیر البدن أو شیء من حالات البدن.

قوله تعالی: «وَ لَوْ تَری إِذِ الْمُجْرِمُونَ ناکِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ » نکس الرأس إطراقه و طأطأته، و المراد بالمجرمین بقرینة ذیل الآیة خصوص المنکرین للمعاد فاللام فیه لا تخلو من معنی العهد أی هؤلاء الذین یجحدون المعاد و یقولون: «أَ إِذا ضَلَلْنا فِی الْأَرْضِ» إلخ.

و فی التعبیر عن البعث بقوله: «عِنْدَ رَبِّهِمْ» محاذاة لما تقدم من قوله: «بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ کافِرُونَ» أی واقفون موقفا من اللقاء لا یسعهم إنکاره، و قولهم: «أَبْصَرْنا

ص: 253

وَ سَمِعْنا» و مسألتهم الرجوع للعمل الصالح لما ینجلی لهم أن النجاة فی الإیمان و العمل الصالح و قد حصل لهم الإیمان الیقینی و بقی العمل الصالح و لذا یعترفون بالیقین و یسألون الرجوع إلی الدنیا لیعملوا صالحا فیتم لهم سببا النجاة.

و المعنی: و لو تری إذ هؤلاء الذین یجرمون بإنکار لقاء الله مطرقوا رءوسهم عند ربهم فی موقف اللقاء من الخزی و الذل و الندم یقولون ربنا أبصرنا بالمشاهدة و سمعنا بالطاعة فارجعنا نعمل عملا صالحا إنا موقنون و المحصل أنک تراهم یجحدون اللقاء و لو تراهم إذ أحاط بهم الخزی و الذل فنکسوا رءوسهم و اعترفوا بما ینکرونه الیوم و سألوا العود إلی هاهنا و لن یعودوا.

قوله تعالی: «وَ لَوْ شِئْنا لَآتَیْنا کُلَّ نَفْسٍ هُداها » إلی آخر الآیة أی لو شئنا أن نعطی کل نفس أعم من المؤمنة و الکافرة الهدی الذی یختص بها و یناسبها لأعطیناه لها بأن نشاء من طریق اختیار الکافر و إرادته أن یتلبس بالهدی فیتلبس بها من طریق الاختیار و الإرادة کما شئنا فی المؤمن کذلک فتلبس بالهدی باختیار منه و إرادة من دون أن ینجر إلی الإلجاء و الاضطرار فیبطل التکلیف و یلغو الجزاء.

و قوله: «وَ لکِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِینَ » أی و لکن هناک قضاء سابق منی محتوم و هو إملاء جهنم من الجنة و الناس أجمعین و هو قوله لإبلیس لما امتنع من سجدة آدم و قال : «فَبِعِزَّتِکَ لَأُغْوِیَنَّهُمْ أَجْمَعِینَ إِلَّا عِبادَکَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِینَ»: ... «فَالْحَقُّ وَ الْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْکَ وَ مِمَّنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ أَجْمَعِینَ »،: ص: ۸۵ فقضی أن یدخل متبعی إبلیس العذاب المخلد.

و لازم ذلک أن لا یهدیهم لظلمهم و فسقهم بالخروج عن زی العبودیة کما قال:

«إِنَّ اللَّهَ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الظَّالِمِینَ» «وَ اللَّهُ لا یَهْدِی الْقَوْمَ الْفاسِقِینَ»،: التوبة: ۸۰ إلی غیر ذلک من الآیات.

قوله تعالی: «فَذُوقُوا بِما نَسِیتُمْ لِقاءَ یَوْمِکُمْ هذا إِنَّا نَسِیناکُمْ » إلی آخر الآیة، تفریع علی قوله : «وَ لکِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّی » و النسیان ذهول صورة الشیء عن الذاکرة و یکنی به عن عدم الاعتناء بما یهم الشیء و هو المراد فی الآیة.

و المعنى: فإذا كان من القضاء إذاقة العذاب لمتبعى إبليس فذوقوا العذاب بسبب

ص: 254

عدم اعتنائكم بلقاء هذا اليوم حتى جحدتموه و لم تعملوا صالحا تثابون به فيه لأنا لم نعتن بما يهمكم فى هذا اليوم من السعادة و النجاة، و قوله: «وَ ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» تأكيد و توضيح لسابقه أى إن الذوق الذى أمرنا به ذوق عذاب الخلد و نسيانهم لقاء يومهم هذا أعمالهم السيئة.

(بحث روائى)

فى الدر المنثور، أخرج النحاس عن ابن عباس قال": نزلت سورة السجدة بمكة سوى ثلاث آيات «أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً» إلى تمام الآيات الثلاث.

و فيه، أخرج سعيد بن منصور و ابن أبى شيبة عن على قال : عزائم سجود القرآن الم تنزيل السجدة، و حم تنزيل السجدة، و النجم، و اقرأ باسم ربک الذى خلق.

و فى الخصال، عن أبى عبد الله (ع) قال: إن العزائم أربع: اقرأ باسم ربک الذى خلق، و النجم، و تنزيل السجدة، و حم السجدة.

و فى الدر المنثور، أخرج أحمد و الطبرانى عن الشريد بن سويد قال : أبصر النبى ص رجلا قد أسبل إزاره- فقال له: ارفع إزارک، فقال: يا رسول الله إنى أحنف تصطک رکبتاى. قال: ارفع إزارک کل خلق الله حسن.

و فى الفقيه،: سئل الصادق (ع) عن قول الله عز و جل: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِها» و عن قول الله عز و جل: «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ » و عن قول الله عز و جل : «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ » و «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ» و عن قول الله عز و جل : «تَوَفَّتْهُ رُسُلُنا» و عن قوله عز و جل : «وَ لَوْ تَرى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ » و قد يموت فى الدنيا فى الساعة الواحدة فى جميع الآفاق ما لا يحصيه إلا الله عز و جل، فکيف هذا؟.

فقال: إن الله تبارک و تعالى جعل لملک الموت أعوانا من الملائکة- يقبضون الأرواح بمنزلة صاحب الشرطة- له أعوان من الإنس يبعثهم فى حوائجه- فيتوفاهم الملائکة و يتوفاهم ملک الموت من الملائکة مع ما يقبض هو، و يتوفاها الله تعالى من ملک الموت.

ص: 255

و فى الدر المنثور، أخرج ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن أبى جعفر محمد بن على قال : دخل رسول الله ص على رجل من الأنصار يعوده- فإذا ملک الموت عند رأسه فقال رسول الله ص : يا ملک الموت ارفق بصاحبى فإنه مؤمن- فقال: أبشر يا محمد فإنى بکل مؤمن رفيق.

و اعلم يا محمد إنى لأقبض روح ابن آدم فيصرخ أهله- فأقوم فى جانب من الدار فأقول: و الله ما لى من ذنب و إن لى لعودة و عودة الحذر الحذر- و ما خلق الله من أهل بيت و لا مدر و لا شعر و لا وبر فى بر و لا بحر- إلا و أنا أتصفحهم فى كل يوم و ليلة خمس مرات- حتى إنى لأعرف بصغيرهم و كبيرهم منهم بأنفسهم . و الله يا محمد إنى لا أ قدر أن أقبض روح بعوضة- حتى يكون الله تبارک و تعالى هو الذى يأمر بقبضه.

و فى تفسير القمى،": فى قوله تعالى: «وَ لَوْ شِئْنا لَآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها» قال: لو شئنا أن نجعلهم كلهم معصومين لقدرنا.

أقول: العصمة لا تنافى الاختيار فلا تنافى بين مضمون الرواية و ما قدمناه فى تفسير الآية.

(كلام فى كينونة الإنسان الأولى)

تقدم فى تفسير أول سورة النساء كلام فى هذا المعنى و كلامنا هذا كالتكملة له.

قدمنا هناک أن الآيات القرآنية ظاهرة ظهورا قريبا من الصراحة فى أن البشر الموجودين اليوم- و نحن منهم- ينتهون بالتناسل إلى زوج أى رجل و امرأة بعينهما و قد سمى الرجل فى القرآن بآدم و هما غير متكونين من أب و أم بل مخلوقان من تراب أو طين أو صلصال أو الأرض على اختلاف تعبيرات القرآن.

فهذا هو الذى يفيده الآيات ظهورا معتدا به و إن لم تكن نصة صريحة لا تقبل التأويل و لا المسألة من ضرورى ات الدين نعم يمكن عد انتهاء النسل الحاضر إلى آدم ضروريا من القرآن و أما أن آدم هذا هل أريد به آدم النوعى أعنى الطبيعة الإنسانية الفاشية فى الأشخاص أو عدة معدودة من الأفراد هم أصول النسب و الآباء و الأمهات الأولية أو فرد إنسانى واحد بالشخص؟.

ص: 256

و على هذا التقدير هل هو فرد من نوع الإنسان تولد من نوع آخر كالقردة مثلا على طريق تطور الأنواع و ظهور الأكمل من الكامل و الكامل من الناقص و هكذا أو هو فرد من الإنسان كامل بالكمال الفكرى تولد من زوج من الإنسان غير المجهز بجهاز التعقل فكان مبدأ لظهور النوع الإنسانى المجهز بالتعقل القابل للتكليف و انفصاله من النوع غير المجهز بذلک فالبشر الموجودون اليوم نوع كامل من الإنسان ينتهى أفراده إلى الإنسان الأول الكامل الذى يسمى بآدم، و ينشعب هذا النوع الكامل بالتولد تطورا من نوع آخر من الإنسان ناقص فاقد للتعقل و هو يسير القهقرى فى أنواع حيوانية مترتبة حتى ينتهى إلى أبسط الحيوان تجهيزا و أنقصها كمالا و إن أخذنا من هناک سائرين لم نزل ننتقل من ناقص إلى كامل و من كامل إلى أكمل حتى ننتهى إلى الإنسان غير المجهز بالتعقل ثم إلى الإنسان الكامل كل ذلک فى سلسلة نسبية متصلة مؤلفة من آباء و أعقاب.

أو أن سلسلة التوالد و التناسل تنقطع بالاتصال بآدم و زوجه و هما متكونان من الأرض من غير تولد من أب و أم فليس شى ء من هذه الصور ضروريا.

و كيف كان فظاهر الآيات القرآنية هو الصورة الأخيرة و هى انتهاء النسل الحاضر إلى آدم و زوجه المتكونين من الأرض من غير أب و أم.

غير أن الآيات لم تبين كيفية خلق آدم من الأرض و أنه هل عملت فى خلقه علل و عوامل خارقة للعادة؟ و هل تمت خلقته بتكوين إلهى آنى من غير مهل فتبدل الجسد المصنوع من طين بدنا عاديا ذا روح إنسانى أو أنه عاد إنسانا تاما كاملا فى أزمنة معتد بها يتبدل عليه فيها استعداد بعد استعداد و صورة و شكل بعد صورة و شكل حتى تم الاستعداد فنفخ فيه الروح و بالجملة اجتمعت عليه من العلل و الشرائط نظير ما تجتمع على النطفة فى الرحم.

و من أوضح الدليل عليه قوله تعالى: «إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»: آل عمران: ۵۹ فإن الآية نزلت جوابا عن احتجاج النصارى على بنوة عيسى بأنه ولد من غير أب بشرى و لا ولد إلا بوالد فأبوه هو الله سبحانه، فرد فى الآية بما محصله أن صفته كصفة آدم حيث خلقه الله من أديم

ص: 257

الأرض بغير والد يولده فلم لا يقولون بأن آدم ابن الله؟.

و لو كان المراد بخلقه من تراب انتهاء خلقته كسائر المتكونين من النطف إلى الأرض كان المعنى: أن صفة عيسى و لا أب له كمثل آدم حيث تنتهى خلقته كسائر الناس إلى الأرض، و من المعلوم أن لا خصوصية لآدم على هذا المعنى حتى يؤخذ و يقاس إليه عيسى فيفسد معنى الآية فى نفسه و من حيث الاحتجاج به على النصارى.

و بهذا يظهر دلالة جميع الآيات الدالة على خلق آدم من تراب أو طين أو نحو ذلك، على المطلوب كقوله: «إِنِّی خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِینٍ»: ص: ۷۱ و قوله: «وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِینٍ»: الم السجدة: ۷.

و أما قول من قال: إن المراد بآدم هو آدم النوعى دون الشخصى بمعنى الطبيعة الإنسانية الخارجية الفاشية فى الأفراد، و المراد ببنوة الأفراد له تكثر الأشخاص منه بانضمام القيود إليه و قصة دخوله الجنة و إخراجه منها لمعصيته بإغواء من الشيطان تمثيل تخييلى لمكانته فى نفسه و وقوفه موقف القرب ثم كونه فى معرض الهبوط باتباع الهوى و طاعة إبليس.

ففيه أنه مدفوع بالآية السابقة و ظواهر كثير من الآيات كقوله: «الَّذِی خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَ خَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَ بَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِیراً وَ نِساءً»: النساء: ۱ فلو كان المراد بالنفس الواحدة آدم النوعى لم يبق لفرض الزوج لها محل و نظير الآية الآيات التى تفيد أن الله أدخله و زوجه الجنة و أنه و زوجه عصيا الله بالأكل من الشجرة.

على أن أصل القول بآدم النوعى مبنى على قدم الأرض و الأنواع المتأصلة و منها الإنسان و أن أفراده غير متناهية من الجانبين و الأصول العلمية تبطل ذلك بتاتا.

و أما القول بكون النسل منتهيا إلى أفراد معدودين كأربعة أزواج مختلفين ب‍بياض اللون و سواده و حمرته و صفرته أو أزواج من الإنسان ناشئين بعضهم بالدنيا القديمة و بعضهم بالدنيا الحديثة و الأراضى المكشوفة أخيرا و فيها بشر قاطنون كإمريكا و أستراليا.

فمدفوع بجميع الآيات الدالة على انتهاء النسل الحاضر إلى آدم و زوجه فإن المراد بآدم فيه ا إما شخص واحد إنسانى و إما الطبيعة الإنسانية الفاشية فى الأفراد و هو آدم

ص: 258

النوعى و أما الأفراد المعدودون فلا يحتمل لفظ الآيات ذلک البتة.

على أنه مبنى على تباين الأصناف الأربعة من الإنسان : البيض و السود و الحمر و الصفر و كون كل من هذه الأصناف نوعا برأسه ينتهى إلى زوج غير ما ينتهى إليه الآخر أو كون قارات الأرض منفصلا بعضها عن بعض انفصالا أبديا غير مسبوق بالعدم، و قد ظهر بطلان هذه الفرضيات اليوم بطلانا كاد يلحقها بالبديهيات.

و أما القول بانتهاء النسل إلى زوج من الإنسان أو أزيد انفصلا أو انفصلوا من نوع آخر هو أقرب الأنواع إليه كالقرد مثلا انفصال الأكمل من الكامل تطورا.

ففيه أن الآيات السابقة الدالة على خلق الإنسان الأول من تراب من غير أب و أم تدفعه.

على أن ما أقيم عليه من الحجة العلمية قاصر عن إثباته كما سنشير إليه فى الكلام على القول التالى.

و أما القول بانتهاء النسل إلى فردين من الإنسان الكامل بالكمال الفكرى من طريق التولد ثم انشعابهما و انفصالهما بالتطور من نوع آخر من الإنسان غير الكامل بالكمال الفكرى ثم انقراض الأصل و بقاء الفرع المتولد منهما على قاعدة تنازع البقاء و انتخاب الأصلح.

فيدفعه قوله تعالى: «إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » على التقريب المتقدم و ما فى معناه من الآيات.

على أن الحجة التى أقيمت على هذا القول قاصرة عن إثباته فإنها شواهد مأخوذة من التشريح التطبيقى و أجنة الحيوان و الآثار الحفرية الدالة على التغير التدريجى فى صفات الأنواع و أعضائها و ظهور الحيوان تدريجا آخذا من الناقص إلى الكامل و خلق ما هو أبسط من الحيوان قبل ما هو أشد تركيبا.

و فيه أن ظهور النوع الكامل من حيث التجهيزات الحيوية بعد الناقص زمانا لا يدل على أزيد من تدرج المادة فى استكمالها لقبول الصور الحيوانية المختلفة فهى قد استعدت لظهور الحياة الكاملة فيها بعد الناقصة و الشريفة بعد الخسيسة و أما كون

الکامل من الحیوان منشعبا من الناقص بالتولد و الاتصال النسبی فلا و لم یعثر هذا الفحص و البحث علی غزارته و طو ل زمانه علی فرد نوع کامل متولد من فرع نوع آخر علی أن

ص: 259

یقف علی نفس التولد دون الفرد و الفرد.

و ما وجد منها شاهدا علی التغیر التدریجی فإنما هو تغیر فی نوع واحد بالانتقال من صفة لها إلی صفة أخری لا یخرج بذلک عن نوعیته و المدعی خلاف ذلک.

فالذی یتسلم أن نشأة الحیاة ذات مراتب مختلفة بالکمال و النقص و الشرف و الخسة و أعلی مراتبها الحیاة الإنسانیة ثم ما یلیها ثم الأمثل فالأمثل و أما أن ذلک من طریق تبدل کل نوع مما یجاوره من النوع الأکمل، فلا یفیده هذا الدلیل علی سبیل الاستنتاج.

نعم یوجب حدسا ما غیر ی قینی بذلک فالقول بتبدل الأنواع بالتطور فرضیة حدسیة تبتنی علیها العلوم الطبیعیة الیوم و من الممکن أن یتغیر یوما إلی خلافها بتقدم العلوم و توسع الأبحاث.

و ربما استدل علی هذا القول بقوله تعالی : «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفی آدَمَ وَ نُوحاً وَ آلَ إِبْراهِیمَ وَ آلَ عِمْرانَ عَلَی الْعالَمِینَ»،: آل عمران: ۳۳ بتقریب أن الاصطفاء هو انتخاب صفوة الشیء و إنما یصدق الانتخاب فیما إذا کان هناک جماعة یختار المصطفی من بینهم و یؤثر علیهم کما اصطفی کل من نوح و آل إبراهیم و آل عمران من بین قومهم و لازم ذلک أن یکون مع آدم قوم غی ره فیصطفی من بینهم علیهم، و لیس إلا البشر الأولی غیر المجهز بجهاز التعقل فاصطفی آدم من بینهم فجهز بالعقل فانتقل من مرتبة نوعیتهم إلی مرتبة الإنسان المجهز بالعقل الکامل بالنسبة إلیهم ثم نسل و کثر نسله و انقرض الإنسان الأولی الناقص.

و فیه أن «الْعالَمِینَ» فی الآیة جمع محلی باللام و هو یفید العموم و یصدق علی عامة البشر إلی یوم القیامة فهم مصطفون علی جمیع المعاصرین لهم و الجائین بعدهم کمثل قوله:

«وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِینَ» فما المانع من کون آدم مصطفی مختارا من بین أولاده ما خلا المذکورین منهم فی الآیة؟.

و علی تقدیر اختصاص الاصطفاء بما بین المعاصرین و علیهم ما هو المانع من کونه مصطفی مختارا من بین أولاده المعاصرین له و لا دلالة فی الآیة علی کون اصطفائه أول خلقته قبل ولادة أولاده.

ص: 260

علی أن اصطفاء آدم لو کان علی الإنسان الأولی کما یذکره المستدل کان ذلک بما أنه مجهز بالعقل و کان ذلک مشترکا بینه و بین بنی آدم جمیعا علی الإنسان الأولی فکان تخصیص آدم فی الآیة بالذکر تخصیصا من غیر مخصص.

و ربما استدل بقوله: «وَ لَقَدْ خَلَقْناكُمْ ثُمَّ صَوَّرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُ وا لِآدَمَ»، الآية: الأعراف: ١١ بناء على أن «ثم» تدل على التراخى الزمانى فقد كان للنوع الإنسانى وجود قبل خلق آدم و أمر الملائكة بالسجدة له.

و فيه أن «ثُمَ» فى الآية للترتيب الكلامى و هو كثير الورود فى كلامه تعالى على أن هناك معنى آخر أشرنا إليه فى تفسير الآية فى الجزء الثامن من الكتاب.

و ربما استدل بقوله: «وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَ نَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ» الآيات و تقريبه أن الآية الأولى المتعرضة لأول خلق الإنسان تذكر خلقته الأولية من تراب التى يشترك فيها جميع الأفراد، و الآية الثالثة تذكر تسويته و نفخ الروح فيه و بالجملة كماله الإنسانى و العطف بثم تدل على توسط زمان معتد به بين أول خلقته من تراب و بين ظهوره بكماله.

و ليس هذا الزمان المتوسط إلا زمان توسط الأنواع الأخر التى تنتهى بتغيرها التدريجى إلى الإنسان الكامل و خاصة بالنظر إلى تنكر «سُلالَةٍ» المفيد للعموم.

و فيه أن قوله: «ثُمَّ سَوَّاهُ» عطف على قوله «بَدَأَ» و الآيات فى مقام بيان ظهور النوع الإنسانى بالخلق و أن بدأ خلقه و هو خلقه و هو خلق آدم كان من طين ثم بدل سلا لة من ماء فى ظهور أولاده، ثم تمت الخلقة سواء كان فيه أو فى أولاده بالتسوية و نفخ الروح.

و هذا معنى صحيح يقبل الانطباق على اللفظ و لا يلزم منه حمل قوله: «ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ» على أنواع متوسطة بين الخلق من الطين و بين التسوية و نفخ الروح، و كون «سُلالَةٍ» نكرة لا يستلزم العموم فإن إفادة النكرة للعموم إنما هو فيما إذا وقعت فى سياق النفى دون الإثبات.

و قد استدل بآيات أخر مربوطة بخلقه الإنسان و آدم بنحو مما مر يعلم الجواب عنها بما قدمناه فلا موجب لنقلها و إطالة الكلام بالجواب عنها.

ص: 261

[سورة السجده (٣٢): الآيات ١٥ الى ٣٠]

إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (١٥) تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ (١٨) أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى‌ نُزُلاً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٩)

وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها وَ قِيلَ لَهُمْ ذُ وقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّ بُونَ (٢٠) وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١) وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (٢٢) وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (٢٣) وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ (٢٤)

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٢٥) أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ أَ فَلا يَسْمَعُونَ (٢٦) أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ أَ فَلا يُبْصِرُونَ (٢٧) وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٨) قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمانُهُمْ وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ (٢٩)

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (٣٠)

(بيان)

الآيات تفرق بين المؤمنين بحقيقة معنى الإيمان و بين الفاسقين و الظالمين و تذكر لكل ما يلزمه من الآثار و التبعات ثم تنذر الظالمين بعذاب الدنيا و تأمر النبي ص بانتظار الفتح و عند ذلك تختم السورة.

قوله تعالى: «إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنَا الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَ هُمْ لا يَسْتَكْ بِرُونَ» لما ذكر شطرا من الكلام في الكفار الذين يجحدون لقاءه و يستكبرون في الدنيا عن الإيمان و العمل الصالح أخذ في صفة الذين يؤمنون بآيات ربهم و يخضعون للحق لما ذكروا و وعظوا.

فقوله: «إِنَّما يُؤْمِنُ بِآياتِنا» حصر للإيمان بحقيقة معناه فيهم و معناه أن علامة التهيؤ للإيمان الحقيقي هو كذا و كذا.

و قوله: «الَّذِينَ إِذا ذُكِّرُوا بِها خَرُّوا سُجَّداً» ذكر سبحانه شيئا من أوصافهم و شيئا من أعمالهم، أما ما هو من أوصافهم فتذللهم لمقام الربوبية و عدم استكبارهم عن الخضوع لله و تسبيحه و حمده و هو قوله : «إِذا ذُكِّرُوا بِها» أي الدالة على وحدانيته في ربوبيته و ألوهيته و ما يلزمها من المعاد و الدعوة النبوية إلى الإ يمان و العمل الصالح «خَرُّوا سُجَّداً» أي سقطوا على الأرض ساجدين لله تذللا و استكانة «وَ سَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ» أي نزهوه مقارنا للثناء الجميل عليه. و السجدة و التسبيح و التحميد و إن كانت من الأفعال لكنها مظاهر لصفة التذلل و الخضوع لمقام الربوبية و الألوهية، و لذا أردفها بصفة تلازمها فقال : «وَ هُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ».

قوله تعالى: «تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ » هذا معرفهم من حيث أعمالهم كما أن ما فى الآية السابقة كان معرفهم من حيث أوصافهم.

فقوله: «تَتَجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ » التجافى التنحى و الجنوب جمع جنب و هو الشق، و المضاجع جمع مضجع و هو الفراش و موضع النوم، و التجافى عن المضاجع كناية عن ترك النوم.

و قوله: «يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً» حال من ضمير جنوبهم و المراد اشتغالهم بدعاء ربهم فى جوف الليل حين تنام العيون و تسكن الأنفاس لا خوفا من سخطه تعالى فقط حتى يغشيهم اليأس من رحمة الله و لا طمعا فى ثوابه فقط حتى يأمنوا غضبه و مكره بل يدعونه خوفا و طمعا فيؤثرون فى دعائهم أدب العبودية على ما يبعثهم إليه الهدى و هذا التجافى و الدعاء ينطبق على النوافل الليلية.

و قوله: «وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ» عمل آخر لهم و هو الإنفاق لله و فى سبيله.

قوله تعالى: «فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ» تفريع لما لهم من الأوصاف و الأعمال يصف ما أعد الله لهم من الثواب.

و وقوع نفس و هى نكرة فى سياق النفى يفيد العموم، و إضافة قرة إلى أعين لا أعينهم تفيد أن فيما أخفى لهم قرة عين كل ذى عين.

و المعنى: فلا تعلم نفس من النفوس- أى هو فوق علمهم و تصورهم- ما أخفاه الله لهم مما تقر به عين كل ذى عين جزاء فى قبال ما كانوا يعملون فى الدنيا.

قوله تعالى: «أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ » الإيمان سكون علمى خاص من النفس بالشى ء و لازمه الالتزام العملى بما آمن به و الفسق هو الخروج عن الالتزام المذكور من فسقت التمرة إذا خرجت عن قشرها و مآل معناه الخروج عن زى العبودية.

و الاستفهام فى الآية للإنكار، و قوله: «لا يَسْتَوُونَ» نفى لاستواء الفريقين تأكيدا لما يفيده الإنكار السابق.

قوله تعالى: «أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوى نُزُلًا بِما كانُوا

ص: 264

يَعْمَلُونَ» المأوى المكان الذى يأوى إليه و يسكن فيه الإنسان، و النزل بضمتين كل ما يعد للنازل فى بيت من الطعام و الشراب، ثم عمم كما قيل لكل عطية، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: «وَ أَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْواهُمُ النَّارُ» إلى آخر الآية، كون النار مأواهم لازمه خلودهم فيها و لذلك عقبه بقوله : «كُلَّما أَرادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْها أُعِيدُوا فِيها »، و قوله: «وَ قِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّذِی كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ» دليل على أن المراد بالذين فسقوا هم منكرو المعاد و خطابهم و هم فى النار بهذا الخطاب شماتة بهم و كثيرا ما كانوا يشمتون فى الدنيا بالمؤمنين لقولهم بالمعاد.

قوله تعالى: «وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى‌ دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» لما كان غاية إذاقتهم العذاب رجوعهم المرجو و الرجوع المرجو هو الرجوع إلى الله بالتوبة و الإنابة كان المراد بالعذاب الأدنى هو عذاب الدنيا النازل بهم للتخويف و الإنذار ليتوبوا دون عذاب الاستئصال و دون العذاب الذى بعد الموت و حينئذ المراد بالعذاب الأكبر عذاب يوم القيامة .

و المعنى: أقسم لنذيقنهم من العذاب الأدنى أى الأقرب مثل السنين و الأمراض و القتل و نحو ذلك قبل العذاب الأكبر يوم القيامة لعلهم يرجعون إلينا بالتوبة من شركهم و جحودهم.

قيل: سمى عذاب الدنيا أدنى و لم يقل : الأصغر، حتى يقابل الأكبر لأن المقام مقام الإنذار و التخويف و لا يناسبه عد العذاب أصغر، و كذا لم يقل دون العذاب الأبعد حتى يقابل العذاب الأدنى لعدم ملاءمته مقام التخويف.

قوله تعالى: «وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْها إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ» كأنه فى مقام التعليل لما تقدم من عذابهم بالعذاب الأكبر بما أنهم مكذبون فعلله بأنهم ظالمون أشد الظلم بالإعراض عن الآيات بعد التذكرة فيكونون مجرمين و الله منتقم منهم.

فقوله: «وَ مَنْ أَظْلَمُ» إلخ تعليل لعذابهم بأنهم ظالمون أشد الظلم ثم قوله: «إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ»، تعليل لعذاب الظالمين بأنهم مجرمون و العذاب انتقام منهم، و الله منتقم من المجرمين.

ص: 265

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ فَلا تَكُنْ فِی مِرْيَةٍ مِنْ لِقائِهِ وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِی إِسْرائِيلَ » المراد بالكتاب التوراة و المرية الشك و الريب.

و قد اختلفوا فى مرجع الضمير فى قوله: «مِنْ لِقائِهِ» و معنى الكلمة فقيل:

الضمير لموسى و هو مفعول اللقاء و التقدير فلا تكن فى مرية من لقائک موسى و قد لقيه ليلة المعراج كما وردت به الروايات فإن كانت السورة نازلة بعد المعراج فهو تذكرة لما قد وقع و إن كانت نازلة قبله فهو وعد منه تعالى للنبى ص أنه سيراه.

و قيل: الضمير لموسى و المعنى: فلا تكن فى مرية من لقائک موسى يوم القيامة.

و قيل: الضمير للكتاب و التقدير فلا تكن فى مرية من لقاء موسى الكتاب.

و قيل: التقدير من لقائک الکتاب أو من لقاء الکتاب إياک.

و قيل: الضمير لما لقى موسى من الأذى من قومه و المعنى : فلا تكن فى مرية من لقاء الأذى كما لقيه موسى من قومه و أنت خبير بأن الطبع السليم لا يقبل شيئا من هذه الوجوه- على أنها لا تفى لبيان وجه اتصال الآية بما قبلها.

و من الممكن- و الله أعلم- أن يرجع ضمير لقائه إليه تعالى و المراد بلقائه البعث بعناية أنه يوم يحضرون لربهم لا حجاب بينه و بينهم كما تقدم، و قد عبر عنه باللقاء قبل عدة آيات فى قوله: «بَلْ هُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ كافِرُونَ»، ثم عبر عنه بما فى معناه فى قوله: «ناكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ».

فيكون المعنى: و لقد آتينا موسى الکتاب كما آتيناک القرآن فلا تكن فى مرية من البعث الذى ينطق به القرآن بالشک فى نفس القرآن و قد أيد نزول القرآن عليه (ص) بنزول التوراة على موسى فى مواضع من القرآن، و يؤيده قوله بعد: «وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِی إِسْرائِيلَ وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا» إلخ.

و يمكن أن يكون المراد بلقائه الانقطاع التام إليه تعالى عند وحى القرآن أو بعضه كما فى بعض الروايات، فيكون رجوعا إلى ما فى صدر السورة من قوله : «تَنْزِيلُ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ »، و ذيل الآية أشد تأييدا لهذا الوجه من سابقه و الله أعلم.

و قوله: «وَ جَعَلْناهُ هُدىً لِبَنِی إِسْرائِيلَ» أى هاديا فالمصدر بمعنى اسم الفاعل

ص: 266

أو بمعناه المصدرى مبالغة.

قوله تعالى: «وَ جَعَلْنا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا لَمَّا صَبَرُوا وَ كانُوا بِآياتِنا يُوقِنُونَ» أى و جعلنا من بنى إسرائيل أئمة يهدون الناس بأمرنا و إنما نصبناهم أئمة هداة للناس حين صبروا فى الدين و كانوا قبل ذلک موقنين بآياتنا.

و قد تقدم البحث عن معنى الإمامة و هداية الإمام بأمر الله فى تفسير قوله:

«قالَ إِنِّی جاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِماماً »،: البقرة: ۱۲۴ و قوله: «وَ جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا »،: الأنبياء: ۷۳ و غير ذلک من الموارد المناسبة.

و قد تضمنت هاتان الآيتان من الرحمة المنبسطة بالتوراة أنها هدى فى نفسه يهدى من اتبعه إلى الحق، و أنها أنشأت فى حجر تربيتها أناسا اجتباهم الله للإمامة فصاروا يهدون بأمره فهى مباركة للعمل بها و مباركة بعد العمل.

قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّکَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» يريد اختلافهم فى الدين و إنما كان ذلک بغيا بينهم كما يذكره فى مواضع من كلامه كقوله:

«وَ لَقَدْ آتَيْنا بَنِی إِسْرائِيلَ الْكِتابَ - إلى أن قال- فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّکَ يَقْضِی بَيْ نَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ»: الجاثية: ۱۷.

فالمراد بقوله: «يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ» القضاء الفاصل بين الحق و الباطل و المحق و المبطل و الباقی ظاهر.

قوله تعالى: «أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقرُونِ يَمْشُونَ فِی مَساكِنِهِمْ» إلخ، العطف على محذوف كأنه قيل: أ لم يبين لهم كذا و كذا، أَ وَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ إلخ، و الهداية بمعنى التبيين أو هو مضمن معنى التبيين و لذا عدی باللام.

و قوله: «كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ» مشير إلى الفاعل قائم مقامه، و المعنى:

أ و لم يبين لهم كثرة من أهلكنا من القرون و الحال أنهم يمشون فی مساكنهم.

و قوله: «إِنَّ فِی ذلِکَ لَآياتٍ أَ فَلا يَسْمَعُونَ» المراد بالسمع سمع المواعظ المؤدی إلى طاعة الحق و قبوله.

قوله تعالى: «أَ وَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْماءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَ أَنْفُسُهُمْ » إلخ، قال فی المجمع:، السوق الحث على السير من ساقه يسوقه،

ص: 267

و قال: الجرز الأرض اليابسة التی ليس فيها نبات لانقطاع الأمطار عنها. انتهى.

و الزرع مصدر فی الأصل و المراد به هنا المزروع.

و الآية تذكر آية أخرى من آيات الله سبحانه تدل على حسن تدبيره للأشياء و خاصة ذوی الحياة منها كالأنعام و الإنسان، و المراد بسوق الماء إلى الأرض الخالية من النبات سوق السحب الحاملة للأمطار إليها، ففی نزول ماء المطر منها حياة الأرض و خروج الزرع و اغتذاء الإنسان و الأنعام التی يسخرها و يربيها لمقاصد حياته.

و قوله: «أَ فَلا يُبْصِرُونَ » تنبيه و توبيخ و تخصيص هذه الآية بالإبصار، و الآية السابقة بالسمع لما أن العلم بإهلاک الأمم الماضين إنما هو بالأخبار التی تنال من طريق السمع و أما العلم بسوق الأمطار إلى الأرض الجرز و إخراج الزرع و اغتذاء الأنعام و الإنسان فالطريق إليه حاسة البصر.

قوله تعالى: «وَ يَقُولُونَ مَتى هذَا الْفَتْحُ- إلى قوله- وَ لا هُمْ يُنْظَرُونَ» قال الراغب: الفتح إزالة الإغلاق و الإشكال- إلى أن قال- و فتح القضية فتاحا فصل الأمر فيها و أزال الإغلاق عنها، قال: «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ» انتهى.

و قد تقدم فی الآیات السابقة مما یصدق علیه الفتح بمعنی الفصل أمران: أحدهما فصل بینهم یوم القیامة، و الآخر إذاقة العذاب الأدنی أو الانتقام منهم فی الدنیا و لذا فسر الفتح بعضهم بیوم القیامة فیکون معنی قولهم : مَتی هذَا الْفَتْحُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ هو معنی قولهم المحکی کرارا فی کلامه تعالی: «مَتی هذَا الْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ».

و فسره بعضهم بیوم بدر فإنه لم ینفع الذین قتلوا من المشرکین إیمانهم بعد القتل.

و ذکر بعضهم أن المراد به فتح مکة و لا یلائمه الجواب المذکور فی قوله : «قُلْ یَوْمَ الْفَتْحِ لا یَنْفَعُ الَّذِینَ کَفَرُوا إِیمانُهُمْ وَ لا هُمْ یُنْظَرُونَ» إلا أن یقول قائل: إن إیمانهم یومئذ- و قد عاندوا الحق و قاتلوا النبی ص سنین و جاهدوا فی إطفاء نور الله- لم یکن إیمانا إلا نفاقا من غیر أن یدخل فی قلوبهم و ینتفع به نفوسهم و قد ألزموا بالإیمان و لم ینظروا.

و یمکن أن یکون المراد هو القضاء بین النبی ص و بین الأمة و یکون ذلک فی

ص: 268

آخر الزمان کما تقدمت الإشارة إلیه فی تفسیر قوله: «وَ لِکُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ» الآیة: یونس: ۴۷.

و کیف کان فالمراد بالآیتین استعجال المشرکین بالفتح و الجواب أنه فتح لا ینفع حال الذین کفروا إیمانهم لأنه ظرف لا ینفع نفسا إیمانها و لا أن العذاب یمهلهم و ینظرهم.

قوله تعالی: «فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ انْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ» أمر بالإعراض عنهم و انتظار الفتح کما أنهم ینتظرون و إنما کانوا منتظرین موته أو قتله (ص) و بالجملة انقطاع دابر دعوته الحقة فلینتظر هو کما هم ینتظرون حتی یظهر الله الحق علی البا طل و المحق علی المبطل.

و من هذا السیاق یظهر أن المراد بالفتح الفتح الدنیوی.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور، أخرج ابن مردویه عن ابن عباس أن النبی ص قال: «تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ»، قال: هم الذین لا ینامون قبل العشاء فأثنی علیهم- فلما ذکر ذلک جعل الرجل یعتزل فراشه مخافة أن تغلبه عینه- فوقتها قبل أن ینام الصغیر و یکسل الکبیر.

أقول: و رواها أیضا فیه بطرق أخر موصولة و موقوفة، و روی صدر الحدیث الشیخ فی أمالیه بالإسناد عن الصادق (ع) فی الآیة و لفظه کانوا لا ینامون حتی یصلوا العتمة.

و فی الکافی، بإسناده عن سلیمان بن خالد عن أبی جعفر (ع) قال: أ لا أخبرک بالإسلام أصله و فرعه و ذروة سنامه؟ قلت: بلی جعلت فداک. قال: أما أصله فالصلاة و فرعه الزکاة و ذروة سنامه الجهاد.

ثم قال: إن شئت أخبرتک بأبواب الخیر: قلت: نعم جعلت فداک. قال:

الصوم جنة و الصدقة تذهب بالخطیئة- و قیام الرجل فی جوف اللیل یذکر الله ثم قرأ:

«تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ»

ص: 269

أقول: و روی هذا المعنی فی المحاسن، بإسناده عن علی بن عبد العزیز عن الصادق (ع) و فی المجمع، عن الواحدی بالإسناد عن معاذ بن جبل عن النبی ص و رواه فی الدر المنثور، عن الترمذی و النسائی و ابن ماجة و غیرهم عن معاذ عنه (ص).

و فی الدر المنثور، أخرج ابن جریر عن مجاهد قال: ذکر لنا رسول الله قیام اللیل ففاضت عیناه- حتی تحادرت دموعه فقال: تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ.

و فیه، أخرج ابن أبی شیبة و أحمد و مسلم و الطبرانی و ابن جریر و الحاکم و صححه و ابن مردویه و محمد بن نصر فی کتاب الصلاة من طریق أبی صخر عن أبی حازم عن سهل بن سعد قال: بینما نحن عند رسول الله ص و هو یصف الجنة حتی انتهی-.

ثم قال: فیها ما لا عین رأت- و لا أذن سمعت و لا خطر علی قلب بشر- ثم قرأ:

«تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ» الآیتین.

و فی المجمع، و روی عن أبی عبد الله (ع) أنه قال: ما من حسنة إلا و لها ثواب مبین فی القرآن إلا صلاة اللیل- فإن الله عز اسمه لم یبین ثوابها لعظم خطرها قال: «فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ» الآیة.

و فی تفسیر القمی، حدثنی أبی عن عبد الرحمن بن أبی نجران عن عاصم بن حمید عن أبی عبد الله (ع) قال: ما من عمل حسن یعمله العبد- إلا و له ثواب فی القرآن إلا صلاة اللیل- فإن الله عز و جل لم یبین ثوابها لعظیم خطره عنده، فقال جل ذکره:

«تَتَجافی جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضاجِعِ- یَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَ طَمَعاً وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ- » إلی قوله- یَعْمَلُونَ» ثم قال: إن لله عز و جل کرامة فی عباده المؤمنین- فی کل یوم جمعة فإذا کان یوم الجمعة- بعث الله إلی المؤمن ملکا معه حلتان فینتهی إلی باب الجنة- فیقول: استأذنوا لی علی فلا ن- فیقال له هذا رسول ربک علی الباب فیقول لأزواجه : أی شیء ترین علی أحسن؟ فیقلن یا سیدنا و الذی أباحک الجنة- ما رأینا علیک أحسن من هذا الذی قد بعث إلیک ربک- فیتزر بواحدة و یتعطف بالأخری- فلا یمر بشیء إلا أضاء له حتی ینتهی إلی الموعد.

فإذا اجتمعوا تجلی لهم الرب تبارک و تعالی- فإذا نظروا إلیه أی إلی رحمته خروا

ص: 270

سجدا- فيقول: عبادى ارفعوا رءوسكم ليس هنا يوم سجود- و لا عبادة قد رفعت عنكم المئونة- فيقولون: يا ربنا و أى شىء أفضل مما أعطيتنا؟ أعطيتنا الجنة فيقول: لكم مثل ما فى أيديكم سبعين مرة.

فيرجع المؤمن فى كل جمعة بسبعين ضعفا مثل ما فى يديه- و هو قوله: «وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ» و هو يوم الجمعة- إن ليلها ليلة غراء و يومها يوم أزهر- فأكثروا من التسبيح و التهليل و التكبير- و الثناء على الله عز و جل و الصلاة على رسول الله ص.

قال: فيمر المؤمن فلا يمر بشىء إلا أضاء له- حتى ينتهى إلى أزواجه فيقلن:

و الذى أباحنا الجنة، يا سيدنا ما رأيناك أحسن منك الساعة . فيقول: إنى نظرت إلى نور ربى- إلى أن قال-: قلت جعلت فداك زدنى. فقال: إن الله تعالى خلق جنة بيده- و لم يرها عين و لم يطلع عليها مخلوق- يفتحها الرب كل صباح فيقول : ازدادى ريحا ازدادى طيبا و هو قول الله: «فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ- جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ».

أقول: ذيل الرواية تفسير لصدرها و قوله: أى إلى رحمة ربه. من كلام الراوى.

و فى الكافى، بإسناده عن عبد الله بن ميمون القداح عن أبى عبد الله (ع) قال: من أطعم مؤمنا حتى يشبعه- لم يدر أحد من خلق الله جل و عز ما له من الأجر- فى الآخرة لا ملك مقرب و لا نبى مرسل إلا الله رب العالمين.

و فى تفسير القمى، فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر (ع): فى قوله تعالى:

«أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ » قال: إن على بن أبى طالب و الوليد بن عقبة بن أبى معيط تشاجرا- فقال الفاسق وليد بن عقبة: أنا و الله أبسط منك لسانا و أحد منك سنانا- و أمثل منك جثوا فى الكتيبة. فقال على (ع): اسكت إنما أنت فاسق- فأنزل الله «أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ».

أقول: و رواه فى المجمع، عن الواحدى عن ابن عباس و فى الدر المنثور، عن كتاب الأغانى و الواحدى و ابن عدى و ابن مردويه و الخطيب و ابن عساكر عنه و أيضا عن ابن إسحاق و ابن جرير عن عطاء بن يسار و عن ابن أبى حاتم عن السدى عنه و أيضا عن ابن أبى حاتم عن ابن أبى ليلى مثله.

ص: 271

و فى الاحتجاج، عن الحسن بن على (ع): فى حديث يحاج فيه رجالا عند معاوية : و أما أنت يا وليد بن عقبة- فوالله ما ألومك أن تبغض عليا- و قد جلدك فى الخمر ثمانين جلدة- و قتل أباك صبرا بيده يوم بدر أم كيف تسبه- و قد سماه الله مؤمنا فى عشر آيات من القرآن- و سماك فاسقا و هو قول الله عز و جل: «أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ».

و فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن أبى إدريس الخولانى قال : سألت عبادة بن الصامت عن قول الله : «وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذابِ الْأَدْنى دُونَ الْعَذابِ الْأَكْبَرِ» فقال: سألت رسول الله ص عنها فقال: هى المصائب و الأسقام و الأنصاب- عذاب للمسرف فى الدنيا دون عذاب الآخرة- قلت: يا رسول الله فما هى لنا؟ قال:

زكاة و طهور.

و فى المجمع، فى الرواية عن أبى جعفر و أبى عبد الله (ع): أن العذاب الأدنى الدابة و الدجال.

ص: 272

(۳۳) (سورة الأحزاب مدنية، و هى ثلاث و سبعون آية) (۷۳)

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۱ الى ۸]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً (۱) وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (۲) وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (۳) ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَ ما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللاَّئِي تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُمْ وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ ذلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْواهِكُمْ وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (۴)

ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوالِيكُمْ وَ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵) النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ إِلاَّ أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً (۶) وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً (۷) لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً (۸)

ص: 273

(بيان)

تتضمن السورة تفاريق من المعارف و الأحكام و القصص و العبر و المواعظ و فيها قصة غزوة الخندق و إشارة إلى قصة بنى القريظة من اليهود، و سياق آياتها يشهد بأنها مما نزلت بالمدينة.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً» أمر للنبى ص بتقوى الله و فيه تمهيد للنهى الذى بعده «وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ».

و فى سياق النهى- و قد جمع فيه بين الكافرين و المنافقين و نهى عن إطاعتهم- كشف عن أن الكافرين كانوا يسألونه أمرا لا يرتضيه الله سبحانه و كان المنافقون يؤيدونهم فى مسألتهم و يلحون، أمرا كان الله سبحانه بعلمه و حكمته قد قضى بخ لافه و قد نزل الوحى الإلهى بخلافه، أمرا خطيرا لا يؤمن مساعدة الأسباب على خلافه إلا أن يشاء الله فحذر النبى ص عن إجابتهم إلى ملتمسهم و أمر بمتابعة ما أوحى الله إليه و التوكل عليه.

و بهذا يتأيد ما ورد فى أسباب النزول أن عدة من صناديد قريش بعد وقعة أحد دخلوا المدينة بأمان من النبى ص و سألوا النبى ص أن يتركهم و آلهتهم فيتركوه و إلهه فنزلت الآيات و لم يجبهم النبى إلى ذلك و سيأتى فى البحث الروائى التالى.

و بما تقدم ظهر وجه تذييل الآية بقوله: «إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً» و كذا تعقيب الآية بالآيتين بعدها.

قوله تعالى: «وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً»

ص: 274

الآية عامة فى حد نفسها لكنها من حيث وقوعها فى سياق النهى تأمر النبى ص باتباع ما نزل به الوحى فيما يسأله الكافرون و المنافقون و أتباعه إجراؤه عملا بدليل قوله: «إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً».

قوله تعالى: «وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا» الآية كالآية السابقة فى أنها عامة فى حد نفسها، لكنها لوقوعها فى سياق النهى السابق تدل على الأمر بالتوكل على الله فيما يأمره به الوحى و تشعر بأنه أمر صعب المنال بالنظر إلى الأسباب الظاهرية لا يسلم القلب معه من عارضة المخافة و الاضطراب إلا التوكل على الله سبحانه فإنه السبب الوحيد الذى لا يغلبه سبب مخالف.

قوله تعالى: «ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ» كناية عن امتناع الجمع بين المتنافيين فى الاعتقاد فإن القلب الواحد أى النفس الواحدة لا يسع اعتقادين متنافيين و رأيين متناقضين فإن كان هناك متنافيان فهما لقلبين و ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه فالرجل الواحد لا يسعه أن يعتقد المتنافيين و يصدق بالمتناقضين و قوله: «فِي جَوْفِهِ» يفيد زيادة التقرير كقوله: «وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ»: الحج: ۴۶.

قيل: الجملة توطئة و تمهيد كالتعليل لما يتلوها من إلغاء أمر الظهار و التبنى فإن فى الظهار جعل الزوجة بمنزلة الأم و فى التبنى و الدعاء جعل ولد الغير ولدا لنفسه و الجمع بين الزوجية و الأمومة و كذا الجمع بين بنوة الغير و بنوة نفسه جمع بين المتنافيين و لا يجتمعان إلا فى قلبين و ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه.

و لا يبعد أن تكون الجملة فى مقام التعليل لقوله السابق: «لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ» «وَ اتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» فإن طاعة الله و ولايته و طاعة الكفار و المنافقين و ولايتهم متنافيتان متباينتان كالتوحيد و الشرك لا يجتمعان فى القلب الواحد و ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه.

قوله تعالى: «وَ ما جَعَلَ أَزْواجَكُمُ اللَّائِی تُظاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِکُمْ» کان الرجل فی الجاهلیة یقول لزوجته أنت منی کظهر أمی أو ظهرک علی کظهر أمی فیشبه ظهرها بظهر أمه و کان یسمی ذلک ظهارا و یعد طلاقا لها، و قد ألغاه الإسلام.

فمفاد الآیة أن الله لم یجعل أزواجکم اللائی تظاهرون منهن بقول ظهرک علی

ص: 275

کظهر أمی أمهات لکم و إذ لم یجعل ذلک فلا أثر لهذا القول و الجعل تشریعی.

قوله تعالى: «وَ ما جَعَلَ أَدْعِیاءَکُمْ أَبْناءَکُمْ » الأدعیاء جمع دعی و هو المتخذ ولدا المدعو ابنا و قد کان الدعاء و التبنی دائرا بینهم فی الجاهلیة و کذا بین الأمم الراقیة یومئذ کالروم و فارس و کانوا یرتبون علی الدعی أحکام الولد الصلبی من التوارث و حرمة الازدواج و غیرهما و قد ألغاه الإسلام.

فمفاد الآیة أن الله لم یجعل الذین تدعونهم لأنفسکم أبناء لکم بحیث یجری فیهم ما یجری فی الأبناء الصلبیین.

قوله تعالى: «ذلِکُمْ قَوْلُکُمْ بِأَفْواهِکُمْ وَ اللَّهُ یَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ یَهْدِی السَّبِیلَ » الإشارة بقوله: «ذلِکُمْ» إلی ما تقدم من الظهار و الدعاء أو إلی الدعاء فقط و هو الأظهر و یؤیده اختصاص الآیة التالیة بحکم الدعاء فحسب.

و قوله: «قَوْلُکُمْ بِأَفْواهِکُمْ» أی إن نسبة الدعی إلی أنفسکم لیس إلا قولا تقولونه بأفواهکم لیس له أثر وراء ذلک فهو کنایة عن انتفاء الأثر کما فی قوله: «کَلَّا إِنَّها کَلِمَةٌ هُوَ قائِلُها»: المؤمنون: ١٠٠.

و قوله: «وَ اللَّهُ یَقُولُ الْحَقَّ وَ هُوَ یَهْدِی السَّبِیلَ» معنی کون قوله: هو الحق أنه إن أخبر عن شیء کان الواقع مطابقا لما أخبر به و إن أنشأ حکما ترتب علیه آثاره و طابقته المصلحة الواقعیة.

و معنی هدایته السبیل أنه یحمل من هداه علی سبیل الحق التی فیها الخیر و السعادة و فی الجملتین تلویح إلی أن دعوا أقوالکم و خذوا بقوله.

قوله تعالى: «ادْعُوهُمْ لِآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ» إلی آخر الآیة. اللام فی «لِآبائِهِمْ» للاختصاص أی ادعوهم و هم مخصوصون بآبائهم أی انسبوهم إلی آبائم و قوله :

«هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ»، الضمیر إلی المصدر المفهوم من قوله: «ادْعُوهُمْ» نظیر قوله:

«اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوی» و «أقسط» صیغة تفضیل من القسط بمعنی العدل.

و المعنی: انسبوهم إلی آبائهم- إذا دعوتموهم- لأن الدعاء لآبائهم أعدل عند الله.

و قوله: «فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ مَوالِيكُمْ»، المراد بعدم

ص: 276

علمهم آباءهم عدم معرفتهم بأعيانهم، و الموالى هم الأولياء، و المعنى : و إن لم تعرفوا آباءهم فلا تنسبوهم إلى غير آبائهم بل ادعوهم بالإخوة و الولاية الدينية.

و قوله: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَ لكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ » أى لا ذنب لكم فى الذى أخطأتم به لسهو أو نسيان فدعوتموهم لغير آبائهم و لكن الذى تعمدته قلوبكم ذنب أو و لكن تعمد قلوبكم بذلك فيه الذنب.

و قوله: «وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» راجع إلى ما أخطئ به.

قوله تعالى: «النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ » أنفس المؤمنين هم المؤمنون فمعنى كون النبى أولى بهم من أنفسهم أنه أولى بهم منهم : و معنى الأولوية هو رجح ان الجانب إذا دار الأمر بينه و بين ما هو أولى منه فالمحصل أن ما يراه المؤمن لنفسه من الحفظ و الكلاءة و المحبة و الكرامة و استجابة الدعوة و إنفاذ الإرادة فالنبى أولى بذلك من نفسه و لو دار الأمر بين النبى و بين نفسه فى شىء من ذلك كان جانب النبى أرجح من جانب نفسه.

ففيما إذا توجه شىء من المخاطر إلى نفس النبى فليقه المؤمن بنفسه و يفده نفسه و ليكن النبى أحب إليه من نفسه و أكرم عنده من نفسه و لو دعته نفسه إلى شى ء و النبى إلى خلافه أو أرادت نفسه منه شيئا و أراد النبى خلافه كان المتعين استجابة النبى ص و طاعته و تقديمه على نفسه.

و كذا النبى ص أولى بهم فيما يتعلق بالأمور الدنيوية أو الدينية كل ذلك لمكان الإطلاق فى قوله : «النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ».

و من هنا يظهر ضعف ما قيل: إن المراد أنه أولى بهم فى الدعوة فإذا دعاهم إلى شىء و دعتهم أنفسهم إلى خلافه كان عليهم أن يطيعوه و يعصوا أنفسهم، فتكون الآية فى معنى قوله: «وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ»: النساء: ۵۹ و قوله: «وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ»: النساء: ۶۴ و ما أشبه ذلك من الآيات و هو مدفوع بالإطلاق.

و كذا ما قيل إن المراد أن حكمه فيهم أنفذ من حكم بعضهم على بعض كما فى قوله:

«فَسَلِّمُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ»: النور: ۶۱ و يئول إلى أن ولايته على المؤمنين فوق ولاية بعضهم على بعض المدلول عليه بقوله : «الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ»: براءة:- ۷۱.

و فيه أن السياق لا يساعد عليه.

ص: 277

و قوله: «وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ» جعل تشريعى أى أنهن منهم بمنزلة أمهاتهم فى وجوب تعظيمهن و حرمة نكاحهن بعد النبى ص كما سيأتى التصريح به فى قوله:

«وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً».

فالتنزيل إنما هو فى بعض آثار الأمومة لا فى جميع الآثار كالتوارث بينهن و بين المؤمنين و النظر فى وجوههن كالأمهات و حرمة بناتهن على المؤمنين لصيرورتهن أخوات لهم و كصيرورة آبائهن و أمهاتهن أجدادا و جدات و إخوتهن و أخواتهن أخوالا و خالات للمؤمنين.

قوله تعالى: «وَ أُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ » إلخ، الأرحام جمع رحم و هى العضو الذى يحمل النطفة حتى تصير جنينا فيتولد، و إذ كانت القرابة النسبية لازمة الانتهاء إلى رحم واحدة عبر عن القرابة بالرحم فسمى ذوو القرابة أولى الأرحام.

و المراد بكون أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض، الأولوية فى التوارث، و قوله:

«فِي كِتابِ اللَّهِ » المراد به اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة، و قوله : «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ » مفضل عليه و المراد بالمؤمنين غير المهاجرين منهم، و المعنى : و ذوو القرابة بعضهم أولى ببعض من المهاجرين و سائر المؤمنين الذين كانوا يرثون بالمؤاخاة الدينية، و هذه الأولوية فى كتاب الله و ربما احتمل كون قوله : «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُهاجِرِينَ » بيانا لقوله: «وَ أُولُوا الْأَرْحامِ ».

و الآية ناسخة لما كان فى صدر الإسلام من التوارث بالهجرة و الموالاة فى الدين.

و قوله: «إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً» الاستثناء منقطع، و المراد بفعل المعروف إلى الأولياء الوصية لهم بشى ء من التركة، و قد حد شرعا بثلث المال فما دونه، و قوله:

«كانَ ذلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً» أى حكم فعل المعروف بالوصية مسطور فى اللوح المحفوظ أو القرآن أو السورة.

قوله تعالى: «وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً» إضافة الميثاق إلى ضمير النبيين دليل على أن المراد بالميثاق ميثاق خاص بهم كما أن ذكرهم بوصف النبوة مشعر بذلك فالميثاق

ص: 278

المأخوذ من النبيين ميثاق خاص من حيث إنهم نبيون و هو غير الميثاق المأخوذ من عامة البشر الذى يشير إليه فى قوله: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى»: الأعراف: ١٧٢.

و قد ذكر أخذ الميثاق من النبيين فى موضع آخر و هو قوله : «وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلى ذلِكُمْ إِصْرِي قالُوا أَقْرَرْنا»: آل عمران: ٨١.

و الآية المبحوث عنها و إن لم تبين ما هو الميثاق المأخوذ منهم و إن كانت فيها إشارة إلى أنه أمر متعلق بالنبوة لكن يمكن أن يستفاد من آية آل عمران أن الميثاق مأخوذ على وحدة الكلمة فى الدين و عدم الاختلاف فيه كما فى قوله : «إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ»: الأنبياء: ٩٢ و قوله: «شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ»: الشورى: ١٣.

و قد ذكر النبيين بلفظ عام يشمل الجميع ثم سمى خمسة منهم بأسمائهم بالعطف عليهم فقال : «وَ مِنْكَ وَ مِنْ نُوحٍ وَ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ » و معنى العطف إخراجهم من بينهم و تخصيصهم بالذكر كأنه قيل : و إذ أخذنا الميثاق منكم أيها الخمسة و من باقى النبيين.

و لم يخصهم بالذكر على هذا النمط إلا لعظمة شأنهم و رفعة مكانهم فإنهم أولوا عزم و أصحاب شرائع و كتب و قد عدهم على ترتيب زمانهم: نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى بن مريم (ع)، لكن قدم ذكر النبى ص و هو آخرهم زمانا لفضله و شرفه و تقدمه على الجميع.

و قوله: «وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً » تأكيد و تغليظ للميثاق نظير قوله : «وَ لَمَّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا هُوداً وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ نَجَّيْناهُمْ مِنْ عَذابٍ غَلِيظٍ»: هود: ٥٨.

قوله تعالى : «لِيَسْئَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَ أَعَدَّ لِلْكافِرِينَ عَذاباً أَلِيماً » اللام فى «لِيَسْئَلَ» للتعليل أو للغاية و هو متعلق بمحذوف يدل عليه قوله: «وَ إِذْ أَخَذْنا» و قوله: «وَ أَعَدَّ» معطوف على ذلك المحذوف، و التقدير فعل ذلك أى أخذ الميثاق

ص: 279

ليتمهد له سؤال الصادقين عن صدقهم و أعد للكافرين عذابا أليما.

و لم يقل: و ليعد للكافرين عذابا، إشارة أن عذابهم ليس من العلل الغائية لأخذ الميثاق و إنما النقص من ناحيتهم و الخلف من قبلهم.

و أما سؤال الصادقين عن صدقهم فقيل : المراد بالصادقين الأنبياء و سؤالهم عن صدقهم ه و سؤالهم يوم القيامة عما جاءت به أممهم و كأنه مأخوذ من قوله تعالى: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ ما ذا أُجِبْتُمْ»: المائدة: ١٠٩.

و قيل: المراد سؤال الصادقين فى توحيد الله و عدله و الشرائع عن صدقهم أى عما كانوا يقولون فيه، و قيل : المراد سؤال الصادقين فى أقوالهم عن صدقهم فى أفعالهم، و قيل: المراد سؤال الصادقين عما قصدوا بصدقهم أ هو وجه الله أو غيره؟ إلى غير ذلك من الوجوه و هى كما ترى.

و التأمل فيما يفيده قوله : «لِيَسْئَلَ الصّٰادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ» يرشد إلى خلاف ما ذكروه، ففرق بين قولنا : سألت الغنى عن غناه و سألت العالم عن علمه، و بين قولنا:

سألت زيدا عن ماله أو عن علمه، فالمتبادر من الأولين أنى طالبته أن يظهر غناه و أن يظهر علمه، و من الأخيرين أنى طالبته أن يخبرنى هل له مال أو هل له علم؟ أو يصف لى ما له من المال أو من العلم.

و على هذا فمع نى سؤال الصادقين عن صدقهم مطالبتهم أن يظهروا ما فى باطنهم من الصدق فى مرتبة القول و الفعل و هو عملهم الصالح فى الدنيا فالمراد بسؤال الصادقين عن صدقهم توجيه التكليف على حسب الميثاق إليهم ليظهر منهم صدقهم المستبطن فى نفوسهم و هذا فى الدنيا لا فى الآخرة فأخذ الميثاق فى نشأة أخرى قبل الدنيا كما يدل عليه آيات الذر «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّکَ مِنْ بَنِی آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قٰالُوا بَلىٰ» الآيات.

و بالجملة الآيتان من الآيات المنبئة عن عالم الذر المأخوذ فيه الميثاق و تذكر أن أخذ الميثاق من الأنبياء (ع) و ترتب شأنهم و عملهم فى الدنيا على ذلک فى ضمن ترتب صدق کل صادق على الميثاق المأخوذ منه.

و لمكان هذا التعميم ذكر عاقبة أمر الكافرين مع أنهم ليسوا من قبيل النبيين

ص: 280

و الكلام فى الميثاق المأخوذ منهم فكأنه قيل : أخذنا ميثاقا غليظا من النبيين أن تتفق كلمتهم على دين واحد يبلغونه ليسأل الصادقين و يطالبهم بالتكليف و الهداية إظهار صدقهم فى الاعتقاد و العمل ففعلوا فقدر لهم الثواب و أعد للكافرين عذابا أليما.

و من هنا يظهر وجه الالتفات من التكلم مع الغير إلى الغيبة فى قوله : «لِيَسْئَلَ الصّٰادِقِينَ» إلخ، و ذلک لأن الميثاق على عبادته وحده لا شريک له و إن كان أخذه منه تعالى بوساطة من الملائكة المصحح لقوله : «أَخَذْنٰا» «وَ أَخَذْنٰا» فالمطالب لصدق الصادقين و المعد لعذاب الكافرين بالحقيقة هو تعالى وحده ليعبد وحده فتدبر.

(بحث روائى)

فى المجمع،": فى قوله تعالى : «يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللّٰهَ» الآيات- نزلت فى أبى سفيان بن حرب و عكرمة بن أبى جهل و أبى الأعور السلمى- قدموا المدينة و نزلوا على عبد الله بن أبى- بعد غزوة أحد بأمان من رسول الله ص- ليكلموه فقاموا و قام معهم عبد الله بن أبى- و عبد الله بن سعيد بن أبى سرح و طعمة بن أبيرق- فدخلوا على رسول الله ص فقالوا: يا محمد ارفض ذكر آلهتنا اللات و العزى و مناة- و قل: إن لها شفاعة لمن عبدها و ندعک و ربک . فشق ذلک على رسول الله ص. فقال عمر بن الخطاب: ائذن لى يا رسول الله فى قتلهم، فقال : إنى أعطيتهم الأمان و أمر- فأخرجوا من المدينة و نزلت الآية «وَ لاٰ تُطِعِ الْكٰافِرِينَ» من أهل مكة أبا سفيان و أبا الأعور و عكرمة «وَ الْمُنٰافِقِينَ» ابن أبى و ابن سعيد و طعمة:

أقول: و روى إجمال القصة فى الدر المنثور، عن جرير عن ابن عباس

، و روى أسباب أخر لنزول الآيات لكنها أجنبية غير ملائمة لسياق الآيات فأضربنا عنها.

و في تفسير القمي،: في قوله تعالى: «وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ»: حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل عن أبي عبد الله (ع) قال: كان سبب ذلك أن رسول الله ص لما تزوج بخديجة بنت خويلد- خرج إلى سوق عكاظ في تجارة- و رأى زيدا يباع و رآه غلاما كيسا حصينا- فاشتراه فلما نبئ رسول الله ص دعاه إلى الإسلام- فأسلم و كان يدعى زيد مولى محمد.

ص: 281

فلما بلغ حارثة بن شراحيل الكلبي خبر ولده زيد قدم مكة- و كان رجلا جليلا فأتى أبا طالب- فقال: يا أبا طالب إن ابني وقع عليه السبي- و بلغني أنه صار إلى ابن أخيك- تسأله إما أن يبيعه و إما أن يفاديه و إما أن يعتقه.

فكلم أبو طالب رسول الله ص فقال رسول الله: هو حر فليذهب حيث شاء فقام حارثة فأخذ بيد زيد- فقال له: يا بني الحق بشرفك و حسبك، فقال زيد: لست أفارق رسول الله، فقال له أبوه: فتدع حسبك و نسبك- و تكون عبدا لقريش؟ فقال زيد: لست أفارق رسول الله ما دمت حيا، فغضب أبوه فقال: يا معشر قريش اشهدوا أني قد برئت منه و ليس هو ابني، فقال رسول الله ص: اشهدوا أن زيدا ابني أرثه و يرثني. فكان زيد يدعى ابن محمد- و كان رسول الله ص يحبه و سماه زيد الحب.

فلما هاجر رسول الله ص إلى المدينة- زوجه زينب بنت جحش- و أبطأ عنه يوما فأتى رسول الله منزله يسأل عنه- فإذا زينب جالسة وسط حجرتها يستحق طيبها بفهر لها- فدفع رسول الله الباب و نظر إليها و كانت جميلة حسنة- فقال: سبحان الله رب النور و تبارك الله أحسن الخالقين، ثم رجع رسول الله إلى منزله- و وقعت زينب في قلبه موقعا عجيبا.

و جاء زيد إلى منزله فأخبرته زينب بما قال رسول الله- فقال لها زيد: هل لك أن أطلقك حتى يتزوج بك رسول الله؟ فقالت: أخشى أن تطلقني و لا يتزوجني رسول الله. فجاء زيد إلى رسول الله فقال: بأبي أنت و أمي يا رسول الله أخبرتني زينب بكذا و كذا- فهل لك أن أطلقها حتى تتزوجها؟ فقال له رسول الله: لا اذهب- و اتق الله و أمسك عليك زوجك، ثم حكى الله فقال: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ- وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ- وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ- فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها- إلى قوله- وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» فزوجه الله من فوق عرشه.

فقال المنافقون: يحرم علينا نساء أبنائنا و يزوج امرأة ابنه زيد- فأنزل الله في هذا «وَ ما جَعَلَ أَدْعِياءَكُمْ أَبْناءَكُمْ - إلى قوله- يَهْدِي السَّبِيلَ».

أقول: و روى قريبا منه مع اختلاف ما في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن ابن عباس.

ص: 282

و في الدر المنثور، أخرج أحمد و أبو داود و ابن مردويه عن جابر عن النبي ص أنه كان يقول: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه- فأيما رجل مات و ترك دينا فالي، و من ترك مالا فهو لورثته.

أقول: و فى معناه روايات أخر من طرق الشيعة و أهل السنة.

و فيه، أخرج ابن أبى شيبة و أحمد و النسائى عن بريدة قال : غزوت مع على اليمن فرأيت منه جفوة- فلما قدمت على رسول الله ص ذكرت عليا فتنقصته- فرأيت وجه رسول الله ص تغير و قال: يا بريدة- أ لست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: من كنت مولاه فعلى مولاه.

و فى الاحتجاج، عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب فى حديث طويل قال : سمعت رسول الله ص يقول: أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم. من كنت أولى به من نفسه فأنت أولى به من نفسه- و على بين يديه فى البيت:

أقول: و رواه فى الكافى، بإسناده عن جعفر عنه (ص)

و الأحاديث فى هذا المعنى من طرق الفريقين فوق حد الإحصاء.

و فى الكافى، بإسناده عن حنان قال*: قلت لأبى عبد الله (ع): أى شىء للموالى؟

فقال: ليس لهم من الميراث إلا ما قال الله عز و جل: «إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلى أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً».

و فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: قيل: يا رسول الله متى أخذ ميثاقك؟ قال: و آدم بين الروح و الجسد.

أقول: و هو بلفظه مروى بطرق مختلفة عنه (ص) و معناه كون الميثاق مأخوذا فى نشأة غير هذه النشأة و قبلها.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٩ الى ٢٧]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَ تَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً (١١) وَ إِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً (١٢) وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ يا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَ يَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنا عَوْرَةٌ وَ ما هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِراراً (١٣)

وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلاَّ يَسِيراً (١٤) وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلاً (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (١٧) قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَ الْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَ لا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨)

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذا جاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ

يَذْهَبُوا وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بادُونَ فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ ما قاتَلُوا إِلاَّ قَلِيلاً (٢٠) لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ ما زادَهُمْ إِلاَّ إِيماناً وَ تَسْلِيماً (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣)

لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً (٢٤) وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (٢٥) وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَ قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦) وَ أَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢٧)

ص: 284

(بيان)

قصة غزوة الخندق و ما عقبها من أمر بنى قريظة و وجه اتصالها بما قبلها ما فيها من ذكر حفظ العهد و نقضه.

ص: 285

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ » إلخ، تذكير للمؤمنين بما أنعم عليهم أيام الخندق بنصرهم و صرف جنود المشركين عنهم و قد كانوا جنودا مجندة من شعوب و قبائل شتى كغطفان و قريش و الأحابيش و كنانة و يهود بنى قريظة و النضير أحاطوا بهم من فوقهم و من أسفل منهم فسلط الله عليهم الريح و أنزل ملائكة يخذلونهم.

و هو قوله: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ» ظرف للنعمة أو لثبوتها «جاءَتْكُمْ جُنُودٌ» من طوائف كل واحدة منهم جند كغطفان و قريش و غيرهما «فَأَرْسَلْنا» بيان للنعمة و هو الإرسال المتفرع على مجيئهم «عَلَيْهِمْ رِيحاً» و هى الصبا و كانت باردة فى ليال شاتية «وَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْها» و هى الملائكة لخذلان المشركين «وَ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً».

قوله تعالى: «إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ» إلخ الجاءون من فوقهم و هو الجانب الشرقى للمدينة غطفان و يهود بنى قريظة و بنى النضير و الجاءون من أسفل منهم و هو الجانب الغربى لها قريش و من انضم إليهم من الأحابيش و كنانة فقوله: «إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ» عطف بيان لقوله: «إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ».

و قوله: «إِذْ زاغَتِ الْأَبْصارُ وَ بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ»، عطف بيان آخر لقوله:

«إِذْ جاءَتْكُمْ» إلخ، و زيغ الأبصار ميلها و القلوب هى الأنفس و الحناجر جمع حنجر و هو جوف الحلقوم.

و الوصفان أعنی زیغ الأبصار و بلوغ القلوب الحناجر کنایتان عن کمال غشیان الخوف لهم حتی حولهم إلی حال المحتضر الذی یزیغ بصره و تبلغ روحه الحلقوم.

و قوله: «وَ تَظُنُّونَ بِاللّٰهِ الظُّنُونَا » أی یظن المنافقون و الذین فی قلوبهم مرض ال ظنون فبعضهم یقول : إن الکفار سیغلبون و یستولون علی المدینة، و بعضهم یقول:

إن الإسلام سینمحق و الدین سیضیع، و بعضهم یقول : إن الجاهلیة ستعود کما کانت، و بعضهم یقول : إن الله غرهم و رسوله إلی غیر ذلک من الظنون.

قوله تعالی: «هُنالِکَ ابْتُلِیَ الْمُؤْمِنُونَ وَ زُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِیداً» هنالک إشارة بعیدة إلی زمان أو مکان و المراد الإشارة إلی زمان مجیء الجنود و کان شدیدا علیهم

ص: 286

لغایة بعیدة، و الابتلاء الامتحان، و الزلزلة و الزلزال الاضطراب، و الشدة القوة و تختلفان فی أن الغالب علی الشدة أن تکون محسوسا بخلاف القوة، قیل: و لذلک یطلق القوی علیه تعالی دون الشدید.

و المعنی فی ذلک الزمان الشدید امتحن المؤمنون و اضطربوا خوفا اضطرابا شدیدا.

قوله تعالی: «وَ إِذْ یَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللّٰهُ وَ رَسُولُهُ إِلّٰا غُرُوراً » الذین فی قلوبهم مرض هم ضعفاء الإیمان من المؤمنین و هم غیر المنافقین الذین یظهرون الإیمان و یبطنون الکفر، و إنما سمی المنافقون الرسول لمکان إظهارهم الإسلام.

و الغرور حمل الإنسان علی الشر بإراءته فی صورة الخیر و الاغترار احتماله له.

قال الراغب: یقال: غررت فلانا أصبت غرته و نلت منه ما أرید، و الغرة- بکسر الغین- غفلة فی الیقظة. انتهی.

و الوعد الذی یعدونه غرورا من الله و رسوله لهم بقرینة المقام هو وعد الفتح و ظهور الإسلام علی الدین کله و قد تکرر فی کلامه تعالی کما ورد أن المنافقین قالوا:

یعدنا محمد أن یفتح مدائن کسری و قیصر و نحن لا نأمن أن نذهب إلی الخلاء.

قوله تعالی: «وَ إِذْ قالَتْ طائِفَةٌ مِنْهُمْ یا أَهْلَ یَثْرِبَ لا مُقامَ لَکُمْ فَارْجِعُوا » یثرب اسم المدینة قبل الإسلام ثم غلب علیه اسم مدینة الرسول بعد الهجرة ثم المدینة، و المقام بضم المیم الإقامة، و قولهم : لا مُقامَ لَکُمْ فَارْجِعُوا أی لا وجه لإقامتکم هاهنا قبال جنود المشرکین فالغلبة لهم لا محالة فارجعوا ثم أتبعه بحکایة ما قاله آخرون فقال عاطفا علی قوله : قالت طائفة: «وَ یَسْتَأْذِنُ

فَرِيقٌ مِنْهُمُ» أی من المنافقين و الذين فی قلوبهم مرض «النَّبِیَّ» فی الرجوع «یَقُولُونَ» استئذانا «إِنَّ بُیُوتَنا عَوْرَةٌ» أی فيها خلل لا يأمن صاحبها دخول السارق و زحف العدو «وَ ما هِیَ بِعَوْرَةٍ إِنْ یُرِیدُونَ» أی ما يريدون بقولهم هذا «إِلَّا فِراراً».

قوله تعالى: «وَ لَوْ دُخِلَتْ عَلَیْهِمْ مِنْ أَقْطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْها وَ ما تَلَبَّثُوا بِها إِلَّا یَسِیراً» ضمائر الجمع للمنافقين و المرضى القلوب و الضمير فی «دُخِلَتْ» للبيوت و معنى دخلت عليهم دخل الجنود البيوت حال كونه دخولا عليهم، و الأقطار جمع قطر و هو الجانب، و المراد بالفتنة بقرينة المقام الردة و الرجعة من الدين و المراد بسؤالها

ص: 287

طلبها منهم، و التلبث التأخر.

و المعنى: و لو دخل جنود المشركين بيوتهم من جوانبها و هم فيها ثم طلبوا منهم أن يرتدوا عن الدين لأعطوهم مسئولهم و ما تأخروا بالردة إلا يسيرا من الزمان بمقدار الطلب و السؤال أی إنهم يقيمون على الدين ما دام الرخاء فإذا هجمت عليهم الشدة و البأس لم يلبثوا دون أن يرجعوا.

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا یُوَلُّونَ الْأَدْبارَ وَ كانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُلًا » اللام للقسم، و قوله: «لا یُوَلُّونَ الْأَدْبارَ» أی لا يفرون عن القتال و هو بيان للعهد و لعل المراد بعهدهم من قبل هو بی عتهم بالإيمان بالله و رسوله و ما جاء به رسوله و مما جاء به: الجهاد الذی يحرم الفرار فيه و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: «قُلْ لَنْ یَنْفَعَكُمُ الْفِرارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِیلًا » إذ لا بد لكل نفس من الموت لأجل مقضى محتوم لا يتأخر عنه ساعة و لا يتقدم عليه فالفرار لا يؤثر فی تأخير الأجل شيئا.

و قوله: «وَ إِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِیلًا » أی و إن نفعكم الفرار فمتعتم بتأخر الأجل فرضا لا يكون ذلك التمتيع إلا تمتيعا قليلا أو فی زمان قليل لكونه مقطوع الآخر لا محالة.

قوله تعالى: «قُلْ مَنْ ذَا الَّذِی یَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَ لا یَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً» كانت الآية السابقة تنبيها لهم على أن حياة الإنسان مقضى مؤجل لا ينفع معه فرار من الزحف و فی هذه الآية تنبيه- على أن الشر و الخير تابعان لإرادة الله محضا لا يمنع عن نفوذها سبب من الأسباب و لا يعصم الإنسان منها أحد فالحزم إيكال الأمر إلى إرادته تعالى و القرار على أمره بالتوكل عليه.

و لما كانت قلوبهم مرضى أو مشغولة بكفر مستبطن عدل عن أمر النبی ص بتكليمهم إلى تكليم نفسه فقال : «وَ لا یَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِیًّا وَ لا نَصِیراً».

قوله تعالى: «قَدْ یَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِینَ مِنْكُمْ- إلى قوله- یَسِیراً التعويق التثبيط و الصرف، و هلم اسم فعل بمعنى أقبل، و لا يثنى و لا يجمع فی لغة الحجاز، و البأس الشدة و الحرب، و أشحة جمع شحيح بمعنى البخيل، و الذی يغشى عليه هو الذی أخذته

ص: 288

الغشوة فغابت حواسه و أخذت عيناه تدوران، و السلق بالفتح فالسكون الضرب و الطعن.

و معنى الآيتين : إن الله ليعلم الذين يثبطون منكم الناس و يصرفونهم عن القتال و هم المنافقون و يعلم الذين يقولون من المنافقين لإخوانهم من المنافقين أو ضعفة الإيمان تعالوا و أقبلوا و لا يحضرون الحرب إلا قليلا بخلاء عليكم بنفوسهم.

فإذا جاء الخوف بظهور مخائل القتال تراهم ينظرون إل یک من الخوف نظرا لا إرادة لهم فيه و لا استقرار فيه لأعينهم تدور أعينهم كالمغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف ضربوكم و طعنوكم بألسنة حداد قاطعة حال كونهم بخلاء على الخير الذى نلتموه.

أولئک لم يؤمنوا و لم يستقر الإيمان فى قلوبهم و إن أظهروه فى ألسنتهم فأبطل ا لله أعمالهم و أحبطها و كان ذلک على الله يسيرا.

قوله تعالى: «يَحْسَبُونَ الْأَحْزابَ لَمْ يَذْهَبُوا » إلى آخر الآية، أى يظنون من شدة الخوف أن الأحزاب- و هم جنود المشركين المتحزبون على النبى ص- لم يذهبوا بعد «وَ إِنْ يَأْتِ الْأَحْزابُ» مرة ثانية بعد ذهابهم و تركهم المدينة «يَوَدُّوا» و يحبوا «أَنَّهُمْ بادُونَ» أى خارجون من المدينة إلى البدو «فِي الْأَعْرابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ» و أخباركم «وَ لَوْ كانُوا فِيكُمْ» و لم يخرجوا منها بادين «ما قاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا» أى و لا كثير فائدة فى لزومهم إياكم و كونهم معكم فإنهم لن يقاتلوا إلا قليلا لا يعتد به.

قوله تعالى: «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً» الأسوة القدوة و هى الاقتداء و الاتباع، و قوله : «فِي رَسُولِ اللَّهِ» أى فى مورد رسول الله و الأسوة التى فى مورده هى تأسيهم به و اتباعهم له و التعبير بقوله: «لَقَدْ كانَ لَكُمْ» الدال على الاستقرار و الاستمرار فى الماضى إشارة إلى كونه تكليفا ثابتا مستمرا.

و المعنى: و من حكم رسالة الرسول و إيمانكم به أن تتأسوا به فى قوله و فعله و أنتم ترون ما يقاسيه فى جنب الله و حضوره فى القتال و جهاده فى الله حق جهاده.

و فى الكشاف:، فإن قلت: فما حقيقة قوله: «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ »؟ و قرئ أسوة بالضم. قلت: فيه وجهان: أحدهما أنه فى نفسه أسوة حسنة

ص: 289

أى قدوة و هو المؤتسى أى المقتدى به كما تقول : فى البيضة عشرون منا حديد أى هى فى نفسها هذا المبلغ من الحديد . و الثانى: أن فيه خصلة من حقها أن يؤتسى بها و تتبع و هى المواساة بنفسه انتهى و أول الوجهين قريب مما قدمناه.

و قوله: «لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَ الْيَوْمَ الْآخِرَ وَ ذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً » بدل من ضمير الخطاب فى «لَكُمْ» للدلالة على أن التأسى برسول الله ص خصلة جميلة زاكية لا يتصف بها كل من تسمى بالإيمان، و إنما يتصف بها جمع ممن تلبس بحقيقة الإيمان فكان يرجو الله و اليوم الآخر أى تعلق قلبه بالله فآمن به و تعلق قلبه باليوم الآخر فعمل صالحا و مع ذلک ذکر الله كثيرا فكان لا يغفل عن ربه فتأسى بالنبى فى أفعاله و أعماله.

و قيل: قوله: «لِمَنْ كانَ» إلخ، صلة لقوله: «حَسَنَةٌ» أو صفة له للمنع عن الإبدال من ضمير الخطاب و مآل الوجوه الثلاثة بحسب المعنى واحد.

قوله تعالى: «وَ لَمَّا رَأَ الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزابَ قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ »، وصف لحال المؤمنين لما شاهدوا الأحزاب و نزول جيوشهم حول المدينة فكان ذلک سبب رشدهم و تبصرهم فى الإ يمان و تصديقهم لله و لرسوله على خلاف ما ظهر من المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض من الارتياب و سيئ القول، و بذلک يظهر أن المراد بالمؤمنين المخلصون لإيمانهم بالله و رسوله.

و قوله: «قالُوا هذا ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَ رَسُولُهُ» الإشارة بهذا إلى ما شاهدوه مجردا عن سائر الخصوصيات، كما فى قوله: «فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّى»،: الأنعام: ٧٨.

و الوعد الذى أشاروا إليه قيل: هو ما كان رسول الله ص قد وعدهم أن الأحزاب سيتظاهرون عليهم فلما شاهدوهم تبين لهم أن ذلک هو الذى وعدهم.

و قيل: إنهم كانوا قد سمعوا قوله تعالى فى سورة البقرة : «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَ لَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْساءُ وَ الضَّرَّاءُ وَ زُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ »: البقرة: ٢١۴ فتحققوا

ص: 290

أنهم سيصيبهم ما أصاب الأنبياء و المؤمنين بهم من الشدة و المحنة التى تزلزل القلوب و تدهش النفوس فلما رأوا الأحزاب أيقنوا أنه من الوعد الموعود و أن الله سينصرهم على عدوهم.

و الحق هو الجمع بين الوجهين نظرا إلى جمعهم بين الله و رسوله فى الوعد إذ قالوا:

هذا ما وعدنا الله و رسوله.

و قوله: «وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ » شهادة منهم على صدق الوعد، و قوله : «وَ ما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَ تَسْلِيماً » أى إيمانا بالله و رسوله و تسليما لأمر الله بنصرة دينه و الجهاد فى سبيله.

قوله تعالى: «مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَ ما بَدَّلُوا تَبْدِيلًا »، قال الراغب: النحب النذر المحكوم بوجوبه، يقال : قضى فلان نحبه أى وفى بنذره قال تعالى : «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ»، و يعبر بذلک عمن مات كقولهم: قضى أجله و استوفى أكله و قضى من الدنيا حاجته. انتهى.

و قوله: «صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» أى حققوا صدقهم فيما عاهدوه أ ن لا يفروا إذا لاقوا العدو، و يشهد على أن المراد بالعهد ذلك أن فى الآية محاذاة لقوله السابق فى المنافقين و الضعفاء الإيمان : «وَ لَقَدْ كانُوا عاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لا يُوَلُّونَ الْأَدْبارَ » كما أن فى الآية السابقة محاذاة لما ذكر سابقا من ارتياب القوم و عدم تسليمهم لأمر الله.

و قوله: «فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ» إلخ، أى منهم من قضى أجله بموت أو قتل فى سبيل الله و منهم من ينتظر ذلک و ما بدلوا شيئا مما كانوا عليه من قول أو عهد تبديلا.

قوله تعالى: «لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً » اللام للغاية و ما تتضمنه الآية غاية لجميع من تقدم ذكرهم من المنافقين و المؤمنين.

فقوله: «لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ » المراد بالصادقين المؤمنين و قد ذكر صدقهم قبل، و الباء فى «بِصِدْقِهِمْ» للسببية أى ليجزى المؤمنين الذين صدقوا عهدهم بسبب صدقهم.

ص: 291

و قوله: «وَ يُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » أى و ليعذب المنافقين إن شاء تعذيبهم و ذلک فيما لو لم يتوبوا أو يتوب عليهم إن تابوا إن الله كان غفورا رحيما.

و فى الآية من حيث كونها بيان غاية نكتة لطيفة هى أن المعاصى ربما كانت مقدمة للسعادة و المغفرة لا بما أنها معاص بل لكونها سائقة للنفس من الظلمة و الشقوة إلى حيث تتوحش النفس و تتنبه فتتوب إلى ربها و تنتزع عن معاصيها و ذنوبها فيتوب الله عليها فى الغاية.

قوله تعالى: «وَ رَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَ كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَ كانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً » الغيظ الغم و الحنق و المراد بالخير ما كان يعده الكفار خيرا و هو الظفر بالنبى ص و المؤمنين.

و المعنى: و رد الله الذين كفروا مع غمهم و حنقهم و الحال أنهم لم ينالوا ما كانوا يتمنونه و كفى الله المؤمنين القتال فلم يقاتلوا و كان الله قويا على ما يريد عزيزا لا يغلب.

قوله تعالى: «وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ - إلى قوله- قَدِيراً» المظاهرة المعاونة، و الصياصى جمع صيصية و هى الحصن الذى يمتنع به و لعل التعبير بالإنزال دون الإخراج لأن المتحصنين يصعدون بروج الحصون و يشرفون منها و من أعالى الجدران على أعدائهم فى خارجها و محاصريهم.

و المعنى: «وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ» أى عاونوا المشركين و هم بنو قريظة «مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ» و هم اليهود «مِنْ صَياصِيهِمْ» و حصونهم «وَ قَذَفَ» و ألقى «فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» و الخوف «فَرِيقاً تَقْتُلُونَ» و هم الرجال «وَ تَأْسِرُونَ فَرِيقاً» و هم الذرارى و النساء «وَ أَوْرَثَكُمْ» أى و ملككم بعدهم «أَرْضَهُمْ وَ دِيارَهُمْ وَ أَمْوالَهُمْ وَ أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها» و هى أرض خيبر أو الأرض التى أفاء الله مما لم يوجف عليها بخيل و لا ركاب، و أما تفسيرها بأنها كل أرض ستفتح إلى يوم القيام ة أو أرض مكة أو أرض الروم و فارس فلا يلائمه سياق الآيتين «وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً».

(بحث روائى)

فى المجمع، ذكر محمد بن كعب القرظى و غيره من أصحاب السير قالوا": كان من

ص: 292

حديث الخندق- أن نفرا من اليهود منهم سلام بن أبى الحقيق- و حيى بن أخطب فى جماعة من بنى النضير- الذين أجلاهم رسول الله ص خرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ص- و قالوا: إنا سنكون معكم عليهم حتى نستأصلهم.

فقالت لهم قريش: يا معشر اليهود إنكم أهل الكتاب الأول- فديننا خير أم دين محمد؟ قالوا: بل- دينكم خير من دينه فأنتم أولى بالحق منه- فهم الذين أنزل الله فيهم «أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَ الطَّاغُوتِ- وَ يَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هؤُلاءِ أَهْدى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا- إلى قوله- وَ كَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً» فسر قريشا ما قالوا و نشطوا لما دعوهم إليه- فأجمعوا لذلک و اتعدوا له.

ثم خرج أولئک النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان- فدعوهم إلى حرب رسول الله ص- و أخبروهم أنهم سيكونون عليه- و أن قريشا قد بايعوهم على ذلک فأجابوهم.

فخرجت قريش و قائدهم أبو سفيان بن حرب، و خرجت غطفان و قائدها عيينة بن حصين بن حذيفة بن بدر- فى فزارة و الحارث بن عوف فى بنى مرة و مسعر بن جبلة الأشجعى- فيمن تابعه من الأشجع و كتبوا إلى حلفائهم من بنى أسد- فأقبل طليحة فيمن اتبعه من بنى أسد و هما حليفان أسد و غط فان- و كتب قريش إلى رجال من بنى سليم- فأقبل أبو الأعور السلمى فيمن اتبعه من بنى سليم مددا لقريش.

فلما علم بذلک رسول الله ص ضرب الخندق على المدينة- و كان الذى أشار إليه سلمان الفارسى- و كان أول مشهد شهده سلمان مع رسول الله ص و هو يومئذ حر- قال:

يا رسول الله إنا كنا بفارس- إذا حوصرنا خندقنا علينا- فعمل فيه رسول الله ص و المسلمون حتى أحكموه.

فما ظهر من دلائل النبوة فى حفر الخندق

ما رواه أبو عبد الله الحافظ بإسناده عن كثير بن عبد الله بن عمر بن عوف المزنى قال : حدثنى أبى عن أبيه قال: خط رسول الله ص الخندق عام الأحزاب أربعين ذراعا بين عشرة- فاختلف المهاجرون و الأنصار فى سلمان الفارسى- و كان رجلا قويا فقال الأنصار: سلمان منا، و قال المهاجرون: سلمان منا، فقال رسول الله ص: سلمان منا أهل البيت.

قال عمرو بن عوف: فكنت أنا و سلمان و حذيفة بن اليمان و النعمان بن مقرن

و ستة من الأنصار نقطع أربعين ذراعا، فحفرنا حتى إذا بلغنا الثرى- أخرج الله من بطن الخندق صخرة بيضاء مدورة- فكسرت حديدنا و شقت علينا- فقلنا: يا سلمان ارق إلى رسول الله ص فأخبره عن الصخرة، فأما أن نعدل عنها فإن المعدل ق ريب- و إما أن يأمرنا فيه بأمره فإنا لا نحب أن نجاوز خطه، فرقى سلمان حتى أتى رسول الله ص و هو مضروب عليه قبة- فقال: يا رسول الله- خرجت صخرة بيضاء من الخندق مدورة فكسرت حديدنا و شقت علينا حتى ما يحک فيها قليل و لا كثير- فمرنا فيها بأمرک فهبط رسول الله ص مع سلمان فى الخندق- و أخذ المعول و ضرب بها ضربة- فلمعت منها برقة أضاءت ما بين لابتيها يعنى لابتى المدينة- حتى لكان مصباحا فى جوف ليل مظلم فكبر رسول الله ص تكبيرة- فتح فكبر المسلمون- ثم ضرب ضربة أخرى فلمعت برقة أخرى- ثم ضرب به الثالثة فلمعت برقة أخرى.

فقال سلمان: بأبى أنت و أمى يا رسول الله ما هذا الذى أرى؟ فقال : أما الأولى فإن الله عز و جل فتح على بها اليمن- و أما الثانية فإن الله فتح على بها الشام و المغرب و أما الثالثة فإن الله فتح على بها المشرق- فاستبشر المسلمون بذلک و قالوا: الحمد لله موعد صادق.

قال: و طلعت الأحزاب فقال المؤمنون: هذا ما وعدنا الله و رسوله و صدق الله و رسوله، و قال المنافقون : ألا تعجبون؟ يحدثكم و يعدكم الباطل- و يخبركم أنه يبصر فى يثرب قصور الحيرة و مدائن كسرى- و أنها تفتح لكم و أنتم تحفرون الخندق- و لا تستطيعون أن تبرزوا.

«۱» و مما ظهر فيه أيضا من آيات النبوة

ما رواه أبو عبد الله الحافظ بالإسناد عن عبد الواحد بن أيمن المخزومى قال حدثنى، أيمن المخزومى قال: سمعت جابر بن عبد الله قال: كنا يوم الخندق نحفر الخندق فعرضت فيه كدية و هى الجبل- فقلنا: يا رسول الله إن كدية عرضت فيه- فقال رسول الله ص رشوا عليها ماء- ثم قام و أتاها و بطنه معصوب الحجر «۲» من الجوع- فأخذ المعول أو المسحاة فسمى ثلاثا- ثم ضرب فعادت كثيبا «۳»

---

(۱) أى تقضوا حاجتكم بالتخلى.

(۲) الحجر حضن الإنسان و هو ما دون الإبط إلى الكشح.

(٣) أى تلا من الرمل.

ص: 294

أهيل- فقلت: ائذن لى يا رسول الله إلى المنزل ففعل- فقلت للمرأة هل عندک من شيء؟

فقالت: عندى صاع من شعير و عناق «١» فطحنت الشعير فعجنته و ذبحت العناق و سلختها و خليت بين المرأة و بين ذلک.

ثم أتيت رسول الله ص فجلست عنده ساعة- ثم قلت: ائذن لى يا رسول الله ففعل- فأتيت المرأة فإذا العجين و اللحم قد أمكنا- فرجعت إلى رسول الله ص فقلت:

إن عندنا طعيما لنا- فقم يا رسول الله أنت و رجلان من أصحابک فقال: و کم هو؟ فقلت:

صاع من شعير و عناق- فقال للمسلمين جميعا: قوموا إلى جابر- فقاموا فلقيت من الحياء ما لا يعلمه إلا الله- فقلت: جاء بالخلق إلى صاع شعير و عناق.

فدخلت على المرأة و قلت قد افتضحت- جاءک رسول الله ص بالخلق أجمعين فقالت: هل کان سألک کم طعامک؟ قلت: نعم. فقالت: الله و رسوله أعلم- قد أخبرناه ما عندنا فکشفت عنى غما شديدا.

فدخل رسول الله ص فقال: خذى و دعينى من اللحم- فجعل رسول الله ص يثرد و يفرق اللحم- ثم يحم هذا و يحم هذا فما زال يقرب إلى الناس- حتى شبعوا أجمعين و يعود التنور و القدر أملأ ما کانا.

ثم قال رسول الله ص: کلى و أهدى- فلم نزل نأکل و نهدى قومنا أجمع- أورده البخارى فى الصحيح.

قالوا: و لما فرغ رسول الله من الخندق- أقبلت قريش حتى نزلت بين الجرف «٢» و الغابة فى عشرة آلاف من أحابيشهم- و من تابعهم من بنى کنانة و أهل تهامة، و أقبلت غطفان و من تابعهم من أهل نجد- حتى نزلوا إلى جانب أحد، و خرج رسول الله ص و المسلمون- حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع «٣» فى ثلاثة آلاف من المسلمين- فضرب هناک عسکره و الخندق بينه و بين القوم- و أمر بالذرارى و النساء فرفعوا فى الآطام «۴»

---

(١) الأنثى من أولاد المعز.

(٢) مکان خارج المدينة.

(۳) جبل بالمدينة.

(۴) حصون لأهل المدينة.

و خرج عدو الله حيى بن أخطب النضيرى- حتى أتى كعب بن أسد القرظى صاحب بنى قريظة- و كان قد وادع رسول الله ص على قومه و عاهده على ذلك- فلما سمع كعب صوت ابن أخطب أغلق دونه حصنه . فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه يا كعب افتح لى- فقال: ويحك يا حيى إنك رجل مشئوم، إنى قد عاهدت محمدا و لست بناقض ما بينى و بينه، و لم أر منه إلا وفاء و صدقا. قال: ويحك افتح لى حتى أكلمك. قال: ما أنا بفاعل. قال: إن أغلقت دونى إلا على جشيشة تكره أن آكل منها معك.

فأحفظ «۱» الرجل ففتح له فقال: ويحك يا كعب- جئتك بعز الدهر و ببحر طام «۲» جئتك بقريش على قادتها و سادتها و بغطفان على سادتها و قادتها- قد عاهدونى أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا و من معه . فقال كعب: جئتنى و الله بذل الدهر بجهام «۳» قد أهراق ماءه يرعد و يبرق و ليس فيه شيء- فدعنى و محمدا و ما أنا عليه فلم أر من محمد إلا صدقا و وفاء.

فلم يزل حيى بكعب يفتل منه فى الذروة «۴» و الغارب- حتى سمح له على أن أعطاه عهدا و ميثاقا- لئن رجعت قريش و غطفان- و لم يصيبوا محمدا أن أدخل معك فى حصنك- حتى يصيبنى ما أصابك فنقض كعب عهده- و برىء مما كان عليه فيما بينه و بين رسول الله ص.

فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ص- بعث سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس- أحد بنى عبد الأشهل و هو يومئذ سيد الأوس- و سعد بن عبادة أحد بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج- و هو يومئذ سيد الخزرج- و معهما عبد الله بن رواحة و خوات بن جبير- فقال: انطلقوا- حتى تنظروا أ حق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن

---

(۱) أحفظ الرجل: أغضبه.

(۲) الطام: البحر العظيم.

(۳) السحاب الذى لا ماء فيه.

(۴) الذروة و الغارب أعلى الشيء و أصله مثل مأخوذ من فتل ذروة البعير المصعب و غاربه لوضع الخطام فى أنفه.

ص: 296

كان حقا فالحنوا لنا لحنا نعرفه- و لا تفتوا أعضاد الناس و إن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس.

و خرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث مما بلغهم عنهم . قالوا: لا عقد بيننا و بين محمد و لا عهد، فشاتمهم سعد بن عبادة و شاتموه، و قال سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمتهم- فإن ما بيننا و بينهم أعظم من المشاتمة.

ثم أقبلوا إلى رسول الله ص- و قالوا: عضل و القارة- لغدر عضل و القارة بأصحاب رسول الله خبيب بن عدى و أصحابه أصحاب الرجيع- فقال رسول الله ص : الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين، و عظم عند ذلك البلاء و اشتد الخوف و أتاهم عدوهم من فوقهم و من أسفل منهم- حتى ظن المؤمنون كل ظن و ظهر النفاق من بعض المنافقين.

فأقام رسول الله ص- و أقام المشركون عليه بضعا و عشرين ليلة- لم يكن بينهم قتال إلا الرمى بالنبال- إلا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبد ود- أخو بنى عامر بن لوى و عكرمة بن أبى جهل- و ضرار بن الخطاب و هبيرة بن أبى وهب- و نوفل بن عبد الله قد تلبسوا للقتال- و خرجوا على خيولهم حتى مروا بمنازل بنى كنانة- فقالوا:

تهيئوا للحرب يا بنى كنانة- فستعلمون اليوم من الفرسان؟

ثم أقبلوا تعنق «۱» بهم خيولهم حتى وقفوا على الخندق- فقالوا: و الله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكانا ضيقا من الخندق فضربوا خيولهم فاقتحموا فجالت بهم فى السبخة بين الخندق و سلع- و خرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين- حتى أخذ عليهم الثغرة التى منها اقتحموا- و أقبلت الفرسان نحوهم.

و كان عمرو بن عبد ود فارس قريش- و كان قد قاتل يوم بدر- حتى ارتث و أثبته الجراح و لم يشهد أحدا- فلما كان يوم الخندق خرج معلما ليرى مشهده، و كان يعد بألف فارس- و كان يسمى فارس يليل لأنه أقبل فى ركب من قريش- حتى إذا كانوا بيليل- و هو واد قريب من بدر- عرضت لهم بنو بكر فى عدد فقال لأصحا به: امضوا فمضوا فقام فى وجوه بنى بكر- حتى منعهم أن يصلوا إليه فعرف بذلك.

---

(۱) أعنق به فرسه: سار به سيرا واسعا فسيحا مسيطرا ممتدا.

ص: 297

و كان اسم الموضع الذى حفر فيه الخندق المذاد- و كان أول من طفره عمرو و أصحابه فقيل فى ذلك.

عمرو بن عبد كان أول فارس   جزع المذاد و كان فارس يليل

و ذكر ابن إسحاق أن عمرو بن عبد ود- كان ينادى: من يبارز؟ فقام على و هو مقنع فى الحديد- فقال: أنا له يا نبى الله، فقال: إنه عمرو اجلس. و نادى عمرو:

أ لا رجل؟ و هو يؤنبهم و يقول: أين جنتكم التى تزعمون أن من قتل منكم دخلها؟

و قام على فقال: أنا له يا رسول الله. ثم نادى الثالثة فقال:

و لقد بححت عن النداء   بجمعكم هل من مبارز؟

و وقفت إذ جبن المشجع   موقف البطل المناجز

إن السماحة و الشجاعة فى   الفتى خير الغرائز

فقام على فقال: يا رسول الله أنا له، فقال: إنه عمرو، فقال: و إن كان عمرا فاستأذن رسول الله ص فأذن له-.

قال ابن إسحاق: فمشى إليه و هو يقول:

لا تعجلن فقد أتاک   مجيب صوتک غير عاجز

ذو نية و بصيرة   و الصدق منجى كل فائز

إنی لأرجو أن أقیم   علیک نائحة الجنائز

من ضربة نجلاء یبقی   ذکرها عند الهزاهز

قال له عمرو: من أنت؟ قال: أنا علی. قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا علی بن أبی طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. فقال: غیرک یا ابن أخی من أعمامک من هو أسن منک- فإنی أکره أن أهریق دمک. فقال علی: لکنی و الله ما أکره أن أهریق دمک. فغضب عمرو و نزل و سل سیفه کأنه شعلة نار- ثم أقبل نحو علی مغضبا فاستقبله علی بدرقته «۱» فضربه عمرو بالدرقة فقدها- و أثبت فیها السیف و أصاب رأسه فشجه، و ضربه علی علی حبل العاتق فسقط.

---

(۱) الدرقة: الجنة.

ص: 298

و فی روایة حذیفة: و تسیف علی رجلیه بالسیف من أسفل- فوقع علی قفاه و ثارت بینهما عجاجة- فسمع علی یکبر فقال رسول الله ص: قتله و الذی نفسی بیده- فکان أول من ابتدر العجاج عمرو بن الخطاب- و قال: یا رسول الله قتله فجز علی رأسه- و أقبل نحو رسول الله ص و وجهه یتهلل.

قال حذیفة: فقال النبی ص: أبشر یا علی- فلو وزن الیوم عملک بعمل أمة محمد لرجح عملک بعملهم- و ذلک أنه لم یبق بیت من بیوت المشرکین- إلا و قد دخله وهن بقتل عمرو، و لم یبق بیت من بیوت المسلمین إلا و قد دخله عز بقتل عمرو.

و عن الحاکم أبی القاسم أیضا بالإسناد عن سفیان الثوری عن زبید الثانی عن مرة عن عبد الله بن مسعود قال ": کان یقرأ «وَ کَفَی اللّهُ الْمُؤْمِنِینَ الْقِتالَ بعلی».

و خرج أصحابه منهزمین حتی طفرت خیولهم الخندق- و تبادر المسلمون فوجدوا نوفل بن عبد العزی جوف الخندق- فجعلوا یرمونه بالحجارة فقال لهم: قتلة أجمل من هذه ینزل بعضکم أقاتله فقتله الزبیر بن العوام، و ذکر ابن إسحاق : أن علیا طعنة فی ترقوته- حتی أخرجها من مراقه فمات فی الخندق.

و بعث المشركون إلى النبى ص- يشترون جيفته بعشرة آلاف- فقال النبى:

هو لكم لا نأكل ثمن الموتى، و ذكر على أبياتا مها:

نصر الحجارة من سفاهة رأيه	و نصرت رب محمد بصواب
فضربته و تركته متجدلا	كالجذع بين دكادك و رواب
و عففت عن أثوابه لو أننى	كنت المقطر بزنى أثوابى

قال ابن إسحاق: و رمى حنان بن قيس بن العرفة سعد بن معاذ بسهم- و قال:

خذها و أنا ابن العرفة فقطع أكحله- فقال سعد: عرف الله وجهک فى النار اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا- فأبقنى لها فإنه لا قوم أحب إلى- أن أجاهد من قوم آذوا رسولک و كذبوه و أخرجوه، و إن كنت وضعت الحرب بيننا و بينهم فاجعله لى شهادة و لا تمتنى- حتى تقر عينى من بنى قريظة.

قال: و جاء نعيم بن مسعود الأشجعى إلى النبى ص- فقال: يا رسول الله إنى قد أسلمت و لم يعلم بى أحد من قومى- فمرنى بأمرک فقال له النبى ص: إنما أنت فينا

ص: 299

رجل واحد- فخذل عنا ما استطعت فإنما الحرب خدعة.

فانطلق نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة- فقال لهم: إنى لكم صديق، و الله ما أنتم و قريش و غطفان من محمد بمنزلة واحدة- إن البلد بلدكم و به أموالكم و أبناؤكم و نساؤكم- و إنما قريش و غطفان بلادهم غيرها و إنما جاءوا حتى نزلوا معكم- فإن رأوا فرصة انتهزوها- و إن رأوا غير ذلک رجعوا إلى بلادهم- و خلوا بينكم و بين الرجل و لا طاقة لكم به- فلا تقاتلوا حتى تأخذوا رهنا من أشرافهم- تستوثقون به أن لا يبرحوا حتى يناجزوا محمدا. فقالوا له: قد أشرت برأى.

ثم ذهب فأتى أبا سفيان و أشراف قريش- فقال: يا معشر قريش- إنكم قد عرفتم ودى إياكم و فراقى محمدا و دينه- و إنى قد جئتكم بنصيحة فاكتموا على. فقالوا: نفعل ما أنت عندنا بمتهم. قال: تعلمون أن بنى قريظة- قد ندموا على ما صنعوا بينهم و بين محمد- فبعثوا إليه أنه لا يرضيك عنا- إلا أن نأخذ من القوم رهنا من أشرافهم- و ندفعهم إليك فتضرب أعناقهم- ثم نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك. فقال: بلى فإن بعثوا إليكم يسألونك نفرا من رجالكم- فلا تعطوهم رجلا واحدا و احذروا.

ثم جاء غطفان و قال: يا معشر غطفان- إنى رجل منكم، ثم قال لهم ما قال لقريش.

فلما أصبح أبو سفيان و ذلك يوم السبت- فى شوال سنة خمس من الهجرة- بعث إليهم أبو سفيان عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش- أن أبا سفيان يقول لكم: يا معشر اليهود- إن الكراع و الخف قد هلكا- و إنا لسنا بدار مقام فاخرجوا إلى محمد حتى نناجزه.

فبعثوا إليه أن اليوم السبت و هو يوم لا نعمل فيه شيئا- و لسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم- حتى تعطونا رهنا من رجالكم نستوثق بهم- لا تذهبوا و تدعونا حتى نناجز محمدا فقال أبو سفيان: و الله لقد حذرنا هذا نعيم- فبعث إليهم أبو سفيان: أنا لا نعطيكم رجلا واحدا- فإن شئتم أن تخرجوا و تقاتلوا و إن شئتم فاقعدوا، فقالت اليهود: هذا و الله الذى قال لنا نعيم. فبعثوا إليهم أنا و الله لا نقاتل حتى تعطونا رهنا، و خذل الله بينهم و بعث سبحانه عليهم الريح- فى ليال شاتية باردة شديدة البرد حتى انصرفوا راجعين.

ص: 300

قال محمد بن كعب قال حذيفة بن اليمان و الله لقد رأيتنا يوم الخندق- و بنا من الجهد و الجوع و الخوف ما لا يعلمه إلا الله- و قام رسول الله ص يصلى ما شاء الله من الليل ثم قال: أ لا رجل يأتينا بخبر القوم يجعله الله رفيقى فى الجنة. قال حذيفة: فوالله ما قام منا أحد- مما بنا من الخوف و الجهد و الجوع، فلما لم يقم أحد دعانى فلم أجد بدا من إجابته. قلت: لبيك- قال: اذهب فجىء بخبر القوم- و لا تحدثن شيئا حتى ترجع.

قال: و أتيت القوم فإذا ريح الله و جنوده تفعل بهم ما تفعل- ما يستمسك لهم بناء و لا تثبت لهم نار و لا يطمئن لهم قدر- فإنى لكذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله- ثم قال: يا معشر قريش- لينظر أحدكم من جليسه؟ قال حذيفة: فبدأت بالذى عن يمينى فقلت: من أنت؟ قال: أنا فلان.

ثم عاد أبو سفيان براحلته فقال: يا معشر قريش- و الله ما أنتم بدار مقام هلك الخف و الحافر- و أخلفتنا بنو قريظة و هذه الريح لا يستمسك لنا معها شىء- ثم عجل فركب راحلته- و إنها لمعقولة ما حل عقالها إلا بعد ما ركبها.

قال: قلت فى نفسى: لو رميت عدو الله و قتلته- كنت قد صنعت شيئا فوترت قوسى- ثم وضعت السهم فى كبد القوس و أنا أريد أن أرميه- فأقتله فذكرت قول رسول الله ص لا تحدثن شيئا حتى ترجع. قال فحططت القوس- ثم رجعت إلى رسول الله

و هو يصلى- فلما سمع حسى فرج بين رجليه فدخلت تحته، و أرسل على طائفة من مرطة «۱» فركع و سجد- ثم قال: ما الخبر؟ فأخبرته.

و عن سليمان بن صرد قال : قال رسول الله ص- حين أجلى عنه الأحزاب : الآن نغزوهم و لا يغزوننا فكان كما قال- فلم يغزهم قريش بعد ذلک- و کان هو يغزوهم حتى فتح الله عليهم مكة":

أقول: هذا ما أورده الطبرسى فى مجمع البيان، من القصة أوردناه ملخصا و روى القمى فى تفسيره، قريبا منه و أورده فى الدر المنثور، فى روايات متفرقة.

و فى المجمع، أيضا روى الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالک عن أبيه قال":

---

(۱) كساء من صوف و نحوه يؤتزر به.

لما انصرف النبى ص عن الخندق- و وضع عنه اللأمة و اغتسل و استحم تبدى له جبريل فقال : عذيرک من محارب- أ لا أراک أن قد وضعت عنک اللأمة و ما وضعناها بعد.

فوثب رسول الله ص فزعا- فعزم على الناس أن لا يصلوا صلاة العصر حتى يأتوا قريظة- فلبس الناس السلاح فلم يأتوا بنى قريظة حتى غربت الشمس- و اختصم الناس فقال بعضهم: إن رسول الله عزم علينا أن لا نصلى حتى نأتى قريظة- فإنما نحن فى عزمة رسول الله ص فليس علينا إثم، و صلى طائفة من الناس احتسابا- و تركت طائفة منهم الصلاة حتى غربت الشمس فصلوها- حين جاءوا بنى قريظة احتسابا- فلم يعنف رسول الله ص واحدا من الفريقين.

و ذكر عروة أنه بعث على بن أبى طالب على المقدم- و دفع إليه اللواء و أمره أن ينطلق- حتى يقف بهم على حصن بنى قريظة ففعل- و خرج رسول الله على آثارهم- فمر على مجلس من الأنصار فى بنى غنم ينتظرون رسول الله ص- فزعموا أنه قال: مر بكم الفارس آنفا- فقالوا: مر بنا دحية الكلبى على بغلة شهباء تحته قطيفة ديباج- فقال رسول الله ص : ليس ذلک بدحية- و لكنه جبرائيل أرسل إلى بنى قريظة ليزلزلهم و يقذف فى قلوبهم الرعب.

قالوا: و سار على حتى إذا دنا من الحصن- سمع منهم مقالة قبيحة لرسول الله ص- فرجع حتى لقى رسول الله ص بالطريق- فقال: يا رسول الله لا عليک أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث- قال: أظنک سمعت لى منهم أذى؟ فقال: نعم يا رسول الله فقال: لو قد رأونى لم يقولوا من ذلک شيئا، فلما دنا رسول الله ص من حصونهم قال : يا إخوة القردة و الخنازير! هل أخزاكم الله و أنزل بكم نقمته؟ فقالوا: يا أبا لقاسم ما كنت جهولا.

و حاصرهم رسول الله ص خمسا و عشرين ليلة- حتى أجهدهم الحصار و قذف الله فى قلوبهم الرعب، و كان حيى بن أخطب دخل مع بنى قريظة فى حصنهم- حين رجعت قريش و غطفان- فلما أيقنوا أن رسول الله ص غير منصرف عنهم- حتى يناجزهم قال كعب بن أسد : يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون- و إنى عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم قالوا: ما هن؟.

ص: 302

قال: نبايع هذا الرجل و نصدقه- فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل- و أنه الذى تجدونه فى كتابكم- فتأمنوا على دمائكم و أموالكم و نسائكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا، و لا نستبدل به غيره.

قال: فإذا أبيتم على هذا فهلموا فلنقتل أبناءنا و نساءنا- ثم نخرج إلى محمد رجالا مصلتين بالسيوف- و لم نترك وراءنا ثقلا يهمنا حتى يحكم الله بيننا و بين محمد- فإن نهلک نهلک و لم نترک وراءنا نسلا يهمنا- و إن نظهر لنجدن النساء و الأبناء . فقالوا: نقتل هؤلاء المساكين؟ فما خير فى العيش بعدهم.

قال: فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت- و عسى أن يكون محمد و أصحابه قد أمنوا فيها- فانزلوا فلعلنا نصيب منهم غرة. فقالوا: نفسد سبتنا؟ و نحدث فيه ما أحدث من كان قبلنا- فأصابهم ما قد علمت من المسخ؟ فقال : ما بات رجل منكم- منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما.

قال الزهرى: و قال رسول الله ص- حين سألوه أن يحكم فيهم رجلا:

اختاروا من شئتم من أصحابى، فاختاروا سعد بن معاذ فرضى بذلک النبى ص فنزلوا على حكم سعد بن معاذ فأمر رسول الله ص بسلاحهم- فجعل فى قبته و أمر بهم فكتفوا و أوثقوا- و جعلوا فى دار أسامة، و بعث رسول الله ص إلى سعد بن معاذ فجىء به فحكم فيهم بأن يقتل مقاتلوهم- و تسبى ذراريهم و نساؤهم و تغنم أموالهم و أن عقارهم للمهاجرين دون ا لأنصار- و قال للأنصار: إنكم ذو عقار و ليس للمهاجرين عقار، فكبر رسول الله ص و قال لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله عز و جل، و فى بعض الروايات: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة- و أرقعة جمع رقيع اسم سماء الدنيا.

فقتل رسول الله مقاتليهم، و كانوا فيما زعموا: ستمائة مقاتل، و قيل : قتل منهم أربعمائة و خمسين رجلا و سبى سبعمائة و خمسين، و روى أنهم قالوا لكعب بن أسد- و هم يذهب بهم إلى رسول الله ص إرسالا: يا كعب ما ترى يصنع بنا؟ فقال كعب:

أ فى كل موطن تقولون؟ أ لا ترون أن الداعى لا ينزع- و من يذهب منكم لا يرجع هو و الله القتل.

ص: 303

و أتى بحيى بن أخطب عدو الله عليه حلة- فاختية قد شقها عليه من كل ناحية كموضع الأنملة- لئلا يسلبها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلما بصر برسول الله ص فقال: أما و الله ما لمت نفسى على عداوتک- و لكنه من يخذل الله يخذل- ثم قال: يا أيها الناس- إنه لا بأس بأمر الله كتاب الله و قدرة ملحمة- كتبت على بنى إسرائيل ثم جلس فضرب عنقه.

ثم قسم رسول الله ص نساءهم و أبناءهم و أموالهم على المسلمين- و بعث بسبايا منهم إلى نجد مع سعد بن زيد الأنصارى- فابتاع بهم خيلا و سلاحا، قالوا: فلما انقضى شأن بنى قريظة- انفجر جرح سعد بن معاذ- فرجعه رسول الله ص إلى خيمته التى ضربت عليه فى المسجد.

و روى عن جابر بن عبد الله قال: جاء جبرائيل إلى رسول الله ص فقال:

من هذا العبد الصالح الذى مات- فتحت له أبواب السماء و تحرک له العرش- فخرج رسول الله ص فإذا سعد بن معاذ قد قبض.

أقول:

و روى القصة القمى فى تفسيره، مفصلة و فيه": فأخرج كعب بن أسيد مجموعة يداه إلى عنقه- فلما نظر إليه رسول الله ص قال له: يا كعب أ ما نفعک وصية ابن الحواس- الحبر الذكى الذى قدم عليكم من الشام- فقال: تركت الخمر و الخمير و جئت إلى البئوس و التمور- لنبى يبعث مخرجه بمكة- و مهاجرته فى هذه البحيرة يجتزى بالكسيرات و التميرات، و يركب الحمار العرى، فى عينيه حمرة، و بين كتفيه خاتم النبوة، يضع سيفه على عاتقه، لا يبالى من لاقى منكم، يبلغ سلطانه منقطع الخف و الحافر فقال قد كان ذلک يا محمد- و لو لا أن اليهود يعيرونى أنى جزعت عند القتل- لآمنت بک و صدقتک- و لكنى على دين اليهود عليه أحيا و عليه أموت. فقال رسول الله ص:

قدموه و اضربوا عنقه فضربت.

و فيه أيضا: فقتلهم رسول الله ص- فى البردين بالغداة و العشى فى ثلاثة أيام و كان يقول : اسقوهم العذب و أطعموهم الطيب- و أحسنوا أساراهم حتى قتلهم كلهم فأنزل الله عز و جل فيهم : «وَ أَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ »- إلى قوله- وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً».

ص: 304

و فى المجمع،: روى أبو القاسم الحسكانى عن عمرو بن ثابت عن أبى إسحاق عن على (ع) قال: فينا نزلت «رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ» فأنا و الله المنتظر ما بدلت تبديلا.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٢٨ الى ٣٥]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ إِنْ کُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْکُنَّ وَ أُسَرِّحْکُنَّ سَراحاً جَميلاً (۲۸) وَ إِنْ کُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْکُنَّ أَجْراً عَظيماً (۲۹) يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْکُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَ کانَ ذلِکَ عَلَى اللَّهِ يَسيراً (۳۰) وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْکُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنا لَها رِزْقاً کَريماً (۳۱) يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ کَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذي في قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (۳۲)

وَ قَرْنَ في بُيُوتِکُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتينَ الزَّکاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِ نَّما يُريدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَکُمْ تَطْهيراً (۳۳) وَ اذْکُرْنَ ما يُتْلى في بُيُوتِکُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِکْمَةِ إِنَّ اللَّهَ کانَ لَطيفاً خَبيراً (۳۴) إِنَّ الْمُسْلِمينَ وَ الْمُسْلِماتِ وَ الْمُؤْمِنينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْقانِتينَ وَ الْقانِتاتِ وَ الصَّادِقينَ وَ الصَّادِقاتِ وَ الصَّابِرينَ وَ الصَّابِراتِ وَ الْخاشِعينَ وَ الْخاشِعاتِ وَ الْمُتَصَدِّقينَ وَ الْمُتَصَدِّقاتِ وَ الصَّائِمينَ وَ الصَّائِماتِ وَ الْحافِظينَ فُ رُوجَهُمْ وَ الْحافِظاتِ وَ الذَّاکِرينَ اللَّهَ کَثيراً وَ الذَّاکِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظيماً (۳۵)

(بيان)

آيات راجعة إلى أزواج النبى ص تأمره أولا : أن ينبئهن أن ليس لهن من الدنيا و زينتها إلا العفاف و الكفاف إن اخترن زوجية النبى ص، ثم تخاطبهن ثانيا:

أنهن واقفات فى موقف صعب على ما فيه من العلو و الشرف فإن اتقين الله يؤتين أجرهن مرتين و إن أتين بفاحشة مبينة يضاعف لهن العذاب ضعفين و يأمرهن بالعفة و لزوم بيوتهن من غير تبرج و الصلاة و الزكاة و ذكر ما يتلى فى بيوته ن من الآيات و الحكمة ثم يعد مطلق الصالحين من الرجال و النساء وعدا بالمغفرة و الأجر العظيم.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ» إلى تمام الآيتين، سياق الآيتين يلوح أن أزواج النبى أو بعضهن كانت لا ترتضى ما فى عيشتهن فى بيت النبى ص من الضيق و الضنك فاشتكت إليه ذلك و اقترحت عليه أن يسعدهن فى الحياة بالتوسعة فيها و إيتائهن من زينتها.

فأمر الله سبحانه نبيه أن يخيرهن بين أن يفارقنه و لهن ما يردن و بين أن يبقين عنده و لهن ما هن عليه من الوضع الموجود.

و قد ردد أمرهن بين أن يردن الحياة الدنيا و زى نتها و بين أن يردن الله و رسوله و الدار الآخرة، و هذا الترديد يدل أولا : أن الجمع بين سعة العيش و صفائها بالتمتع من الحياة و زينتها و زوجية النبى ص و العيشة فى بيته مما لا يجتمعان.

و ثانيا: أن كلا من طرفى الترديد مقيد بما يقابل الآخر، و المراد بإرادة الحياة الدنيا و زينتها جعلها هى الأصل سواء أريدت الآخرة أو لم يرد، و المراد بإرادة الحياة الآخرة جعلها- هى الأصل فى تعلق القلب بها سواء توسعت معها الحياة الدنيا و نيلت الزينة و صفاء العيش أو لم يكن شيء من ذلك.

ثم الجزاء أعنى نتيجة اختيارهن كلا من طرفى الترديد مختلف فلهن على تقدير اختيارهن الحياة الدنيا و زينتها بمفارقة النبى ص أن يطلقهن و يمتعهن جمعاء من مال الدنيا، و على تقدير بقائهن على زوجية النبى ص و اختيار الآخرة على الحياة الدنيا و زينتها الأجر العظيم عند الله لكن لا مطلقا بل بشرط الإحسان و العمل الصالح.

و يتبين بذلك أن ليس لزوجية النبى ص من حيث هى زوجية كرامة عند الله سبحانه و إنما الكرامة لزوجيته المقارنة للإحسان و التقوى و لذلک لما ذكر ثانيا علو منزلتهن قيده أيضا بالتقوى فقال: «لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَ» و هذا كقوله فى النبى و أصحابه: «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً - إلى أن قال- وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً » حيث مدحهم عامة بظاهر أعمالهم أولا ثم قيد وعدهم الأجر العظيم بالإيمان و العمل الصالح.

و بالجملة فإطلاق قوله: «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ»: الحجرات: ١٠ على حاله غير منتقض بكرامة أخرى بسبب أو نسب أو غير ذلک.

فقوله: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ» أمر النبى ص أن يبلغ الآيتين أزواجه و لازمه أن يطلقهن و يمتعهن إن اخترن الشق الأول و يبقيهن على زوجيته إن اخترن الله و رسوله و الدار الآخرة.

و قوله: «إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها » إرادة الحياة الدنيا و زينتها كناية بقرينة المقابلة عن اختيارها و تعلق القلب بتمتعاتها و الإقبال عليها و الإعراض عن الآخرة.

و قوله: «فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلًا » قال فى الكشاف:، أصل تعال أن يقوله من فى المكان المرتفع لمن فى المكان المستوطأ ثم كثرت حتى استوت فى

ص: 307

استعماله الأمكنة، و معنى تعالين أقبلن بإرادتكن و اختياركن لأحد أمرين و لم يرد نهوضهن بأنفسهن كما تقول: أقبل يخاصمنى و ذهب يكلمنى و قام يهددنى. انتهى.

و التمتيع إعطاؤهن عند التطليق مالا يتمتعن به و التسريح هو التطليق و السراح الجميل هو الطلاق من غير خصومة و مشاجرة بين الزوجين.

و فى الآية أبحاث فقهية أوردها المفسرون و الحق أن ما تتضمنه من الأحكام الشخصية خاصة بالنبى ص و لا دليل من جهة لفظها على شموله لغيره و تفصيل القول فى الفقه.

و قوله: «وَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللّٰهَ وَ رَسُولَهُ وَ الدّٰارَ الْآخِرَةَ» فقد تقدم أن المقابلة بين هذه الجملة و بين قوله : «إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيٰاةَ الدُّنْيٰا وَ زِينَتَهٰا » إلخ، تقيد كلا منهما بخلاف الأخرى و عدمها، فمعنى الجم لة: و إن كنتن تردن و تخترن طاعة الله و رسوله و سعادة الدار الآخرة مع الصبر على ضيق العيش و الحرمان من زينة الحياة الدنيا و هى مع ذلک كناية عن البقاء فى زوجية النبى ص و الصبر على ضيق العيش و إلا لم يصح اشتراک الإحسان فى الأجر الموعود و هو ظاهر.

فالمعنى: و إن كنتن تردن و تخترن البقاء على زوجية النبى ص و الصبر على ضيق العيش فإن . الله هيأ لكن أجرا عظيما بشرط أن تكن محسنات فى أعمالكن مضافا إلى إرادتكن الله و رسوله و الدار الآخرة فإن لم تكن محسنات لم يكن لكن إلا خسران الدنيا و الآخرة جميعا.

قوله تعالى: «يٰا نِسٰاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضٰاعَفْ لَهَا الْعَذٰابُ ضِعْفَيْنِ» إلخ، عدل عن مخاطبة النبى ص فيهن إلى مخاطبتهن أنفسهن لتسجيل ما لهن من التكليف و زيادة التوكيد، و الآية و التى بعدها تقرير و توضيح بنحو لما يستفاد من قوله : «فَإِنَّ اللّٰهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنٰاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً» إثباتا و نفيا.

فقوله: «مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفٰاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ » الفاحشة الفعلة البالغة فى الشناعة و القبح و هى الكبيرة كإيذاء النبى ص و الافتراء و الغيبة و غير ذلک، و المبينة هى الظاهرة.

و و قوله: «يُضٰاعَفْ لَهَا الْعَذٰابُ ضِعْفَيْنِ» أى حال كونه ضعفين و الضعفان المثلان

ص: 308

و يؤيد هذا المعنى قوله فى جانب الثواب بعد : «نُؤْتِهٰا أَجْرَهٰا مَرَّتَيْنِ » فلا يعبأ بما قيل إن المراد بمضاعفة العذاب ضعفين تعذيبهم بثلاثة أمثاله بتقريب أن مضاعفة العذاب زيادته و إذا زيد على العذاب ضعفاه صار المجموع ثلاثة أمثاله.

و ختم الآية بقوله: «وَ كٰانَ ذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيراً» للإشارة إلى أنه لا مانع من ذلک من كرامة الزوجية و نحوها إذ لا كرامة إلا للتقوى و زوجية النبى ص إنما تؤثر الأثر الجميل إذا قارن التقوى و أما مع المعصية فلا تزيد إلا بعدا و وبالا.

قوله تعالى: «وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صٰالِحاً نُؤْتِهٰا أَجْرَهٰا مَرَّتَيْنِ » إلخ، القنوت الخضوع، و قيل: الطاعة و قيل: لزوم الطاعة مع الخضوع، و الاعتاد التهيئة، و الرزق الكريم مصداقه الجنة.

و المعنى: و من يخضع منكن لله و رسوله أو لزم طاعة الله و رسوله مع الخضوع و يعمل عملا صالحا نعطها أجرها مرتين أى ضعفين و هيأنا لها رزقا كريما و هى الجنة.

و الالتفات من الغيبة إلى التكلم بالغير فى قوله: «نُؤْتِها» و «أَعْتَدْنا» للإيذان بالقرب و الكرامة، خلاف البعد و الخزى المفهوم من قوله: «يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ».

قوله تعالى: «يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ» إلخ، الآية تنفى مساواتهن لسائر النساء إن اتقين و ترفع منزلتهن على غيرهن ثم تذكر أشياء من النهى و الأمر متفرعة على كونهن لسن كسائر النساء كما يدل عليه قوله: فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ وَ قَرْنَ وَ لا تَبَرَّجْنَ إلخ، و هى خصال مشتركة بين نساء النبى ص و سائر النساء.

فتصدير الكلام بقوله: «لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَ» ثم تفريع هذه التكاليف المشتركة عليه، يفيد تأكد هذه التكاليف عليهن كأنه قيل: لستن كغيركن فيجب عليكن أن تبالغن فى امتثال هذه التكاليف و تحتطن فى دين الله أكثر من سائر النساء.

و تؤيد بل تدل على تأكد تكاليفهن مضاعفة جزائهن خيرا و شرا كما دلت عليها الآية السابقة فإن مضاعفة الجزاء لا تنفك عن تأكد التكليف.

و قوله: «فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ» بعد ما بين علو

ص: 309

منزلتهن و رفعة قدرهن لمكانهن من النبى ص و شرط فى ذلك التقوى فبين أن فضيلتهن بالتقوى لا بالاتصال بالنبى ص نهاهن عن الخضوع فى القول و هو ترقيق الكلام و تليينه مع الرجال بحيث يدعو إلى الريبة و تثير الشهوة فيطمع الذى فى قلبه مرض و هو فقدان قوة الإيمان التى تردعه عن الميل إلى الفحشاء.

و قوله: «وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً» أى كلاما معمولا مستقيما يعرفه الشرع و العرف الإسلامى و هو القول الذى لا يشير بلحنه إلى أزيد من مدلوله معرى عن الإيماء إلى فساد و ريبة.

قوله تعالى: «وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى - إلى قوله- وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» «قرن» من قر يقر إذا ثبت و أصله اقررن حذفت إحدى الرائين أو من قار يقار إذا اجتمع كناية عن ثباتهن فى بيوتهن و لزومهن لها، و التبرج الظهور للناس كظهور البروج لناظريها. و الجاهلية الأولى الجاهلية قبل البعثة فالمراد الجاهلية القديمة، و قول بعضهم: إن المراد به زمان ما بين آدم و نوح (ع) ثمان مائة سنة، و قول آخرين إنها ما بين إدريس و نوح، و قول آخرين زمان داود و سليمان و قول آخرين إنه زمان ولادة إبراهيم، و قول آخرين إنه زمان الفترة بين عيسى (ع) و محمد ص أقوال لا دليل يدل عليها.

و قوله: «وَ أَقِمْنَ الصَّلاةَ وَ آتِينَ الزَّكاةَ وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» أمر بامتثال الأوامر الدينية و قد أفرد الصلاة و الزكاة بالذكر من بينها لكونهما ركنين فى العبادات و المعاملات ثم جمع الجميع فى قوله: «وَ أَطِعْنَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ».

و طاعة الله هى امتثال تكاليفه الشرعية و طاعة رسوله فيما يأمر به و ينهى بالولاية المجعولة له من عند الله كما قال : «النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ».

قوله تعالی: «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً » كلمة «إِنَّما» تدل على حصر الإرادة فی إذهاب الرجس و التطهیر و کلمة أهل البیت سواء کان لمجرد الاختصاص أو مدحا أو نداء یدل علی اختصاص إذهاب الرجس و التطهیر بالمخاطبین بقوله : «عَنْكُمُ»، ففی الآیة فی الحقیقة قصران قصر الإرادة فی إذهاب الرجس و التطهیر و قصر إذهاب الرجس و التطهیر فی أهل البیت.

ص: 310

و لیس المراد بأهل البیت نساء النبی خاصة لمکان الخطاب الذی فی قوله : «عَنْكُمُ» و لم یقل: عنکن فأما أن یکون الخطاب لهن و لغیرهن کما قیل : إن المراد بأهل البیت أهل البیت الحرام و هم المتقون لقوله تعالی : «إِنْ أَوْلِياؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ » أو أهل مسجد رسول الله ص أو أهل بیت النبی ص و هم الذین یصدق علیهم عرفا أهل بیته من أزواجه و أقربائه و هم آل عباس و آل عقیل و آل جعفر و آل علی أو النبی ص و أزواجه، و لعل هذا هو المراد مما نسب إلی عکرمة و عروة أنها فی أزواج النبی ص خاصة.

أو یکون الخطاب لغیرهن کما قیل: إنهم أقرباء النبی من آل عباس و آل عقیل و آل جعفر و آل علی.

و علی أی حال فالمراد بإذهاب الرجس و التطهیر مجرد التقوی الدینی بالاجتناب عن النواهی و امتثال الأوامر فیکون المعنی أن الله لا ینتفع بتوجیه هذه التکالیف إلیکم و إنما یرید إذهاب الرجس عنکم و تطهیرکم علی حد قوله : «ما يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ»: المائدة: ۶ و هذا المعنی لا یلائم شیئا من معانی أهل البیت السابقة لمنافاته البینة للاختصاص المفهوم من أهل البیت لعمومه لعامة المسلمین المکلفین بأحکام الدین.

و إن کان المراد بإذهاب الرجس و التطهیر التقوی الشدید البالغ و یکون المعنی:

أن هذا التشدید فی التکالیف المتوجهة إلیکن أزواج النبی و تضعیف الثواب و العقاب لیس لینتفع الله سبحانه به بل لیذهب عنکم الرجس و یطهرکم و یکون من تعمیم الخطاب لهن و لغیرهن بعد تخصیصه بهن، فهذا المعنی لا یلائم کون الخطاب خاصا بغیرهن و هو ظاهر و لا عموم الخطاب لهن و لغیرهن فإن الغیر لا یشارکهن فی تشدید التکلیف و تضعیف الثواب و العقاب.

لا یقال: لم لا یجوز أن یکون الخطاب علی هذا التقدیر متوجها إلیهن مع النبی ص و تکلیفه شدید کتکلیفهن.

لأنه یقال: إنه (ص) مؤید بعصمة من الله و هی موهبة إلهیة غیر مکتسبة بالعمل فلا معنی لجعل تشدید التکلیف و تضعیف الجزاء بالنسبة إلیه مقدمة أو سببا لحصول

ص: 311

التقوی الشدید له امتنانا علیه علی ما یعطیه سیاق الآیة و لذلک لم یصرح بکون الخطاب متوجها إلیهن مع النبی ص فقط أحد من المفسرین و إنما احتملناه لتصحیح قول من قال: إن الآیة خاصة بأزواج النبی ص.

و إن كان المراد إذهاب الرجس و التطهير بإرادته تعالى ذلک مطلقا لا بتوجيه مطلق التكليف و لا بتوجيه التكليف الشديد بل إرادة مطلقة لإذهاب الرجس و التطهير لأهل البيت خاصة بما هم أهل البيت كان هذا المعنى منافيا لتقييد كرامتهن بالتقوى سواء كان المراد بالإرادة الإرادة التشريعية أو التكوينية.

و بهذا الذى تقدم يتأيد ما ورد فى أسباب النزول أن الآية نزلت فى النبى ص و على و فاطمة و الحسنين (ع) خاصة لا يشاركهم فيها غيرهم.

و هى روايات جمة تزيد على سبعين حديثا يربو ما ورد منها من طرق أهل السنة على ما ورد منها من طرق الشيعة فقد روته ا أهل السنة بطرق كثيرة عن أم سلمة و عائشة و أبى سعيد الخدرى و سعد و وائلة بن الأسقع و أبى الحمراء و ابن عباس و ثوبان مولى النبى و عبد الله بن جعفر و على و الحسن بن على (ع) فى قريب من أربعين طريقا.

و روتها الشيعة عن على و السجاد و الباقر و الصادق و الرضا (ع) و أم سلمة و أبى ذر و أبى ليلى و أبى الأسود الدؤلى و عمرو بن ميمون الأودى و سعد بن أبى وقاص فى بضع و ثلاثين طريقا.

فإن قيل: إن الروايات إنما تدل على شمول الآية لعلى و فاطمة و الحسنين (ع) و لا ينافى ذلک شمولها لأزواج النبى ص كما يفيده وقوع الآية فى سياق خطابهن.

قلنا: إن كثيرا من هذه الروايات و خاصة ما رويت عن أم سلمة- و فى بيتها نزلت الآية- تصرح باختصاصها بهم و عدم شمولها لأزواج النبى و سيجىء الروايات و فيها الصحاح.

فإن قيل: هذا مدفوع بنص الكتاب على شمولها لهن كوقوع الآية فى سياق خطابهن.

قلنا: إنما الشأن كل الشأن فى اتصال الآية بما قبلها من الآيات فهذه الأحاديث على كثرتها البالغة ناصة فى نزول الآية وحدها، و لم يرد حتى فى رواية واحدة نزول هذه الآية فى ضمن آيات نساء النبى و لا ذكره أحد حتى القائل باختصاص الآية بأزواج

ص: 312

النبى كما ينسب إلى عكرمة و عروة، فالآية لم تكن بحسب النزول جزءا من آيات نساء النبى و لا متصلة بها و إنما وضعت بينها إما بأمر من النبى ص أو عند التأليف بعد الرحلة، و يؤيده أن آية «وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَ» على انسجامها و اتصالها لو قدر ارتفاع آية التطهير من بين جملها، فموقع آية التطهير من آية «وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَ» كموقع آية «الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا» من آية محرمات الأكل من سورة المائدة، و قد تقدم الكلام فى ذلک فى الجزء الخامس من الكتاب.

و بالبناء على ما تقدم تصير لفظة أهل البيت اسما خاصا- فى عرف القرآن- بهؤلاء الخمسة و هم النبى و على و فاطمة و الحسنان (ع) لا يطلق على غيرهم، و لو كان من أقربائه الأقربين و إن صح بحسب العرف العام إطلاقه عليهم.

و الرجس- بالكسر فالسكون- صفة من الرجاسة و هى القذارة، و القذارة هيئة فى الشىء توجب التجنب و التنفر منها، و تكون بحسب ظاهر الشىء كرجاسة الخنزير، قال تعالى: «أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ»: الأنعام: ١٤٥ و بحسب باطنه- و هو الرجاسة و القذارة المعنوية- كالشرك و الكفر و أثر العمل السيئ، قال تعالى:

«وَ أَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَ ماتُوا وَ هُمْ كافِرُونَ»: التوبة:

١٢٥ و قال: «وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّما يَصَّعَّدُ فِى السَّماءِ كَذلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ»: الأنعام: ١٢٥.

و أيا ما كان فهو إدراک نفسانى و أثر شعورى من تعلق القلب بالاعتقاد الباطل أو العمل السيئ و إذهاب الرجس- و اللام فيه للجنس- إزالة كل هيئة خبيثة فى النفس تخطئ حق الاعتقاد و العمل فتنطبق على العصمة الإلهية التى هى صورة علمية نفسانية تحفظ الإنسان من باطل الاعتقاد و سيئ العمل.

على أنک عرفت أن إرادة التقوى أو التشديد فى التكاليف لا تلائم اختصاص الخطاب فى الآية بأهل البيت، و عرفت أيضا أن إرادة ذلک لا تناسب مقام النبى ص من العصمة.

فمن المتعين حمل إذهاب الرجس فى الآية على العصمة و يكون المراد بالتطهير فى قوله : «وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً»- و قد أكد بالمصدر- إزالة أثر الرجس بإيراد ما يقابله

ص: 313

بعد إذهاب أصله، و من المعلوم أن ما يقابل الاعتقاد الباطل هو الاعتقاد الحق فتطهيرهم هو تجهيزهم بإدراک الحق فى الاعتقاد و العمل، و يكون المراد بالإرادة أيضا غير الإرادة التشريعية لما عرفت أن الإرادة التشريعية التى هى توجيه التكاليف إلى المكلف لا تلائم المقام أصلا.

و المعنى: أن الله سبحانه تستمر إرادته أن يخصكم بموهبة العصمة بإذهاب الاعتقاد الباطل و أثر العمل السيئ عنكم أهل البيت و إيراد ما يزيل أثر ذلک عليكم و هى العصمة.

قوله تعالى: «وَ اذْكُرْنَ ما يُتْلى فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَ الْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً » ظاهر السياق أن المراد بالذكر ما يقابل النسيان إذ هو المناسب لسياق التأكيد و التشديد الذى فى الآيات فيكون بمنزلة الوصية بعد الوصية بامتثال ما وج ه إليهن من التكاليف، و فى قوله فِى بُيُوتِكُنَ تأكيد آخر.

و المعنى: و احفظن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله و الحكمة و ليكن منكن فى بال حتى لا تغفلن و لا تتخطين مما خط لكم من المسير.

و أما قول بعضهم: إن المراد و اشكرن الله إذ صيركن فى بيوت يتلى فيهن القرآ ن و السنة فبعيد من السياق و خاصة بالنظر إلى قوله فى ذيل الآية: «إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً».

قوله تعالى: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ » إلخ، الإسلام لا يفرق بين الرجال و النساء فى التلبس بكرامة الدين و قد أشار سبحانه إلى ذلك إجمالا فى مثل قوله : «يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ»،: الحجرات: ١٣ ثم صرح به فى مثل قوله:

«أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى»،: آل عمران: ١٩٥ ثم صرح به تفصيلا فى هذه الآية.

فقوله: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ » المقابلة بين الإسلام و الإيمان تفيد مغايرتهما نوعا من المغايرة و الذى يستفاد منه نحو مغايرتهما قوله تعالى:

«قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَ لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ

– إلى أن قال– إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ »،: الحجرات: ١٥ يفيد أولا أن الإسلام هو تسليم الدين بحسب العمل و ظاهر الجوارح و الإيمان أمر قلبى . و ثانيا: أن الإيمان الذى هو أمر قلبى اعتقاد و إذعان باطنى بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح.

فالإسلام هو التسليم العملى للدين بإتيان عامة التكاليف و المسلمون و المسلمات هم المسلمون لذلك و الإيمان هو عقد القلب على الدين، بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح و المؤمنون و المؤمنات هم الذين عقدوا قلوبهم على الدين بحيث يترتب عليه العمل بالجوارح فكل مؤمن مسلم و لا عكس.

و قوله: «وَ الْقانِتِينَ وَ الْقانِتاتِ» القنوت على ما قيل لزوم الطاعة مع الخضوع و قوله : «وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقاتِ» الصدق مطابقة ما يخبر به الإنسان أو يظهره، للواقع. فهم صادقون فى دعواهم صادقون فى قولهم صادقون فى وعدهم.

و قوله: «وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِراتِ» فهم متلبسون بالصبر عند المصيبة و النائبة و بالصبر على الطاعة و بالصبر عن المعصية، و قوله: «وَ الْخاشِعِينَ وَ الْخاشِعاتِ» الخشوع تذلل باطنى بالقلب كما أن الخضوع تذلل ظاهرى بالجوارح.

و قوله : «وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقاتِ » و الصدقة إنفاق المال فى سبيل الله و منه الزكاة الواجبة، و قوله : «وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِماتِ» بالصوم الواجب و المندوب، و قوله:

«وَ الْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحافِظاتِ » أى لفروجهن و ذلك بالتجنب عن غير ما أحل الله لهم، و ق وله: «وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَ الذَّاكِراتِ» أى الله كثيرا حذف لظهوره و هم الذين يكثرون من ذكر الله بلسانهم و جنانهم و يشمل الصلاة و الحج.

و قوله: «أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً» التنكير للتعظيم.

(بحث روائی)

فی تفسير القمی،": فی قوله تعالی: «يا أَيُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ» کان سبب نزولها أنه لما رجع رسول الله ص من غزوة خيبر- و أصاب کنز آل أبی الحقيق قلن أزواجه أعطنا ما أصبت- فقال لهن رسول الله ص قسمته بين المسلمين- علی ما أمر الله عز و جل

ص: 315

فغضبن من ذلک، و قلن: لعلک تری أنک إن طلقتنا- أن لا نجد الأکفاء من قومنا يتزوجونا؟.

فأنف الله عز و جل لرسوله فأمره أن يعزلهن- فاعتزلهن رسول الله ص فی مشربة أم إبراهيم- تسعة و عشرين يوما حتی حضن و طهرن- ثم أنزل الله عز و جل هذه الآية و هی آية التخيير- فقال: «يا أَيُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ - إلی قوله- أَجْراً عَظِيماً» فقامت أم سلمة أول من قامت فقالت: قد اخترت الله و رسوله- فقمن کلهن فعانقنه و قلن مثل ذلک

الحديث.

أقول: و روی ما يقرب من ذلک من طرق أهل السنة و فيها أن أول من اختارت الله و رسوله منهن عائشة .

و فی الکافی، بإسناده عن داود بن سرحان عن أبی عبد الله (ع): أن زينب بنت جحش قالت: يری رسول الله إن خلی سبيلنا أن لا نجد زوجا غيره- و قد کان اعتزل نساءه تسعة و عشرين ليلة- فلما قالت زينب الذی قالت بعث الله جبرائيل إلی محمد ص فقال: «قُلْ لِأَزْواجِکَ» الآيتين کلتيهما- فقلن: بل نختار الله و رسوله و الدار الآخرة.

و فيه، بإسناده عن عيص بن القاسم عن أبی عبد الله (ع) قال: سألته عن رجل خير امرأته فاختارت نفسها بانت؟ قال : لا. إنما هذا شیء کان لرسول الله ص خاصة أمر بذلک ففعل، و لو اخترن أنفسهن لطلقهن و هو قول الله عز و جل: «قُلْ لِأَزْواجِکَ- إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَ زِينَتَها، فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلًا».

و فی المجمع، روی الواحدی بالإسناد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : کان رسول الله ص جالسا مع حفصة- فتشاجرا بينهما فقال لها: هل لک أن أجعل بينی و بينک رجلا؟ قالت: نعم.

فأرسل إلی عمر فلما أن دخل عليهما قال لها : تکلمی، فقالت: يا رسول الله تکلم و لا تقل إلا حقا- فرفع عمر يده فوجأ وجهها- ثم رفع يده فوجأ وجهها-.

فقال له النبی ص : کف فقال عمر : يا عدوة الله النبی لا يقول إلا حقا و الذی بعثه بالحق، لو لا مجلسه ما رفعت يدی حتی تموتی- فقام النبی ص فصعد

ص: 316

إلى غرفة فمكث فيها شهرا- لا يقرب شيئا من نسائه يتغدى و يتعشى فيها- فأنزل الله تعالى هذه الآيات.

و فى الخصال، عن الصادق (ع) قال*: تزوج رسول الله ص بخمس عشرة امرأة- و دخل بثلاث عشر امرأة منهن، و قبض عن تسع فأما اللتان لم يدخل بهما فعمرة و سنا . و أما الثلاث عشرة اللاتى دخل بهن فأولهن خديجة بنت خويلد- ثم سودة بنت زمعة ثم أم سلمة و اسمها هند بنت أبى أمية- ثم أم عبد الله عائشة بنت أبى بكو- ثم حفصة بنت عمر ثم زينب بنت خزيمة بن الحارث أم المساكين، ثم زينب بنت جحش ثم أم حبيب رملة بنت أبى سفيان- ثم ميمونة بنت الحارث ثم زينب بنت عميس- ثم جويرية بنت الحارث- ثم صفية بنت حيى بن أخطب- و التى وهبت نفسها للنبى خولة بنت حكيم السلمى-.

و كان له سريتان- يقسم لهما مع أزواجه مارية القبطية و ريحانة الخندفية-.

و التسع اللاتى قبض عنهن عائشة و حفصة و أم سلمة- و زينب بنت جحش و ميمونة بنت الحارث- و أم حبيب بنت أبى سفيان و جويرية و سودة و صفية. و أفضلهن خديجة بنت خويلد ثم أم سلمة ثم ميمونة.

و فى المجمع،: فى قوله: «يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَ» الآيتين: روى محمد بن أبى عمير عن إبراهيم بن عبد الحميد عن على بن عبد الله بن الحسين عن أبيه عن على بن الحسين (ع): أنه قال رجل إنكم أهل بيت مغفور لكم . قال: فغضب و قال: نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله فى أزواج النبى من أن نكون كما تقول- إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر و لمسيئنا ضعفين من العذاب.

و فى تفسير القمى، مسندا عن أبى عبد الله عن أبيه (ع): فى هذه الآية «وَ لا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى » قال: أى ستكون جاهلية أخرى.

أقول: و هو استفادة لطيفة.

و فى الدر المنثور، أخرج الطبرانى عن أم سلمة أن رسول الله ص : قال لفاطمة: ائتينى بزوجك و ابنيه فجاءت بهم- فألقى رسول الله ص عليهم كساء فدكيا- ثم وضع يده عليهم ثم قال : اللهم إن هؤلاء أهل محمد- و فى لفظ آل محمد- فاجعل صلواتک

ص: 317

و برکاتک على آل محمد- كما جعلتها على آل إبراهيم إنک حميد مجيد-.

قالت أم سلمة: فرفعت الكساء لأدخل معهم- فجذبه من يدى و قال: إنک على خير:

أقول: و رواه فى غاية المرام، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه بإسناده عن أم سلمة.

و فیه، أخرج ابن مردویه عن أم سلمة قالت ": نزلت هذه الآیة فی بیتی «إِنَّما یُرِیدُ اللَّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ- وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً» و فی البیت سبعة جبریل و میکائیل- و علی و فاطمة و الحسن و الحسین و أنا علی باب البیت . قلت: یا رسول الله أ لست من أهل البیت؟ قال: إنک علی خیر إنک من أزواج النبی .

و فیه، أخرج ابن جریر و ابن المنذر و ابن أبی حاتم و الطبرانی و ابن مردویه عن أم سلمة زوج النبی : أن رسول الله ص کان ببیتها علی منامة له- علیه کساء خیبری فجاءت فاطمة ببرمة فیها خزیرة- فقال رسول الله ص: ادعی زوجک و ابنیک حسنا و حسینا- فدعتهم فبینما هم یأکلون إذ نزلت علی رسول الله ص «إِنَّما یُرِیدُ اللَّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ- وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً».

فأخذ النبی ص بفضلة إزاره فغشاهم إیاها- ثم أخرج یده من الکساء و أومأ بها إلی السماء- ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بیتی و خاصتی- فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهیرا، قالها ثلاث مرات.

قالت أم سلمة: فأدخلت رأسی فی الستر- فقلت: یا رسول الله و أنا معکم؟ فقال:

إنک إلی خیر مرتین.

أقول: و روی الحدیث فی غایة المرام، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل بثلاث طرق عن أم سلمة و کذا عن تفسیر الثعلبی.

و فیه، أخرج ابن مردویه و الخطیب عن أبی سعید الخدری قال: کان یوم أم سلمة أم المؤمنین- فنزل جبریل إلی رسول الله ص بهذه الآیة «إِنَّما یُرِیدُ اللَّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ- وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً» قال: فدعا رسول الله ص بحسن و حسین و فاطمة و علی- فضمهم إلیه و نشر علیهم الثوب، و الحجاب علی أم سلمة مضروب، ثم

ص: 318

قال: اللهم هؤلاء أهل بیتی- اللهم أذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهیرا، قالت أم سلمة : فأنا معهم یا نبی الله؟ قال : أنت علی مکانک و إنک علی خیر.

و فیه، أخرج ابن جریر و ابن أبی حاتم و الطبرانی عن أبی سعید الخدری قال:

قال رسول الله ص : نزلت هذه الآیة فی خمسة- فی و فی علی و فاطمة و حسن و حسین- «إِنَّما یُرِیدُ اللَّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ- وَ یُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً»:

أقول: و رواه أیضا فی غایة المرام، عن الثعلبی فی تفسیره.

و فيه، أخرج الترمذى و صححه و ابن جرير و ابن المنذر و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقى فى سننه من طرق عن أم سلمة قالت: فى بيتى نزلت: «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ» و فى البيت فاطمة و على و الحسن و الحسين- فجللهم رسول الله ص بكساء كان عليه- ثم قال: هؤلاء أهل بيتى- فأذهب عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا.

و فى غاية المرام، عن الحميدى قال: الرابع و الستون من المتفق عليه من الصحيحين عن البخارى و مسلم من مسند عائشة عن مصعب بن شيبة عن صفية بنت شيبة عن عائشة قالت: خرج النبى ص ذات غداة- و عليه مرط مرحل من شعر أسود فجاء الحسن بن على فأدخله- ثم جاء الحسين فأدخله معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها- ثم جاء على فأدخله ثم قال: إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ- وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.

أقول: و الحديث مروى عنها بطرق مختلفة.

و فى الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال: لما دخل على بفاطمة جاء النبى ص أربعين صباحا إلى بابها- يقول: السلام عليكم أهل البيت و رحمة الله و بركاته- الصلاة رحمكم الله- إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ- وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً أنا حرب لمن حاربتم أنا سلم لمن سالمتم.

و فيه، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: شهدنا رسول الله ص تسعة أشهر- يأتى كل يوم باب على بن أبى طالب عند وقت كل صلاة- فيقول: السلام عليكم و رحمة الله و بركاته أهل البيت «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ- وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» أقول: و رواه أيضا عن الطبرانى عن أبى الحمراء و لفظه: رأيت رسول الله ص

ص: 319

يأتى باب على و فاطمة ستة أشهر- فيقول: «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ» الآية.

و أيضا

عن ابن جرير و ابن مردويه عن أبى الحمراء و لفظه: حفظت من رسول الله ص ثمانية أشهر بالمدينة- ليس من مرة يخرج إلى صلاة الغداة إلا أتى إلى باب على- فوضع يده على جنبتى الباب- ثم قال: الصلاة الصلاة «إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ» الآية.

و رواه أيضا عن ابن أبى شيبة و أحمد و الترمذى و حسنه و ابن جرير و ابن المنذر و الطبرانى و الحاكم و صححه و ابن مردويه عن أنس و لفظه: أن رسول الله ص كان يمر بباب فاطمة- إذا خرج إلى صلاة الفجر و يقول: الصلاة يا أهل البيت الصلاة- إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ- وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.

أقول: و الروايات فى هذه المعانى من طرق أهل السنة كثيرة و كذا من طرق الشيعة، و من أراد الاطلاع عليها فليراجع غاية المرام للبحرانى و العبقات.

و فى غاية المرام، عن الحموينى بإسناده عن يزيد بن حيان قال: دخلنا على زيد بن أرقم فقال: خطبنا رسول الله ص فقال: ألا إنى تركت فيكم الثقلين- أحدهما كتاب الله عز و جل- من اتبعه كان على هدى و من تركه كان على ضلالة، ثم أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى ثلاث مرات-.

قلنا: من أهل بيته نساؤه؟ قال: لا- أهل بيته عصبته الذين حرموا الصدقة بعده- آل على و آل عباس و آل جعفر و آل عقيل.

و فيه، أيضا عن مسلم فى صحيحة بإسناده عن يزيد بن حيان عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ص: إنى تارك فيكم الثقلين- أحدهما كتاب الله هو حبل الله- من اتبعه كان على الهدى و من تركه كان على ضلالة، فقلنا: من أهل بيته نساؤه؟ قال:

لا أيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر- ثم الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أهلها و قومها. أهل بيته أصله و عصبته الذين حرموا الصدقة بعده.

أقول: فسر البيت بالنسب كما يطلق عرفا على هذا المعنى، يقال: بيوتات العرب بمعنى الأنساب، لكن الروايات السابقة عن أم سلمة و غيرها تدفع هذا المعنى و تفسير أهل البيت بعلى و فاطمة و ابنيهما (ع).

و فى المجمع، قال مقاتل بن حيان: لما رجعت أسماء بنت عميس من الحبشة- مع

ص: 320

زوجها جعفر بن أبى طالب- دخلت على نساء رسول الله ص فقالت: هل نزل فينا شيء من القرآن؟ قلن: لا-.

فأتت رسول الله ص فقالت: يا رسول الله- إن النساء لفى خيبة و خسار، فقال (ص): و مم ذلك؟ قالت: لأنهن لا يذكرن بخير كما يذكر الرجال، فأنزل الله تعالى هذه الآية «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ» إلخ.

أقول: و فى روايات أخر أن القائلة هى أم سلمة.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٣٦ الى ٤٠]

وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (٣٦) وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ اتَّقِ اللَّهَ وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩) ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠)

ص: 321

(بيان)

الآيات أعنى قوله: «وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ - إلى قوله- وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْ ءٍ عَلِيماً» فى قصة تزوج رسول الله ص بزوج مولاه زيد الذى كان قد اتخذه ابنا، و لا يبعد أن تكون الآية الأولى أعنى قوله : «وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ » الآية، مرتبطة بالآيات التالية كالتوطئة لها.

قوله تعالى: «وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » إلخ، يشهد السياق على أن المراد بالقضاء هو القضاء التشريعى دون التكوينى فقضاء الله تعالى حكمه التشريعى فى شى ء مما يرجع إلى أعمال العباد أو تصرفه فى شأن من شئونهم بواسطة رسول من رسله، و قضاء رسوله هو الثانى من القسمين و هو التصرف فى شأن من شئون الناس بالولاية التى جعلها الله تعالى له بمثل قوله: «النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ».

فقضاؤه (ص) قضاء منه بولايته و قضاء من الله سبحانه لأنه الجاعل لولايته المنفذ أمره، و ى شهد سياق قوله: «إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً» حيث جعل الأمر الواحد متعلقا لقضاء الله و رسوله معا، على أن المراد بالقضاء التصرف فى شئون الناس دون الجعل التشريعى المختص بالله.

و قوله: «وَ ما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ » أى ما صح و لا يحق لأحد من المؤمنين و المؤمنات أن يثبت لهم الاختيار من أمرهم بحيث يختارون ما شاءوا و قوله: «إِذا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْراً» ظرف لنفى الاختيار.

و ضميرا الجمع فى قوله: «لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ» للمؤمن و المؤمنة المراد بهما جميع المؤمنين و المؤم نات لوقوعهما فى حيز النفى و وضع الظاهر موضع المضمر حيث قيل:

«مِنْ أَمْرِهِمْ» و لم يقل: أن يكون لهم الخيرة فيه للدلالة على منشإ توهم الخيرة و هو انتساب الأمر إليهم.

و المعنى: ليس لأحد من المؤمنين و المؤمنات إذا قضى الله و رسوله بالتصرف فى

ص: 322

أمر من أمورهم أن يثبت لهم الاختيار من جهته لانتسابه إليهم و كونه أمرا من أمورهم فيختاروا منه غير ما قضى الله و رسوله بل عليهم أن يتبعوا إرادة الله و رسوله.

و الآية عامة لكنها لوقوعها فى سياق الآيات التالية يمكن أن تكون كالتمهيد لما سيجى ء من قوله: «ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ» الآية، حيث يلوح منه أن بعضهم كان قد اعترض على تزوج النبى ص بزوج زيد و تعييره بأنها كانت زوج ابنه المدعو له بالتبنى و سيجىء فى البحث الروائى بعض ما يتعلق بالمقام.

قوله تعالى: «وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِی أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَیْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِ أَمْسِکْ عَلَیْکَ زَوْجَکَ وَ اتَّقِ اللَّهَ » إلی آخر الآیة المراد بهذا الذی أنعم الله علیه و أنعم النبی علیه زید بن حارثة الذی کان عبدا للنبی ص ثم حرره و اتخذه ابنا له و کان تحته زینب بنت جحش بنت عمة النبی ص أتی زید الن بی فاستشاره فی طلاق زینب فنهاه النبی ص عن الطلاق ثم طلقها زید فتزوجها النبی ص و نزلت الآیات.

فقوله: «أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَیْهِ» أی بالهدایة إلی الإیمان و تحبیبه إلی النبی ص و قوله: «وَ أَنْعَمْتَ عَلَیْهِ» أی بالإحسان إلیه و تحریره و تخصیصه بنفسک، و قوله:

أَمْسِکْ عَلَیْکَ زَوْجَکَ وَ اتَّقِ اللَّهَ» کنایة عن الکف عن تطلیقها، و لا یخلو من إشعار بإصرار زید علی تطلیقها.

و قوله: «وَ تُخْفِی فِی نَفْسِکَ مَا اللَّهُ مُبْدِیهِ» أی مظهره «وَ تَخْشَی النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ» ذیل الآیات أعنی قوله: «الَّذِینَ یُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ یَخْشَوْنَهُ وَ لا یَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ» دلیل علی أن خشیته (ص) الناس لم تکن خشیة علی نفسه بل کان خشیة فی الله فأخفی فی نفسه ما أخفاه استشعارا منه أنه لو أظهره عابه الناس و طعن فیه بعض من فی قل به مرض فأثر ذلک أثرا سیئا فی إیمان العامة، و هذا الخوف- کما تری لیس خوفا مذموما بل خوف فی الله هو فی الحقیقة خوف من الله سبحانه.

و قوله: «وَ تَخْشَی النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ » الظاهر فی نوع من العتاب ردع عن نوع من خشیة الله و هی خشیته عن طریق الناس و هدایة إلی نوع آخر من خشیته تعالی و أنه کان من الحری أن یخشی الله دون الناس و لا یخفی ما فی نفسه ما الله مبدیه و هذا نعم الشاهد علی أن الله کان قد فرض له أن یتروج زوج زید الذی کان تبناه

ص: 323

لیرتفع بذلک الحرج عن المؤمنین فی التزوج بأزواج الأدعیاء و هو (ص) کان یخفیه فی نفسه إلی حین مخافة سوء أثره فی الناس فآمنه الله ذلک بعتابه علیه نظیر ما تقدم فی قوله تعالی : «یا أَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ - إلی قوله- وَ اللَّهُ یَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ» الآیة.

فظاهر العتاب الذی یلوح من قوله: «وَ تَخْشَی النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ» مسوق لانتصاره و تأیید أمره قبال طعن الطاعنین ممن فی قلوبهم مرض نظیر ما تقدم فی قوله:

«عَفَا اللَّهُ عَنْکَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّی یَتَبَیَّنَ لَکَ الَّذِینَ صَدَقُوا وَ تَعْلَمَ الْکاذِبِینَ»: التوبة: ۴۳.

و من الدلیل علی أنه انتصار و تأیید فی صورة العتاب قوله بعد : «فَلَمَّا قَضی زَیْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناکَها» حیث أخبر عن تزویجه إیاها کأنه أمر خارج عن إرادة النبی ص و اختیاره ثم قوله: «وَ کانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا».

فقوله: «فَلَمَّا قَضی زَیْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناکَها» متفرع علی ما تقدم من قوله:

«وَ تُخْفِی فِی نَفْسِکَ مَا اللَّهُ مُبْدِیهِ» و قضاء الوطر منها کنایهٔ عن الدخول و التمتع، و قوله:

«لِکَیْ لا یَکُونَ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ حَرَجٌ فِی أَزْواجِ أَدْعِیائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً» تعلیل للتزویج و مصلحهٔ للحکم، و قوله: «وَ کانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا» مشیر إلی تحقق الوقوع و تأکید للحکم.

و من ذلک یظهر أن الذی کان النبی ص یخفیه فی نفسه هو ما فرض الله له أن یتزوجها لا هواها و حبه الشدید ل ها و هی بعد مزوجهٔ کما ذکره جمع من المفسرین و اعتذروا عنه بأنها حالهٔ جبلیهٔ لا یکاد یسلم منها البشر فإن فیه أولا: منع أن یکون بحیث لا یقوی علیه التربیهٔ الإلهیهٔ، و ثانیا : أنه لا معنی حینئذ للعتاب علی کتمانه و إخفائه فی نفسه فلا مجوز فی الإسلام لذکر حلائل الناس و التشبب بهن.

قوله تعالی: «ما کانَ عَلَی النَّبِیِّ مِنْ حَرَجٍ فِیما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ» إلخ، الفرض هو التعیین و الاسهام یقال: فرض له کذا أی عینه له و أسهمه به، و قیل: هو فی المقام بمعنی الإباحهٔ و التجویز، و الحرج الکلفهٔ و الضیق، و المراد بنفی الحرج نفی سببه و هو المنع عما فرض له.

و المعنی: ما کان علی النبی من منع فیما عین الله له أو أباح الله له حتی یکون علیه حرج فی ذلک.

ص: 324

و قوله: «سُنَّةَ اللَّهِ فِی الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » اسم موضوع موضع المصدر فیکون مفعولا مطلقا و التقدیر سن الله ذلک سنهٔ، و المراد بالذین خلوا من قبل هم الأنبیاء و الرسل الماضون بقرینهٔ قوله بعد: «الَّذِینَ یُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ» إلخ.

و قوله: «وَ کانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً» أی یقدر من عنده لکل أحد ما یلائم حاله و یناسبها، و الأنبیاء لم یمنعوا مما قدره الله و أباحه لغیرهم حتی یمنع النبی ص من بعض ما قدر و أبیح.

قوله تعالی: «الَّذِینَ یُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ یَخْشَوْنَهُ وَ لا یَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ» إلخ، الموصول بیان للموصول المتقدم أعنی قوله: «الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ».

و الخشیهٔ هی تأثر خاص للقلب عن المکروه و ربما ینسب إلی السبب الذی یتوقع منه المکروه، یقال: خشیت أن یفعل بی فلان کذا أو خشیت فلانا أن یفعل بی کذا، و الأنبیاء یخشون الله و لا یخشون أحدا غیره لأنه لا مؤثر فی الوجود عندهم إلا الله.

و هذا غیر الخوف الذی هو تو قع المکروه بحیث یترتب علیه الاتقاء عملا سواء کان معه تأثر قلبی أو لا فإنه أمر عملی ربما ینسب إلی الأنبیاء کقوله تعالی حکایهٔ عن موسی (ع): «فَفَرَرْتُ مِنْکُمْ لَمَّا خِفْتُکُمْ»،: الشعراء: ۲۱ و قوله فی النبی ص:

«وَ إِمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِیانَةً»،: الأنفال: ۵۸ و هذا هو الأصل فی معنی الخوف و الخشیهٔ و ربما استعملا کالمترادفین.

و مما تقدم يظهر أن الخشية منفية عن الأنبياء (ع) مطلقا و إن كان سياق قوله: «يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ» إلخ، يلوح إلى أن المنفى هو الخشية فى تبليغ الرسالة . على أن جميع أفعال الأنبياء كأقوالهم من باب التبليغ فالخشية فى أمر التبليغ مستوعبة لجميع أعمالهم.

و قوله: «وَ كَفى بِاللَّهِ حَسِيباً» أى محاسبا يحاسب على الصغيرة و الكبيرة فيجب أن يخشى و لا يخشى غيره.

قوله تعالى:» ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ » إلخ، لا شك فى أن الآية مسوقة لدفع اعتراضهم على النبى ص بأنه تزوج زوج ابنه و محصل الدفع أنه ليس أبا زيد و لا أبا أحد من الرجال الموجودين فى زمن الخطاب حتى يكون

ص: 325

تزوجه بزوج أحدهم بعده تزوجا بزوج ابنه فالخطاب فى قوله: «مِنْ رِجالِكُمْ» للناس الموجودين فى زمن نزول الآية، و المراد بالرجال ما يقابل النساء و الولدان و نفى الأبوة نفى تكوينى لا تشريعى و لا تتضمن الجملة شيئا من التشريع.

و المعنى: ليس محمد ص أبا أحد من هؤلاء الرجال الذين هم رجالكم حتى يكون تزوجه بزوج أحدهم بعده تزوجا منه بزوج ابنه و زيد أحد هؤلاء الرجال فتزوجه بعد تطليقه ليس تزوجا بزوج الابن حقيقة و أما تبنيه زيدا فإنه لا يترتب عليه شى ء من آثار الأبوة و البنوة و ما جعل أدعياءكم أبناءكم.

و أما القاسم و الطيب و الطاهر «۱» و إبراهيم فإنهم أبناؤه حقيقة لكنهم ماتوا قبل أن يبلغوا فلم يكونوا رجالا حتى ينتقض الآية و كذا الحسن و الحسين و هما ابنا رسول الله فإن النبى ص قبض قبل أن يبلغا حد الرجال.

و مما تقدم ظهر أن الآية لا تقتضى نفى أبوته (ص) للقاسم و الطيب و الطاهر و إبراهيم و كذا للحسنين لما عرفت أنها خاصة بالرجال الموجودين فى زمن النزول على نعت الرجولية.

و قوله: «وَ لكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِيِّينَ » الخاتم بفتح التاء ما يختم به كالطابع و القالب بمعنى ما يطبع به و ما يقلب به و المراد بكونه خاتم النبيين أن النبوة اختتمت به (ص) فلا نبى بعده.

و قد عرفت فيما مر معنى الرسالة و النبوة و أن الرسول هو الذى يحمل رسالة من الله إلى الناس و النبى هو الذى يحمل نبأ الغيب الذى هو الدين و حقائقه و لازم ذلک أن يرتفع الرسالة بارتفاع النبوة فإن الرسالة من أنباء الغيب، فإذا انقطعت هذه الأنباء انقطعت الرسالة.

و من هنا يظهر أن كونه (ص) خاتم النبيين يستلزم كونه خاتما للرسل.

و فى الآية إيماء إلى أن ارتباطه (ص) و تعلقه بكم تعلق الرسالة و النبوة و أن ما فعله كان بأمر من الله سبحانه.

و قوله: «وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً» أی ما بینه لکم إنما کان بعلمه.

---

(۱) هذا علی ما هو المعروف و قال بعضهم: إن الطیب و الطاهر لقبان للقاسم.

(بحث روائی)

فی الدر المنثور، أخرج ابن جریر عن ابن عباس قال: خطب رسول الله ص زینب بنت جحش لزید بن حارثة- فاستنکفت منه و قالت: أنا خیر منه حسبا و کانت امرأة فیها حدة- فأنزل الله «وَ ما کانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لا مُؤْمِنَةٍ» الآیة کلها.

أقول: و فی معناها روایات أخر.

و فیه، أخرج ابن أبی حاتم عن ابن زید قال ": نزلت فی أم کلثوم بنت عقبة بن أبی معیط- و کانت أول امرأة هاجرت من النساء- فوهبت نفسها للنبی ص- فزوجها زید بن حارثة فسخطت هی و أخوها- و قالت إنما أردنا رسول الله فزوجنا عبده فنزلت.

أقول: و الروایتان أشبه بالتطبیق منهما بسبب النزول.

و فی العیون،: فی باب مجلس ا الرضا (ع) عند المأمون- مع أصحاب الملل- فی حدیث یجیب فیه عن مسألة علی بن الجهم فی عصمة الأنبیاء،:

قال: و أما محمد ص و قول الله عز و جل: «وَ تُخْفِي فِي نَفْسِکَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ- وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ» فإن الله عز و جل- عرف نبیه ص أسماء أزواجه فی دار الدنیا- و أسماء أزواجه فی الآخرة و أنهن أمهات المؤمنین- و أحد من سمی له زینب بنت جحش- و هی یومئذ تحت زید بن حارثة- فأخفی (ص) اسمها فی نفسه- و لم یبده لکیلا یقول أحد من المنافقین: أنه قال فی امرأة فی بیت رجل: إنها أحد أزواجه من أمهات المؤمنین و خشی قول المنافقین-.

قال الله عز و جل: «وَ تَخْشَى النَّاسَ وَ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ» یعنی فی نفسک

الحدیث.

أقول: و روی ما یقرب منه فیه عنه (ع) فی جواب مسألة المأمون عنه فی عصمة الأنبیاء.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی: «وَ تُخْفِی فِی نَفْسِکَ مَا اللَّهُ مُبْدِیهِ» قیل: إن الذی أخفاه فی نفسه- هو أن الله سبحانه أعلمه- أنها ستکون من أزواجه و أن زیدا سیطلقها- فلما جاء زید و قال له : أرید أن أطلق زینب- قال له: أمسک علیک زوجک، فقال

ص: 327

سبحانه: لم قلت: أمسک علیک زوجک- و قد أعلمتک أنها ستکون من أزواجک؟:

و روی ذلک عن علی بن الحسین (ع).

و فی الدر المنثور، أخرج أحمد و عبد بن حمید و البخاری و الترمذی و ابن المنذر و الحاکم و ابن مردویه و البیهقی فی سننه عن أنس قال : جاء زید بن حارثة یشکو زینب إلی رسول الله ص- فجعل رسول الله ص یقول : اتق الله و أمسک علیک زوجک فنزلت: «وَ تُخْفِی فِی نَفْسِکَ مَا اللَّهُ مُبْدِیهِ».

قال أنس: فلو کان رسول الله ص کاتما شیئا لکتم هذه الآیة، فتزوجها رسول الله ص

الحدیث.

أقول: و الروایات کثیرة فی المقام و إن کان کثیر منها لا یخلو من شی ء و فی الروایات: ما أولم رسول الله ص علی امرأة من نسائه ما أولم علی زینب ذبح شاة و أطعم الناس الخبز و اللحم، و فی الروایات أنها کانت تفتخر علی سائر نساء النبی بثلاث أن جدها و جد النبی ص واحد فإنها کانت بنت أمیمة بنت عبد المطلب عمة النبی ص و أن الذی زوجها منه هو الله سبحانه و أ ن السفیر جبریل.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی: «وَ لکِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خاتَمَ النَّبِیِّینَ»: و صح

الحدیث عن جابر بن عبد الله عن النبی ص قال : إنما مثلی فی الأنبیاء کمثل رجل بنی دارا- فأکملها و حسنها إلا موضع لبنة، فکان من دخلها و نظر إلیها فقال: ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة . قال (ص): فأنا موضع اللبنة ختم بی الأنبیاء: أورده البخاری و مسلم فی صحیحیهما.

أقول: و روی هذا المعنی غیرهما کالترمذی و النسائی و أحمد و ابن مردویه عن غیر جابر کأبی سعید و أبی هریرة.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن الأنباری فی المصاحف ع ن أبی عبد الرحمن السلمی قال : کنت أقرئ الحسن و الحسین- فمر بی علی بن أبی طالب و أنا أقرئهما فقال لی:

أقرئهما و خاتم النبیین بفتح التاء.

ص: 328

[سورة الأحزاب (۳۳): الآيات ۴۱ الى ۴۸]

يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثيراً (۴۱) وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصيلاً (۴۲) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (۴۳) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (۴۴) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِيراً (۴۵)

وَ داعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِيراً (۴۶) وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (۴۷) وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (۴۸)

بيان

آيات تدعو المؤمنين إلى الذكر و التسبيح و تبشرهم و تعدهم الوعد الجميل و تخاطب النبى ص بصفاته الكريمة و تأمره أن يبشر المؤمنين و لا يطيع الكافرين و المنافقين، و يمكن أن يكون القبيلان مختلفين فى النزول زمانا.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً » الذكر ما يقابل النسيان و هو توجيه الإدراک نحو المذكور و أما التلفظ بما يدل عليه من أسمائه و صفاته فهو بعض مصاديق الذكر.

قوله تعالى: «وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا » التسبيح هو التنزيه و هو مثل الذكر لا يتوقف على اللفظ و إن كان التلفظ بمثل سبحان الله بعض مصاديق التسبيح.

و البكرة أول النهار و الأصيل آخره بعد العصر و تقييد التسبيح بالبكرة و الأصيل

ص: 329

لما فيهما من تحول الأحوال فيناسب تسبيحه و تنزيهه من التغير و التحول و كل نقص طار، و يمكن أن يكون البكرة و الأصيل معا كناية عن الدوام كالليل و النهار فى قوله:

«يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهارِ»: حم السجدة: ۳۸.

قوله تعالى: «هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَ مَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ » المعنى الجامع للصلاة على ما يستفاد من موارد استعمالها هو الانعطاف فيختلف باختلاف ما نسب إليه و لذلک قيل: إن الصلاة من الله الرحمة و من الملائكة الاستغفار و من الناس الدعاء لكن الذى نسب من الصلاة إلى الله سبحانه فى القرآن هو الصلاة بمعنى الرحمة الخاصة بالمؤمنين و هى التى تترتب عليها سعادة العقبى و الفلاح المؤبد و لذلک علل تصليته عليهم بقوله: «لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً».

و قد رتب سبحانه فی كلامه علی ن سیانهم له نسیانه لهم و علی ذكرهم له ذكره لهم فقال : «نَسُوا اللّٰهَ فَنَسِیَهُمْ »: التوبة: ۶۷ و قال: «فَاذْكُرُونِی أَذْكُرْكُمْ»: البقرة: ۱۵۲ و تصلیته علیهم ذكر منه لهم بالرحمة فإن ذكروه كثیرا و سبحوه بكرة و أصیلا صلی علیهم كثیرا و غشیهم بالنور و أبعدهم من الظلمات.

و من هنا یظهر أن قوله: «هُوَ اَلَّذِی یُصَلِّی عَلَیْكُمْ» إلخ، فی مقام التعلیل لقوله:

«یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللّٰهَ ذِكْراً كَثِیراً» و تفید التعلیل أنكم إن ذكرتم الله كثیرا ذكركم برحمته كثیرا و بالغ فی إخراجكم من الظلمات إلی النور و یستفاد منه أن الظلمات إنما هی ظلمات النسیان و الغفلة و النور نور الذكر.

و قوله: «وَ كانَ بِالْمُؤْمِنِینَ رَحِیماً» وضع الظاهر موضع المضمر، أعنی قوله:

«بِالْمُؤْمِنِینَ» و لم یقل: و كان بكم رحیما، لیدل به علی سبب الرحمة و هو وصف الإیمان.

قوله تعالی: «تَحِیَّتُهُمْ یَوْمَ یَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِیماً » ظاهر السیاق أن «تَحِیَّتُهُمْ» مصدر مضاف إلی المفعول أی إنهم یحیون- بالبناء للمفعول- یوم یلقون ربهم من عند ربهم و من ملائكته بالسلام أی إنهم یوم اللقاء فی أمن و سلام لا یصیب هم مكروه و لا یمسهم عذاب.

و قوله: «وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِیماً» أی و هیأ الله لهم ثوابا جزیلا.

قوله تعالی: «یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنّٰا أَرْسَلْنٰاكَ شاهِداً وَ مُبَشِّراً وَ نَذِیراً» شهادته (ص)

ص: 330

علی الأعمال أن یتحملها فی هذه النشأة و یؤدیها یوم القیامة و قد تقدم فی قوله : «لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَی النّٰاسِ وَ یَكُونَ الرَّسُولُ عَلَیْكُمْ شَهِیداً»: البقرة: ۱۱۲ و غیره من آیات الشهادة أنه (ص) شهید الشهداء.

و كونه مبشرا و نذیرا تبشیره المؤمنین المطیعین لله و رسوله بثواب الله و الجنة و إنذاره الكافرین و العاصین بعذاب الله و النار.

قوله تعالی: «وَ داعِیاً إِلَی اللّٰهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجاً مُنِیراً » دعوته إلی الله هی دعوته الناس إلی الإیمان بالله وحده، و لازمه الإیمان بدین الله و تقید الدعوة بإذن الله یجعلها مساوقة للبعثة.

و كونه (ص) سراجا منیرا هو كونه بحیث یهتدی به الناس إلی سعادتهم و ینجون من ظلمات الشقاء و الضلالة فهو من الاستعارة، و قول بعضهم: إن المراد بالسراج المنیر القرآن و التقدیر ذا سراج منیر تكلف من غیر موجب.

قوله تعالى: «وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً»، الفضل من العطاء ما كان من غير استحقاق ممن يأخذه و قد وصف الله عطاءه فقال: «مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها»: الأنعام: ١۶٠ و قال: «لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَ لَدَيْنا مَزِيدٌ»: ق: ٣۵ فبين أنه يعطى من الثواب ما لا يقابل العمل و هو الفضل و لا دليل فى الآية يدل على اختصاصه بالآخرة.

قوله تعالى: «وَ لا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَ الْمُنافِقِينَ وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ » إلخ، تقدم معنى طاعة الكافرين و المنافقين فى أول السورة.

و قوله: «وَ دَعْ أَذاهُمْ» أى اترك ما يؤذونك بالإعراض عنه و عدم الاشتغال به و الدليل على هذا المعنى قوله : «وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» أى لا تستقل بنفسک فى دفع أذاهم بل اجعل الله وكيلا فى ذلک و كفى بالله وكيلا.

(بحث روائى)

فى الكافى، بإسناده عن ابن القداح عن أبى عبد الله (ع) قال: ما من شيء إلا

و له حد ينتهى إليه إلا الذكر- فليس له حد ينتهى إليه- فرض الله عز و جل الفرائض- فمن أداهن فهو حدهن- و شهر رمضان فمن صامه فهو حده- و الحج فمن حج فهو حده إلا الذكر- فإن الله عز و جل لم يرض منه بالقليل- و لم يجعل له حدا ينتهى إليه- ثم تلا:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً- وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا» فقال: لم يجعل الله له حدا ينتهى إليه-.

قال: و كان أبى كثير الذكر- لقد كنت أمشى معه و إنه ليذكر الله و آكل معه الطعام- و إنه ليذكر الله و لقد كان يحدث القوم ما يشغله ذلک- عن ذكر الله و كنت أرى لسانا لازقا بحنكه يقول: لا إله إلا الله-.

و كان يجمعنا فيأمرنا بالذكر حتى تطلع الشمس- و يأمر بالقراءة من كان يقرأ منا و من كان لا يقرأ منا أمره بالذكر، و البيت الذى يقرأ فيه القرآن و يذكر الله عز و جل فيه يكثر بركته و يحضره الملائكة و يهجره الشياطين- و يضيء لأهل السماء كما يضيء الكوكب لأهل الأرض- و البيت الذى لا يقرأ فيه القرآن- و لا يذكر الله يقل بركته و يهجره الملائكة و يحضره الشياطين.

و قال رسول الله ص : أ لا أخبركم بخير أعمالكم- أرفعها فى درجاتكم و أزكاها عند م ليككم- و خير لكم من الدينار و الدرهم- و خير لكم من أن تلقوا عدوكم فتقتلوهم و يقتلوكم؟ فقالوا: بلى. قال: ذكر الله عز و جل كثيرا-.

ثم قال: جاء رجل إلى النبى ص فقال: من خير أهل المسجد؟ فقال:

أكثرهم لله ذكرا-.

و قال رسول الله ص: من أعطى لسانا ذاكرا- فلقد أعطى خير الدنيا و الآخرة.

و قال فی قوله تعالی: «وَ لا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ» قال: لا تستكثر ما عملت من خير لله.

و فيه، بإسناده عن أبی المعزى رفعه قال: قال أمير المؤمنين (ع): من ذكر الله فی السر فقد ذكر الله كثيرا- إن المنافقين كانوا يذكرون الله علانية- و لا يذكرونه فی السر فقال الله عز و جل: «يُراؤُنَ النَّاسَ وَ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا».

أقول: و هو استفادة لطيفة.

و فی الخصال، عن زيد الشحام قال: قال أبو عبد الله (ع): ما ابتلى المؤمن

ص: 332

بشیء أشد عليه من ثلاث خصال يحرمها. قيل: و ما هی؟ قال: المواساة فی ذات يده، و الإنصاف من نفسه، و ذكر الله كثيرا. أما إنی لا أقول: سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر و إن كان منه- و لكن ذكر الله عند ما أحل له و ذكر الله عند ما حرم عليه.

و فی الدر المنثور، أخرج أحمد و الترمذی و البيهقی عن أبی سعيد الخدری: أن رسول الله ص سئل- أی العباد أفضل درجة عند الله يوم القيامة؟ قال: الذاكرون الله كثيرا. قلت: يا رسول الله و من الغازی فی سبيل الله؟ قال: لو ضرب بسيفه فی الكفار و المشركين- حتى ينكسر و يختضب دما- لكان الذاكرون الله أفضل درجة منه.

و فی العلل، بإسناده عن عبد الله بن الحسن عن أبيه عن جده الحسن بن علی (ع) قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ص- فسأله أعلمهم فيما سأله فقال: لأی شیء سميت محمدا و أحمد و أبا القاسم و بشيرا و نذيرا و داعيا؟ فقال (ص): أما الداعی فإنی أدعو الناس إلى دين ربی عز و جل، و أما النذير فإنی أنذر بالنار من عصانی، و أما البشير فإنی أبشر بالجنة من أطاعنی.

الحديث.

و فی تفسير القمی،": فی قوله: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ- إلى قوله وَ دَعْ أَذاهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا» أنها نزلت بمكة قبل الهجرة بخمس سنين.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٤٩ الى ٦٢]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (٤٩) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْ لَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَ بَناتِ عَمِّكَ وَ بَناتِ عَمَّاتِكَ وَ بَناتِ خالِكَ وَ بَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَ زْواجِهِمْ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا

يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۰) تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ كانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (۵۱) لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (۵۲) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَ لكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ اللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (۵۳)

إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (۵۴) لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَ لا أَبْنائِهِنَّ وَ لا إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَ لا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَ لا نِسائِهِنَّ وَ لا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَ اتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (۵۵) إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً (۵۶) إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (۵۷) وَ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً (۵۸)

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَ بَناتِكَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (۵۹) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلاَّ قَلِيلاً (۶۰) مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلاً (۶۱) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (۶۲)

ص: 334

(بيان)

تتضمن الآيات أحكاما متفرقة بعضها خاصة بالنبي ص و أزواجه و بعضها عامة.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا » المراد بنكاحهن العقد عليهن بالنكاح، و بالمس الدخول، و بالتمتيع إعطاؤهن شيئا من المال يناسب شأنهن و حالهن و التسريح بالجميل إطلاقهن من غير خصومة و خشونة.

و المعنى: إذا طلقتم النساء بعد النكاح و قبل الدخول فلا عدة لهن للطلاق و يجب

ص: 335

تمتيعهن بشيء من المال و السراح الجميل.

و الآية مطلقة تشمل ما إذا فرض لهن فريضة المهر و ما إذا لم يفرض فيقيدها قوله:

«وَ إِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ ما فَرَضْتُمْ»،: البقرة:

۲۳۷ و تبقى حجة فيما لم يفرض لهن فريضة.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ» إلى آخر الآية، يذكر سبحانه لنبيه (ص) بالإحلال سبعة أصناف من النساء: الصنف الأول ما في قوله: «أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ» و المراد بالأجور المهور، و الثاني ما في قوله: «وَ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ» أي من يملكه من الإماء الراجعة إليه من الغنائم و الأنفال، و تقييد ملك اليمين بكونه مما أفاء الله عليه كتقييد الأزواج بقوله: «اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ» للتوضيح لا للاحتراز.

و الثالث و الرابع ما في قوله: «وَ بَناتِ عَمِّكَ وَ بَناتِ عَمَّاتِكَ» قيل: يعني نساء قريش، و الخامس و السادس ما في قوله: «وَ بَناتِ خالِكَ وَ بَناتِ خالاتِكَ» قيل: يعني نساء بني زهرة، و قوله: «اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ» قال في المجمع:، هذا إنما كان قبل تحليل غير المهاجرات ثم نسخ شرط الهجرة في التحليل.

و السابع ما في قوله: «وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها» و هي المرأة المسلمة التي بذلت نفسها للنبي ص بمعنى أن ترضى أن يتزوج بها من غير صداق و مهر فإن الله أحلها له إن أراد أن يستنكحها، و قوله:

«خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ» إيذان بأن هذا الحكم- أي حلية المرأة للرجل ببذل النفس- من خصائصه لا يجري في المؤمنين، و قوله بعده: «قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَ ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ» تقرير لحكم الاختصاص.

و قوله: «لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ» تعليل لقوله في صدر الآية: «إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ» أو لما في ذيلها من حكم الاختصاص و الأول أظهر و قد ختمت الآية بالمغفرة و الرحمة.

قوله تعالى: «تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ» إلخ، الإرجاء التأخير و التبعيد، و هو كناية عن الرد، و الإيواء: الإسكان في المكان و هو كناية عن القبول و الضم إليه.

ص: 336

و السياق يدل على أن المراد به أنه (ص) على خيرة من قبول من وهبت نفسها له أو رده.

و قوله: «وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ»، الابتغاء هو الطلب أي و من طلبتها من اللاتي عزلتها و لم تقبلها فلا إثم عليك و لا لوم أي يجوز لك أن تضم إليك من عزلتها و رددتها من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لك بعد العزل و الرد.

و يمكن أن يكون إشارة إلى أن له (ص) أن يقسم بين نسائه و أن يترك القسم فيؤخر من يشاء منهن و يقدم من يشاء و يعزل بعضهن من القسم فلا يقسم لها أو يبتغيها فيقسم لها بعد العزل و هو أوفق لقوله بعده: «وَ مَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ

ذلِکَ أَدْنی- أی أقرب- أَنْ تَقَرَّ أَعْیُنُهُنَ- أی یسررن- وَ لا یَحْزَنَّ وَ یَرْضَیْنَ بِما آتَیْتَهُنَّ کُلُّهُنَّ وَ اللَّهُ یَعْلَمُ ما فِی قُلُوبِکُمْ» و ذلک لسرور المتقدمة بما قسمت له و رجاء المتأخرة أن تتقدم بعد.

و قوله: «وَ کانَ اللَّهُ عَلِیماً حَلِیماً» أی یعلم مصالح عباده و لا یعاجل فی العقوبة.

و فی الآیة أقوال مختلفة أخر و الذی أور دناه هو الأوفق لوقوعها فی سیاق سابقتها متصلة بها و به وردت الأخبار عن أئمة أهل البیت (ع) کما سیجیء.

قوله تعالی: «لا یَحِلُّ لَکَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَکَ حُسْنُهُنَ» إلخ، ظاهر الآیة لو فرضت مستقلة فی نفسها غیر متصلة بما قبلها تحریم النساء له (ص) إلا من خیرهن فاخترن الله و نفی جواز التبدل بهن یؤید ذلک.

لکن لو فرضت متصلة بما قبلها و هو قوله : «إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ» إلخ، کان مدلولها تحریم ما عدا المعدودات و هی الأصناف الستة التی تقدمت.

و فی بعض الروایات عن بعض أئمة أهل البیت (ع) أن المراد بالآیة محرمات النساء المعدودة فی قوله: «حُرِّمَتْ عَلَیْکُمْ أُمَّهاتُکُمْ وَ بَناتُکُمْ» الآیة: النساء: ٢٣.

فقوله: «لا یَحِلُّ لَکَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ » أی من بعد اللاتی اخترن الله و رسوله و هی التسعة علی الم عنی الأول أو من بعد من عددناه فی قولنا: «إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ» علی المعنی الثانی أو من بعد المحللات و هی المحرمات علی المعنی الثالث.

و قوله: «وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ» أی أن تطلق بعضهن و تزوج مکانها

ص: 337

من غیرهن، و قوله: «إِلَّا ما مَلَکَتْ یَمِینُکَ» یعنی الإماء و هو استثناء من قوله فی صدر الآیة «لا یَحِلُّ لَکَ النِّساءُ».

و قوله: «وَ کانَ اللَّهُ عَلی کُلِّ شَیْءٍ رَقِیباً» معناه ظاهر و فیه تحذیر عن المخالفة.

قوله تعالی: «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُیُوتَ النَّبِیِّ إِلَّا أَنْ یُؤْذَنَ لَکُمْ - إلی قوله- مِنَ الْحَقِ» بیان لأدب الدخول فی بیوت النبی ص، و قوله: «إِلَّا أَنْ یُؤْذَنَ لَکُمْ» استثناء من النهی، و قوله: «إِلی طَعامٍ» متعلق بالإذن، و قوله: «غَیْرَ ناظِرِینَ إِناهُ» أی غیر منتظرین لورود إناء الطعام بأن تدخلوا من قبل فتطیلوا المکث فی انتظار الطعام و یبینه قوله : «وَ لکِنْ إِذا دُعِیتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ- أی أکلتم- فَانْتَشِرُوا»، و قوله: «وَ لا مُسْتَأْنِسِینَ لِحَدِیثٍ» عطف علی قوله: «غَیْرَ ناظِرِینَ إِناهُ» و هو حال بعد حال، أی غیر ماکثین فی حال انتظار الإناء قبل الطعام و لا فی حال الاستئناس لحدیث بعد الطعام.

و قوله: «إِنَّ ذٰلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ » تعليل للنهى أى لا تمكثوا كذلك لأن مكثكم ذلك كان يتأذى منه النبى فيستحيى منكم أن يسألكم الخروج و قوله: «وَ اللّٰهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِ » أى من بيان الحق لكم و هو ذكر تأذيه و التأديب بالأدب اللائق.

قوله تعالى: «وَ إِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَ »، ضمير «سَأَلْتُمُوهُنَ» لأزواج النبى ص و سؤالهن متاعا كناية عن تكليمهن لحاجة أى إذا مست الحاجة إلى تكليمكم أزواج النبى ص فكلموهن من وراء حجاب، و قوله: «ذٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَ» بيان لمصلحة الحكم.

قوله تعالى: «وَ ما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللّٰهِ وَ لا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً » إلخ، أى ليس لكم إيذاؤه بمخالفة ما أمرتم فى نسائه و فى غير ذلک و ليس لكم أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم أى نكاحكم أزواجه من بعده كان عند الله عظيما، و فى الآية إشعار بأن بعضهم ذكر ما يشير إلى نكاحهم أزواجه بعده و هو كذلک كما سيأتى فى البحث الروائى الآتى.

ص: 338

قوله تعالى: «إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللّٰهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً» معناه ظاهر و هو فى الحقيقة تنبيه تهديدى لمن كان يؤذى النبى ص أو يذكر نكاح أزواجه من بعده.

قوله تعالى: «لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَ» إلى آخر الآية ضمير «عَلَيْهِنَ» لنساء النبى ص، و الآية فى معنى الاستثناء من عموم حكم الحجاب و قد استثنى الآباء و الأبناء و الإخوان و أبناء الإخوان و أبناء الأخوات و هؤلاء محارم، قيل: و لم يذكر الأعمام و الأخوال لأنهم من الممكن أن يصفوهن لأبنائهم.

و استثنى أيضا نساءهن و إضافة النساء إلى ضمير هن يلوح إلى أن المراد النساء المؤمنات دون الكوافر كما مر فى قوله تعالى: «أَوْ نِسائِهِنَّ»،: النور: ٣١ و استثنى أيضا ما ملكت أيمانهن من العبيد و الإماء.

و قوله: «وَ اتَّقِينَ اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ كانَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً» فيه تأكيد الحكم و خاصة من جهة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب فى «اتَّقِينَ اللّٰهَ».

قوله تعالى: «إِنَّ اللّٰهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً » قد تقدم أن أصل الصلاة الانعطاف فصلاته تعالى انعطافه عليه بالرحمة انعطافا مطلقا لم يقيد فى الآية بشى ء دون شى ء و كذلک صلاة الملائكة عليه انعطاف عليه بالتزكية و الاستغفار و هى من المؤمنين الدعاء بالرحمة.

و فى ذكر صلاته تعالى و صلاة ملائكته عليه قبل أمر المؤمنين بالصلاة عليه دلالة على أن فى صلاة المؤمنين له اتباعا لله سبحانه و ملائكته و تأكيدا للنهى الآتى.

و قد استفاضت الروايات من طرق الشيعة و أهل السنة أن طريق صلاة المؤمنين أن يسألوا الله تعالى أن يصلى عليه و آله.

قوله تعالی: «إِنَّ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ اَللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اَللَّهُ فِي اَلدُّنْيا وَ اَلْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً» من المعلوم أن الله سبحانه منزه من أن يناله الأذی و کل ما فیه وصمة النقص و الهوان فذکره مع الرسول و تشریکه فی إیذائه تشریف للرسول و إشارة إلی أن من قصد رسوله بسوء فقد قصده أیضا بالسوء إذ لیس للرسول بما أنه رسول إلا ربه فمن قصده فقد قصد ربه.

ص: 339

و قد أوعدهم باللعن فی الدنیا و الآخرة و اللعن هو الإبعاد من الرحمة و الرحمة الخاصة بالمؤمنین هی الهدایة إلی الاعتقاد الحق و حقیقة الإیمان، و یتبعه العمل الصالح فالإبعاد من الرحمة فی الدنیا تحریمه علیه جزاء لعمله فیرجع إلی طبع القلوب کما قال:

«لَعَنّاهُمْ وَ جَعَلْنا قُلُوبَهُمْ قاسِيَةً »: المائدة: ۱۳ و قال: «وَ لكِنْ لَعَنَهُمُ اَللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلاّ قَلِيلاً »: النساء: ۴۶ و قال: «أُولئِكَ اَلَّذِينَ لَعَنَهُمُ اَللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمى أَبْصارَهُمْ»: سورة محمد: ۲۳.

و أما اللعن فی الآخرة فهو الإبعاد من رحمة القرب فیها و قد قال تعالی: «كَلاّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ»: المطففین: ۱۵.

ثم أوعدهم بأنه أعد لهم- أی فی الآخرة- عذابا مهینا و وصف العذاب بالمهین لأنهم یقصدون باستکبارهم فی الدنیا إهانة الله و رسوله فقوبلوا فی الآخرة بعذاب یهینهم.

قوله تعالی: «وَ اَلَّذِينَ يُؤْذُونَ اَلْمُؤْمِنِينَ وَ اَلْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَ إِثْماً مُبِيناً» تقیید إیذائهم بغیر ما اکتسبوا لأن إیذاءهم بما اکتسبوا کما فی القصاص و الحد و التعزیر لا إثم فیه.

و أما إیذاؤهم بغیر ما اکتسبوا و من دون استحقاق فیعده سبحانه احتمالا للبهتان و الإثم المبین، و البهتان هو الکذب علی الغیر یواجهه به، و وجه کون الإیذاء من غیر اکتساب بهتانا أن المؤذی إنما یؤذی لسبب عنده یعده جرما له یقول: لم قال کذا؟

لم فعل کذا؟ و لیس بجرم فیبهته عند الإیذاء بنسبة الجرم إلیه مواجهة و لیس بجرم.

و کونه إثما مبینا لأن الافتراء و البهتان مما یدرک العقل کونه إثما من غیر حاجة إلی ورود النهی عنهما شرعا.

قوله تعالی: «يا أَيُّهَا اَلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَ بَناتِكَ وَ نِساءِ اَلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ» إلخ، الجلابیب جمع جلباب و هو ثوب تشتمل به المرأة فیغطی جمیع بدنها أو الخمار الذی تغطی به رأسها و وجهها.

و قوله: «يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ» أی یتسترن بها فلا تظهر جیوبهن و صدورهن للناظرین.

و قوله: «ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ» أی ستر جمیع البدن أقرب إلی أن

ص: 340

یعرفن أنهن أهل الستر و الصلاح فلا یؤذین أی لا یؤذیهن أهل الفسق بالتعرض لهن.

و قیل: المعنی ذلک أقرب من أن یعرفن أنهن مسلمات حرائر فلا یتعرض لهن بحسبان أنهن إماء أو من غیر المسلمات من الکتابیات أو غیرهن و الأول أقرب.

قوله تعالی: «لَئِنْ لَمْ یَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ الْمُرْجِفُونَ فِی الْمَدِینَةِ لَنُغْرِیَنَّکَ بِهِمْ» إلخ، الانتهاء عن الشیء الامتناع و الکف عنه، و الإرجاف إشاعة الباطل للاغتمام به و إلقاء الاضطراب بسببه، و الإغراء بالفعل التحریض علیه.

و المعنی: أقسم لئن لم یکف المنافقون و الذین فی قلوبهم مرض عن الإفساد و الذین یشیعون الأخبار الکاذبة فی المدینة لإلقاء الاضطراب بین المسلمین لنحرضنک علیهم ثم یجاورونک فی المدینة بسبب نفیهم عنها إلا زمانا قلیلا و هو ما بین صدور الأمر و فعلیة إجرائه.

قوله تعالی: «مَلْعُونِینَ أَیْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِیلًا» الثقف إدراک الشیء و الظفر به، و الجملة حال من المنافقین و من عطف علیهم أی حال کونهم ملعونین أینما وجدوا أخذوا و بولغ فی قتلهم فعمهم القتل.

قوله تعالی: «سُنَّةَ اللَّهِ فِی الَّذِینَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِیلًا» السنة هی الطریقة المعمولة التی تجری بطبعها غالبا أو دائما.

یقول سبحانه هذا النکال الذی أوعدنا به المنافقین و من یحذو حذوهم من النفی و القتل الذریع هی سنة الله التی جرت فی الماضین فکلما بالغ قوم فی الإفساد و إلقاء الاضطراب بین الناس و تمادوا و طغوا فی ذلک أخذناهم کذلک و لن تجد لسنة الله تبدیلا فتجری فیکم کما جرت فی الأمم من قبلکم.

(بحث روائی)

فی الفقیه، روی عمرو بن شمر عن جابر عن أبی جعفر (ع): فی قول الله عز و جل:

«ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ- فَما لَکُمْ عَلَیْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها- فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِیلًا » قال: متعوهن أی أجملوهن بما قدرتم علیه من معروف

ص: 341

فإنهن یرجعن بکآبة و وحشة و هم عظیم و شماتة من أعدائهن- فإن الله کریم یستحیی و یحب أهل الحیاء إن أکرمکم أشدکم إکراما لحلائلهم.

و فی الکافی، بإسناده عن الحلبی عن أبی عبد الله (ع): فی رجل طلق امرأته قبل أن یدخل بها . قال: علیه نصف المهر إن کان فرض لها شیئا- و إن لم یکن فرض لها فلیمتعها- علی نحو ما یمتع به مثلها من النساء.

أقول: و الروایات فی هذا المعنی کثیرة و هی مبنیة علی تخصیص الآیة بآیة البقرة کما تقدم فی تفسیر الآیة.

و فی الدر المنثور، أخرج عبد بن حمید عن حبیب بن ثابت قال : جاء رجل إلی علی بن الحسین فسأله عن رجل- قال: إن تزوجت فلانة فهی طالق- قال: لیس بشیء بدأ الله بالنکاح قبل الطلاق- فقال: «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا إِذا نَکَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَ»:

أقول: و رواه فی المجمع، عن حبیب بن ثابت عنه (ع).

و فیه، أخرج ابن ماجة و ابن مردویه عن المسور بن مخرمة عن النبی ص قال: لا طلاق قبل نکاح و لا عتق قبل ملک:

أقول: و روی مثله عن جابر و عائشة عنه (ص).

و فی الکافی، بإسناده عن الحضرمی عن أبی جعفر (ع) و بإسناده عن الحلبی عن أبی عبد الله (ع): فی قول الله عز و جل: «یا أَیُّهَا النَّبِیُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَکَ أَزْواجَکَ» کم أحل له من النساء؟ قال: ما شاء من شیء.

و فیه، بإسناده عن الحلبی عن أبی عبد الله (ع) قال: قلت: «لا یَحِلُّ لَکَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ »؟ فقال: لرسول الله ص- أن ینکح ما شاء من بنات عمه و بنات عماته- و بنات خاله و بنات خالاته و أزواجه اللاتی هاجرن معه-.

و أحل له أن ینکح من عرض المؤمنین- بغیر مهر و هی الهبة- و لا تحل الهبة إلا لرسول الله ص- فأما لغیر رسول الله فلا یصلح نکاح إلا بمهر- و ذلک معنی قوله تعالی:

«وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِیِ»

و فی الدر المنثور، أخرج ابن سعد و ابن أبی شیبة و عبد بن حمید و ابن جریر و ابن المنذر و الطبرانی عن علی بن الحسین : فی قوله: «وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً» هی أم شریک الأزدیة التی وهبت نفسها للنبی ص.

ص: 342

أقول: و روی أنها خولة بنت الحکیم و أنها لیلی بنت الخطیم و أنها میمونة، و الظاهر أن الواهبة نفسها عدة من النساء.

و فی الکافی، مسندا عن محمد بن قیس عن أبی جعفر (ع) قال: جاءت امرأة من الأنصار إلی رسول الله ص- فقالت: یا رسول الله إن المرأة لا تخطب الزوج- و أنا امرأة أیم لا زوج لی منذ دهر- و لا ولد فهل لک من حاجة؟ فإن تک فقد وهبت نفسی لک إن قبلتنی. فقال لها رسول الله خیرا و دعا لها.

ثم قال: یا أخت الأنصار- جزاکم الله عن رسول الله خیرا- فقد نصرنی رجالکم و رغبت فی نساؤکم . فقالت لها حفصة: ما أقل حیاءک و أجرأک و أنهمک للرجال.

فقال رسول الله: کفی عنها یا حفصة- فإنها خیر منک رغبت فی رسول الله و لمتها و عبتها.

ثم قال للمرأة: انصرفی رحمک الله- فقد أوجب الله لک الجنة- لرغبتک فی و تعرضک لمحبتی و سروری- و سیأتیک أمری إن شاء الله، فأنزل الله عز و جل «وَ امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِیِّ- إِنْ أَرادَ النَّبِیُّ أَنْ یَسْتَنْکِحَها خالِصَةً لَکَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِینَ» قال:

فأحل الله عز و جل هبة المرأة نفسها للنبی ص- و لا یحل ذلک لغیره.

و فی المجمع، و قیل: إنها لما وهبت نفسها للنبی ص- قالت عائشة: ما بال النساء یبذلن أنفسهن بلا مهر؟ فنزلت الآیة، فقالت عائشة: ما أری الله إلا یسارع فی هواک، فقال رسول الله ص: فإنک إن أطعت الله سارع فی هواک.

و فی المجمع،: فی قوله تعالی: «تُرْجِی مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِی إِلَیْکَ مَنْ تَشاءُ» قال أبو جعفر و أبو عبد الله (ع). من أرجی لم ینکح و من آوی فقد نکح.

و فی الکافی، بإسناده عن الحضرمی عن أبی جعفر (ع): فی قول الله عز و جل:

«لا یَحِلُّ لَکَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ» فقال: إنما عنی به- لا یحل لک النساء التی حرم الله علیک فی هذه الآیة «حُرِّمَتْ عَلَیْکُمْ أُمَّهاتُکُمْ وَ بَناتُکُمْ- وَ أَخَواتُکُمْ وَ عَمَّاتُکُمْ وَ خالاتُکُمْ» إلی آخرها.

و لو کان الأمر کما یقولون- کان قد أحل لکم ما لم یحل له- لأن أحدکم یستبدل کلما أراد و لکن الأمر لیس کما یقولون- إن الله عز و جل أحل لنبیه (ص)- أن ینکح من النساء ما أراد إلا ما حرم فی هذه الآیة فی سورة النساء.

ص: 343

و فی الدر المنثور، أخرج عبد بن حمید و ابن المنذر و ابن أبی حاتم من طریق علی بن زید عن الحسن : فی قوله: «وَ لا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ» قال: قصره الله علی نسائه التسع اللاتی مات عنهن.

قال علی فأخبرت علی بن الحسین فقال: لو شاء تزوج غیرهن. و لفظ عبد بن حمید فقال: بل کان له أیضا أن یتزوج غیرهن.

و فی تفسیر القمی، ": و أما قوله عز و جل یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا- لا تَدْخُلُوا بُیُوتَ النَّبِیِّ إِلَّا أَنْ یُؤْذَنَ لَکُمْ » فإنه لما أن تزوج رسول الله ص بزینب بنت جحش- و کان یحبها فأولم و دعا أصحابه- فکان أصحابه إذا أکلوا یحبون أن یتحدثوا عند رسول الله ص، و کان یحب أن یخلو مع زینب فأنزل الله عز و جل . «یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُیُوتَ النَّبِیِّ إِلَّا أَنْ یُؤْذَنَ لَکُمْ » و ذلک أنهم کانوا یدخلون بلا إذن فقال عز و جل: «إِلَّا أَنْ یُؤْذَنَ لَکُمْ- إلی قوله- مِنْ وَراءِ حِجابٍ»:

أقول: و روی تفصیل القصة عن أنس بطرق مختلفة.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن سعد عن صالح بن کیسان قال ": نزل حجاب رسول الله علی نسائه فی ذی القعدة سنة خمس من الهجرة.

أقول: و رواها أیضا ابن سعد عن أنس و فیه: أن السنة کانت مبتنی رسول الله ص بزینب.

و فیه،": فی قوله تعالی: «وَ ما کانَ لَکُمْ أَنْ تُؤْذُوا » الآیة": أخرج ابن أبی حاتم عن السدی قال ": بلغنا أن طلحة بن عبید الله قال: أ یحجبنا محمد عن بنات عمنا و یتزوج نساءنا من بعدنا؟ لئن حدث به حدث لنتزوجن نساءه من بعده فنزلت الآیة.

أقول: و قد وردت بذلک عدة من الروایات و فی بعضها أنه کان یرید عائشة و أم سلمة.

و فی ثواب الأعمال، عن أبی المعزی عن أبی الحسن (ع) فی حدیث قال: قلت:

ما معنی صلاة الله و صلاة ملائکته و صلاة المؤمن؟ قال : صلاة الله رحمة من الله، و صلاة الملائکة تزکیة منهم له، و صلاة المؤمنین دعاء منهم له.

و فی الخصال، عن أمیر المؤمنین (ع) فی حدیث الأربعمائة قال: صلوا علی محمد

ص: 344

و آل محمد- فإن الله تعالی یقبل دعاءکم عند ذکر محمد- و دعاءکم و حفظکم إیاه إذا قرأتم- «إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِکَتَهُ یُصَلُّونَ عَلَی النَّبِیِ» فصلوا علیه فی الصلاة کنتم أو فی غیرها.

و فی الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و ابن أبی شیبة و أحمد و عبد بن حمید و البخاری و مسلم و أبو داود و الترمذی و النسائی و ابن ماجة و ابن مردویه عن کعب بن عجرة قال: قال رجل: یا رسول الله- أما السلام علیک فقد علمناه فکیف الصلاة علیک؟ قال: قل: اللهم صل علی محمد و علی آل محمد- کما صلیت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنک حمید مجید- اللهم بارک علی محمد و علی آل محمد- کما بارکت علی إبراهیم و آل إبراهیم إنک حمید مجید.

أقول: و قد أورد ثمانی عشرة حدیثا غیر هذه الروایة تدل علی تشریک آل النبی معه فی الصلاة روتها أصحاب السنن و الجوامع عن عدة من الصحابة منهم ابن عباس و طلحة و أبو سعید الخدری و أبو هریرة و أبو مسعود الأنصاری و بریدة و ابن مسعود و کعب بن عجرة و علی (ع) و أما روایات الشیعة فهی فوق حد الإحصاء.

و فیه، أخرج أحمد و الترمذی عن الحسن بن علی أن رسول الله ص قال: البخیل من ذکرت عنده فلم یصل علی.

و فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «یا أَیُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِأَزْواجِکَ وَ بَناتِکَ وَ نِساءِ الْمُؤْمِنِینَ- یُدْنِینَ عَلَیْهِنَّ مِنْ جَلَابِیبِهِنَ» فإنه کان سبب نزولها أن النساء کن یخرجن إلی المسجد- و یصلین خلف رسول الله ص- فإذا کان اللیل و خرجن إلی صلاة المغرب و العشاء الآخرة- یقعد الشباب لهن فی طریقهن فیؤذونهن و یتعرضون لهن- فأنزل الله:

«يا أَيُّهَا النَّبِيُّ» الآية.

و في الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق و عبد بن حميد و أبو داود و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن أم سلمة قالت": لما نزلت هذه الآية «يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَ » خرج نساء الأنصار كأن على رءوسهن الغربان- من أكسية سود يلبسنها.

و في تفسير القمي،": في قوله تعالى: «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ» نزلت في قوم منافقين كانوا في المدينة- يرجفون برسول الله ص إذا خرج في بعض غزواته- يقولون: قتل و أسر فيغتم المسلمون لذلك- و يشكون إلى رسول الله ص- فأنزل الله عز و جل في ذلك «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ- إلى قوله- إِلَّا قَلِيلًا» أي نأمرك بإخراجهم من المدينة إلا قليلا.

«مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلًا» و

في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر (ع)- قال: «مَلْعُونِينَ» فوجبت عليهم اللعنة بعد اللعنة بقول الله.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٦٣ الى ٧٣]

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولا (٦٦) وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ كُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧)

رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (٦٨) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (٦٩) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢)

لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٧٣)

(بيان)

آيات تذكر شأن الساعة و بعض ما يجري على الكفار من عذابها و تأمر المؤمنين بالقول السديد و تعدهم عليه وعدا جميلا ثم تختتم السورة بذكر الأمانة.

قوله تعالى: «يَسْئَلُکَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَ ما يُدْرِيکَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَکُونُ قَرِيباً» تذکر الآية سؤال الناس عن الساعة و إنما کانوا يريدون أن يقدر لهم زمن وقوعها و أنها قريبة أو بعيدة کما يومئ إليه التعبير عنها بالساعة فأمر أن يجيبهم بقصر العلم بها فى الله سبحانه و على ذلک جرت الحال کلما ذکرت فى القرآن.

و قوله: «وَ ما يُدْرِيکَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَکُونُ قَرِيباً» زيادة فى الإبهام و ليعلموا أن النبى ص مثل غيره فى عدم العلم بها و ليس من الستر الذى أسره إليه و ستره من الناس.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْکافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً » لعن الکفار إبعادهم من الرحمة، و الإعداد التهيئة، و السعير النار التى أشعلت فالتهبت، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: «خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً » الفرق بين الولى و النصير أن الولى يلى بنفسه تمام الأمر و المولى عليه بمعزل، و النصير يعين المنصور على بعض الأمر و هو إتمامه فالولى يتولى الأمر کله و النصير يتصدى بعضه، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: «يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَا » تقلب وجوههم فى النار تحولها لح ال بعد حال فتصفر و تسود و تکون کالحة أو انتقالها من جهة إلى جهة لتکون أبلغ فى مس العذاب کما يفعل باللحم المشوى.

و قولهم: «يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَ أَطَعْنَا الرَّسُولَا» کلام منهم على وجه التحسر و التمنى.

قوله تعالى: «وَ قالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَ کُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا » السادة جمع سيد و هو- على ما فى المجمع،- المالک المعظم الذى يملک تدبير السواد الأعظم و هو الجمع الأکثر، و الکبراء جمع کبير و لعل المراد به الکبير سنا فالعامة تطيع و تقلد أحد رجلين إما سيد القوم و إما أسرهم.

قوله تعالى: «رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَ الْعَنْهُمْ لَعْناً کَبِيراً» الضعفان المثلان

ص: 347

و إنما سألوا لهم ضعفى العذاب لأنهم ضلوا فى أنفسهم و أضلوا غيرهم، و لذلک أيضا سألوا لهم اللعن الکبير.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَکُونُوا کَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ کانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً » نهى عن أن يکونوا کبعض بنى إسرائيل فيعاملوا نبيهم بمثل ما عامل به بنو إسرائيل من الإيذاء و ليس المراد مطلق الإيذاء بقول أو فعل و إن ک ان منهيا عنه بل قوله: «فَبَرَّأَهُ اللَّهُ» يشهد بأنه کان إيذاء من قبيل التهمة و الافتراء المحوج فى رفعه إلى التبرئة و التنزيه.

و لعل السکوت عن ذکر ما آذوا به موسى (ع) يؤيد ما ورد فى الحديث أنهم قالوا: ليس لموسى ما للرجال فبرأه الله من قولهم و سيوافيک.

و أوجه ما قيل في إيذائهم النبي ص أنه إشارة إلى قصة زيد و زينب، و إن يكن كذلك فمن إيذائه (ص) ما في كثير من روايات القصة من سردها على نحو لا يناسب ساحة قدسه.

و قوله: «وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً » أي ذا جاه و منزلة و الجملة مضافا إلى اشتمالها على التبرئة إج مالا تعلل تبرئته تعالى له و للآية و ما بعدها نوع اتصال بالآيات الناهية عن إيذاء النبي ص.

قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً »، السديد من السداد و هو الإصابة و الرشاد فالسديد من القول ما يجتمع فيه مطابقة الواقع و عدم كونه لغوا أو ذا فائدة غير مشروعة كالنميمة و غير ذلك فعلى المؤمن أن يختبر صدق ما يتكلم به و أن لا يكون لغوا أو يفسد به إصلاح.

قوله تعالى: «يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً» رتب على ملازمة القول السديد إصلاح الأعمال و مغفرة الذنوب و ذلك أن النفس إذا لازمت القول السديد انقطعت عن كذب القول و لغو الحديث و الكلام الذي يترتب عليه فساد، و برسوخ هذه الصفة فيها تنقطع طبعا عن الفحشاء و المنكر و اللغو في الفعل و عند ذلك يصلح أعمال الإنسان فيندم بالطبع على ما ضيعه من عمره في موبقات الذنوب إن كان قد ابتلي بشيء من ذلك و كفى بالندم توبة.

ص: 348

و يحفظه الله فيما بقي من عمره عن اقتحام المهلكات و إن رام شيئا من صغائر الذنوب غفر الله له فقد قال الله تعالى : «إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ »،: النساء: ٣١ فملازمة القول السديد تسوق الإنسان إلى صلاح الأعمال و مغفرة الذنوب بإذن الله.

و قوله: «وَ مَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً » وعد جميل على الإتيان بجميع الأعمال الصالحة و الاجتناب عن جميع المناهي بترتيب الفوز العظيم على طاعة الله و رسوله.

و بذلك تختتم السورة في معناها في الحقيقة لأن طاعة الله و رسوله هي الكلمة الجامعة بين جميع الأحكام السابقة، من واجبات و محرمات و الآيتان التاليتان كالمتمم لمعنى هذه الآية.

قوله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا- إلى قوله- غَفُوراً رَحِيماً» الأمانة- أيا ما كانت- شيء يودع عند الغير ليحتفظ عليه ثم يرده إلى من أودعه، فهذه الأمانة المذكورة في الآية شيء ائتمن الله الإنسان عليه ليحفظ على سلامته و استقامته ثم يرده إليه سبحانه كما أودعه.

و يستفاد من قوله : «لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ » إلخ، أنه أمر يترتب على حمله النفاق و الشرك و الإيمان، فينقسم حاملوه باختلاف كيفية حملهم إلى منافق و مشرك و مؤمن.

فهو لا محالة أمر مرتبط بالدين الحق الذي يحصل بالتلبس به و عدم التلبس به النفاق و الشرك و الإيمان.

فهل هو الاعتقاد الحق و الشهادة على توحده تعالى أو مجموع الاعتقاد و العمل بمعنى أخذ الدين الحق بتفاصيله مع الغض عن العمل به، أو التلبس بالعمل به أو الكمال الحاصل للإنسان من جهة التلبس بواحد من هذه الأمور.

و ليست هی الأول أعنی التوحید فإن السماوات و الأرض و غيرهما من شی ء توحده تعالى و تسبح بحمده، و قد قال تعالى: «وَ إِنْ مِنْ شَیْ‌ءٍ إِلَّا یُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ»: إسراء: ۴۴ و الآية تصرح بإبائها عنه.

ص: 349

و ليست هی الثانی أعنی الدين الحق بتفاصيله فإن الآية تصرح بحمل الإنسان كائنا من كان من مؤمن و غيره له و من البين أن أكثر من لا يؤمن لا يحمله و لا علم له به، و بهذا يظهر أنها ليست بالثالث و هو التلبس بالعمل بالدين الحق تفصيلا.

و ليست هی الكمال الحاصل له بالتلبس بالتوحيد فإن السماوات و الأرض و غيرهما ناطقة بالتوحيد فعلا متلبسة به.

و ليست هی الكمال الحاصل من أخذ دين الحق و العلم به إذ لا يترتب على نفس الاعتقاد الحق و العلم بالتكاليف الدينية نفاق و لا شرك و لا إيمان و لا يستعقب سعادة و لا شقاء و إنما يترتب الأثر على الالتزام بالاعتقاد الحق و التلبس بالعمل.

فبقی أنها الكمال الحاصل له من جهة التلبس بالاعتقاد و العمل الصالح و سلوك سبيل الكمال بالارتقاء م ن حضيض المادة إلى أوج الإخلاص الذی هو أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره فيتولى هو سبحانه تدبير أمره و هو الولاية الإلهية.

فالمراد بالأمانة الولاية الإلهية و بعرضها على هذه الأشياء اعتبارها مقيسة إليها و المراد بحملها و الإباء عنه وجود استعدادها و صلاحية التلبس بها و عدمه، و هذا المعنى هو القابل لأن ينطبق على الآية فالسماوات و الأرض و الجبال على ما فيها من العظمة و الشدة و القوة فاقدة لاستعداد حصولها فيها و هو المراد بإبائهن عن حملها و إشفاقهن منها.

لكن الإنسان الظلوم الجهول لم يأب و لم يشفق من ثقلها و عظم خطرها فحملها على ما بها من الثقل و عظم الخطر فتعقب ذلك أن انقسم الإنسان من جهة حفظ الأمانة و عدمه بالخيانة إلى منافق و مشرك و مؤمن بخلاف السماوات و الأرض و الجبال فما منها إلا مؤمن مطيع.

فإن قلت: ما بال الحكيم العليم حمل على هذا المخلوق الظلوم الجهول حملا لا يتحمله لثقله و عظم خطره السماوات و الأرض و الجبال على عظمتها و شدتها و قوتها و هو يعلم أنه أضعف من أن يطيق حمله و إنما حمله على قبولها ظلمه و جهله و أجرأه عليه غروره و غفلته عن عواقب الأمور فما تحميله الأمانة باستدعائه لها ظلما و جهلا إلا كتقليد مجنون ولاية عامة يأبى قبولها العقلاء و يشفقون منها يستدعيها المجنون لفساد عقله و عدم استقامة فكره.

ص: 350

قلت: الظلم و الجهل فى الإنسان و إن كانا بوجه ملاک اللوم و العتاب فهما بعينهما مصحح حمله الأمانة و الولاية الإلهية فإن الظلم و الجهل إنما يتصف بهما من كان من شأنه الاتصاف بالعدل و العلم فالجبال مثلا لا تتصف بالظلم و الجهل فلا يقال : جبل ظالم أو جاهل لعدم صحة اتصافه بالعدل و العلم و كذلک السماوات و الأرض لا يحمل عليها الظلم و الجهل لعدم صحة اتصافها بالعدل و العلم بخلاف الإنسان.

و الأمانة المذكورة فى الآية و هى الولاية الإلهية و كمال صفة العبودية إنما تتحصل بالعلم بالله و العمل الصالح الذى هو العدل و إنما يتصف بهذين الوصفين أعنى العلم و العدل الموضوع القابل للجهل و الظلم فكون الإنسان فى حد نفسه و بحسب طبعه ظلوما جهولا هو المصحح لحمل الأمانة الإلهية فافهم ذلک.

فمعنى الآيتين «۱» يناظر بوجه معنى قوله تعالى: «لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ»: التين: ۶.

فقوله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ» أى الولاية الإلهية و الاستكمال بحقائق الدين الحق علما و عملا و عرضها هو اعتبارها مقيسة إلى هذه الأشياء.

و قوله: «عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ » أى هذه المخلوقات العظيمة التى خلقها أعظم من خلق الإنسان كما قال : «لَخَلْقُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ»،: المؤمن: ۵۷ و قوله: «فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها» إباؤها عن حملها و إشفاقها منها عدم اشتمالها على صلاحية التلبس و تجافيها عن قبولها و فى التعبير بالحمل إيماء إلى أنها ثق يلة ثقلا لا يحتملها السماوات و الأرض و الجبال.

و قوله: «وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ» أى اشتمل على صلاحيتها و التهيؤ للتلبس بها على ضعفه و صغر حجمه «إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا » أى ظالما لنفسه جاهلا بما تعقبه هذه الأمانة لو خانها من وخيم العاقبة و الهلاک الدائم.

و بمعنى أدق لكون الإنسان خاليا بحسب نفسه عن العدل و العلم قابلا للتلبس بما

---

(۱) فالآية الاولى تحاذى الاولى و الثانية تحاذى الثانية و الثالثة.

ص: 351

يفاض عليه من ذلک و الارتقاء من حضيض الظلم و الجهل إلى أوج العدل و العلم.

و الظلوم و الجهول وصفان من الظلم و الجهل معناهما من كان من شأنه الظلم و الجهل نظير قولنا : فرس شموس و دابة جموح و ماء طهور أى من شأنها ذلک كما قاله الرازى أو معناهما المبالغة فى الظلم و الجهل كما ذكر غيره، و المعنى مستقيم كيفما كانا.

و قوله: «لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَ الْمُنافِقاتِ وَ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُشْرِكاتِ » اللام للغاية أى كانت عاقبة هذا الحمل أن يعذب الله المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات و ذلک أن الخائن للأمانة يتظاهر فى الأغلب بالصلاح و الأمانة و هو النفاق و قلیلا ما يتظاهر بالخيانة لها و لعل اعتبار هذا المعنى هو الموجب لتقديم المنافقين و المنافقات فى الآية على المشركين و المشركات.

و قوله: «وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ كانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً» عطف على «لِيُعَذِّبَ» أى و كان عاقبة ذلک أن يتوب الله على المؤمنين و المؤمنات، و التوبة من الله هى رجوعه إلى عبده بالرحمة فيرجع إلى الإنسان إذا آمن به و لم يخن بالرحمة و يتولى أمره و هو ولى المؤمنين فيهديه إليه بالستر على ظلمه و جهله و تحليته بالعلم النافع و العمل الصالح لأنه غفور رحيم.

فإن قلت: ما هو المانع من جعل الأمانة بمعنى التكليف و هو الدين الحق و كون الحمل بمعنى الاستعداد و الصلاحية و الإباء هو فقده و العرض هو اعتبار القياس فيجرى فيه حينئذ جميع ما تقدم فى بيان الانطباق على الآية.

قلت: نعم لكن التكليف إنما هو مطلوب لكونه مقدمة لحص ول الولاية الإلهية و تحقق صفة العبودية الكاملة فهى المعروضة بالحقيقة و المطلوبة لنفسها.

و الالتفات فى قوله: «لِيُعَذِّبَ اللَّهُ» من التكلم إلى الغيبة و الإتيان باسم الجلالة للدلالة على أن عواقب الأمور إلى الله سبحانه لأنه الله.

و وضع الظاهر موضع المضمر فى قوله: «وَ يَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ » للإشعار بكمال العناية فى حقهم و الاهتمام بأمرهم.

و لهم فى تفسير الأمانة المذكورة فى الآية أقوال مختلفة:

فقيل: المراد بها التكاليف الموجبة طاعتها دخول الجنة و معصيتها دخول النار و المراد ب عرضها على السماوات و الأرض و الجبال اعتبارها بالنسبة إلى استعدادها و إباؤهن

ص: 352

عن حملها و إشفاقهن منها عدم استعدادهن لها، و حمل الإنسان لها استعداده، و الكلام جار مجرى التمثيل.

و قيل: المراد بها العقل الذى هو ملاک التكليف و مناط الثواب و العقاب.

و قيل: هى قول لا إله إلا الله.

و قيل: هى الأعضاء فالعين أمانة من الله يجب حفظها و عدم استعمالها إلا فيما يرتضيه الله تعالى، و كذلک السمع و اليد و الرجل و الفرج و اللسان.

و قيل: المراد بها أمانات الناس و الوفاء بالعهود.

و قيل: المراد بها معرفة الله بما فيها و هذا أقرب الأقوال من الحق يرجع بتقريب ما إلى ما قدمنا.

و كذلك اختلف فى معنى عرض الأمانة عليها على أقوال:

منها: أن العرض بمعناه الحقيقى غير أن المراد بالسماوات و الأرض و الجبال أهلها فعرضت على أهل السماء من الملائكة و بين لهم أن فى خيانتها الإثم العظيم فأبوها و خافوا حملها و عرض على الإنسان فلم يمتنع.

و منها: أنه بمعناه الحقيقى و ذلك أن الله لما خلق هذه الأجرام خلق فيها فهما و قال لها : إنى فرضت فريضة و خلقت جنة لمن أطاعنى فيها و نارا لمن عصانى فيها فقلن:

نحن مسخرات لما خلقتنا لا نحتمل فريضة و لا نبغى ثوابا و لا عقابا و لما خلق آدم عرض عليه ذلك فاحتمله و كان ظلوما لنفسه جهولا بوخامة عاقبته.

و منها: أن المراد بالعرض المعارضة و المقابلة، و محصل الكلام أنا قابلنا بهذه الأمانة السماوات و الأرض و الجبال فكانت هذه أرجح و أثقل منها.

و منها أن الكلام جار مجرى الفرض و التقدير و المعنى: أنا لو قدرنا أن السماوات و الأرض و الجبال فهما، و عرضنا عليها هذه الأمانة لأبين حملها و أشفقن منها لكن الإنسان تحملها.

و بالمراجعة إلى ما قدمناه يظهر ما فى كل من هذه الأقوال من جهات الضعف و الوهن فلا تغفل.

ص: 353

(بحث روائى)

فى الكافى، بإسناده عن محمد بن سالم عن أبى جعفر (ع) فى حديث قال: و لا يلعن الله مؤمنا قال الله عز و جل: «إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً- خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لا نَصِيراً».

و فى تفسير القمى، بإسناده ع ن أبى بصير عن أبى عبد الله (ع): أن بنى إسرائيل كانوا يقولون: ليس لموسى ما للرجال، و كان موسى إذا أراد الاغتسال ذهب إلى موضع لا يراه فيه أحد- فكان يوما يغتسل على شط نهر و قد وضع ثيابه على صخرة- فأمر الله الصخرة فتباعدت عنه حتى نظر بنو إسرائيل إليه- فعلموا أن ليس كما قالوا فأنزل الله «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى» الآية.

و فى المجمع،": و اختلفوا فيما أوذى به موسى على أقوال:

أحدها: أن موسى و هارون صعدا الجبل فمات هارون- فقالت بنو إسرائيل: أنت قتلته- فأمر الله الملائكة فحملته حتى مروا به على بني إسرائيل- و تكلمت الملائكة بموته حتى عرفوا أنه قد مات- و برأه الله من ذلک عن علی و ابن عباس-.

و ثانيها: أن موسى كان حييا ستيرا يغتسل وحده- فقالوا: ما يستتر منا إلا لعيب في جلده إما برص و أما أدرة- فذهب مرة يغتسل فوضع ثوبه على حجر- فمر الحجر بثوبه فطلبه موسى فرآه بنو إسرائيل عريانا- كأحسن الرجال خلقا فبرأه الله مما قالوا. رواه أبو هريرة مرفوعا.

أقول: و روى الرواية الأولى في الدر المنثور، أيضا عن ابن مسعود و الثانية أيضا عن أنس و ابن عباس.

و في الدر المنثور، أخرج ابن المنذر و ابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال: ما جلس رسول الله ص على هذا المنبر قط إلا تلا هذه الآية: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيداً».

ص: 354

أقول: و روى ما يقرب منه أيضا عن عائشة و أبي موسى الأشعري و عروة.

و في نهج البلاغة،: ثم أداء الأمانة فقد خاب من ليس من أهلها- إنها عرضت على السماوات المبنية و الأرض المدحوة- و الجبال ذات الطول المنصوبة فلا أطول و لا أعرض و لا أعلى و لا أعظم منها- و لو امتنع شيء بطول أو عرض أو قوة أو عز لأمتنعن- و لكن أشفقن من العقوبة، و عقلن ما جهل من هو أضعف منهن- و هو الإنسان إنه كان ظلوما جهولا.

و في الكافي، بإسناده عن إسحاق بن عمار عن رجل عن أبي عبد الله (ع): في قول الله عز و جل : «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ» الآية، قال: هي ولاية أمير المؤمنين (ع).

أقول: المراد بولاية أمير المؤمنين (ع) ما كان هو أول فاتح لبابه من هذه الأمة و هو كون الإنسان، بحيث يتولى الله سبحانه أمره بمجاهدته فيه بإخلاص العبودية له دون الولاية بمعنى المحبة أو بمعنى الإمامة و إن كان ظاهر بعض الروايات ذلک بنوع من الجري و الانطباق.

ص: 355

(۳۴) (سورة سبإ مكية، و هي أربع و خمسون آية) (۵۴)

[سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱ الى ۹]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِی الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَکِیمُ الْ خَبِیرُ (١) یَعْلَمُ ما یَلِجُ فِی الْأَرْضِ وَ ما یَخْرُجُ مِنْها وَ ما یَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما یَعْرُجُ فِیها وَ هُوَ الرَّحِیمُ الْغَفُورُ (٢) وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا لا تَأْتِینَا السَّاعَةُ قُلْ بَلی وَ رَبِّی لَتَأْتِیَنَّکُمْ عالِمِ الْغَیْبِ لا یَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ وَ لا أَصْغَرُ مِنْ ذلِکَ وَ لا أَکْبَرُ إِلاَّ فِی کِتابٍ مُبِینٍ (٣) لِیَجْزِیَ الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ کَرِیمٌ (۴)

وَ الَّذِینَ سَعَوْا فِی آیاتِنا مُعاجِزِینَ أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِیمٌ (۵) وَ یَرَی الَّذِینَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِی أُنْزِلَ إِلَیْکَ مِنْ رَبِّکَ هُوَ الْحَقَّ وَ یَهْدِی إِلی صِراطِ الْعَزِیزِ الْحَمِیدِ (۶) وَ قالَ الَّذِینَ کَفَرُوا هَلْ نَدُلُّکُمْ عَلی رَجُلٍ یُنَبِّئُکُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ کُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّکُمْ لَفِی خَلْقٍ جَدِیدٍ (٧) أَفْتَری عَلَی اللَّهِ کَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِی الْعَذابِ وَ الضَّلالِ الْبَعِیدِ (٨) أَ فَلَمْ یَرَوْا إِلی ما بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَیْهِمْ کِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِی ذلِکَ لَآیَةً لِکُلِّ عَبْدٍ مُنِیبٍ (٩)

ص: 356

(بیان)

تتکلم السورة حول الأصول الثلاثة أعنی الوحدانیة و النبوة و البعث فتذکرها و تذکر ما لمنکریها من الاعتراض فیها و الشبه التی ألقوها ثم تدفعها بوجوه الدفع من حکمة و موعظة و مجادلة حسنة و تهتم ببیان أمر البعث أکثر من غیره فتذکره فی مفتتح الکلام ثم تعود إلیه عودة بعد عودة إلی مختتمه.

و هی مکیة بشهادة مقاصد آیاتها علی ذلک.

قوله تعالی: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ » إلخ، المطلوب بیان البعث و الجزاء بیانا لا یعتریه شک بالإشارة إلی الحجة التی ینقطع بها الخصم و الأساس الذی یقوم علیه ذلک أمران أحدهما عموم ملکه تعالی لکل شی ء من کل جهة حتی یصح له أی تصرف أراد فیها من إبداء و رزق و إماتة و إحیاء بالإعادة و جزاء، و ثانیهما کمال علمه تعالی بالأشیاء من جمیع جهاتها علما لا یطرأ علیه عزوب و زوال حتی یعید کل من أراد و یجزیه علی ما علم من أعماله خیرا أو شرا.

و قد أشیر إلی أول الأمرین فی الآیة الأولی التی نحن فیها و إلی الثانیة فی الآیة الثانیة و بذلک یظهر أن الآیتین تمهید لما فی الآیة الثالثة و الرابعة.

فقوله: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی لَهُ ما فِی السَّماواتِ وَ ما فِی الْأَرْضِ» ثناء علیه علی ملکه المنبسط علی کل شیء بحیث له أن یتصرف فی کل شیء بما شاء و أراد.

و قوله: «وَ لَهُ الْحَمْدُ فِی الْآخِرَةِ» تخصیص الحمد بالآخرة لما أن الجملة الأولی تتضمن الحمد فی الدنیا فإن النظام المشهود فی السماوات و الأرض نظام دنیوی کما یشهد به قوله تعالی: «یَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَیْرَ الْأَرْضِ وَ السَّماواتُ»: إبراهیم: ۴٨.

ص: 357

و قوله: «وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ » ختم الآية بالاسمين الكريمين للدلالة على أن تصرفه فى نظام الدنيا ثم تعقيبه بنظام الآخرة مبنى على الحكمة و الخبرة فبحكمته عقب الدنيا بالآخرة و إلا لغت الخلقة و بطلت و لم يتميز المحسن من المسىء كما قال:

«وَ ما خَلَقْنَا السَّماءَ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما باطِلًا – إلى أن قال– أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ»: ص: ٢٨، و بخبرته يحشرهم و لا يغادر منهم أحدا و يجزى كل نفس بما كسبت.

و الخبير من أسماء الله الحسنى مأخوذة من الخبرة و هى العلم بالجزئيات فهو أخص من العليم.

قوله تعالى: «يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها » الولوج مقابل الخروج و العروج مقابل النزول و كان العلم بالولوج و الخروج و النزول و العروج كناية عن علمه بحركة كل متحرك و فعله و اختتام الآية بقوله : «وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ» كان فيه إشارة إلى أن له رحمة ثابتة و مغفرة ستصيب قوما بإيمانهم.

قوله تعالى: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ » إلخ، يذكر إنكارهم لإتيان الساعة و هى يوم القيامة و هم ينكرونه مع ظهور عموم ملكه و علمه بكل شى ء و لا مورد للارتياب فى إتيانها مع ذلك كما تقدم فضلا عن إنكار إتيانها و لذلک أمر النبى ص أن يجيب عن قولهم بقوله: «قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ» أى الساعة.

و لما كان السبب العمدة فى إنكارهم هو اختلاط الأشياء و منها أبدان الأموات بعضها ببعض و تبدل صورها تبدلا بعد تبدل بحيث لا خبر عن أعيانها فيمتنع إعادتها من دون تميز بعضها من بعض أشار إلى دفع ذلك بقوله: «عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ» أى لا يفوت «عن علمه مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِى السَّماواتِ وَ لا فِى الْأَرْضِ».

و قوله: «وَ لا أَصْغَرُ مِنْ ذلِکَ وَ لا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتابٍ مُبِينٍ» تعميم لعلمه لكل شيء و فيه مع ذلك إشارة إلى أن للأشياء كائنة ما كانت ثبوتا فى كتاب مبين لا تتغير و لا تتبدل و إن زالت رسومها عن صفحة الكون و قد تقدم بعض الكلام فى الكتاب المبين فى سورة الأنعام و غيرها.

ص: 358

قوله تعالى: «لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِکَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ » اللام فى «لِيَجْزِىَ» للتعليل و هو متعلق بقوله: «لَتَأْتِيَنَّكُمْ» و فى قوله: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» نوع محاذاة لقوله السابق: «وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ».

و فى الآية بيان أح د السببين لقيام الساعة و هو أن يجزى الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالمغفرة و الرزق الكريم و هو الجنة بما فيها و السبب الأخير ما يشير إليه قوله:

«وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِى آياتِنا مُعاجِزِينَ» إلخ.

قوله تعالى: «وَ اَلَّذِينَ سَعَوْا فِى آيااتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِکَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ » السعى الجد فى المشى و المعاجزة المبالغة فى الإعجاز و قيل : المسابقة و الكلام مبنى على الاستعارة بالكناية كان الآيات مسافة يسيرون فيها سيرا حثيثا ليعجزوا الله و يسبقوه و الرجز كالرجس القذر و لعل المراد به العمل السيئ فيكون إشارة إلى تبدل العمل عذابا أليما عليهم أو سببا لعذابهم، و قيل: الرجز هو سيء العذاب.

و فى الآية تعريض للكفار الذين يصرون على إنكار البعث.

قوله تعالى: «وَ يَرَى اَلَّذِينَ أُوتُوا اَلْعِلْمَ اَلَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْکَ مِنْ رَبِّکَ هُوَ اَلْحَقَ » الموصول الأول فاعل يرى و الموصول الثانى مفعوله الأول و الحق مفعوله الثانى و المراد بالذين أوتوا العلم العلماء بالله و بآياته، و بالذى أنزل إليه القرآن النازل إليه (ص).

و جملة «وَ يَرَى» إلخ، استئناف متعرض لقوله السابق: «وَ قالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا» أو حال من فاعل كفروا، و المعنى: أولئک يقولون: لا تأتينا الساعة و ينكرونه جهلا، و العلماء بالله و آياته يرون أن هذا القرآن النازل إليک المخبر بأن الساعة آتية هو الحق.

و قوله: «وَ يَهْدِى إِلى صِراطِ اَلْعَزِيزِ اَلْحَمِيدِ» معطوف على الحق أى و يرون القرآن يهدى إلى صراط من هو عزيز لا يغلب على ما يريد محمود يثنى على جميع أفعاله لأنه لا يفعل مع عزته إلا الجميل و هو الله سبحانه، و فى التوصيف بالعزيز الحميد مقابلة لما وصفهم به فى قوله: «اَلَّذِينَ سَعَوْا فِى آيااتِنا مُعاجِزِينَ».

قوله تعالى: «وَ قالَ اَلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَ

ص: 359

مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ» كلام منهم وارد مورد الاستهزاء يعرفون فيه النبى ص بعضهم لبعض بالقول بالمعاد.

و التمزيق التقطيع و التفريق، و كونهم فى خلق جديد استقرارهم فيه أى تجديد خلقتهم بإحيائهم بعد موتهم و وجودهم ثانيا بعد عدمهم، و قوله: «إِذا مُزِّقْتُمْ» ظرف لقوله: «إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ».

و المعنى: و قال الذين كفروا بعضهم لبعض على طريق الاستهزاء بالنبى ص لإنذاره إياهم بالبعث و الجزاء: هل ندلكم على رجل و المراد به النبى ص ينبئكم و يخبركم أنكم ستستقرون فى خلق جديد و يتجدد لكم الوجود إذا فرقت أبدانكم كل التفريق و قطعت بحيث لا يتميز شيء منها من شيء.

قوله تعالى: «أَفْتَرى عَلَى اَللّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ» إلخ، الاستفهام للتعجيب فإن القول ببعث الأجساد بعد فنائها عجيب عندهم لا يقول به عاقل إلا لتلبيس الأمر على الناس و إضلالهم لينال بعض ما عندهم و إلا فكيف يلتبس فيه الأمر على عاقل، و لهذا رددوا الأمر بين الافتراء و الجنة فى الاستفهام و المعنى : أ هو عاقل يكذب على الله افتراء عليه بالقول بالبعث أم به نوع جنون يتفوه بما بدا له من غير فكر مستقيم.

و قوله: «بَلِ اَلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي اَلْعَذابِ وَ اَلضَّلالِ اَلْبَعِيدِ » رد لقولهم و إضراب عن الترديد الذى أتوا به مستفهمين، و محصله أن ذلک ليس افترا ء على الله و لا جنون فيه بل هؤلاء الكفار مستقرون فی عذاب سيظهر لهم و قد أبعدهم ذلک عن الحق فكانوا فی ضلال بعيد لا يسعهم مع ذلک أن يعقلوا الحق و يذعنوا به.

و وضع الموصول موضع الضمير فی قوله : «بَلِ اَلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ » للدلالة على أن علة وق وعهم فيما وقعوا فيه من العذاب و الضلال عدم إيمانهم بالآخرة.

قوله تعالى: «أَ فَلَمْ يَرَوْا إِلى‌ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ اَلسَّماءِ وَ اَلْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ اَلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ اَلسَّماءِ» إلخ، وعظ و إنذار لهم باستعظام ما اجترءوا عليه من تكذيب آيات الله و الاستهزاء برسوله فالمراد بقوله : «ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ ما خَلْفَهُمْ مِنَ اَلسَّماءِ وَ اَلْأَرْضِ » إحاطة السماء و الأرض بهم من بين أيديهم و من خلفهم فأينما نظروا وجدوا سماء تظلهم و أرضا تقلهم لا مفر لهم منهما.

ص: 360

و قوله: «إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ اَلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ اَلسَّماءِ » أی إذ أحاط بهم الأرض و السماء و هما مدبرتان بتدبيرنا منقادتان مسخرتان لنا أن نشأ نخسف بهم الأرض فنهلكهم أو نسقط عليهم قطعة من السماء فنهلكهم فما لهم لا ينتهون عن هذه الأقاويل؟.

و قوله: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ »، أی فيما ذكر من إحاطة السماء و الأرض و كونهما مدبرتين لله سبحانه أن يشأ يخسف بهم الأرض أو يسقط عليهم كسفا من السماء لآية لكل عبد منيب، راجع إلى ربه بالطاعة، فهؤلاء لا يستهينون بهذه الأمور و لا يجترءون على تكذيب هذه الآيات إلا لكونهم مستكبرين عاتين لا يريدون إنابة إلى ربهم و رجوعا إلى طاعته.

[سورة سبإ (۳۴): الآيات ۱۰ الى ۲۱]

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ اَلطَّيْرَ وَ أَلَنّا لَهُ اَلْحَدِيدَ (۱۰) أَنِ اِعْمَلْ سابِغاتٍ وَ قَدِّرْ فِي اَلسَّرْدِ وَ اِعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (۱۱) وَ لِسُلَيْمانَ اَلرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ اَلْقِطْرِ وَ مِنَ اَلْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ اَلسَّعِيرِ (۱۲) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ اِعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ اَلشَّكُورُ (۱۳) فَلَمّا قَضَيْنا عَلَيْهِ اَلْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى‌ مَوْتِهِ إِلاّ دَابَّةُ اَلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ اَلْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ اَلْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي اَلْعَذابِ اَلْمُهِينِ (۱۴)

لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اُشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ (۱۵) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ اَلْعَرِمِ وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَيْ‌ءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (۱۶) ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَ هَلْ نُجازِي إِلاَّ اَلْكَفُورَ (۱۷) وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ اَلْقُرَى اَلَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَ قَدَّرْنا فِيهَا اَلسَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ

وَ أَيّاماً آمِنِينَ (١٨) فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ (١٩)

وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَ رَبُّكَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)

ص: 361

(بيان)

تشير الآيات إلى نبذة من قصص داود و سليمان إذ آتاهما الله من فضله إذ أنعم على داود بتسخير الجبال و الطير معه و تليين الحديد له، و سخر لسليمان الريح غدوها شهر و رواحها شهر و سخر الجن يعملون له ما يشاء من محاريب و تماثيل و غيرها و أمرهما بالعمل الصالح شكرا و كانا عبدين شكورين.

ثم إلى قصة سبإ حيث أنعم عليهم بجنتين عن اليمين و الشمال ليعيشوا فيها عيشا

ص: 362

رغدا فكفروا بالنعمة و أعرضوا عن الشكر فأرسل عليهم سيل العرم و بدل جنتيهم جنتين دون ذلك و قد كان عمر بلادهم فكفروا فجعلهم أحاديث و مزقهم كل ممزق، كل ذلك لكفرهم النعمة و إعراضهم عن الشكر و لا يجازى إلا الكفور.

وجه اتصال القصص على ما تقدم من حديث البعث أن الله هو المدبر لأمور عباده و هم مغمورون فى أنواع نعمه و للمنعم على المنعم عليه الشكر على نعمته و عليه أن يميز بين الشاكرين لنعمته و الكافر بها و إذ لا ميز فى هذه النشأة فهناك نشأة أخرى يتميز فيها الفريقان فالبعث لا مفر عنه.

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنّا فَضْلًا يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلَنّا لَهُ الْحَدِيدَ » الفضل العطية و التأويب الترجيع من الأوب بمعنى الرجوع و المراد به ترجيع الصوت بالتسبيح بدليل قوله فيه فى موضع آخر : «إِنّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوّابٌ ».: ص: ١٩ و الطير معطوف على محل الجبال و منه يظهر فساد قول بعضهم : إن الأوب بمعنى السير و أن الجبال كانت تسير معه حيثما سار.

و قوله: «يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ » بيان للفضل الذى أوتى داود و قد وضع فيه الخطاب الذى خوطبت به الجبال و الطير فسخرتا به موضع نفس التسخير الذى هو العطية و هو من قبيل وضع السبب موضع المسبب و الم عنى: سخرنا الجبال له تئوب معه و الطير، و هذا هو المتحصل من تسخير الجبال و الطير له كما يشير إليه قوله : «إِنّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْراقِ وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوّابٌ».: ص: ١٩ و قوله: «وَ أَلَنّا لَهُ الْحَدِيدَ» أى و جعلناه لينا له على ما به من الصلابة.

قوله تعالى: «أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ » إلخ، السابغات جمع سابغة و هى الدرع الواسعة، و السرد نسج الدرع، و تقديره الاقتصاد فيه بحيث تتناسب حلقه أى اعمل دروعا واسعة و أجعلها متناسبة الحلق، و جملة «أَنِ اعْمَلْ» إلخ، نوع تفسير لا لأنه الحديد له.

و قوله: «وَ اعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» معنى الجملة فى نفسها ظاهر و هى لوقوعها فى سياق بيان إيتاء الفضل و عد النعم تفيد معنى الأمر بالشكر كأنه قيل:

ص: 363

و قلنا اشكر النعم أنت و قومک بالعمل الصالح.

قوله تعالى: «وَ لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ» إلخ، أى و سخرنا لسليمان الريح مسير غدو تلک الريح- و هو أول النهار إلى الظهر- مسير شهر و رواح تلک الريح- و هو من الظهر إلى آخر النهار- مسير شهر أى أنها تسير فى يوم مسير شهرين.

و قوله: «وَ أَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ » الإسالة إفعال من السيلان بمعنى الجريان و القطر النحاس أى و أذبنا له القطر فسالت كالعين الجارية.

قوله: «وَ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ »، أى و ج مع من الجن- بدليل قوله بعد: «يَعْمَلُونَ لَهُ»- يعمل بين يديه بإذن ربه مسخرين له «وَ مَنْ يَزِغْ» أى ينحرف «عَنْ أَمْرِنا» و لم يطع سليمان «نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ » ظاهر السياق أن المراد به عذاب النار فى الدنيا دون الآخرة، و فى لفظ الآية دلالة على أن المسخر له كان بعض الجن لا جميعهم.

قوله تعالى: «يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ » إلخ، المحاريب جمع محراب و هو مكان إقامة الصلاة و العبادة، و التماثيل جمع تمثال و هى الصورة المجسمة من الشىء و الجفان جمع جفنة و هى صحفة الطعام، و الجوابى جمع جابية الحوض الذى يجبى أى يجمع فيه الماء، و القدور جمع قدر و هو ما يطبخ فيه الطعام، و الراسيات الثابتات و المراد بكون القدور راسيات كونها ثابتات فى أمكنتها لا يزلن عنها لعظمها.

و قوله: «اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً» خطاب لسليمان و سائر من معه من آل داود أن يعملوا و يعبدوا الله شكرا له، و قوله : «وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ» أى الشاكر لله شكرا بعد شكر و الجملة إما فى مقام ترفيع مقام أهل الشكر بأن المتمكنين فى هذا المقام قليلون و هم الأوحديون من الناس، و إما فى مقام التعليل كأنه قيل: إنهم قليل فكثروا عدتهم.

قوله تعالى: «فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ » المراد بدابة الأرض الأرضة على ما وردت به الروايات و المنسأة العصا و قوله:

ص: 364

«فَلَمّٰا خَرَّ تَبَيَّنَتِ اَلْجِنُّ أَنْ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ اَلْغَيْبَ مٰا لَبِثُوا فِي اَلْعَذٰابِ اَلْمُهِينِ» الخرور السقوط على الأرض.

و يستفاد من السياق أنه (ع) لما قبض كان متكئا على عصاه فبقى على تلك الحال قائما متكئا على عصاه زمانا لا يعلم بموته إنس و لا جن فبعث الله عز و جل أرضة فأخذت فى أكل منسأته حتى إذا أكلت انكسرت العصا و سقط سليمان على الأرض فعلموا عند ذلک بموته و تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان المستور عنهم و ما لبثوا هذا المقدار من الزمان- و هو من حين قبضه إلى خروره- فى العذاب المهين المذل لهم.

قوله تعالى: «لَقَدْ كٰانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتٰانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمٰالٍ » إلخ، سبأ العرب العاربة باليمن سموا- كما قيل- باسم أبيهم سبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، و قوله: «عَنْ يَمِينٍ وَ شِمٰالٍ» أى عن يمين مسكنهم و شماله.

و قوله: «كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ» أمر بالأكل من جنتين و هو كناية عن رزقهم منهما، ثم بالشكر له على نعمته و رزقه، و قوله : «بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ» أى بلدة ملائمة صالحة للمقام و رب كثير الغفران لا يؤاخذكم بسيئاتكم.

قوله تعالى: «فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنٰا عَلَيْهِمْ سَيْلَ اَلْعَرِمِ وَ بَدَّلْنٰاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوٰاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ» العرم المسناة التى تحبس الماء، و قيل:

المطر الشديد و قيل غير ذلک، و الأكل بضمتين كل ثمرة مأكولة، و الخمط- على ما قيل- كل نبت أخذ طعما من المرارة، و الأثل الطرفاء و قيل: شجر يشبهها أعظم منها لا ثمرة له، و السدر معروف، و الأثل و شىء معطوفان على «أُكُلٍ» لا على خمط.

و المعنى: فأعرضوا أى قوم سبإ عن الشكر الذى أمروا به فجازيناهم و أرسلنا عليهم سيل العرم فأغرق بلادهم و ذهب بجنتيهم و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى ثمرة مرة و ذواتى طرفاء و شىء قليل من السدر.

قوله تعالى: «ذٰلِكَ جَزَيْنٰاهُمْ بِمٰا كَفَرُوا وَ هَلْ نُجٰازِي إِلاَّ اَلْكَفُورَ» «ذٰلِكَ» إشارة إلى ما ذكر من إرسال السيل و تبديل الجنتين و محله النصب مفعولا ثانيا لجزيناهم و الفرق بين الجزاء و المجازاة- كما قيل إن المجازاة لا تستعمل إلا فى الشر و الجزاء أعم.

ص: 365

و المعنى: جزينا سبأ ذلک الجزاء بسبب كفرهم و إعراضهم عن الشكر- أو فى مقابلة ذلک- و لا نجازى بالسوء إلا من كان كثير الكفران لأنعم الله.

قوله تعالى: «وَ جَعَلْنٰا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ اَلْقُرَى اَلَّتِي بٰارَكْنٰا فِيهٰا قُرىً ظٰاهِرَةً » إلخ، ضمير «بَيْنَهُمْ» لسبإ و الكلام مسوق لبيان تتمة قصتهم المطلوب ذكرها و هو عطف على قوله: «كٰانَ لِسَبَإٍ» و المراد بالقرى التى باركنا فيها القرى الشامية، و المراد بكون القرى ظاهرة كونها متقاربة يرى بعضها من بعض.

و قوله: «وَ قَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ » أى جعلنا السير فيها على نسبة مقدرة متناسبة غير مختلفة فالنسبة بين واحدة منها و ما يليها كالنسبة بين ما يليها و ما يليه، و قوله:

«سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيَّاماً آمِنِينَ» على تقدير القول أى و قلنا: سيروا فى هذه القرى على أمن إن شئتم ليالى و إن شئتم أياما، و المراد قررنا فيها الأمن يسيرون فيها متى ما شاءوا من غير خوف و قلق.

قوله تعالى: «فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » إلخ، أى أنعمنا عليهم ما أنعمنا من وفور الفواكه و قرب المنازل و أمن الطرق و سهولة السير و رغد العيش فملوا ذلک و سئموه و قالوا : رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا أى اجعل أسفارنا ذوات مسافات بعيدة نركب فيها الرواحل و نقطع المفاوز و البوادى و هذا بغى منهم و كفران كما طلبت بنو إسرائيل الثوم و البصل مكان المن و السلوى.

و بالجملة أتم الله نعمه عليهم فى السفر بقرب المنازل و أمن الطرق و وفور النعمة كما أتم نعمه عليهم فى الحضر و أراد منهم الشكر على ذلک فكفروا بنعمه فى السفر كما كفروا بها فى الحضر، فأسرع الله فى إسعاف ما اقترحوه فخرب بلادهم و فرق جمعهم و شتت شملهم.

فقوله: «فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا» اقتراح ضمنى لتخريب بلادهم، و قوله:

«وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» أى بالمعاصى.

و قوله: «فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ » أى أزلنا أعيانهم و آثارهم فلم يبق منهم إلا أحاديث يحدث بها فيما يحدث فعادوا أسماء لا مسمى لهم إلا فى وهم المتوهم و خيال المتخيل و فرقناهم كل تفرق فلم يبق من أجزاء وجودهم جزءان

مجتمعان إلا فرقنا بينهما فصاروا كسدى لا شبح له بعد ما كانوا مجتمعا ذا قوة و شوكة حتى ضرب بهم المثل «تفرقوا أيادى سبإ».

و قوله: «إِنَّ فِي ذلِکَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ» أى فى هذا الذى ذكر من قصتهم لآيات لكل من كثر صبره فى جنب الله و كثر شكره لنعمه التى لا تحصى يستدل بتلک الآيات على أن على الإنسان أن يعبد ربه شكرا لنعمه و أن وراءه يوما يبعث فيه و يجزى بعمله.

قوله تعالى: «وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى حقق إبليس عليهم ظنه أو وجد ظنه صادقا عليهم إذ قال لربه: «لَأُغْوِيَنَّهُمْ و لَأُضِلَّنَّهُمْ» «وَ لا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ»، و قوله: «فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» بيان لتصديقه ظنه.

و منه يظهر أن ضمير الجمع فى «عَلَيْهِمْ» هاهنا و كذا فى الآية التالية لعامة الناس لا لسبإ خاصة و إن كانت الآية منطبقة عليهم.

قوله تعالى: «وَ ما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِی شَکٍّ » ظاهر السياق أن المراد أنهم لم يتبعوه عن سلطان له عليهم يضطرهم إلى اتباعه حتى يكونو ا معذورين بل إنما اتبعوه عن سوء اختيارهم فهم يختارون اتباعه فيتسلط عليهم لا أنه يتسلط فيتبعونه، قال تعالى: «إِنَّ عِبادِی لَیْسَ لَکَ عَلَیْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَکَ مِنَ الْغاوِینَ»: الحجر: ۴۲ و قال حاكيا عن إبليس يوم القيامة:

«وَ ما کانَ لِی عَلَیْکُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُکُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِی فَلا تَلُومُونِی وَ لُومُوا أَنْفُسَکُمْ»: إبراهيم: ۲۲.

و منشأ اتباعهم له ريب و شك فى قلوبهم من الآخرة يظهر منهم بظهور أثره الذى هو الاتباع لإبليس، فإذنه سبحانه لإبليس أن يتسلط عليهم من طريق اختيارهم هذا المقدار من التسلط ليمتاز به أهل الشك فى الآخرة من أهل الإيمان به و لا يرفع ذلك مسئوليتهم فى اتباعه لكونه عن اختيار منهم.

فقوله: «وَ ما کانَ لَهُ عَلَیْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ » نفى لكل سلطان، و قوله : «إِلَّا لِنَعْلَمَ» أى لنميز «مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِی شَکٍّ» استثناء لسلطانه عليهم من طريق

ص: 367

اتباعهم له عن اختيار منهم، و قد وضع فيه الغاية موضع ذى الغاية أى التمييز المذكور موضع التسلط من طريق الاتباع الاختيارى.

و تقييد الإيمان و الشك بالآخرة فى الآية لمكان أن الرادع الوحيد عن المعصية و الداعى إلى الطاعة هو الإيمان بالآخرة دون الإيمان بالله و رسوله لو لا الآخرة كما قال تعالى : «إِنَّ الَّذِینَ یَضِلُّونَ عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِیدٌ بِما نَسُوا یَوْمَ الْحِسابِ »: ص: ۲۶ و قوله: «وَ رَبُّکَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ حَفِیظٌ» أى عالم علما لا يفوته المعلوم بنسيان أو سهو أو غير ذلك و فيه تحذير عن الكفران و المعصية و إنذار لأهل الكفر و المعصية.

(بحث روائى)

فى كمال الدين، بإسناده إلى هشام بن سالم عن الصادق (ع): فى حديث يذكر فيه قصة داود (ع) قال: إنه خرج يقرأ الزبور و كان إذا قرأ الزبور لا يبقى جبل- و لا حجر و لا طائر إلا أجابه.

و فى تفسير القمى، ": قوله عز و جل : «أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ» قال: الدروع «وَ قَدِّرْ فِی السَّرْدِ » قال: المسامير التى فى الحلقة، و قوله عز و جل : «وَ لِسُلَیْمانَ الرِّیحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَ رَواحُها شَهْرٌ » قال: كانت الريح تحمل كرسى سليمان- فتسير به فى الغداة مسيرة شهر و بالعشى مسيرة شهر.

و فی الکافی، بإسناده عن داود بن الحصین و عن أبان بن عثمان عن الفضل أبی العباس قال : قلت لأبی جعفر (ع): «یَعْمَلُونَ لَهُ ما یَشاءُ- مِنْ مَحارِیبَ وَ تَماثِیلَ وَ جِفانٍ کَالْجَوابِ» قال: ما هی تماثیل الرجال و النساء و لکنها تماثیل الشجر و شبهه.

و فیه، عن بعض أصحابنا مرفوعا عن هشام بن الحکم قال : قال أبو الحسن موسی بن جعفر (ع): یا هشام ثم مدح الله القلة فقال: «وَ قَلِیلٌ مِنْ عِبادِیَ الشَّکُورُ».

أقول: و قد وقع هذا المعنی فی عدة روایات و هو ینطبق علی أحد المعنیین المتقدمین فی ذیل الآیة.

و فی العلل، بإسناده عن أبی جعفر (ع) قال: أمر سلیمان بن داود الجن فصنعوا له قبة من قواریر- فبینا هو متکئ علی عصاه فی القبة- ینظر إلی الجن کیف ینظرون

إلیه إذ حانت منه التفاتة- فإذا رجل معه فی القبة قال له : من أنت؟ قال: أنا الذی لا أقبل الرشا و لا أهاب الملوک أنا ملک الموت. فقبضه و هو قائم متکئ علی عصاه فی القبة و الجن ینظرون إلیه-.

قال: فمکثوا سنة یدأبون له حتی بعث الله عز و جل الأرضة- فأکلت منسأته و هی العصا، فلما خر تبینت الجن- أن لو کانوا یعلمون الغیب ما لبثوا فی العذاب المهین

الحدیث.

أقول: و بقاؤه (ع) علی حال القیام متکئا علی عصاه سنة وارد فی عدة من روایات الشیعة و أهل السنة.

و فی المجمع، فی الحدیث عن فروة بن مسیک قال : سألت رسول الله ص عن سبإ أ رجل هو أم امرأة؟ فقال : هو رجل من العرب- ولد عشرة تیامن منهم ستة و تشاءم أربعة- فأما الذین تیامنوا- فالأزد و کندة و مذحج و الأشعرون و أنمار و حمیر فقال رجل من القوم: ما أنمار؟ قال: الذین منهم خثعم و بجیلة. و أما الذین تشاءموا فعاملة و جذام و لخم و غسان:

أقول: و رواه فی الدر المنثور، عن عدة من أرباب الجوامع و السنن عنه (ص)

و المراد بالتیامن و التشاؤم السکونة بالیمن و الشام.

و فی الکافی، بإسناده عن سدیر قال : سأل رجل أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز و جل. «فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَیْنَ أَسْفارِنا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ» الآیة- فقال: هؤلاء قوم کانت لهم قری متصلة ینظر بعضهم إلی بعض- و أنهار جاریة و أموال ظاهرة فکفروا نعم الله عز و جل- و غیروا ما بأنفسهم من عافیة الله- فغیر الله ما بهم من نعمة- و الله لا یغیر ما بقوم حتی یغیروا ما بأنفسهم- فأرسل الله علیهم سیل العرم ففرق قراهم و خرب دیارهم و ذهب بأموالهم و أبدلهم مکان جنانهم جنتین- ذواتی أکل خمط و أثل و شیء من سدر قلیل- ثم قال: «ذلِکَ جَزَیْناهُمْ بِما کَفَرُوا وَ هَلْ نُجازِی إِلَّا الْکَفُورَ».

أقول: و ورد فی عدة من الروایات أن القری التی بارک الله فیها هم أهل بیت النبی ص و القری الظاهرة هم الوسائط بینهم و بین الناس من حملة أحادیثهم و غیرهم، و هو من بطن القرآن و لیس من التفسیر فی شیء.

ص: 369

[سورة سبإ (٣۴): الآيات ٢٢ الى ٣٠]

قُلِ ادْعُوا الَّذِینَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا یَمْلِکُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ وَ ما لَهُمْ فِیهِما مِنْ شِرْکٍ وَ ما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِیرٍ (٢٢) وَ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّی إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّکُمْ قالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِیُّ الْکَبِیرُ (٢٣) قُلْ مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَ إِنَّا أَوْ إِیَّاکُمْ لَعَلی هُدیً أَوْ فِی ضَلالٍ مُبِینٍ (٢۴) قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَ لا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢۵) قُلْ یَجْمَعُ بَیْنَنا رَبُّنا ثُمَّ یَفْتَحُ بَیْنَنا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِیمُ (٢۶)

قُلْ أَرُونِیَ الَّذِینَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَکاءَ کَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِیزُ الْحَکِیمُ (٢٧) وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلاَّ کَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِیراً وَ نَذِیراً وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ (٢٨) وَ یَقُولُونَ مَتی هذَا الْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ (٢٩) قُلْ لَکُمْ مِیعادُ یَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَ لا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)

(بیان)

آیات مقررة للتوحید و احتجاجات حوله.

قوله تعالی: «قُلِ ادْعُوا الَّذِینَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا یَمْلِکُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ» إلی

ص: 370

آخر الآیة، أمر النبی ص أن یحتج علی إبطال ألوهیة آلهتهم بعدم قدرتهم علی استجابة الدعاء، فقوله : «قُلِ ادْعُوا الَّذِینَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أی ادعوا الذین زعمتموهم آلهة من دون الله- فمفعولا «زَعَمْتُمْ» محذوفان لدلالة السیاق علیهما- و دعاؤهم هو مسألتهم شیئا من الحوائج.

و قوله: «لا یَمْلِکُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ » واقع موقع الجواب کأنه قیل: فما ذا یکون إذا دعوهم؟ فقیل: لا یستجیبون لهم بشیء لأنهم «لا یَمْلِکُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِی السَّماواتِ وَ لا فِی الْأَرْضِ » و لو ملکوا لاستجابوا، و لا تتم الربوبیة و الألوهیة إلا بأن یملک الرب و الإله شیئا مما یحتاج إلیه الإنسان فیملکه له و ینعم علیه به فیستحق بإزائه العبادة شکرا له فیعبد، أما إذا لم یملک شیئا فلا یکون ربا و لا إلها.

و قوله: «وَ ما لَهُمْ فِیهِما مِنْ شِرْکٍ » کان الملک المنفی فی الجملة السابقة «لا یَمْلِکُونَ» إلخ، الملک المطلق المنبسط علی الجمیع و المنفی فی هذه الجملة الملک المحدود المتبعض الذی ینبسط علی البعض دون الکل إما مشاعا أو مفروزا، لکن

المشركين ما كانوا يقولون بالملک المشترک بينهم و بين الله سبحانه مشاعا بل كانوا يقولون بملک كل من آلهتهم لنوع من الخلقة أو بعض منها، و أما الله سبحانه فهو رب الأرباب و إله الآلهة.

و على هذا كان من الواجب أن يستجيب آلهتهم إذا دعوا فيما يملكونه من الخلقة و عدم استجابتهم كاشف عن عدم ربوبيتهم و ألوهيتهم.

و قوله: «وَ ما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ » أى ليس لله سبحانه منهم كلا أو بعضا من معين يعينه فيما يفرض فيه عجزه عن القيام بأمر تدبيره إذ لو كان له منهم ظهير يظهره على التدبير كان مالكا فيستجيب إذا دعى فيما هو ظهير بالنسبة إليه و إذ ليس فليس.

فتبين مما تقدم أن احتجاج الآية على نفى الملک بانتفاء استجابتهم دعاء الداعى يجرى فى جميع الصور الثلاث و هى ملكهم لما فى السماوات و ما فى الأرض مطلقا و ملكهم على وجه الشركة مع الله سبحانه و كونهم أو بعضهم ظهيرا لله سبحانه.

قوله تعالى: «وَ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » المشركون كانوا يقولون بشفاعة آلهتهم كما حكاه الله سبحانه عنهم بقوله : «هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ »،: يونس: ١٨

ص: 371

و ليس مرادهم بالشفاعة شفاعة يوم القيامة التى يثبتها القرآن الكريم فإنهم ما كانوا يقولون بالمعاد بل الشفاعة فى الدنيا لعبادهم عند الله سبحانه ليسعدهم بقضاء حوائجهم و إصلاح شئونهم بتوسط آلهتهم.

و إذ كانت الآلهة مخلو قين لله مملوكين له من كل وجه فلا يملكون الشفاعة من عند أنفسهم مستقلين بها إلا أن يملكهم الله سبحانه ذلک و هو الإذن لهم فى أن يشفعوا فأصل شفاعتهم لو شفعوا بإذن الله سبحانه.

و قوله: «إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ» يحتمل أن يكون اللام فى «لِمَنْ» لام الملک و المراد بمن أذن له الشافع من الملائكة، و المعنى : لا تنفع الشفاعة إلا أن يملكه الشافع بالإذن من الله و أن يكون لام التعليل و المراد بمن أذن له المشفوع له، و المعنى : لا تنفع الشفاعة إلا لأجل من أذن له من المشفوع لهم، قال فى الكشاف: و هذا يعنى الوجه الثانى وجه لطيف و هو الوجه. انتهى.

و هو الوجه فإن الملائكة على ما يستفاد من كلامه تعالى وسائط لإنفاذ الأمر الإلهى و إجرائه، قال تعالى : «لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ »،: الأنبياء: ٢٧ و قال: «جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ »،: فاطر: ١ و الوساطة المذكورة من الشفاعة كما تقدم فى مباحث الشفاعة فى الجزء الأول من الكتاب.

فالملائكة جميعا شفعاء لكن لا فى كل أمر و لكل أحد بل فى أمر أذن الله فيه و لمن أذن له فنفى شفاعتهم إلا مع الإذن يناسب المشفوع لهم دون الشفعاء، فالآية فى معنى قوله تعالى: «وَ لا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضى»،: الأنبياء: ٢٨ لا فى معنى قوله:

«ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ»: يونس: ٣.

قوله تعالى: «حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» التفزيع إزالة الفزع و كشفه و ضمائر الجمع- على ما يعطيه السياق- للشفعاء و هم الملائكة.

و لازم قوله: «حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ»- و هو غاية- أن يكون هناك أمر مغيى بها و هو كون قلوبهم فى فزع ممتد فى انتظار أمر الله سبحانه حتى يرتفع بصدور الأمر منه، فالآية فى معنى قوله تعالى: «وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ- إلى أن قال- وَ الْمَلائِكَةُ وَ هُمْ

ص: 372

لا يَسْتَكْبِرُونَ يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ يَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ »: النحل: ۵۰ فالفزع هو التأثر و الانقباض من الخوف و هو المراد بسجدتهم تذللا من خوف ربهم من فوقهم.

و بذلك يظهر أن المراد بفزعهم حتى يفزع عنهم أن التذلل غشى قلوبهم و هو تذللهم من حيث إنهم أسباب و شفعاء فى نفوذ الأوامر الإلهية و وقوعه على ما صدر و كما أريد، و كشف هذا التذلل هو تلقيهم الأمر الإلهى و اشتغالهم بالعمل كأنهم بحيث لا يظهر من وجودهم إلا فعلهم و طاعتهم لله فيما أمرهم به و أنه لا واسطة بين الله سبحانه و بين الفعل إلا أمره فافهم ذلك.

و إنما نسب الفزع و التفزيع إلى قلوبهم للدلالة على أنهم ذاهلون منصرفون عن أنفسهم و عن كل شىء إلا ربهم و هم على هذه الحالة لا يشعرون بشىء غيره حتى إذا كشف الفزع عن قلوبهم عند صدور الأمر الإلهى بلا مهل و لا تخلف فليس الأمر بحيث يعطل أو يتأخر عن الوقوع، قال تعالى: «إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»: يس: ۸۲ فالمستفاد من الآية نظرا إلى هذا المعنى أنهم فى فزع حتى إذا أزيل فزعهم بصدور الأمر الإلهى.

و قوله: «قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ » يدل على أنهم طوائف كثيرون يسأل بعضهم بعضا عن الأمر الإلهى بعد صدوره و انكشاف الفزع عن قلوب السائلين.

و يتبين منه أن كشف الفزع و نزول الأمر إلى بعضهم أسبق منه إلى بعض آخر فإن لازم السؤال أن يكون المسئول عالما بما سئل عنه قبل السائل.

فلهم مراتب مختلفة و مقامات متفاوتة بعضها فوق بعض تتلقى الدانية منها الأمر الإلهى من العالية من غير تخلف و لا مهلة و هو طاعة الدانى منهم للعالى، كما يستفاد ذلك أيضا بالتدبر فى قوله تعالى: «وَ ما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ»: الصافات: ۱۶۴ و قوله فى وصف الروح الأمين: «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ»: التكوير: ۲۱.

فبينهم مطاع و مطيع و لا طاعة مع ذلك إلا لله سبحانه لأن المطاع منهم لا شأن له إلا إيصال ما وصل إليه من الأمر الإلهى إلى مطيعه الذى دونه، و يمكن أن يستفاد ذلك من توصيف القول بالحق فى قوله: «قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ» أى قال

ص: 373

القول الثابت الذى لا سبيل للبطلان و التبدل إليه.

و ما ألطف ختم الآية بقوله تعالى : «وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» أى هو العلى الذى دونه كل شى ء و الكبير الذى يصغر عنده كل شى ء فليس للملائكة المكرمين إلا تلقى قوله الحق و امتثاله و طاعته كما يريد.

فقد تحصل من الآية الكريمة أن الملائكة فزعون فى أنفسهم متذللون فى ذواتهم ذاهلون عن كل شى ء إلا عن ربهم محدقون إلى ساحة العظمة و الكبرياء فى انتظار صدور الأمر حتى يكشف عن قلوبهم الفزع، بصدور الأمر و نزوله و هم مع ذلک طوائف مختلفة ذووا مقامات متفاوتة علوا و دنوا يتوسط كل عال فى إيصال الأمر النازل إلى من ه‍و دونه.

فهم مع كونهم شفعاء و أسبابا متوسطة لا يشفعون و لا يتوسطون فى حدوث حادث من حوادث الخلق و التدبير إلا بإذن خاص من ربهم فى حدوثه فيتحملون الأمر النازل إليهم حتى يحققوه فى الكون من غير أن يستقلوا من أنفسهم فى شى ء أو يستبدوا برأى، و من كان هذا شأنه لا يشعر بشى‌ء إلا طاعة ربه فيما يأمره به كيف يكون ربا مستقلا فى أمره مفوضا إليه التدبير يعطى ما يشاء و يمنع ما يشاء؟

و فى الآية أقوال مختلفة أخر:

منها: أن ضمير «قُلُوبِهِمْ» و «قالُوا» الثانى للمشركين دون الملائكة و ضمير «قالُوا» الأول للملائكة و المعنى : حتى إذا كشف الفزع عن قلوب المشركين وقت الفزع قالت الملائكة لهم : ما ذا قال ربكم؟ قالت المشركون لهم : الحق فيعترفون بما أنكروه فى الدنيا.

و منها: أن ضمير «قُلُوبِهِمْ» للملائكة و المراد أن الملائكة الموكلين بالأعمال إذا صعدوا بأعمال العباد إلى السماء و لهم زجل و صوت عظيم خشيت الملائكة أنها الساعة فيفزعون و يخرون سجدا لله سبحانه حتى إذا كشف عن قلوبهم الفزع و علموا أنه ليس الأمر كذلک فسألوا ما ذا قال ربكم؟ قالوا: الحق.

و منها: أن الله لما بعث النبى ص بعد فترة بينه و بين عيسى (ع) لم ينزل فيها شى‌ء من الوحى أنزل الله سبحانه جبريل بالوحى فلما نزل ظنت الملائكة أنه

نزل بشى ء من أمر الساعة فصعقوا لذلک فجعل جبريل يمر بكل سماء و يكشف الفزع عن الملائكة الساكنين فيها فرفعوا رءوسهم و قال بعضهم لبعض: ما ذا قال ربكم؟ قالوا:

الحق أى الوحى.

و منها: أن الضمير للملائكة و المراد أن الله سبحانه إذا أوحى إلى بعض الملائكة غشى على الملائكة عند سماع الوحى و يصعقون و يخرون سجدا للآية العظيمة فإذا فزع عن قلوبهم سألت الملائكة ذلک الملک الذى أوحى إليه ما ذا قال ربک؟ أو سأل بعضهم بعضا ما ذا قال ربكم؟ فيعلمون أن الأمر فى غيرهم.

و أنت بعد التدبر فى الآية الكريمة و التأمل فيما قدمناه تعلم وجه الضعف فى هذه الأقوال و أن شيئا منها على تقدير صحته فى نفسه لا يصلح تفسيرا لها.

قوله تعالى: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ » إلخ، احتجاج آخر على المشركين من جهة الرزق الذى هو الملاک العمدة فى اتخاذهم الآلهة فإنهم يتعللون فى عبادتهم الآلهة بأنها ترضيهم فيوسعون لهم فى رزقهم فيسعدون بذلک.

فأمر النبى ص أن يسألهم من يرزقهم من السماوات و الأرض؟ و الجواب عنه أنه الله سبحانه لأن الرزق خلق فى نفسه و لا خالق- حتى عند المشركين- إلا الله عز اسمه لكنهم يستنكفون عن الاعتراف به بألسنتهم و إن أذعنت به قلوبهم و لذلک أمر أن ينوبهم فى الجواب فقال: «قُلِ اللَّهُ».

و قوله: «وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ»، تتمة قول النبى ص و هذا القول بعد إلقاء الحجة القاطعة و وضوح الحق فى مسألة الألوهية مبنى على سلوک طريق الإنصاف، و مفاده أن كل قول إما هدى أو ضلال لا ثالث لهما نفيا و إثباتا و نحن و أنتم على قولين مختلفين لا يجتمعان فإما أن نكون نحن على هدى و أنتم فى ضلال و إما أن تكونوا أنتم على هدى و نحن فى ضلال فانظروا بعين الإنصاف إلى ما ألقى إليكم من الحجة و ميزوا المهدى من الضال و المحق من المبطل.

و اختلاف التعبير فى قوليه : «لَعَلى هُدىً» و «فِي ضَلالٍ» بلفظة على و فى- كما قيل- للإشارة إلى أن المهتدى كأنه مستعل على منار يتطلع على السبيل و غايتها التى فيها سعادته، و الضال منغمر فى ظلمة لا يدرى أين يضع قدمه و إلى أين يسير

ص: 375

و ما ذا يراد به؟.

قوله تعالى: «قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَ لا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ » أى إن العمل و خاصة عمل الشر لا يتعدى عن عامله و لا يلحق وباله إلا به فلا يسأل عنه غيره فلا تسألون عما أجرمنا بل نحن المسئولون عنه و لا نسأل عما تعملون بل أنتم المسئولون.

و هذا تمهيد لما فى الآية التالية من حديث الجمع و الفتح فإن الطائفتين إذا اختلفا فى الأعمال خيرا و شرا كان من الواجب أن يفتح بينهما و يتميز كل من الأخرى حتى يلحق به جزاء عمله من خير أو شر أو سعادة أو شقاء و الذى يفتح و يميز هو الرب تعالى.

و فى التعبير عن عمل أنفسهم بالإجرام و فى ناحية المشركين بقوله : «تَعْمَلُونَ» و لم يقل تجرمون أخذ بحسن الأدب فى المناظرة.

قوله تعالى: «قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ هُوَ الْفَتّاحُ الْعَلِيمُ » لما كان من الواجب أن يلحق بكل من المحسن و المسيء جزاء عمله و كان لازمه التمييز بينهما بالجمع ثم الفرق كان ذلك شأن مدبر الأمر و هو الرب أمر نبيه ص أن يذكرهم أن الذى يجمع بين الجميع ثم يفتح بين هم بالحق هو الله، فهو رب هؤلاء و أولئك فإنه هو الفتاح العليم يفتح بين كل شيئين بالخلق و التدبير فيتميز بذلك الشى ء من الشى ء كما قال: «أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما »،: الأنبياء: ٣٠ و هو العليم بكل شيء.

فالآية تثبت البعث لتميىز المحسن من المسى ء أولا ثم انحصار التمييز و الجزاء فى جانبه تعالى بانحصار الربوبية فيه و يبطل بذلك ربوبية من اتخذوه من الأرباب.

و الفتاح من أسماء الله الحسنى و الفتح إيجاد الفصل بين شيئين لفائدة تترتب عليه كفتح الباب للدخول بإيجاد الفصل بين مصراعيه و الفتح بين الشيئين ليتميز كل منهما عن الآخر بذاته و صفاته و أفعاله.

قوله تعالى: «قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » أمر آخر للنبى ص أن يسألهم أن يروه آلهتهم حتى يختبر هل فيهم الصفات الضرورية للإ له المستحق للعبادة من الاستقلال بالحياة و العلم و القدرة و السمع و البصر؟ و هذا معنى قوله: «أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ» أى ألحقتموهم به شركاء له.

ص: 376

ثم ردع بنفسه و قال: كلا لا يكونون شركاء له لأنهم إما أن يروه الأصنام بما أنها معبودة لهم معدودة آلهتهم و هى أجسام ميتة خالية عن الحياة و العلم و القدرة و إما أن يروه أرباب هذه الأصنام و هم الملائكة و غيرهم بجعل الأصنام تماثيل مشيرة إليهم و هم و إن لم يخلوا عن حياة و علم و قدرة إلا أن ما لهم من صفات الكمال مفاضة عليهم من الله سب حانه لا استقلال لهم فى شيء من هذه الصفات و لا فى الأفعال المتفرعة عليها فأين الاستقلال فى التدبير الذى يدعون أنه مفوض إليهم فالوجود الواجبى بكماله اللامتناهى يمنع أن يكون فى خلقه من يشاركه فى شيء من كماله.

اللهم إلا أن يدعوا أنه شاركهم فى بعض ما له من الشئون لتدبير خلقه من غير صلاحية لهم ذاتية و هذا ينافى حكمته تعالى.

و قد أشير إلى هذه الحجة بقوله: «بَلْ هُوَ اللّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» فإن عزته تعالى- و هو منع جانبه أن يعدو إلى حريم كماله عاد لكونه لا يحد بحد- تمنع أن يشاركه فى شى ء من صفات كماله كالربوبية و الألوهية المنتهيتين إلى الذات أحد غيره هذا لو كانت الشركة عن صلاحية ذاتية من الشريك و لو كانت عن إرادة جزافية منه من غير صلاحية حقيقة من الشريك فالحكمة الإلهية تمنع ذلك.

و قد تبين بذلك أن الآية متضمنة لحجة قاطعة برهانية فأحسن التدبر فيها.

قوله تعالى: «وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلَّا کَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ » قال الراغب فی المفردات:، الکف کف الإنسان و هی ما بها يقبض و يبسط و کففته أصبت کفه، و کففته أصبته بالکف و دفعته بها و تعورف الکف بالدفع علی أی وجه کان بالکف کان أو غيرها حتی قيل : رجل مکفوف لمن قبض بصره، و قوله : وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلَّا کَافَّةً لِلنَّاسِ أی کافا لهم عن المعاصی و الهاء فيه للمبالغة کقولهم:

راوية و علامة و نسابة. انتهی.

و يؤيد هذا المعنی توصيفه (ص) بالبشير و النذير، فقوله: «بَشِيراً وَ نَذِيراً» حالان يبينان صفته لقوله: «کَافَّةً لِلنَّاسِ».

و ربما قيل: إن التقدير و ما أرسلناک إلا إرساله کافة للناس و لا يخلو من تکلف و بعد. و

ص: 377

أما کون کافة بمعنی جميعا و حالا من الناس، و المعنی : و ما أرسلناک إلا للناس جميعا فهم يمنعون عن تقدم الحال علی صاحبه المجرور.

و اعلم أن منطوق الآية و إن کان راجعا إلی النبوة و فيها انتقال من الکلام فی التوحيد إلی الکلام فی النبوة علی حد الآيات التالية، لکن فی مدلولها حجة أخری علی التوحيد و ذلک أن الرسالة من لوازم الربوبية التی شأنها تدبير الناس فی طريق سعادتهم و مسيرهم إلی غايات وجودهم فعموم رسالته (ص) و هو رسول الله تعالی لا رسول غيره دليل علی أن الربوبية منحصرة فی الله سبحانه فلو کان هناک رب غيره لجاءهم رسوله و لم يعم رسالة النبی ص أو عمتهم و احتاجوا معه إلی غيره، و هذا معنی قول علی (ع)- علی ما روی- لو کان لربک شريک لأتتک رسله.

و يؤيده ما فی ذيل الآية من قوله : «وَ لکِنَّ أَکْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ» فإن دالة انحصار الرسالة فی رسل الله علی انحصار الربوبية فی الله عز اسمه أمس بجهل الناس من کونه (ص) رسولا کافا لهم عن المعاصی بشيرا و نذيرا.

فمفاد الآية علی هذا : لا يمکنهم أن يروک شريکا له و الحال أنا لم نرسلک إلا کافا لجميع الناس بشيرا و نذيرا و لو کان لهم إله غيرنا لم يسع لنا أن نرسلک إليهم و هم عباد لإله آخر و الله أعلم.

قوله تعالی: «وَ يَقُولُونَ مَتی هذَا الْوَعْدُ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِينَ» سؤال عن وقت الجمع و الفتح و هو البعث فالآية متصلة بقوله السابق : «قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا» الآية، و هذا أيضا من شواهد ما قدمنا من المعنی لقوله: «وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلَّا کَافَّةً» و إلا کانت هذه الآية و التی بعدها متخللتين بين قوله: «وَ ما أَرْسَلْناکَ» الآية، و الآيات التالية المتعرضة لمسألة النبوة.

قوله تعالی: «قُلْ لَکُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَ لا تَسْتَقْدِمُ ونَ» أمر منه تعالی أن يجيبهم بأن لهم ميعاد يوم مقضی محتوم لا يتخلف عن الوقوع فهو واقع قطعا و لا يختلف وقت وقوعه البتة أی إن الله وعد به وعدا لا يخلفه إلا أن وقت وقوعه مستور لا يعلمه إلا الله سبحانه.

و ما قيل: إن المراد به يوم الموت غير سديد فإنهم لم يسألوا إلا عما تقدم وعده و هو يوم الجمع و الفتح و الجمع ثم الفتح من خصائص يوم القيامة دون يوم الموت.

(بحث روائى)

فى تفسير القمى، فى رواية أبى الجارود عن أبى جعفر (ع): فى قوله تعالى: «حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ- قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» و ذلک أن أهل السماوات لم يسمعوا وحيا- فيما بين أن بعث عيسى بن مريم إلى أن بعث محمد ص، فلما بعث الله جبرئيل إلى محمد- سمع أهل السماوات صوت وحى القرآن- كوقع الحديد على الصفا فصعق أهل السماوات-.

فلما فرغ عن الوحى انحدر جبرئيل- كلما مر بأهل سماء فزع عن قلوبهم يقول:

كشف عن قلوبهم، فقال بعض لبعض: ما ذا قال ربكم؟ قالوا: الحق و هو العلى الكبير:

أقول: و روى مثله من طرق أهل السنة موصولا و موقوفا عن النبى ص

و مدلول الرواية على أى حال مصداق من مصاديق الآية و لا تصلح لتفسيرها البتة.

و فى الدر المنثور، عن ابن مردويه عن ابن عباس و فى المجمع عنه قال: قال رسول الله ص: أعطيت خمسا لم يعطهن نبى قبلى. بعثت إلى الناس كافة الأحمر و الأسود- و إنما كان النبى يبعث إلى قومه، و نصرت بالرعب يرعب منى عدوى على مسيرة شهر، و أطعمت المغنم، و جعلت لى الأرض مسجدا و طهورا، و أعطيت الشفاعة فادخرتها لأمتى إلى يوم القيامة- و هى إن شاء الله نائلة من لا يشرك بالله شيئا.

أقول: و روى أيضا هذا المعنى عن ابن المنذر عن أبى هريرة عنه (ص).

و الرواية معارضة لما ورد مستفيضا أن نوحا كان مبعوثا إلى الناس كافة و ذكر فى بعضها إبراهيم (ع) و فى بعضها أن أولى العزم كلهم مبعوثون إلى الدنيا كافة، و تخالف أيضا عموم الشفاعة للأنبياء المستفاد من عدة من الروايات و قد قال تعالى:

«وَ لا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ»: الزخرف:

٨٦ و قد شهد القرآن بأن المسيح (ع) من الشهداء قال تعالى: «وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً»: النساء: ١٥٩.

و الروايات من طرق العامة و الخاصة كثيرة فى عموم رسالته للناس كافة و ظاهر كثير منها أخذ «كَافَّةً» فى قوله تعالى: «وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ» حالا من «لِلنَّاسِ» قدم عليه و يمنعه البصريون من النحاة و يجوزه الكوفيون.

[سورة سبإ (٣۴): الآيات ٣١ الى ۵۴]

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَ لا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَ نَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَ قالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَ جَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٣۴) وَ قالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣۵)

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣۶) وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَ هُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَ الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَ هؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ (۴٠)

قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (۴١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (۴٢) وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَ قالُوا ما هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (۴٣) وَ ما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (۴۴) وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (۴۵)

قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَ فُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (۴۶) قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۴٧) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (۴٨) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ (۴٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (۵٠)

وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (۵١) وَ قالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (۵٢) وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (۵٣) وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (۵۴)

(بيان)

فصل آخر من آيات السورة تتكلم فی أمر النبوة و ما يرجع إليها و ما يقول المشركون فيها و تتخلص فی خلالها بما يجری عليهم يوم الموت أو يوم القيامة، و قد اتصلت بقوله فی الفصل السابق : «وَ ما أَرْسَلْناکَ إِلَّا کَافَّةً لِلنَّاسِ» الآية، و قد عرفت أن الآية كالبرزخ بين الفصلين تذكر الرسالة و تجعلها دليلا على التوحيد.

قوله تعالى: «وَ قالَ الَّذِينَ کَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَ لا بِالَّذِی بَيْنَ يَدَيْهِ» المراد بالذين كفروا المشركون و المراد بالذی بين يديه الكتب السماوية من التوراة و الإنجيل و ذلك أن المشركين و هم الوثنيون ليسوا قائلين بالنبوة و يتبعها الكتاب السماوی.

و قول بعضهم: إن المراد بالذی بين يديه هو أمر الآخرة مما لا دليل يساعده، و قد أكثر القرآن الكريم من التعبير عن التوراة و الإنجيل بالذی بين يديه، و من الخطإ قول بعضهم: إن المراد بالذين كفروا هم اليهود.

ص: 382

قوله تعالى: «وَ لَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ» إلخ، الظاهر أن اللام فی «الظَّالِمُونَ» للعهد، و هذه الآية و الآيتان بعدها تشير إلى أن وبال هذا الكفر- و أساسه ضلال أئمة الكفر و إضلالهم تابعيهم- سيلحق بهم و سيندمون عليه و لن ينفعهم الندم.

فقوله: «وَ لَوْ تَرى» خطاب للنبی ص إذ هم بمعزل عن فهم الخطاب «إِذِ الظَّالِمُونَ» و هم الكافرون بكتب الله و رسله، الذين ظلموا أنفسهم بالكفر «مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ» للحساب و الجزاء يوم القيامة «يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ» أی يتحاورون و يتراجعون فی الكلام متخاصمين «يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا» بيان لرجوع بعضهم إلى بعض فی القول و المستضعفون الأتباع الذين استضعفتهم المتبوعون «لِلَّذِينَ اسْتَکْبَرُوا» و هم الأئمة القادة «لَوْ لا أَنْتُمْ لَکُنَّا مُؤْمِنِينَ» يريدون أنكم أجبرتمو نا على الكفر و حلتم بيننا و بين الإيمان.

«قالَ الَّذِينَ اسْتَکْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا» جوابا عن قولهم و ردا لما اتهموهم به من الإجبار و الإكراه «أَ نَحْنُ صَدَدْناکُمْ» الاستفهام للإنكار أی أ نحن صرفناكم «عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَکُمْ» فبلوغه إليكم بالدعوة النبوية أقوى الدليل على أنا لم نحل بينه و بينكم و كنتم مختارين فی الإيمان به و الكفر «بَلْ کُنْتُمْ مُجْرِمِينَ» متلبسين بالإجرام مستمرين عليه فأجرمتم بالكفر به لما جاءكم من غير أن نجبركم عليه فكفركم منكم و نحن برآء منه.

«وَ قالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَکْبَرُوا» ردا لقولهم و دعواهم البراءة «بَلْ مَکْرُ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ» أی مكركم بالليل و النهار حملنا على الكفر «إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَکْفُرَ بِاللَّهِ وَ نَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً» و أمثالا من الآلهة أی أنكم لم تزالوا فی الدنيا تمكرون الليل و النهار و تخطون الخطط لتستضعفونا و تتآمروا علينا فتحملونا على طاعتكم فيما تريدون، فلم نشعر إلا و نحن مضطرون على الائتمار بأمركم إذ تأمروننا بالكفر و الشرك.

«وَ أَسَرُّوا» و أخفوا «النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ» و شاهدوا أن لا مناص، و إخفاؤهم الندامة يوم القيامة- و هو يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء- نظير كذبهم على الله و إنكارهم الشرك بالله و حلفهم لله كان بين كل ذلك من قبيل ظهور

ص: 383

ملكاتهم الرذيلة التى رسخت فى نفوسهم فقد كانوا يسرون الندامة فى الدنيا خوفا من شماتة الأعداء و كذلک يفعلون يوم القيامة مع ظهور ما أسروا و اليوم يوم تبلى السرائر كما يكذبون بمقتضى ملكة الكذب مع ظهور أنهم كاذبون فى قولهم.

ثم ذكر سبحانه أخذهم للعذاب فقال : «وَ جَعَلْنَا الْأَغْلالَ» السلاسل «فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ» فصارت أعمالهم أغلالا فى أعناقهم تحبسهم فى العذاب.

قوله تعالى: «وَ ما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ » المترفون اسم مفعول من الإتراف و هو الزيادة فى التنعيم، و فيه إشعار بأن الإتراف يفضى إلى الاستكبار على الحق كما تفيده الآية اللاحقة.

قوله تعالى: «وَ قالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» ضمير الجمع للمترفين، و من شأن الإتراف و الترفه و التقلب فى نعم الدنيا أن يتعلق قلب الإنسان بها و يستعظمها فيرى السعادة فيها سواء وافق الحق أم خالفه فلا يذكر إلا ظاهر الحياة و ينسى ما وراءه.

و لذا حكى سبحانه عنهم ذلک إذ قالوا: «نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً» فلا سعادة إلا فيها و لا شقوة معها «وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» فى آخرة، و لم ينفوا العذاب إلا للغفلة و الانصراف عما وراء كثرة الأموال و الأولاد فإذ كانت هى السعادة و الفلاح فحسب فالعذاب فى فقدها و لا عذاب معها.

و هاهنا وجه آخر و هو أنهم لغرورهم بما رزقوا به من المال و الولد ظنوا أن لهم كرامة على الله سبحانه و هم عل ى كرامتهم عليهم ما داموا، و المعنى: أنا ذوو كرامة على الله بما أوتينا من كثرة الأموال و الأولاد و نحن على كرامتنا فما نحن بمعذبين لو كان هناک عذاب.

فتكون الآية فى معنى قوله : «وَ لَئِنْ أَذَقْناهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هذا لِي وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى» حم السجدة: ٥٠ قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَ يَقْدِرُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

ص: 384

لا يَعْلَمُونَ» الآية و ما يتلوها إلى تمام أربع آيات جواب عن قولهم : «نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا» إلخ، و قد أجيب عنه بوجهين أحدهما أن أمر الرزق من الأموال و الأولاد سعة و ضيقا بيد الله على ما تستدعيه الحكمة و المصلحة و هيأ من الأسباب لا بمشية الإنسان و لا لكرامة له على الله فربما بسط فى رزق مؤمن أو كافر أو عاقل ذى حزم أو أحمق خفيف العقل، و ربما بسط على واحد ثم قدر له. فلا دلالة فى الإتراف على سعادة أو كرامة.

و هذا معنى قوله: «قُلْ إِنَّ رَبِّی» نسبه إلى نفسه لأنهم لم یكونوا یرون الله ربا لأنفسهم و الرزق من شئون الربوبیة «یَبْسُطُ» أی یوسع «الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ» من عباده بحسب الحكمة و المصلحة «وَ یَقْدِرُ» أی یضیق «وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا یَعْلَمُونَ» فینسبونه ما لم یؤتوه إلى الأسباب الظاهریة الاتفاقیة ثم إذا أوتوه نسبوه إلى حزمهم و حسن تدبیرهم أنفسهم و كفى به دلیلا على الحمق.

قوله تعالى: «وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِی تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى» إلى آخر الآیتین هذا هو الجواب الثانی عن قولهم: «نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلاداً وَ ما نَحْنُ بِمُعَذَّبِینَ» و محصله أن انتفاء العذاب المترتب على القرب من الله لا یترتب على الأموال و الأولاد إذ لا توجب الأموال و الأولاد قربا و زلفى من الله حتى ینتفی معها العذاب الإلهی فوضع تقریب المال فی الآیة موضع انتفاء العذاب من قبیل وضع السبب موضع المسبب.

و هذا معنى قوله: «وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ» التی تعتمدون علیها فی السعادة و انتفاء عذاب الله «بِالَّتِی» أی بالجماعة التی «تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى» أی تقریبا.

«إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً» فی ماله و ولده بأن أنفق من أمواله فی سبیل الله و بث الإیمان و العمل الصالح فی أو لاده بتربیة دینیة «فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ» لعله من إضافة الموصوف إلى الصفة أی الجزاء المضاعف من جهة أنهم اهتدوا و هدوا و أیضا من جهة تضعیف الحسنات إلى عشر أضعافها و زیادة «وَ هُمْ فِی الْغُرُفاتِ» أی فی القباب العالیة «آمِنُونَ» من العذاب فما هم بمعذبین.

«وَ الَّذِینَ یَسْعَوْنَ فِی آیاتِنا مُعاجِزِینَ» أی یجدون فی آیاتنا و هم یریدون أن یعجزونا- أو أن یسبقونا- «أُولئِكَ فِی الْعَذابِ مُحْضَرُونَ» و إن كثرت أموالهم و أولادهم.

ص: 385

و فی قوله: «وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ» إلخ، انتقال إلى خطاب عامة الناس من الكفار و غیرهم و الوجه فیه أن ما ذكره من الحكم حكم الأموال و الأولاد سواء فی ذلك المؤمن و الكافر فالمال و الولد إنما یؤثران أثرهما الجمیل إذا كان هناك إیمان و عمل صالح فیهما و إلا فلا یزیدان إلا وبالا.

قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ رَبِّی یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ یَقْدِرُ لَهُ وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْ ءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ» قال فی مجمع البیان،: یقال: أخلف الله له و علیه إذا أبدل له ما ذهب عنه. انتهى.

سیاق الآیة یدل على أ ن المراد بالإنفاق فیها الإنفاق فی وجوه البر و المراد بیان أن هذا النحو من الإنفاق لا یضیع عند الله بل یخلفه و یرزق بدله.

فقوله فی صدر الآیة: «قُلْ إِنَّ رَبِّی یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ یَقْدِرُ» للإشارة إلى أن أمر الرزق فی سعته و ضیقه إلى الله سبحانه لا ینقص بالإنفاق و لا یزید بالإمساك ثم قال: «وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْ ءٍ» قلیلا كان أو كثیرا و أیا ما كان من المال

«فَهُوَ يُخْلِفُهُ» و يرزقكم بدله إما فى الدنيا و إما فى الآخرة «وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » فإنه يرزق جودا و رزق غيره معاملة فى الحقيقة و معاوضة، و لأنه الرازق فى الحقيقة و غيره ممن يسمى رازقا واسطة لوصول الرزق.

قوله تعالى: «وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَ هؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ » المراد بهم جميعا بشهادة السياق العابدون و المعبودون جميعا.

و قوله: «ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَ هؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ » ليس سؤال استخبار عن أصل عبادتهم لهم و لو كان كذلك لم يسعهم إنكارها لأنهم عبدوهم فى الدنيا و قد أنكروها كما فى الآية بل المراد السؤال عن رضاهم بعبادتهم على حد قوله تعالى لعيسى بن مريم: «أَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

و الغرض من السؤال تبكيت المشركين و إقناطهم من نصرة الملائكة و شفاعتهم لهم و قد عبدوهم فى الدنيا لذلك.

ص: 386

قوله تعالى: «قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » أخذت الملائكة فى جوابهم عن سؤاله تعالى بجوامع الأدب فنزهوه سبحانه أولا تنزيها مطلقا فيه تنزيهه من أن يعبدوا من دونه ثم نفوا رضاهم بعبادة المشركين لهم لكن لا بالتصريح بنفى الرضا بالعبادة و لا بالتفوه بعبادتهم صونا لساحة المخاطبة عما يقرع السمع بذلك، و لو تصوروا لا تصديقا بل أجابوا بقصر ولايتهم فيه تعالى و نفيها عنهم ليدل على نفى الرضا بعبادتهم لهم على طريق الكناية فإن الرضا بعبادتهم لازمه الموالاة بينهم، و الموالاة بينهم تنافى قصر الولاية فى الله سبحانه فإذا انحصرت الولاية فيه تعالى لم تكن موالاة و إذا لم تكن موالاة لم يكن رضا.

ثم قالوا على ما حكاه الله سبحانه : «بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ » و الجن هم الطائفة الثانية من الطوائف الثلاث التى يعبدهم الوثنيون و هم الملائكة و الجن و القديسون من البشر، و الأقدم فى استحقاق العبادة عندهم هم الطائفتان الأوليان و الطائفة الثالثة ملحقة بهما بعد الكمال و إن كانوا أفضل منهما.

و الإضراب فى قولهم: «بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَ» يدل على أن الجن كانوا على رضى من عبادتهم لهم.

و هؤلاء من الجن هم الذين يعدهم الوثنيون مبادئ الشرور فى العالم فيعبدونهم اتقاء من شرورهم كما يعبدون الملائكة طمعا فى خيراتهم لما أنهم مباد للخيرات لا كما قيل : إن المراد بالجن إبليس و ذريته و قبيله و معنى عبادت هم لهم طاعتهم فيما دعوهم إليه من عبادة الملائكة أو مطلق المعاصى، و يرده ما وقع فى الآية من التعبير بلفظ الإيمان دون الطاعة و لا ما قيل : إنهم كانوا يتمثلون لهم و يخيلون لهم أنهم الملائكة فيعبدونهم و لا ما قيل : إنهم كانوا يدخلون أجواف الأصنام إذا عبدت فيعبدون بعبادتها.

و لعل الوجه فى نسبة الإيمان بهم إلى أكثرهم دون جميعهم أن أكثرهم يعبدون الآلهة اتقاء من طروق الشر من قبلهم، و مبادئ الشر عندهم مطلقا الجن لا كما قيل: إن المراد بالأكثر الكل، و هو مبنى على تفسير العبادة بمعنى الطاعة و قد عرفت ما فيه.

قوله تعالى: «فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَ لا ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا

ص: 387

ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ » نوع تفريع على تبرى الملائكة منهم و قد بين تبرى عامة المتبوعين من تابعيهم و التابعين من متبوعيهم فى مواضع كقوله تعالى : «وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ».: فاطر: ١۴ و قوله: «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَ يَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً»: العنكبوت: ٢۵. و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: «وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ » إلخ، خطابهم هذا لعامتهم بعد استماع الآيات تنبيه لهم على الجد فى التمسك بدين آبائهم و تحريض لهم عليه (ص)، و فى توصيف الآيات بالبينات نوع عتبى كأنه قيل: إذا تتلى عليهم هذه الآيات و هى بينة لا ريب فيها فبدلا من أن يدعوا عامتهم إلى اتباعها حثوهم على الإصرار على تقليد آبائهم و حرضوهم عليه- و فى إضافة الآباء إلى ضمير «يَصُدَّكُمْ» مبالغة فى التحريض و الإثارة.

و قوله: «وَ قالُوا ما هذا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرىً» معطوف على «قالُوا» أى و قالوا مشيرا إلى الآيات البينات إشارة تحقير ليس هذا إلا كلاما مصروفا عن وجهه مكذوبا به على الله، بدلا من أن يقولوا : إنها آيات بينات نازلة من عند الله تعالى- و قد أشاروا إلى الآيات البينات بهذا دلالة على أنهم لم يفهموا منها إلا أنها شى ء ما لا أزيد من ذلك.

ثم غير سبحانه السياق و قال: «وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » و مجى ء الحق لهم بلوغه و ظهوره لهم، و الأخذ بوصف الكفر للإشعار بالتعليل و المعنى: و الذين كفروا بعثهم الكفو إلى أن يقولوا للحق الصريح الذى بلغهم و ظهر لهم هذا سحر ظاهر سحريته و بطلانه.

و أكد إصرارهم على دحض الحق باتباع الهوى من غير دليل يدل عليه بقوله:

«وَ ما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَ ما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ » و الجملة حالية أى و عد الذين كفروا- أى كفار قريش- الحق الصريح الظاهر لهم سحرا مبينا و الحال أنا لم نعطهم كتبا يدرسونها حتى يميزوا بها الحق من الباطل و لم نرسل إليهم قبلك من رسول ينذرهم و يبين لهم ذلک فيقولوا استنادا إلى الكتاب الإلهى أو إلى قول الرسول النذير: إنه حق أو باطل.

ص: 388

قوله تعالى: «وَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ ما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ » ضميرا الجمع الأول و الثانى لكفار قريش و من يتلوهم و الثالث و الرابع للذين من قبلهم، و المعشار العشر و النكير الإنكار، و المراد به فى الآية لازمه و هو الأخذ بالعذاب.

و المعنى: و كذب بالحق من الآيات الذين كانوا من قبل كفار قريش من الأمم الماضية و لم يبلغ كفار قريش عشر ما آتيناهم من القوة و الشدة فكذب أولئك الأقوام رسلى فكيف كان أخذى بالعذاب و ما أهو ن أمر قريش. و الالتفات فى الآية إلى التكلم لاستعظام الجرم و تهويل المؤاخذة.

قوله تعالى: «قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَ فُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ » المراد بالموعظة الوصية كناية أو تضمينا، و قوله: «أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ » أى تنهضوا لأجل الله و لوجهه الكريم، و قوله : «مَثْنى وَ فُرادى » أى اثنين اثنين و واحدا واحدا كناية عن التفرق و تجنب التجمع و الغوغاء فإن الغوغاء لا شعور لها و لا فكر و كثيرا ما تميت الحق و تحيى الباطل.

و قوله: «ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ» استئناف «إِنَّما» نافية و يشهد بذلك قوله بعد:

«إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ» و يمكن أن يكون «إِنَّما» استفهامية أو موصولة و «مِنْ جِنَّةٍ» بيانا له.

و المراد بصاحبكم النبى ص نفسه و الوجه فى التعبير به تذ كرتهم بصحبته الممتدة لهم أربعين سنة من حين ولادته إلى حين بعثته ليتذكروا أنهم لم يعهدوا منه اختلالا فى فكر أو خفة فى رأى أو أى شىء يوهم أن به جنونا.

و المعنى: قل لهم: إنما أوصيكم بالعظة أن تنهضوا و تنتصبوا لوجه الله متفرقين حتى يصفو فكركم و يستقيم رأيكم ا ثنين اثنين و واحدا واحدا و تتفكروا فى أمرى فقد صاحبتكم طول عمرى على سداد من الرأى و صدق و أمانة ليس فى من جنة . ما أنا إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد فى يوم القيامة فأنا ناصح لكم غير خائن.

قوله تعالى: «قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ » إلخ، كناية عن عدم سؤال أجر على الدعوة فإنه إذا وهبهم كما سألهم من أجر فليس له عليهم أجر مسئول

ص: 389

و لازمه أن لا يسألهم و هذا تطييب لنفوسهم أن لا يتهموه بأنه جعل الدعوة ذريعة إلى نيل مال أو جاه.

ثم تمم القول بقوله : «إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» لئلا يرد عليه قوله بأنه دعوى غير مسموعة فإن الإنسان لا يروم عملا بغير غاية فدفعه بأن لعملى أجرا لكنه على الله لا عليكم و هو يشهد عملى و هو على كل شىء شهيد.

قوله تعالى: «قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» القذف الرمى، و قوله:

«عَلَّامُ الْغُيُوبِ» خبر بعد خبر أو خبر لمبتدء محذوف و هو الضمير الراجع إليه تعالى.

و مقتضى سياق الآيات السابقة أن المراد بالحق المقذوف القرآن النازل إليه بالوحى من عنده تعالى الذى هو قول فصل يحق الحق و يبطل الباطل فهو الحق المقذوف إليه (ص) من عند علام الغيوب فيدمغ الباطل و يزهقه، قال تعالى : «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ»: الأنبياء: ١٨ و قال: «قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ زَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ زَهُوقاً»: إسراء: ٨١.

قوله تعالى: «قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ » المراد بمجى ء الحق على ما تهدى إليه الآية السابقة نزول القرآن المبطل بحججه القاطعة و براهينه الساطعة لكل باطل من أصله.

و قوله: «وَ ما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَ ما يُعِيدُ » أى ما يظهر أمرا ابتدائيا جديدا بعد مجى ء الحق و ما يعيد أمرا كان قد أظهره من قبل إظهارا ثانيا بنحو الإعادة فهو كناية عن بطلان الباطل و سقوطه عن الأثر من أصله بالحق الذى هو القرآن.

قوله تعالى: «قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ» بيان لأثر الحق الذى هو الوحى فإنه عرفه حقا مطلقا فالحق إذا كان حقا من كل جهة لم يخطئ فى إصابة الواقع فى جهة من الجهات و إلا كان باطلا من تلك الجهة فالوحى يهدى و لا يخطئ البتة.

و لذا قال تأكيدا لما تقدم : «قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ» و فرض منى ضلال «فَإِنَّما أَضِلُّ» مستقرا ذلك الضلال «عَلى نَفْسِي» فإن للإنسان من نفسه أن يضل «وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي» فوحيه حق لا يحتمل ضلالا و لا يؤثر إلا الهدى.

ص: 390

و قد علل الكلام بقوله: «إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ» للدلالة على أنه يسمع الدعوة و لا يحجبه عنها حاجب البعد و قد مهد له قبلا وصفه تعالى فى قذف الحق بأنه علام الغيوب فلا يغيب عنه أمر يخل بأمره و يمنع نفوذ مشيته هداية الناس بالوحى قال تعالى : «عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَداً لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَ أَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَ أَحْصى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً»: الجن: ٢٨.

قوله تعالى: «وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ» ظاهر السياق السابق و يشعر به قوله الآتى: «وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ» أن الآيات الأربع وصف حال مشركى قريش و من يلحق بهم حال الموت.

فقوله: «وَ لَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا» أى حين فزع هؤلاء المشركون عند الموت «فَلا فَوْتَ» أى لا يفوتون الله بهرب أو تحصن أو أى حائل آخر.

و قوله: «وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ » كناية عن عدم فصل بينهم و بين من يأخذهم و قد عبر بقوله : «أُخِذُوا» مبنيا للمفعول ليستند الأخذ إليه سبحانه، و قد وصف نفسه بأنه قريب، و كشف عن معنى قربه بقوله : «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَ لكِنْ لا تُبْصِرُونَ»: الواقعة: ٨٥ و أزيد منه فى قوله : «مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ »: ق: ١٦ و أزيد منه فى قوله : «أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ»: الأنفال: ٢٤ فبين أنه أقرب إلى الإنسان من نفسه و هذا الموقف هو المرصاد الذى ذكره فى قوله : «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ»: الفجر:

۱۴ فكيف يتصور فوت الإنسان منه و هو أقرب إليه من نفسه؟ أو من ملائكته المكرمين الذين يأخذون الأمر منه تعالى من غير حاجب يحجبهم عنه أو واسط يتوسط بينه و بينهم.

فقوله: «وَ أُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ» نوع تمثيل لقربه تعالى من الإنسان بحسب ما نتصوره من معنى القرب لاحتباسنا فى سجن الزمان و المكان و أنسنا بالأمور المادية و إلا فالأمر أعظم من ذلك.

قوله تعالى: «وَ قالُوا آمَنَّا بِهِ وَ أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ» التناوش التناول و ضمير «بِهِ» للقرآن على ما يعطيه السياق.

و المراد بكونهم فى مكان بعيد أنهم فى عالم الآخرة و هى دار تعين الجزاء و هى

ص: 391

أبعد ما يكون من عالم الدنيا التى هى دار العمل و موطن الاكتساب بالاختيار و قد تبدل الغيب شهادة لهم و الشهادة غيبا كما تشير إليه الآية التالية.

قوله تعالى: «وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ» حال من الضمير فى «وَ أَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ» و المراد بقوله: «وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ» رميهم عالم الآخرة و هم فى الدنيا بالظنون مع عدم علمهم به و كونه غائبا عن حواسهم إذ كانوا يقولون: لا بعث و لا جنة و لا نار، و قيل: المراد به رميهم النبى ص بالسحر و الكذب و الافتراء و الشعر.

و العناية فى إطلاق المكان البعيد على الدنيا بالنسبة إلى الآخرة نظيره إطلاقه على الآخرة بالنسبة إلى الدنيا و قد تقدمت الإشارة إليه.

و معنى الآيتين: و قال المشركون حينما أخذوا آمنا بالحق الذى هو القرآن و أنى لهم تناول الإيمان به- إيمانا يفيد النجاة- من مكان بعيد و هو الآخرة و الحال أنهم كفروا به من قبل فى الدنيا و هم ينفون أمور الآخرة بالظنون و الأوهام من مكان بعيد و هو الدنيا.

قوله تعالى: «وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ» ظاهر السياق أن المراد بما يشتهون اللذائذ المادية الدنيوية التى يحال بينهم و بينها بالموت، و المراد بأشياعهم من قبل أشباههم من الأمم الماضية أو موافقوهم فى المذهب، و قوله: «إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ» تعليل لقوله: «كَما فُعِلَ» إلخ.

و المعنى: و وقعت الحيلولة بين المشركين المأخوذين و بين ما يشتهون من ملاذ الدنيا كما فعل ذلك بأشباههم من مشركى الأمم الدارجة من قبلهم إنهم كانوا فى شك مريب من الحق أو من الآخرة فيقذفونها بالغيب.

و اعلم أن ما قدمناه من الكلام فی هذه الآیات الأ ربع مبنی علی ما یعطیه ظاهر السیاق و قد استفاضت الروایات من طرق الشیعة و أهل السنة أن الآیات ناظرة إلی خسف جیش السفیانی بالبیداء و هو من علائم ظهور المهدی (ع) المتصلة به فعلی تقدیر نزول الآیات فی ذلک یکون ما قدمناه من المعنی من باب جری الآیات فیه.

ص: 392

(بحث روائی)

فی تفسیر القمی،": فی قوله تعالی: «وَ أَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ» قال:

یسرون الندامة فی النار إذا رأوا ولی الله- فقیل: یا بن رسول الله- و ما یغنیهم أسرارهم الندامة و هم فی العذاب؟ قال : یکرهون شماتة الأعداء".:.

أقول: و رواه أیضا عن أبی عبد الله (ع).

و فیه،: و ذکر رجل عند أبی عبد الله (ع) الأغنیاء و وقع فیهم- فقال أبو عبد الله (ع): اسکت- فإن الغنی إذا کان وصولا لرحمه بارا بإخوانه- أضعف الله له الأجر ضعفین لأن الله یقول : «وَ ما أَمْوالُکُمْ وَ لا أَوْلادُکُمْ بِالَّتِی تُقَرِّبُکُمْ عِنْدَنا زُلْفی - إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً- فَأُولئِکَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا- وَ هُمْ فِی الْغُرُفاتِ آمِنُونَ».

و فی أمالی الشیخ، بإسناده إلی أمیر المؤمنین (ع) فی حدیث یقول فیه: حتی إذا کان یوم القیامة حسب لهم- ثم أعطاهم بکل واحدة عشر أمثالها إلی سبعمائة ضعف قال الله عز و جل: «جَزاءً مِنْ رَبِّکَ عَطاءً حِساباً» و قال: «فَأُولئِکَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا- وَ هُمْ فِی الْغُرُفاتِ آمِنُونَ».

و فی الکافی، بإسناده عن السکونی عن أبی عبد الله (ع) قال: قال رسول الله ص: من صدق بالخلف جاد بالعطیة.

و فیه، بإسناده عن سماعة عن أبی الحسن (ع) قال: قال رسول الله ص: من أیقن بالخلف سخت نفسه بالنفقة.

و فی الدر المنثور، أخرج ابن مردویه عن علی بن أبی طالب سمعت رسول الله ص یقول : إن لکل یوم نحسا فادفعوا نحس ذلک الیوم بالصدقة، ثم قال: اقرءوا مواضع الخلف فإنی سمعت الله یقول : «وَ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَیْ ءٍ فَهُوَ یُخْلِفُهُ» إذا لم ینفقوا کیف یخلف؟

و فی تفسیر القمی، فی روایة أبی الجارود عن أبی جعفر (ع): فی قوله تعالی:

«قُلْ ما سَأَلْتُکُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَکُمْ» و ذلک أن رسول الله ص سأل قومه- أن یودوا أقاربه و لا یؤذوهم. و أما قوله: «فَهُوَ لَکُمْ» یقول: ثوابه لکم.

ص: 393

و فی الدر المنثور، : فی قوله تعالی: «وَ لَوْ تَری إِذْ فَزِعُوا» الآیهٔ،: أخرج الحاکم و صححه عن أبی هریرهٔ قال : قال رسول الله ص: یخرج رجل یقال له السفیانی فی عمق دمشق- و عامهٔ من یتبعه من کلب فیقتل حتی یبقر بطون النساء- و یقتل الصبیان فیجمع لهم قیس فیقتلها حتی لا یمنع ذنب تلعهٔ- و یخرج رجل من أهل بیتی فیبلغ السفیانی فیبعث إلیه جندا من جنده- فیهزمهم فیسیر إلیه السفیانی بمن معه- حتی إذا صار ببیداء من الأرض خسف بهم- فلا ینجو منهم إلا المخبر منهم.

أقول: و الروایهٔ مستفیضهٔ من طرق أهل السنهٔ مختصرهٔ أو مفصلهٔ و قد رووها من طرق مختلفهٔ عن ابن عباس و ابن مسعود و حذیفهٔ و أبی هریرهٔ و جد عمرو بن شعیب و أم سلمهٔ و صفیهٔ و عائشهٔ و حفصهٔ أزواج النبی ص و نف یرهٔ امرأهٔ القعقاع عن سعید بن جبیر موقوفا.

و فی تفسیر القمی، : فی قوله تعالی: «وَ لَوْ تَری إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ »: حدثنی أبی عن ابن أبی عمیر عن منصور بن یونس عن أبی خالد الکابلی قال: قال أبو جعفر (ع): و الله لکأنی أنظر إلی القائم (ع)- و قد أسند ظهره إلی الحجر ثم ینشد الله حقه- ثم یقول: یا أیها الناس- من یحاجنی فی الله. فأنا أولی بالله- أیها الناس من یحاجنی بآدم فأنا أولی بآدم. أیها الناس من یحاجنی فی نوح فأنا أولی بنوح. أیها الناس من یحاجنی بإبراهیم فأنا أولی بإبراهیم. أیها الناس من یحاجنی بموسی فأنا أولی بموسی. أیها الناس من یحاجنی بعیسی فأنا أولی بعیسی . أیها الناس من یحاجنی بمحمد فأنا أولی بمحمد . أیها الناس من یحاجنی بکتاب الله فأنا أولی بکتاب الله-.

ثم ینتهی إلی المقام فیصلی رکعتین و ینشد الله حقه. ثم قال أبو جعفر (ع):

هو و الله المضطر فی کتاب الله- فی قوله: «أَمَّنْ یُجِیبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَ یَکْشِفُ السُّوءَ وَ یَجْعَلُکُمْ خُلَفاءَ الْأَرْضِ».

فیکون أول من یبایعه جبرئیل ثم الثلاثمائهٔ و الثلاثهٔ عشر- فمن کان ابتلی بالمسیر وافی و من لم یبتل بالمسیر فقد عن فراشه- و هو قول أمیر المؤمنین (ع): هم المفقودون عن فرشهم و ذلک قول الله : «فَاسْتَبِقُوا الْخَیْراتِ أَیْنَ ما تَکُونُوا یَأْتِ بِکُمُ اللَّهُ جَمِیعاً» قال:

الخیرات الولایهٔ، و قال فی موضع آخر: «وَ لَئِنْ أَخَّرْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِلی أُمَّهٍ مَعْدُودَهٍ»

ص: 394

و هم أصحاب القائم (ع) یجتمعون و الله إلیه فی ساعهٔ واحدهٔ.

فإذا جاء إلی البیداء یخرج إلیه جیش السفیانی- فیأمر الله عز و جل الأرض فیأخذ بأقدامهم- و هو قوله عز و جل : «وَ لَوْ تَری إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ- وَ أُخِذُوا مِنْ مَکانٍ قَرِیبٍ وَ قالُوا آمَنَّا بِهِ » یعنی بالقائم من آل محمد (ع) «وَ أَنَّی لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ

مَكانٍ بَعِيدٍ وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ » يعنى أن لا يعذبوا «كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ» يعنى من كان قبلهم من المكذبين هلكوا «مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ».

- تم و الحمد لله -.

ص: 395